

أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم

ترجمة حقيقية لأكثر من ١٠٠ صحابي

جمع وترتيب

محمود المصري

(أبو عمار)

طبعة جديدة وبها إضافات

قدم له فضيلة الشيخ أبو إسحق الحويني

فضيلة الشيخ محمد حسان فضيلة الشيخ محمد عبد المقصود

فضيلة الشيخ زكي محمد أبو سريع فضيلة الدكتور سيد حسين العفاني



درب الأتراك خلف جامع الأزهر القاهرة
ت/ ٠٠٢٠٢ ٢٩٨٩٤٢٩-٠٠٢٠٢ ٢٣١٠٥٠٥-٥١٤٤٠٨٦



الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مكتبة أبو بكر الصديق

٢٠ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٥١٤٤٠٨٦ - محمول: ٠١٠١٢٢١٧٧٤

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٣٠٤٩

عبد الله بن عمرو بن حرام

الملائكة تظله بأجنحتها وربه يكلمه بغير حجاب !!!!

هنيئًا لمن اكتحلت عيناه برؤية هذا الجمع المبارك من أصحاب النبى ﷺ... إنه مجتمع لا يتكرر عبر الزمان.

أسلم أفراده بل واستسلموا لله ـ جل وعلا ـ فسخَّر الله لهم الكون كله وجعل الكون بما فيه من الإنس والجن والملائكة والدواب والأشجار والأحجار يتفاعلون جميعًا مع النبى ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

وها نحن من خلال تلك السطور نتعايش مع واحد من هؤلاء الصحب الكرام.. إنه عبد الله بن عمرو ابن حرام ـ والد جابر بن عبد الله ـ (رضى الله عنهما).

أحد النقباء الذين بايعوا ليلة العقبة وشهد بدرًا واستشهد يوم أُحد.

موعد مع السعادة الأبدية

إن الإنسان لا يدرى متى تأتيه الهداية من عند الله.. ولا يدرى كيف تأتيه. ولكن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء.

ها هو (عبد الله بن عمرو بن حرام) يشغل وقته فى عبادة الأصنام مع صديقه (عمرو ابن الجموح) وإذا بنفرٍ من حُجاج يثرب يقدمون من مكة وقد أسلموا وأخذوا يحدثون الناس عن الحبيب ﷺ وعن هذا الدين العظيم الذى لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق والآداب وبصلة الأرحام.

ولكن (عبد الله) لم ينشغل بهذا الأمر ولم يُلق له بالاً.

وبعد مرور سنة بأكملها وإذا باثنى عشر رجلاً من أهل يثرب قد أقبلوا من عند الحبيب ﷺ بعد أن أعلنوا إسلامهم ولكنهم جاءوا هذه المرة ومعهم سفير الإسلام الأول (الداعية اللبيب) مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ الذى قام بالدعوة إلى الله ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ ففتح الله به القلوب وأنار به العقول وشرح به الصدور



فأسلم عدد كبير من أشراف القوم، بل ومن فتيانهم على يديه، وكان من بين هؤلاء الذين أسلموا (جابر بن عبد الله) وهو ابن (عبد الله بن عمرو بن حرام).

وتمر الأيام ولم يشرح الله صدر (عبد الله) إلى الإسلام بعد. وعندما اقترب موسم الحج وأراد المسلمون فى يثرب أن يذهبوا إلى الحبيب فى مكة لمبايعته ـ بيعة العقبة الثانية ـ كان (عبد الله) على موعدٍ مع السعادة فى الدنيا والآخرة.

لقد خرج مع حُجاج يثرب ولم يكن قد أسلم بعد.

لم يعلم (عبد الله) أنه بعد بضع ساعات سيدخل التاريخ من أعظم أبوابه، بل إن الله سيمنحه نعمة الشهادة فى سبيله وفوق ذلك كله فإن الملائكة سوف تُظله بأجنحتها بعد استشهاده... ولكن تلك المناقب كلها سوف تتوارى خجلاً أمام تلك المنقبة العظيمة ألا وهى: أن الله ـ جل جلاله ـ سيكلمه كفاحًا ـ أى بغير حجاب ـ!!!.

قصة إسلامه

يقول كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن قصة إسلام (عبد الله).

خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبةَ من أوسط أيام التشريق. قال فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بن عمرو ابن حَرام (أبو جابر)، سيِّد من ساداتنا [وشريف من أشرافنا] أخذناه معنا، وكنا نكتم مَنْ معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلّمناه وقُلنا له: يا أبا جابر، إنك سيِّد من سادتنا، وشَريف من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطبًا للنار غدًا؛ ثم دَعَوْناهُ إلى الإسلام، وأخبرناهُ بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشَهد معنا العَقبة، وكان نَقيبًا[(١)].

وهكذا أسلم (عبد الله) ووضع يده فى يد الحبيب ﷺ وبايعه. ثم أراد النبى ﷺ من أصحاب بيعة العقبة أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر زعيمًا يكونوا نُقباء على قومهم، فكان (عبد الله بن عمرو بن حرام) من نُقباء الخزرج.

ثم عاد (عبد الله) وابنه (جابر) ـ رضى الله عنهما ـ وهما يحملان من السعادة ما يكفى لإسعاد الكون كله ومثله معه.

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٥٠).

* دخلَ سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرو بن حرَام التاريخَ من باب مضيء، فمنذ عودته من بيعة العقبة إلى المدينة وضعَ نفسَه ومالَه وأهلَه فى سبيلِ الله وفى خدمة الإسلام، وبدأت أعمالُه تفوح بالشذا، فلم يتوقفْ عَن الدعوة إلى الحقِّ لحظةً واحدة، ودعا صديقَه عمرَو ابنَ الجموح إلى نبذ الأصنام، ولما أسلَم عمرٌو استطارَ قلبُ عبدِ الله فرحًا به[1].

شوقه لرؤية الحبيب ﷺ

واشتاق (عبد الله) إلى رؤية الحبيب ﷺ وكان يتمنى أن يراه مرة أخرى ويلازمه.. وإذا بالحق ـ جل وعلا ـ يأذن لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) فيفرح (عبد الله) بذلك فرحًا عظيمًا ويخرج لاستقبال الحبيب ﷺ وأقدامه تسابق الريح.

ولما وصل الحبيب ﷺ إلى يثرب ظل (عبد الله) ملازمًا له ينهل من هديه وعلمه وأخلاقه إلى أن خرج النبى ﷺ إلى غزوة بدر فكان (عبد الله) من المسارعين إليها... فلقد كان يريد أن يستدرك ما فات من عمره ويجتهد فى كل ما يقربه من الله تعالى فجعل نفسه وماله وولده لله ـ جل وعلا ـ.

جهاده فى سبيل الله

وما إن حمى الوطيس فى غزوة بدر حتى كان (عبد الله) من الذين يقاتلون قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إلى الجنة.

وانتهت تلك الغزوة وعاد (عبد الله) سالمًا.

وجاءت غزوة أحد

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها، وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة.

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٥٠).

* واستشار رسولُ الله ﷺ أصحابَه أيخرج إليهم، أم يمكُث في المدينة؟ وكان رأيه ألا يخرجُوا من المدينة، وأن يتحصنُوا بها، فإن دخلوها، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنِّساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأي عبدُ الله بن أُبي، وكان هو الرأيَ، فبادر جماعةٌ من فُضلاء الصحابة ممن فاته الخروجُ يوم بدر، وأشار عليه بالخروج، وألحُّوا عليه في ذلك(١).

* عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرًا مُنحَّرة(٢) فأولَّت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر هو والله خير، قال فقال لأصحابه: لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم. فقالوا: يا رسول الله والله مادُخلَ علينا فيها في الجاهلية فكيف يُدخل علينا فيها في الإسلام (قال عفان في حديثه) فقال: شأنكم إذًا. قال: فلبس لأمته(٣). ـ يعني النبي ﷺ ـ قال فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا فقالوا: يا نبي الله شأنك إذًا. فقال: إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»(٤).

وخرج المسلمون لقتالهم وكان على رأسهم (عبد الله) الذي كان في هذه الغزوة على موعدٍ مع الشهادة في سبيل الله.

وكأنه كان يشعر بهذا الموعد فأراد أن يوصي ابنه (جابر) بقضاء دَينه الذي عليه.

الله يتولى سداد دَيْنه

قال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»(٥).

وها هو عبد الله بن عمرو بن حرام قبل استشهاده بليلة واحدة يدعو ابنه ـ جابر ـ حرصًا منه على أداء الدين.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٩٣).

(٢) مُنحَّرة: مذبوحة.

(٣) اللأمة: الدرع.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٥١) وله شاهد عن ابن عباس رواه الحاكم (٢/ ١٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والألباني.

(٥) أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٥٩٨٠).

فعن جابر رضى الله عنه قال: «لما حَضر (أُحدٌ) دعانى أبى من الليل فقال: ما أُرانى إلا مقتولاً فى أول من يُقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفسِ رسول الله ﷺ ، وإن علىَّ دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيراً... فأصبحنا فكان أولَ قتيل، ودُفِن معه آخرُ فى قبر ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعتهُ هُنَيَّةً غير أُذنه»[1].

وفى رواية: أن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: فقلت: يا رسول الله إنَّ أبى ترك دَينًا عليه... وليس عندى ما أفيه به إلا ما يُخرجهُ ثمرُ نخيله، ولو عمدتُ إلى وفاء دَينه من ذلك الثمر لما أديته فى سنين...

ولا مال لأخواتى أُنفقُ عليهنَّ منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معى إلى بيدر[2] تمرنا وقال لى: «أُدعُ غُرماء[3] أبيك»، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبى دينه كله من تمر تلك السنة. ثم إنى نظرتُ إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه تمرةٌ واحدةٌ[4]...

موقفه من رأس المنافقين

ولما كان النبى ﷺ بالشوط بين المدينة وأُحد انخذل عبد الله بن أُبى بن سلول ـ رأس المنافقين ـ بثلث الجيش ورجع بدعوى أنه لن يقع قتال ومعترضًا على رأى قرار الرسول ﷺ بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين بقوله: أطاع الولدان وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس! فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول: «يا قوم، أُذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عند من حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف:

قال: أبعدكم الله، أعداء الله، سيغنى الله عنكم نبيه»[5].

---

(١) أخرجه البخارى (١٣٥١).

(٢) البيدر: الموضع الذى يُكوم ويجمع فيه التمر.

(٣) غرماء: مفرده غريم: الدائن.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

(٥) ابن هشام فى السيرة (٢/ ٦٠).

الملائكة تظله بأجنحتها

وها هى ملائكة الرحمن ـ جل وعلا ـ تتفاعل مع هذا الصحابى الجليل وتتنزل بأمر الملك ـ جل وعلا ـ لتظله بأجنحتها بعد موته.

فعن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم أُحد، جيء بأبى مُسجًّى ـ مُغطًّى ـ وقد مُثِّل به، قال: فأردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، ثم أردتُ أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرُفع. فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «مَنْ هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أُختُ عمرو. فقال: «ولِمَ تبكى؟ فمَا زالت الملَائكة تُظله بأجنحتها حتى رُفع»(١).

قال الإمام النووى: قوله ﷺ: «فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع» قال القاضى: يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله ورضاه عنه وما أعد له من الكرامة عليه، ازدحموا عليه إكرامًا له وفرحًا به أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه. قوله: فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظله» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت الملائكة تظله أى فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغى البكاء على مثل هذا... وفى هذا تسلية لها(٢).

كرامة ثابتة له بعد موته

عن جابر أن رسول الله ﷺ لما خرج لدفن شهداء أُحُد، قال: «زمِّلوهم بجراحهم ـ أى غطّوهم ـ فأنا شهيد عليهم» وكُفِّن أبى فى نَمِرة(٣).

قال ابن سعد: قالوا: وكان عبد الله أول من قُتل يوم أُحُد، وكان أحمر أصلع ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح طويلاً، فدُفنا معًا عند السيل، فحفر السيل عنهما، وعليهما نمرة، وقد أصاب عبد الله جُرحٌ فى وجهه فيده على جُرحه، فأميطت يده، فانبعث الدم، فرُدَّت، فسكن الدم.

قال جابر: فرأيت أبى فى حفرته، كأنه نائم، وما تغير من حاله شىء، وبين ذلك ست

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧١) والنسائى (٤/ ١١ ـ ١٢).
(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧ ـ ٣٩) بتصرف.
(٣) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٥) وإسناده صحيح.

وأربعون سنة، فحُوِّلا إلى مكانٍ آخر، وأُخرجوا رطابًا يتثنون(١).

وعن جابر قال: صُرِخ بنا إلى قتلانا، حين أجرى معاوية العين، فأخرجناهم لينةً أجسادُهم، تتثنى أطرافهم(٢).

الله يكلمه بغير حجاب !!!

وها هي أعظم منقبة لهذا الصحابي الجليل الذي جمع الله له مناقب كثيرة... ها هو بعد موته يكلمه ربه بغير حجاب. فعن جابر بن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو ابن حَرَام، يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ: «يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله ـ عز وجل ـ لأبيك؟» قلتُ: بلى، قال: «ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا(٣)، فقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعطك، قال: يارب تحيينى فأُقتلُ فيك ثانيةً. قال: إنه سبق منى «أنهم إليها لا يُرجعون» قال: يارب فأبلغ مَن ورائى»، فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾(٤).

وفى رواية: أن جابر قال: قال لى رسول الله ﷺ: يا جابر أما علمت أنَّ الله ـ عز وجل ـ أحيا أباك فقال له: تَمَنَّ عليَّ، فقال: أُردُّ إلى الدنيا فأُقتل مرةً أخرى فقال: إنى قضيت الحكمَ أنهم إليها لا يرجعون»(٥).

والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله.

إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده، ولم تَستَشرِف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شيءٍ فيها، ويتمشَّى بخُطى ثابتةٍ إلى ساحة القتال(٦).

فرضى الله عن هؤلاء الصحب الكرام، ونسأل الله أن يجمعنا بهم فى جنته ومستقر رحمته.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٦) وإسناده صحيح كما قال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٦).

(٣) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول... وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٠١٣) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ووافقه الذهبى.

(٥) رواه أحمد (٣/ ٣٦١) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: هو صحيح لشواهده.

(٦) فى موكب الدعوة للشيخ محمد الغزالى (ص ٥٣).

لقاء الأحباب بعد الشهادة

عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير العُذرى، حليف بنى زُهرة: أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على القتلى يوم أُحُد، قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما من جريح يُجرحُ فى [سبيل] الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جُرحه، اللون لون دم، والريحُ ريح مسك»، «وانظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر» ـ وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر [الواحد](١).

وقال ابن إسحاق: عن أشياخ من بنى سلمة: أن رسول الله ﷺ، قال يومئذ، حين أمر بدفن القتلى: «انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حَرام فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبرٍ واحد»(٢).

مسك الختام

وأختم كلامى عن هذا الصحابى الجليل بدعاء النبى ﷺ له حيث يقول: «جزى الله الأنصار عنا خيرًا، ولاسيما عبد الله بن عمرو بن حرام وسعد بن عبادة»(٣).

وهكذا رحل هذا الشهيد الحى الذى كلمه ربه ـ بغير حجاب ـ ليجمعه الله فى الآخرة مع حبيبه وقرة عينه محمد ﷺ فى جنته ومستقر رحمته لتكتمل سعادته فى الدنيا والآخرة.

فرضى الله عن (عبد الله) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أورده الهيثمى فى المجمع (٦/ ١١٩) وقال: رواه أحمد (٥/ ٤٣١) والنسائى والبيهقى (٤/ ١١) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٩٩) وابن سعد (٢/ ٥٦٢) وذكره ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٥٦, ٢٥٧) وعزاه إلى أحمد فى مسنده بإسناد حسن.

(٣) رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٩١).





اللهم إني أحب لقاءك فأحبب لقائي

أبو هريرة (رضي الله عنه)

إننى إذا أردت أن أتكلم عن هذا الصحابى الجليل فإننى أسوق قصته إلى إخوانى وأخواتى لتبعث فى قلوبهم الأمل، وليعلموا جميعًا أن العبرة ليست بالسبق، وإنما هى بالتجرد والإخلاص لله ـ جل وعلا ـ.

فكم من أُناسٍ طالت آمادهم وقلَّت أمدادهم.. وكم من أُناسٍ قلَّت آمادهم وكثرت أمدادهم.

فقد يعيش الإنسان أيامًا معدودة يقدم فيها الخير الكثير للإسلام وأهله... وقد يعيش الإنسان زمانًا طويلاً لا يشغله إلا شهوات البطون والفروج.

فهذا الصنف قد يعيش سعيداً بعض الشيء، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً.

أما الذى يعيش لدينه ويعلم دوره فى خدمة هذا الدين فقد يتعب فى سبيل هذا الدور وتلك الرسالة، ولكنه يعيش كبيراً ويموت كبيراً.

وها نحن على موعدٍ مع رجلٍ عظيم استطاع منذ اللحظة الأولى لإسلامه أن يعلم ويحدِّد دوره فى خدمة هذا الدين.

إنه الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ (أبو هريرة) الدوسى اليمانى.. سيد الحُفّاظ الأثبات.

أسلم متأخراً وشهد خيبر، وكان اسمه فى الجاهلية (عبد شمس) فسماه الرسول ﷺ: عبد الله وكنّاه بأبى هِرٍّ.

عن محمد بن قيس، قال: كان أبو هريرة يقول: لا تكنونى أبا هريرة؛ كنانى رسول الله ﷺ: أبا هرٍّ، فقال: «ثكلتك أمك! أبا هرٍّ» والذَّكر خيرٌ من الأنثى(١).

---

(١) ابن عساكر (١٩/ ١٠٩/ ١) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٥٨٧).

وأما عن سبب تكنيته بأبي هريرة... فعن عبد الله بن رافع قال: قلت لأبي هريرة: لِمَ كنَّوك أبا هريرة؟ قال: أما تفرقُ مني؟ قلت: بلى، إني لأهابك؛ قال: كنتُ أرعى غنمًا لأهلي، فكانت لي هُريرة ألعبُ بها، فكنَّوني بها[1].

ملازمته للحبيب ﷺ ورحلته في طلب العلم

ومنذ اللحظة التي أسلم فيها أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وخالط الإيمان شغاف قلبه.. أحسَّ أنه لابد أن يكون واحدًا ممن يحملون همَّ الإسلام ويبلّغون رسالته إلى الكون كله.

فلما قدم على الرسول ﷺ كان يلازمه ملازمة الظل لصاحبه فحمل عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

وكان قد انقطع لخدمة النبي ﷺ وصحبته فكان يقيم في مسجد الرسول ﷺ لا يفارقه أبدًا.. فإنه لم يكن يملك تجارة لينشغل بها ولا يملك أرضًا يقوم برعايتها، وقد كان يقول ـ رضي الله عنه ـ عن نفسه: «نشأت يتيمًا وهاجرت مسكينًا»[2].

ليست العبرة بالسبق

وعلى الرغم من أنه لم يصحب النبي ﷺ إلا أربع سنوات إلا أنه أصبح من أكثر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رواية لحديث رسول الله ﷺ حتى إنه حدَّث عنه خلقٌ كثيرٌ من الصحابة والتابعين فقيل: بلغ عدد أصحابه ثمان مئة.

عن وهب بن منبه عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[3].

وفي عصرنا هذا أيها الأخ الحبيب فإننا لا نكاد نجد خطيبًا أو واعظًا أو محاضرًا يحدِّث عن الحبيب ﷺ إلا ونسمع اسم أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فهو الذي نقل للأمة هذا العلم الغزير.. الذي يكون في ميزان حسناته يوم القيامة حين لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه الترمذي (٣٨٤٠) المناقب ـ وابن سعد (٤/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣) وأحمد (٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩) والترمذي (٢٦٦٨).



إن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك

وكان ـ رضى الله عنه ـ يعلم جيداً أن العلم لا يتحصل عليه إلا من بذل وقته ونفسه وماله.. وأخلص فى طلبه وتبليغه للناس من حوله.

ومن أجل ذلك كان ـ رضى الله عنه ـ يعانى من الفقر والجوع فى سبيل التفرغ لطلب العلم ومرافقة الحبيب ﷺ .

عن عبد الرحمن بن عبيد عن أبى هريرة قال: إن كنت لأتبع الرجل أسأله عن الآية من كتاب الله عز وجل؛ لأنا أعلم بها منه ومن عشيرته، وما أتبعه إلا ليطعمنى القبضة من التمر أو السفة من السويق أو الدقيق أسد بها جوعى.

فأقبلت أمشى مع عمر بن الخطاب ذات ليلة أحدثه حتى بلغ بابه فأسند ظهره إلى الباب فاستقبلنى بوجهه فكلما فرغت من حديث حدثته آخر. حتى إذا لم أر شيئًا انطلقت فلما كان بعد ذلك لقينى فقال: أبا هريرة: أما لو أنه فى البيت شيء لأطعمناك.

وعن أبى رافع أن أبا هريرة قال: ما أحد من الناس يهدى لى هدية إلا قبلتها، فأما أن أسأل فلم أكن لأسأل[١].

وعن محمد، قال: كنا عند أبى هريرة، فتمخَّط، فمسح بردائه، وقال: الحمدُ لله الذى تمخّط أبو هريرة فى الكتان! لقد رأيتنى، وإنى لأخرٌ فيما بين منزل عائشة والمنبر مغشيًا علىّ من الجوع، فيمرٌ الرجلُ، فيجلسُ على صدرى، فأرفعُ رأسى فأقول: ليس الذى ترى، إنما هو الجوع[٢].

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: قلتُ: كان يظنُّه من يراه مصروعًا، فيجلسُ فوقه ليرقيه، أو نحو ذلك[٣].

وعن أبى هريرة، قال: والله؛ إن كنت لأعتمدُ على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشدُّ الحَجَر على بطنى من الجوع؛ ولقد قعدتُ على طريقهم، فمرَّ بى أبو بكر، فسألته عن آية فى كتاب الله ـ ما أسأله إلا ليستتبعنى ـ فمرَّ، ولم يفعل، فمرَّ عُمر (فكذلك)، حتى مرَّ بى رسول الله ﷺ ، فعرف ما فى وجهى من الجوع، فقال: «أبو هريرة»؟ قلت:

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخارى (١٣/ ٢٥٨) الاعتصام ـ والترمذى (٢٣٦٧) الزهد.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٢/ ٥٩١).

لبيك يا رسول الله. فدخلتُ معه البيتَ، فوجد لبنًا فى قَدَح، فقال: «مِنْ أينَ لكم هذا»؟ قيل: أرسل به إليك فُلان. فقال: «يا أبا هريرة، انطلق إلى أهلِ الصُّفَّة[(١)]، فادعهم» ـ وكان أهلُ الصُّفَّة أضياف الإسلام، لا أهل ولا مال إذا أتت رسول الله ﷺ صدقةٌ، أرسل بها إليهم، ولم يُصبْ منها شيئًا، وإذا جاءته هديةٌ، أصاب منها، وأشركهم فيها ـ فساءنى إرسالُه إياى، فقلتُ: كنتُ أرجو أن أُصيب من هذا اللبن شربةً أتقوّى بها، وما هذا اللبنُ فى أهل الصفة!

ولم يكنْ من طاعة الله وطاعة رسوله بُدٌّ، فأتيتُهم، فأقبلوا مُجيبين، فلما جلسوا قال: «خُذْ يا أبا هريرة، فأَعطهم». فجعلتُ أُعطى الرجل، فيشربُ حتى يروى، حتى أتيتُ على جميعهم؛ وناولتُه رسولَ الله ﷺ، فرفع رأسه إلىَّ مُتَبسمًا، وقال: «بقيتُ أنا وأنت». قلتُ: صدقتَ يا رسول الله. قال: «فاشرب». فشربتُ. فقال: «اشرب»، فشربتُ فما زال يقول: اشرب، فأشرب؛ حتى قلت: والذى بعثك بالحق، ما أجدُ له مساغًا، فأخذ، فشرب من الفضلة[(٢)].

النبى ﷺ يشهد له بحرصه على طلب العلم

عن أبى هريرة أنه قال: قيل يا رسول الله ﷺ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه»[(٣)].

لم ينس حديثًا حفظه ببركة دعاء النبى ﷺ له

عن أبى هريرة قال: قلت: يا رسول الله أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه قال: «ابسط رداءك» فبسطته. قال: فغرف بيديه ثم قال: «ضمه فضممته فما نسيت شيئًا بعده[(٤)].

---

(١) الصُّفَّة: كانت فى مسجد النبى ﷺ فى المدينة يكون فيها فقراء المهاجرين، ومن لا منزل له منهم، وأهلها منسوبون إليها. وكان أهل الصُّفة يقومون بفروض عظيمة، منها تلقى القرآن والسنة، فكانت الصُّفة مدرسة الإسلام، ومنها حراسة النبى ﷺ، ومنها الاستعداد لتنفيذ أوامره وحاجاته فى طلب من يريد طلبه من المسلمين وغير ذلك، وكانو قائمين بهذه الفروض عن المسلمين.

(٢) أخرجه البخارى (١١/ ٢٤١، ٢٤٦) الرقاق ـ والترمذى (٢٤٧٧) صفة القيامة.

(٣) أخرجه البخارى (٩٩) ـ وابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢/ ١١٨).

(٤) أخرجه البخارى (١١٩) ـ والترمذى (٣٨٣٥).

وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا تسألُنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك»؟ قلتُ: أسألك أن تُعلِّمنى مما علَّمك الله. فنزع نَمرةً كانت على ظهرى، فبسطها بينى وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدبُّ عليها؛ فحدَّثنى، حتى إذا استوعبتُ حديثه، قال: «اجمعها فصُرها إليك» فأصبحتُ لا أُسقطُ حرفًا مما حدَّثنى(١).

وهكذا كان ـ رضى الله عنه ـ يكرِّس نفسه وذاكرته القوية لحفظ أحاديث الحبيب ﷺ.. فلما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ يحدِّث بحديثه ويُكثر من ذلك مما جعل بعض الصحابة يعجبون من كثرة روايته، على الرغم من أنه لم يصحب النبى ﷺ إلا أربع سنوات فأراد أبو هريرة أن يفصح عن السبب فى تلك الغنيمة التى امتنَّ الله عليه بها.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث، والله الموعد، ويقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتى من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرءً مسكينًا ألزم رسول الله ﷺ على ملءِ بطنى، فأحضر حين يغيبون وأعى حين ينسون، وقال النبى ﷺ يومًا: «لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتى شيئًا أبدًا» فبسطت نمرة ليس علىَّ ثوب غيرها حتى قضى النبى ﷺ مقالته ثم جمعتها إلى صدرى. فوالذى بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومى هذا، والله لولا آيتان فى كتاب الله ما حدثتكم شيئًا أبدًا: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ـ إلى ـ الرحيم﴾(٢).

ودخل أبو هريرة على عائشة؛ فقالت له: أكثرتَ يا أبا هريرة عن رسول الله! قال: إى والله يا أُمَّاه؛ ما كانت تشغلنى عنه المرآةُ، ولا المكحلةُ، ولا الدهن. قالت: لعله(٣).

وفى رواية: عن عائشة أنها دعت أبا هريرة، فقالت له: يا أبا هريرة، ما هذه الأحاديث التى تبلغنا أنك تحدث بها عن النبى ﷺ هل سمعت إلا ما سمعنا؟ وهل رأيت إلا ما رأينا؟ قال: يا أماه، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرآة والمكحلة والتصنُّع

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٨١) وابن عساكر فى تاريخه (١٩/ ١١٣/ ٢). والنمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود.

(٢) أخرجه البخارى (٢٣٥٠) ـ ومسلم (٢٤٩٢) وأحمد (٢/ ٢٧٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وذكره الحافظ فى الإصابة ونسبه لابن سعد وجوَّد إسناده.



لرسول الله ﷺ، وإني والله ما كان يشغلني عنه شيء(١).

بل لقد أمَّن النبي ﷺ يومًا على دعائه فقد قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اللهم إني أسألك علمًا لا يُنسى. فقال النبي ﷺ «آمين»(٢).

كان يدعو الناس إلى ميراث رسول الله ﷺ !!!

وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يريد من إخوانه أن يحرصوا على طلب العلم وتبليغه مثلما يصنع هو لكي تثمر الدعوة وينتشر العلم بين الناس في كل مكان.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يبتكر أساليبًا طيبة في الدعوة إلى الله.

ففي يوم من الأيام كان يمر بسوق المدينة فوجد أن الناس قد انشغلوا بالبيع والشراء. فخاف عليهم من إقبال الدنيا عليهم وانصرافهم عن طلب العلم فقال لهم:

ما أعجزكم يا أهل المدينة!!

فقالوا: وما رأيت من عجزنا يا أبا هريرة؟!

فقال: ميراثُ رسول الله ﷺ يُقَسَّمُ وأنتم ها هنا!!...

ألا تذهبون وتأخذون نصيبكم!!.

قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟!.

قال: في المسجد.

فخرجوا سراعًا، ووقف «أبو هريرة» لهم حتى رجعوا؛ فلمَّا رأوهُ قالوا: يا أبا هريرة لقد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نَرَ شيئًا يُقسم.

فقال لهم: أوَ ما رأيتم في المسجد أحدًا؟!.

قالوا: بلى... رأينا قومًا يُصلُّون، وقومًا يقرؤنَ القرآن، وقومًا يتذاكرون في الحلال والحرام...

فقال: ويحكم... ذلك ميراثُ محمد ﷺ.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة (١٢/ ٧٤) ونسبه إلى النسائي في العلم من كتاب السنن. وجوَّد إسناده.



شبهة والرد عليها

عن أبي هريرة، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين: فأمَّا أحدهما، فبثثته في الناس؛ وأما الآخر، فلو بثثته، لقطعَ هذا البلعوم(١).

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وقد حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم. وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه، ولا يصرح به خوفًا على نفسه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة، فمات قبلها بسنة. وقال ابن المنير: جعل بعضهم هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وذلك الباطل، إنما حاصله الانحلال من الدين، وإنما أراد أبو هريرة بقوله: قُطع، أي: قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها(٢).

وقال الإمام الذهبي: قلت: هذا دالٌ على جواز كتمان بعضِ الأحاديث التي تُحرك فتنةً في الأصول، أو الفروع؛ أو المدح والذم؛ أما حديثٌ يتعلق بحلٍّ أو حرام، فلا يحل كتمانُه بوجه؛ فإنه من البينات والهدى.

وفي «صحيح البخاري»: قول الإمام عليّ ـ رضي الله عنه ـ: حَدِّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما يُنكرون؛ أتُحِبُّون أن يُكذبَ اللهُ ورسوله!

وكذا لو بثَّ أبو هريرة ذلك الوعاء، لأُوذي، بل لقُتِلَ. ولكن العالم قد يُؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياءً للسنة، فله ما نوى وله أجر ـ وإن غلط ـ في اجتهاده(٣).

* * *

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩٢، ١٩٣) العلم ـ باب حفظ العلم.

(٢) هامش سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨).

بره بأمه - رضى الله عنه -

إن من أعظم البر أن يحرص الابن على هداية أبويه ليكون سببًا فى دخولهما الجنة - فهل هناك هدية أعظم منها؟!!!.

وها هو أبو هريرة - رضى الله عنه - يبذل جهده كله ويحرص كل الحرص على هداية أمه التى كانت مشركة.

قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى قلت: يا رسول الله إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة . فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبى هريرة» فخرجت مستبشرًا بدعوة نبى الله ﷺ فلما جئت فَصِرْتُ إلى الباب فإذا هو مجاف - مغلق - فسمعت أمى خشف قدمى فقالت: مكانكَ يا أبا هريرة؛ وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكى من الفرح قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا. قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبِّب عُبَيدك هذا - يعنى أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبِّب إليهم المؤمنين» فما خُلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى[1].

عبادته - رضى الله عنه -

عن أبى عثمان النهدى قال: تضيّفت أبا هريرة سبعًا - سبعة أيام - فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثًا، يصلى هذا ثم يوقظ هذا، ويصلى هذا ثم يوقظ هذا.

وهكذا كانت العبادة لا تنقطع من بيته طوال الليل.

وعن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة قال: ما وجع أحب إلىَّ من الحمى؛ لأنها

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٢/ ٣١٩ - ٣٢٠).

تعطى كل مفصل قسطه من الوجع، وإن الله تعالى يعطى كل مفصلٍ قسطه من الأجر(١).

وعن عكرمة: أن أبا هريرة كان يُسبِّحُ كلَّ يومٍ اثنى عشر ألف تسبيحة، يقولُ: أُسبِّحُ بقدر ديتى(٢).

خفة ظله ـ رضى الله عنه ـ

وقد وَلِي أبو هريرة المدينة من قِبَلِ معاوية بن أبى سفيان أكثر من مرة، فلم تُبدِّلِ الولايةُ من سماحة طبعه، وخفة ظله شيئًا...

فقد مرَّ بأحد طُرق المدينة ـ وهو والٍ عليها ـ وكان يحملُ الحطب على ظهره لأهل بيته، فمرَّ بثعلبة بن مالك... فقال له:

أوسع الطريق للأمير يا بن مالك... فقال له:

يرحمك الله أما يكفيك هذا المجال كله؟!... فقال له:

أوسع الطريق للأمير، وللحُزمة التى على ظهره(٣).

حلمه ـ رضى الله عنه ـ وعفوه عمن أساء إليه

عن أبى هريرة، قال: لما قدمتُ على النبى ﷺ قلتُ فى الطريق:

يا ليلةً مِنْ طُولها وعَنائها ... على أنها من دارةِ الكُفرِ نَجَّتِ

قال: وأبَق لى غلامٌ؛ فلمَّا قدمتُ، وبايعتُ، إذْ طلع الغلامُ، فقال النبى ﷺ: «هذا غلامُك يا أبا هريرة»؟ قلتُ: هو حُرٌّ لوجه الله. فأعتقته(٤).

وقد كانت لأبى هريرة جاريةٌ زنجيةٌ فأساءت إليه، وغمَّت أهله، فرفع السوط عليها ليضربها به، ثم توقف، وقال: لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك كما آذيتنا، ولكن سأبيعك ممن يُوفِّينى ثمنك وأنا أحوجُ ما أكونُ إليه... اذهبى فأنت حُرة لله عز وجل.

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٤).
(٢) (تاريخ دمشق) لابن عساكر (١٩/ ١٢٢/ ٢).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٩٤) بتصرف.
(٤) أخرجه البخارى (٥/ ١١٧) فى العتق ـ وأحمد (٢/ ٢٨٦).



وأما بنعمة ربك فحدث

وكان أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ لا ينسى أبدًا فضل ربه عليه ونعمه التى امتن بها عليه.

فعن مُضارب بن حَزْن، قال: بينا أنا أسيرُ تحت الليل، إذا رجلٌ يُكبِّر، فألحقه بعيرى. فقلتُ: من هذا؟ قال: أبو هريرة. قلت: ما هذا التكبير؟ قال: شُكرٌ. قلتُ: على مه؟ ـ على أى شىء ـ قال: كنتُ أجيرًا لبُسرة بنت غزوان بعُقبة رجلى، وطعام بطنى، وكانوا إذا ركبوا، سقتُ بهم، وإذا نزلوا، خدمتهم، فزوَّجنيها اللهُ! فهى امرأتى[1].

وعن أبى هريرة: أنه صلَّى بالناس يومًا، فلما سلَّم، رفع صوته، فقال: الحمد لله الذى جعل الدين قوامًا، وجعل أبا هريرة إمامًا؛ بعد أن كان أجيرًا لابنة غزوان على شبع بطنه، وحَمُولة رجله[2].

وعن حُميد بن مالك بن خُثَيم، قال: كنتُ جالسًا عند أبى هريرة فى أرضه بالعقيق، فأتاه قومٌ، فنزلوا عنده. قال حُميد: فقال: اذهب إلى أُمى، فقل: إن ابنك يُقرئُك السلام، ويقولُ: أطعمينا شيئًا. قال: فوضعت ثلاثة أقراصٍ فى الصحفة، وشيئًا من زيتٍ وملح ووضعتها على رأسى؛ فحملتها إليهم.

فلما وضعتُه بين أيديهم؛ كبَّر أبو هريرة، وقال: الحمدُ لله الذى أشبعنا من الخبز، بَعْدَ أن لم يكن طعامُنا إلا الأسودين: التمر والماء.

فلم يُصب القومُ من الطعام شيئًا. فلما انصرفوا، قال: يا ابن أخى، أحسن إلى غنمك، وامسح عنها الرُّغَام، وأطب مُراحها، وصَلِّ فى ناحيتها؛ فإنها من دوابِّ الجنة. والذى نفسى بيده، يُوشكُ أن يأتىَ على الناس زمانٌ تكون الثُّلة من الغنم أحبَّ إلى صاحبها من دار مروان[3].

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وأخرجه أبو نعيم (١/ ٣٨٠) وابن عساكر (١٩/ ١٢٣/ ١).

عقبة رجلى: أى: نوبة ركوبه.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٧٩) وابن عساكر (١٩/ ١٢٣/ ١).

(٣) هو فى الموطأ رقم (١٨٠٢) (٤/ ٣١٣، ٣١٤) بشرح الزرقانى، وإسناده صحيح، وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٥٧٢) من طريق إسماعيل بن أبى أويس، عن مالك. والرُّغام: مخاط رقيق يجرى من أنوف الغنم. وأطب مراحها: نَظِّفه. والثلة: جماعة الغنم، قليلة كانت أو كثيرة، وقيل: الثلة: الكثير منها.



كان لا يحرص على الولاية

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ لا تطمح نفسه إلى شىء من حُطام الدنيا الفانية فقد عاش حياته عابدًا زاهدًا ومجاهدًا وطالبًا للعلم.

ولكنه مع ذلك كان إذا كلفه أمير المؤمنين بالولاية فإنه كان يقبلها على مضضٍ وكُرهٍ فهو يعلم أنها تكليف لا تشريف.

عن محمد: أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين، فقدمَ بعشرةِ آلاف. فقال له عمر: استأثرتَ بهذه الأموال يا عدوَّ الله، وعدوَّ كتابه؟

فقال أبو هريرة: فقلتُ: لستُ بعدوّ الله وعدوِّ كتابه؛ ولكنى عدوٌّ من عاداهما.

قال: فمن أينَ هى لك؟ قلتُ: خيلٌ نُتِجت، وغَلَّةُ رقيقٍ لى، وأُعطيةٌ تتابعت.

فنظروا، فوجدوه كما قال.

فلما كان بعد ذلك، دعاهُ عمر ليولِّيه، فأبى. فقال: تكرهُ العملَ وقد طلبَ العمل مَنْ كان خيرًا منك: يوسفُ عليه السلام! فقال: يوسفُ نبى ابنُ نبى ابن نبى وأنا أبو هريرة ابنُ أُميمة. وأخشى ثلاثًا واثنتين. قال: فهلا قُلتَ: خمسًا؟ قال: أخشى أن أقولَ بغير علم، وأقضى بغير حلم، وأن يُضرب ظهرى، ويُنتزع مالى، ويُشتم عرضى(١).

حنينه إلى النبى ﷺ

وبعد وفاة النبى ﷺ كانت صورته لا تفارق أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ فقد كان يحبه حبًا جمًا على الرغم من أنه لم يصحب النبى ﷺ إلا سنوات معدودة لا تتعدى الأربع سنوات، ولكنها كانت تساوى فى عُمر الزمن أعمار أُممٍ وأجيال.

وكان أبو هريرة إذا ذكر الحبيب ﷺ تتوق نفسه لرؤيته فيجهش بالبكاء شوقًا لرؤية حبيبه ﷺ.

وإننى أقول: والله لو رأينا رسول الله ﷺ دقيقة واحدة ما استطعنا أن نستمتع بالحياة من بعده لحظة واحدة.

عن عبد الوهاب المدنى، قال: بلغنى أن رجلاً دخل على مُعاوية، فقال: مررتُ

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: وذكره ابن كثير فى البداية (٨/ ١١٣).

بالمدينة، فإذا أبو هريرة جالسٌ في المسجد، حوله حلقةٌ يحدِّثُهم، فقال: حدَّثني خليلي أبو القاسم ﷺ. ثم استعبر، فبكى. ثم عاد، فقال: حدثني خليلي ﷺ نبيُّ الله أبو القاسم. ثم استعبر، فبكى. ثم قام(١).

وكان ـ رضي الله عنه ـ يشعر بقُرب أجله فكان إذا مرت به جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون وروحوا فإنا غادون(٢).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالكفاح والتضحية وطلب العلم والدعوة إلى الله تعالى نام أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ على فراش الموت ليلحق بحبيبه ﷺ الذي لطالما اشتاق إليه وذرفت دموعه حزنًا على فراقه.

ولقد كان ـ رضي الله عنه ـ يدعو قائلاً: «اللهم لا تدركني سنة ستين»(٣). فتوفي فيها أو قبلها بسنة.

عن سلم بن بشير أن أبا هريرة بكى في مرضه: فقيل: ما يُبكيكَ؟ قال: ما أبكي على دنياكُم هذه، ولكن على بُعد سفري، وقلَّة زادي، وأني أمسيتُ في صعُود، ومهبطُه على جنة أو نار، فلا أدري أيهما يؤخذ بي(٤).

وعن المَقْبُري، قال: دخل مروانُ على أبي هريرة في شكواه، فقال: شفاكَ اللهُ يا أبا هريرة. فقال: اللهم، إني أُحِبُّ لقاءك، فأحِبَّ لقائي.

قال: فما بلغ مروانُ أصحابَ القطا، حتى مات(٥).

وهكذا رحل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ بعد أن ملأ الدنيا علمًا وبلَّغ سُنة الحبيب ﷺ.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) (تاريخ دمشق) لابن عساكر (١٩/ ١٢٣/ ١).

(٢) (تاريخ دمشق) (١٩/ ١٢٦/ ٢) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٣).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: ذكره الحافظ في الفتح (١٣/ ٨) ـ السير للذهبي (٢/ ٦٢٦).

(٤) في الطبقات (٤/ ٣٣٩): فلا أدري إلى أيهما يسلك بي. وهو في الحلية (١/ ٣٨٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٩/ ١٢٨/ ١). وفي الطبقات: فما بلغ مروان وسط السوق حتى مات.





«يا زيد ! أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحبُّ القوم إلىّ»

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن على موعد مع الصحابى الجليل (زيد بن حارثة) الأميرُ الشهيد النبوى، المسمَّى فى سورة الأحزاب، أبو أسامة الكلبى، ثم المحمدىُّ، سيد الموالى، وأسبقهم إلى الإسلام، وحِبُّ رسول الله ﷺ وأبو حِبِّه، وما أحبَّ ﷺ إلا طيبًا، ولم يُسَمِّ الله تعالى فى كتابه صحابيًا باسمه إلا زيد بن حارثة وعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ الذى ينزل حكمًا مُقسطًا ويلتحقُ بهذه الأمة المرحومة فى صلاته وصيامه وحجه ونكاحه وأحكام الدين الحنَيف جميعها، فكما أن أبا القاسم سيدُ الأنبياء وأفضلهم وخاتمهم، فكذلك عيسى بعد نزوله أفضلُ هذه الأمة مطلقًا، ويكون ختامهم، ولا يجىء بعده مَن فيه خير، بل تطلعُ الشمس من مغربها، ويأذن الله بدنو الساعة(١).

زيد يختار الرسول ﷺ على أبيه وعمه

وها هى قصة زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ تلكم القصة المؤثّرة التى تجعل الدموع يسابق بعضها بعضًا.

إنه زيد الحب. وأمه سُعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر، زارت قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبنى القين فى الجاهلية فمروا على أبيات بنى معن فاحتملوا زيدًا وهو يومئذ غلام يفعة، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له وكان أبوه (حارثة) حين فقده قال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحىٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائلٌ	أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ١/ ٢٧) ـ تهذيب الكمال (٤٥٣) ـ المسند للإمام أحمد (٤/ ١٦١).

فياليت شعرى هل لك اليوم رجعة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل
تُذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غَربها أَفَلْ
وإن هبت الأرواح هيَّجن ذكره ... فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى على منيتى ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل
وأوصى به قيسًا وعمرًا كليهما ... وأوصى يزيدًا ثم من بعده جبل

يعنى جبلة بن حارثة أخا زيد، ويزيد أخو زيد لأمه.

فحجَّ ناس من كعب فرأوا زيدًا فعرفهم وعرفوه، فقال: أبلغوا أهلى هذه الأبيات فإنى أعلم أنهم قد جزعوا علىَّ، وقال:

ألكنى إلى قومى وإن كنت نائيًا ... فإنى قطين البيت عند المشاعر
فكفوا عن الوجد الذى قد شجاكم ... ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر
فإنى بحمد الله فى خير أسرة ... كرام معد كابرًا بعد كابر

فانطلَقوا فأعلموا أباه فخرج حارثة وكعب بن شراحيل بفدائه، فقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فقيل: هو فى المسجد فدخلا عليه فقالا: يا ابن هاشم، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العانى، وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه، فإنا سنرفع لك فى الفداء. قال: ما هو؟ قالوا: زيد بن حارثة. فقال رسول الله ﷺ فهلا غير ذلك؟ قالوا: ما هو؟ قال: ادعوه فخيِّروه فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا. قالوا: قد زدتنا على النصف وأحسنت.

فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبى وهذا عمى. قال: فأنا من قد علمت، ورأيت محبتى لك فاخترنى أو اخترهما. فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا. أنت منى بمنزلة الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك؟ قال: نعم. إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا أبدًا. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: يا من حضر اشهدوا أن زيدًا ابنى يرثنى وأرثه... فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.

زواجه من زينب بنت جحش (رضي الله عنها)

* ولما جاءَ اللهُ بالإسلام، زوَّجَهُ رسولُ اللهِ ﷺ ابنةَ عمته زينبَ بنتَ جحش بنِ رياب الأسدي، وأمُّها: أميمةُ بنت عبد المطلب بن هاشم، فطلَّقَها زيدٌ بعد ذلك، فتزوَّجها رسولُ الله ﷺ، فتكلَّم المنافقونَ في ذلك، وطعنُوا وقالوا: محمدٌ يحرِّمُ نساءَ الولد، وقد تزوَّجِ امرأةَ ابنه زيد، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيءٍ عليما﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقال الله أيضًا: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ [الأحزاب:٥] فدُعي يومئذ زيد بن حارثة.

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة

قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينا﴾ [الأحزاب:٣٦].

روى أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ حينما أراد النبى ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. وكان الموالى ـ وهم الرقيق المحرر ـ طبقة أدنى من طبقة السادة. ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الذى تبناه. فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بنى هاشم، قريبته ـ ﷺ ـ زينب بنت جحش، ليُسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه، فى أسرته. وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعى من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة، وتسير البشرية كلها على هُداه فى هذه الطريق.

روى ابن كثير فى التفسير قال: قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: قوله تعالى: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة»، الآية. وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله عنها ـ فخطبها، فقالت: لست بناكحته! فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه» قالت: يا رسول الله. أؤامر فى نفسى؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا».. الآية. قالت: قد رضيته لى يا رسول الله منكحًا؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»! قالت: إذن لا أعصى رسول الله ﷺ قد

أنكحته نفسي![1].

وساق زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهمًا، ودرعًا، وخمارا، وملحفة وإزارًا، وخمسين مُدًّا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، أعطاه ذلك كله الحبيب المصطفى ﷺ .

واستمرت الحياة الزوجية بينهما قرابة سنة ثم بدأت الخلافات الزوجية تنشأ بينهما مما جعل هذا الزواج يخلو من المحبة والصفاء والمودة.

وكان (زيد) يشكوها للحبيب ﷺ فكان يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» فكان ﷺ ينصحه بإمساكها ولكن الله يريد خلاف ذلك «والله غالبٌ على أمره» فالله (عز وجل) يريد أن تكون (زينب) زوجة للحبيب ﷺ ليبطل عادة التبنى ولأن العرب قبل الإسلام كانوا لا يتزوجون أزواج أدعيائهم[2] إذا قضوا منهن وطرًا فكان لابد من القضاء على تلك العادة الجاهلية.

وازدادت الفجوة بين زيد وزينب (رضي الله عنها) يومًا بعد يوم حتى وصلت الحياة بينهما إلى طريق مسدود فكان لابد من الطلاق فجاء أمر الله (عز وجل) فأذن بطلاقها وأمر رسول الله ﷺ بزواجها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السُّدى فساقها سياقًا واضحًا حسنًا ولفظه «بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه فكان يستحى أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله

(١) فى ظلال القرآن/ سيد قطب (٥/ ٢٨٦٥).

(٢) الدعى: هو من يُدعى لغير أبيه.

ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً... وعنده من طريق على بن زيد عن على بن الحسين ابن على قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك قال الله: قد أخبرتك أنى مزوجكها، وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه[1].

وهكذا أصبحت أماً للمؤمنين

فلم طلق (زيدٌ) (زينب) ـ رضى الله عنهما ـ وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ لتنال أعظم منقبة فى الكون كله فتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولتكون أمًّا للمؤمنين.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب:٣٧] نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة[2].

وعن أنس (رضى الله عنه) قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها علىَّ» قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن... قال: فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله ﷺ كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فأُلقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب. قال ووُعظ القوم بما وعظوا به.

زاد ابن رافع فى حديثه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ

---

(١) فتح البارى/ (٨/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه البخارى(٤٧٨٧) والترمذى (٣٢١٣) والحاكم (٢/ ٤١٧)

إناه﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾ (١) [الأحزاب:٥٣].

فكان من بركات زينب (رضى الله عنها) ومن فضائلها نزول آية الحجاب بسببها وذلك فى صبيحة عُرسها.

الله يأمر بزواجها من فوق سبع سماوات

والله لكأنى أجد الكلمات تتوارى خجلاً وحياءً أمام تلك المنقبة العظيمة..فالله هو الذى أمر بزواجها من فوق سبع سماوات ولذلك كانت تفتخر أمنا زينب (رضى الله عنها) بهذه المنقبة التى لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

* عن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول زوَّجكن أهاليكن وزوَّجنى الله تعالى من فوق سبع سموات(٢).

وقفة لطيفة

قال الإمام القرطبى: قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلى ـ رضى الله عنه ـ كان يقال: زيد بن محمد حتى نزل: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة ـ وحُرِّم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعُلِمَ وحشته من ذلك؛ شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحداً من أصحاب النبى ﷺ وهى أنه سمّاه فى القرآن، فقال تعالى: ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطرًا﴾ [الأحزاب:٣٧] يعنى: من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه فى الذكر الحكيم، حتى صار قرآنًا يُتلى فى المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان فى هذا تأنيس له، وعوَضٌ من الفخر بأُبوة محمد ﷺ له، ألا ترى إلى قول أبّى بن كعب حين قال له النبى ﷺ: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا». فبكى وقال: أوَ ذُكرتُ هنالك؟، وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر أن الله تعالى ذكره: فكيف بمن صار اسمه قرآنًا يُتلى مُخلداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدًا، لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٨) والنسائى (٦/ ٨٠٧٩) وأحمد(٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦).
(٢) أخرجه البخارى(٧٤٢٠) والترمذى(٣٢١٣).

العالمين، إذ القرآن كلام الله القديم وهو باق لا يبيد، فاسم زيد فى الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، تذكره فى التلاوة السفرة الكرام البررة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبى من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله تعالى له مما نزع عنه، وزاد فى الآية أنه قال: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه﴾ [الأحزاب:٣٧] أى بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت(١).

* وأستطيعُ أنْ أقولَ: إنَّ فراسة زيد بن حارثة هى نوعٌ منْ وحى الإلهام، وهى نفحةٌ كريمةٌ منَ نَفَحات الإنعام الإلهىّ عليه؛ إذ اختارَ رسولَ الله ﷺ على أهْله وعشيرته الأقربين، ولم يعدلْ به أحدًا منْ خَلْق الله، لقد فضَّله على أبيه وعمّه، وعلى إخوته وبنى قومه، فحازَ بذلك فَخْرَ الدُّنيا، وعزَّها، وغنم غُنْمًا لا يمكن لنا أنْ نساويه بشىءٍ من الأشياء؛ لأنَّه أغلى منَ الأشياء قاطبة.

* ومنْ هذا المنطلق، بادَله الحبيبُ المصطفى ﷺ حبًا من نوع فريد، حتى لقد دعاهُ المسلمون: حِبّ رسول الله ﷺ ـ أى: محبوبه ـ وحَسْبُكَ بهذا اللقب شرفًا وتشريفًا، حيثُ رسولَ الله ﷺ طيّب لا يحبُ إلا طيبًا(٢).

قال أهل السير: وشهد زيد بدرًا، وأُحدًا، والخندق، والحديبية، وخيبر، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى المريسيع وخرج أميرًا فى سبع سرايا ولم يُسمّ أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن باسمه غيره(٣).

فى صحبة النبى ﷺ إلى الطائف

* وتمضى الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، ورسولُ الله ﷺ يدعو إلى الإسلام والدِّين الحنيف، فيُقبل مَنْ يُقبل، ويُعرضُ مَنْ يعرض، إلى أنْ كان العام العاشر منَ البعثة، وفيه تُوفى أَبو طالب وخديجة، وأخذَ المشركونَ ينالون منْ رسول الله ﷺ ، فخرجَ رسول الله ﷺ إلى الطَّائف ومعه مولاه زيد بن حارثة، فأقام مدَّةً يدعو بنى ثقيف إلى سبيل الله عزَّ وجلَّ، فلمَ يَجِدْ مِن أشرافهم آذانًا صاغية، ولا قلوبًا واعية يفقهون بها أو يعقلون.

---

(١) تفسير القرطبى (٨/ ٢٧٦).
(٢) فرسان من عصر النبوة (ص:١٣٤).
(٣) صفة الصفوة (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

* ولم يكتف هؤلاء بأنْ أعرضوا وعَمُوا وصمّوا عن الحقِّ، والهدى، والخير، وإنّما أغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونَه، ويرمونه بالحجارة حتى دمتْ عقباه، وزيد بن حارثة يدرأُ عنه، ويدفعِ حتى أُصيب فى وجهه بجراح، ومازالوا بهما حتى دخلا بُستانًا لعتبة وشيبةَ ابنى ربيعة وهما فيه، وعندها رجعَ سفهاء بنى ثقيف ومَنْ كان يتبعه.

* وجلسَ رسولُ الله ﷺ وزيدُ بنُ حارثة تحتَ ظلِّ شجرة منْ عنَب.

هنالك توجَّه رسولُ الله ﷺ إلى ربِّه يتضرَّع، ويدعو دعاءً يفيضُ إيمانًا، ويَسِيلُ يقينًا، وينضح بالرِّضا بما ناله فى الله عزَّ وجلَّ فقال(١):

«اللهمَّ إليك أشكو ضَعْفَ قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين! أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربِّي؛ إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني؛ أمْ إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمْري؟ إنْ لم يكن بكَ عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتَك أوسعُ لي. أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقتْ به الظُّلمات، وصَلُحَ عليه أمْرُ الدُّنيا والآخرة، منْ أنْ تنزلَ بي غَضبك، أو يحلّ عليَّ سخطك لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

* وبعد ذلك عادَ رسولُ الله ﷺ، ومولاه زيد إلى مكةَ المكرمة، إلى أنْ أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا، وهنالك استقرَّ زيدٌ مع المؤمنين الأبرار؛ ليغدو أحد فرسان مدرسة النُّبوة النُّجباء؛ الذين خُلدوا مع الخالدين فى دنيا الخلود.

هجرته وجهاده فى سبيل الله تعالى

* اشتدَّ أذى كفار قريش على المسلمين فى مكة المكرمة، فأذنَ الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة؛ ومالبثَ زيد أنْ كان فى طليعة المهاجرين؛ وفى المدينة المنورة عندما كان الرسول يؤاخي بين المسلمين، آخى بين «زيد بن حارثة» وبين عمِّه «حمزة بن عبد المطلب» سيد الشهداء، وعندما استشهد حمزة رضى الله عنه، آخى النبى ﷺ بين زيد وبين أحد النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة «أُسيد بن حضير» رضى الله عنه، ذلك الرجل الذى قال عنه الرسول ﷺ: «نعْم الرجلُ أُسيْد بن حضير».

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:١٣٧).
(٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة ـ وانظر البداية والنهاية (٣/ ١٣٦).

* بدأ زيد رضى الله عنه عملَهُ فى المدينة بإخلاص متزايد، واستمرَ حبُّ رسول الله ﷺ فى خدمة النبى...؛ أمّا فى الغزوات، فكانَ مثّال الجندى المخلصَ، والمحارب الشجاع، وعندما انتصرَ المسلمون فى غزوة بدر، أرسلَ النبى زيداً على ناقته القصواء ليبشِّرَ أهلَ المدينة بنصرِ المسلمين وسلامتهم، وكان معه فى زفّ البشارة «عبد الله بن رواحة» رضى الله عنهما.

* بلغ زيد منزلةً عظيمة عند المسلمين، وكانت عظمة منزلته مُستَمدة من احترام الرسول له، وقد بلغ منْ تقدير النبى لزيد أن استخلفه عليه الصلاة والسلام مرتين على المدينة؛ وأرسله أميراً على عَدَد من السرايا، كان أولها سريته التى خرج فيها إلى القَردة، وكان موفَّقًا فيها حيث استولى على عِير قريش وأموالهم[١].

أوسمة وضعها النبى ﷺ على صدر (زيد)

لقد امتلأ قلب النبى ﷺ حبًا لزيد بن حارثة حتى كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يلقبونه «بزيد الحب».

وها هو الحبيب ﷺ يقول له: «يا زيد أنت مولاى ومنّى وإلىَّ وأحبُّ القوم إلىَّ»[٢].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: «بعث النبى ﷺ بعثًا وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس فى إمارته فقال النبى ﷺ: إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة وإن كان لمن أحبِّ الناس إلىَّ، وإن هذا لمن أحبِّ الناس إلىَّ بعده»[٣].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيشٍ قط إلا أمَّره عليهم، وإن بقى بعده استخلفه[٤].

وعن سلمة بن الأكوع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٣٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٤) مطولاً، وابن سعد (٣/ ١/ ٢٩ ـ ٣٠) ورجاله ثقات. وصححه الحاكم (٣/ ٢١٧) ووافقه الذهبى، وحسنه الحافظ فى «الإصابة» (٤/ ٥٠).

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٣٠) ومسلم (٢٤٢٦).

(٤) رواه أحمد (٦/ ٢٥٤) والحاكم (٣/ ٢١٥) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: وسنده حسن.

حارثة تسع غزوات يؤمره رسول الله ﷺ علينا[1].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي، فكلَّمته في ذلك، فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله منك، وإنَّ أباه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك[2].

بل ها هو الحبيب ﷺ يقول: «دخلت الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة»[3].

فراق الحبيب عن حبيبه ﷺ

وعاش (زيد) ملازمًا للحبيب ﷺ ينهل من علمه وأخلاقه وهديه حتى أصبح زاهدًا عابدًا ورعًا... ولكن دوام الحال من المحال... فها هو الموت يأتي ليفرّق بين الحبيب وحبيبه. إنه هادم اللذات ومفرّق الجماعات.

ففي السنة الثامنة كانت أحداث غزوة مؤتة التي استُشهد فيها زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ بعد حياة طويلة قضاها مع حبيبه ﷺ .

عن عروة بن الزبير قال: بعث النبي ﷺ بعثًا إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثة فقال لهم : إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما وُدع عبد الله ابن رواحة مع من وُدع بكى فقيل له: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: والله ما بي حُب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وإن منكم إلا واردُها كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾ فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود.

فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ورفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله ابن رواحة:

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٣) والحاكم (٣/ ٢١٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: هو في البخاري في الثلاثيات.

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة (٤/ ٥٠) وقال: صحيح.

(٣) رواه الروياني والضياء عن بريدة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٦٦).

لكنّنى أسـألُ الرحمـنَ مغفرةً ... وضربةً ذات فرغٍ تقـــذفُ الزَّبدا

أو طعـنةً بيـدى حرانَ مجهزةً ... بحربة تنفـذ الأحشاءَ والكبـدا

حتى يقولوا إذا مرّوا على جَدَثى ... أرشدهُ اللـهُ من غـازٍ وقـد رشدا

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يودعه فقال:

يثبتُ اللـهُ مــا أتاكَ من حُسنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذى نصروا

إنى تفرّســتُ فيــكَ الخيرَ نافلةً ... فراسةً خالفتهم فى الذى نظروا

أنتَ الرسولُ فمن يُحرَم نوافله ... والوجهَ منهُ فقد أزرى به القـدرُ

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرئٍ ودعته ... فى النخل غير مودع وكليل

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغهم أن هرقل فى باب من أرض البلقاء فى (مائة ألف) من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلى فى (مائة ألف) عليهم رجل يلى أخذ رايتهم يقال له ملك بنى زانة، فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له، فشجّع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها فقاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام[1].

فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه وتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمـتُ يا نفسى لتنزلنـهُ ... طائعــــة أو لتكرهنّــه

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات إلى عروة ـ مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٩).



مـا لي أراك تكرهيـن الجنّةَ إن أجلب الناس وشدوا الرنّةَ
لطالما قـد كنت مُطمئنـة هل أنت إلا نطفةٌ فـى شنّة

وقال عبد الله بن رواحة:

يا نفسي إلا تُقتلي تموتي هذا حمامُ الموت قد صليت
ومـا تمنيتِ فقـد لقيتِ إن تفعلي فعلهما هُديتِ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس فقال: وأنت فى الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى عجلان وقال: يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف»[(١)].

عن أنس رضى الله عنه: «أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم: فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[(٢)].

وهكذا كان هذا اليوم موعداً لفراق الحبيب عن حبيبه إلى أن يلتقيا فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن زيد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات (٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠) مجمع الزوائد.
(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٥٨٥) المغازى.



من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة

محمد رسول الله ﷺ

إن من يختار الله ورسوله ﷺ فإن الله يختاره على مَن سواه بل ويبارك فيه وفي ذريته ويؤثرهم على مَن سواهم.

وها هو زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ الذى تبناه الحبيب ﷺ قبل أن يحرِّم الإسلام التبنى فكان يُسمَّى (زيد بن محمد) فلما نزل قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ دُعى يومئذ بزيد بن حارثة.

إنه الرجل الذى اختار رسول الله ﷺ على أبيه وعمه، فقال له الحبيب ﷺ: «يا زيد أنت مولاى ومنِّى وإلىَّ وأحبُّ القوم إلىَّ»(١).

وتزوج زيد بأم أيمن (بركة الحبشية) ـ رضى الله عنها ـ حاضنة رسول الله ﷺ بعد وفاة أُمه، فكان النبى ﷺ يحبها حبًا لا يقل عن حبه لأمه.

وفى يوم من الأيام رأى المسلمون بشائر الفرحة والسرور والسعادة على وجه النبى ﷺ فعلموا أن (أم أيمن) أنجبت غلامًا... فيا تُرى من هذا الغلام الذى فرح النبى ﷺ بقدومه؟!

إنه أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ حِب رسول الله ﷺ وابن حِب رسول الله ﷺ الذى أحبه النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده.

لقد كان أسامة ـ رضى الله عنه ـ مالكًا لكل الصفات العظيمة التى تجعله قريبًا من قلب الرسول.. وكبيراً فى عينيه...

فهو ابن مُسْلمَين كريمين من أوائل المسلمين سَبْقًا إلى الإسلام، ومن أكثرهم ولاءً للرسول وقُربًا منه.

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢١٧) وصححه ووافقه الذهبى.

وهو من أبناء الإسلام الحنفاء الذين وُلدُوا فيه، وتلقَّوا رضعاتهم الأولى من فِطْرته النقية، دون أن يدركهم من غبار الجاهلية المظلمة شيء.

وهو ـ رضى الله عنه ـ على حداثة سنه، مؤمن صُلْب، ومسلم قوى، يحمل كل تبعات إيمانه ودينه. فى ولاءٍ مكين، وعزيمة قاهرة...

وهو مُفْرط فى ذكائه، مفرط فى تواضعه، ليس لتفانيه فى سبيل الله ورسوله ﷺ حدود[(١)].

حُبّ النبى ﷺ لأسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ

لقد بلغت محبة النبى ﷺ لأسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ مبلغًا عظيمًا يعجز القلم عن وصفه ولا حتى عن مجرد ذِكره.

وحسبُنا والله أن نتأمل تلك المشاهد العطرة التى حدثت بين النبى ﷺ وبين أسامة ـ رضى الله عنه ـ وأن نتدبر كلمات الحبيب ﷺ له.

قال ﷺ: «أسامة أحبُّ الناس إلىَّ»[(٢)].

وقال أسامة: كان النبى ﷺ يأخذنى والحسن فيقول: «اللهم إنى أُحبُّهما فأحِبَّهما»[(٣)].

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: أراد النبى ﷺ أن ينحِّى مخاط أسامة. قالت عائشة: حتى أكون أنا الذى أفعل قال: «يا عائشة أحبِّيه فإنى أُحبه»[(٤)].

وعن عائشة قالت : عثر أسامة بعتبة الباب فشُجَّ فى وجهه فقال لى رسول الله ﷺ: «أميطى عنه الأذى» فقذرته فجعل يمص الدم ويمجّه عن وجهه ويقول: «لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أنفقه»[(٥)].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال أمَّر رسول الله ﷺ أسامةَ على قوم فطعنوا فى إمارته فقال: «إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبله، وايمُ اللَّه لقد كان

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٦٥٤).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٩٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلمٍ ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٧٠) فضائل أصحاب النبى ﷺ ـ وأحمد (٥/ ٢١٠).

(٤) قال الأرنؤوط: رواه الترمذى (٣٨١٨) فى المناقب. وإسناده حسن.

(٥) رواه أحمد (٦/ ١٣٩، ٢٢٢)، وابن أبى شيبة (١٢٣٥٦) وقال العدوى: إسناده صحيح لغيره.

خليقًا للإمارة، وإن كان من أحبِّ النَّاس إلىَّ، وإن هذا لمن أحبِّ الناس إلىَّ بعده»(١).

بل لقد علم الناس مكانة (أسامة) عند رسول الله ﷺ حتى إنهم عندما أرادوا واحدًا يشفع للمرأة المخزومية لم يفكروا إلا فى أسامة ـ رضى الله عنه ـ.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن قريشًا أهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التى سرقت فقالوا: من يُكلم فيها رسول الله ﷺ، ومن يجترئ عليه إلا أسامةَ حِبُّ رسول الله ﷺ ؟ فكلَّم رسول الله ﷺ فقال: «أتشفعُ فى حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب فقال: «يا أيها الناس إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانُوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها»(٢).

وعن الشعبى: أن عائشة قالت: ما ينبغى لأحد أنْ يُبغض أسامة، بعد ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كان يُحبُّ الله ورسوله، فليُحبَّ أسامة»(٣).

بل لقد كان النبى ﷺ مع حُبه الشديد لأسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ وأبيه وأمه (أم أيمن) ـ رضى الله عنها ـ فقد كان ﷺ يحب ذرية أم أيمن الذين رآهم والذين لم يرهم.

فعن حرملة مولى أسامة بن زيد أنه بينما هو مع عبد الله بن عمر إذ دخل الحجاج بن أيمن فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال أعِدْ فلما ولَّى قال لى ابن عمر: من هذا؟ قلت: الحجاجُ بن أيمنٍ بن أم أيمن. فقال ابن عمر: لو رأى هذا رسول الله ﷺ لأحبَّه فذكر حبه وما ولدتْه أمُّ أيمن(٤).

وعن عبد الله بن دينار قال: نظر ابنُ عمر يومًا ـ وهو فى المسجد ـ إلى رجل يَسحبُ ثيابه فى ناحية من المسجد فقال انظر من هذا؟ ليت هذا عندى. قال له إنسان: أما تعرفُ هذا يا أبا عبد الرحمن؟ هذا محمدُ ابن أسامة قال: فطأطأ ابن عمر رأسهُ ونقر بيديه فى الأرض ثم قال: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبَّه»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٥٠) ومسلم (٢٤٢٦) والترمذى (٣٨١٦).
(٢) أخرجه البخارى (٦٧٨٨) ومسلم (١٦٨٨) والترمذى (١٤٣٠).
(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٨٦) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.
(٤) أخرجه البخارى (٣٧٣٧).
(٥) أخرجه البخارى (٣٧٣٤).

بل إن النبي ﷺ كان حريصًا على دفع أي شُبهة تؤذي أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل عليَّ قائفٌ والنبي ﷺ شاهد وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض قال: فسرَّ بذلك النبي ﷺ وأعجبه، فأخبر به عائشة[1].

وها هو ﷺ يختاره زوجًا ويزكِّيه (لفاطمة بنت قيس) رضي الله عنها.

فعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم، قال: دَخلتُ على فاطمة بنت قيس، وقد طلَّقها زوجُها ـ... الحديث ـ فلما حَلَّتْ، قال رسول الله ﷺ: «هل ذكرك أحدٌ»؟ قالت: نعم، معاوية وأبو الجهم. فقال: «أمَّا أبو الجهم فشديدُ الخُلُق، وأما معاوية فصعلوك، لا مال له. ولكن أُنكحُكِ أسامة»؟ فقلتُ: أسامة! ـ تهاونًا بأمر أسامة ـ ثم قلتُ: سمعًا وطاعةً لله ولرسوله.

فزوجنيه، فكرَّمني الله بأبي زيد، وشرَّفني الله، ورفعني به[2].

وكما أحبَّ الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أسامة في صغره فقد أحبه في شبابه، فلقد أهدى حكيم بن حزام أحدُ سراةِ[3] قريش لرسول الله ﷺ حُلة ثمينة شراها من «اليمن» بخمسين دينارًا ذهبًا كانت «لذي يزن» أحد ملوكهم.

فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل هديته لأنه كان يومئذ مشركًا، وأخذها منه بالثمن.

وقد لبسها النبي الكريم ﷺ مرةً واحدةً في يوم جمعة، ثم خلعها على أسامة بن زيد، فكان يروح بها ويغدو بين أترابه من شُبان المهاجرين والأنصار[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٣١) ومسلم (١٤٥٩). قال النووي رحمه الله (٣/ ٦٤١): قال القاضي: قال المازري: وكانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبيض، كذا قاله أبو داود عن أحمد بن صالح، فلما قضى هذا القائف بإلحاق نسبه مع اختلاف اللون، وكانت الجاهلية تعتمد قول القائف فرح النبي ﷺ لكونه زاجرًا لهم عن الطعن في النسب، قال القاضي: قال غير أحمد بن صالح: كان زيد أزهر اللون، وأم أسامة هي أم أيمن واسمها (بركة) وكانت حبشية سوداء، قال القاضي: هي بركة بنت محصن بن ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠) (٤٩).

(٣) السَّراة بفتح السين: الأشراف.

(٤) صور من حياة الصحابة (ص ٢٢٧).

بل ها هو الحبيب ﷺ فى مرضه الذى مات منه يدخل عليه أسامة فما كان من النبى ﷺ إلا أن دعا له. فعن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما ثقل رسول الله هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبّها علىَّ أعرف أنه يدعو لى(١).

جهاده فى سبيل الله تعالى

ولقد كان أسامة ـ رضى الله عنه ـ يتمنى الشهادة فى سبيل الله من أعماق قلبه ويبحث عنها فى مظانها.

فى غزوة أحد

ففى يوم (أُحُد) أراد أن يقاتل وأن يجاهد فى سبيل الله عساه أن يظفر بالشهادة فى سبيل الله، لكن النبى ﷺ ردَّه ـ لصغر سنه ـ هو ومجموعة من الشباب المسلم الذى امتلأ قلبه حبًا لله ولنُصرة دين الله.

فعاد أسامة وقلبه يتمزق حُزنًا وكَمداً لحرمانه من الجهاد فى سبيل الله.

وفى غزوة الخندق

وفى غزوة الخندق عـاد أسامـة ـ رضى الله عنه ـ مرة أخرى يعرض نفسه على رسول الله ﷺ عسى أن يقبله مجاهداً فى سبيل الله تعالى فأشفق عليه الحبيب ﷺ لما رأى من شوقه للجهاد فأجازه فحمل السيف وهو ابن خمس عشرة سنة.

وفى غزوة مؤتة

وفى غزوة مؤتة كان (أسامة) يقاتل مع أبيه وتحت لوائه وكان عمره وقتها لم يبلغ الثامنة عشرة، وهناك على أرض الشرف رأى بعينيه مصرع أبيه،وقد شاط فى رماح القوم فقُتل شهيداً، وعلى الرغم من ذلك لم يضعف ولم يتكاسل لحظة واحدة عن أداء واجبه فقاتل تحت لواء جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حتى استُشهد ثم قاتل تحت لواء عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ حتى استُشهد ثم قاتل تحت لواء سيف الله خالد بن

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٠١) والترمذى (٣٨١٧) وقال الأرنؤوط: وسنده قوى..

الوليد ـ رضى الله عنه ـ حتى استطاع خالد ـ بإذن الله ـ أن يقوم بخطة رائعة للانسحاب فاستنقذ الجيش المسلم من براثن الروم الذين كان يبلغ عددهم مائتى ألف مقاتل وعدد المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل.

وعاد أسامة إلى المدينة وقد احتسب أباه عند الله وترك جسده الطاهر فى أرض الشرف والجهاد، وركب جواده الذى استشهد عليه وعاد.

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ لما قُتل زيد بن حارثة أبطأ أسامة عن النبى ﷺ فلم يأته ثم جاءه بعد ذلك فقام بين يدى النبى ﷺ فدمعت عيناه فبكى رسول الله ﷺ فلما نزفت عبرته قال النبى ﷺ: لمَ أبطأت عنا ثم جئت تُحزننا؟ قال: فلما كان الغد جاءه فلما رآه النبى ﷺ مُقبلاً قال: إنى للاقٍ منك اليوم ما لقيت منك أمس فلما دنا دمعت عينه فبكى رسول الله ﷺ [١].

ثباته مع النبى ﷺ فى غزوة حُنين

عن جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادى حُنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحدارًا، قال: وفى عَماية الصبح، وكانَ القومُ قد سبقونا إلى الوادى، فكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدُّوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوى أحدٌ على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «أين الناس؟ هلموا إلىَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفَر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علىٌّ بن أبى طالب، والعباسُ بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل ابن العباس، وربيعة ابن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمنُ ابن عبيد، قُتل يومئذ[٢].

---

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف (٦٦٩٨)، وقال الشيخ مصطفى العدوى: وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٦) وأورده الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٧٩) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورواه البزار مختصرًا وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فى رواية أبى يعلى وبقية رجاله رجال الصحيح.
أجوف: متسع. حطوط: منحدر. عماية الصبح: ظلامه قبل أن يتبين. الشعاب: الطرق الخفية. أحناؤه: جوانبه. انشمر الناس: انفضوا وانهزموا.

الحبيب ﷺ يعطى أسامة درسًا ينتفع به طوال حياته

وذات يوم تلقَّى أسامة من رسول الله درس حياته.. درسًا بليغًا، عاشه أسامة، وعاشته حياته كلها منذ غادرهم الرسول إلى الرفيق الأعلى ـ إلى أن لقى أسامة ربه فى أواخر خلافة معاوية.

قبل وفاة الرسول بعامين بعثه عليه السلام أميرًا على سرية خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين.

وكانت تلك أول إمارة يتولاها «أسامة»..

ولقد أحرز فى مهمته النجاح والفوز، وسبقته أنباء فوزه إلى رسول الله ﷺ ففرح بها وسُرّ[١].

ولكن أسامة ـ رضى الله عنه ـ قتل رجلاً من المشركين بعدما قال: لا إله إلا الله، فقال له رسول الله ﷺ: «لِمَ قتلته»؟ قال: يا رسول الله؛ أوجع فى المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا، وإنى حملت عليه، فلما رأى السيف، قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «أقتلته»؟ قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»؟ قال: يا رسول الله، استغفر لى[٢].

وفى رواية أخرى: وصف أسامة ـ رضى الله عنه ـ كيف قتل هذا الرجل وكان مع أسامة رجل من الأنصار.

قال أسامة ـ رضى الله عنه ـ: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم. قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ قال: فقال لى: يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنه إنما كان متعوذًا، قال: قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: فما زال يكررها علىَّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[٣].

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٦٥٧).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٣٩٨) المغازى ـ ومسلم (٩٦).

(٣) أخرجه البخارى (١٢/ ٦٨٧٢) ـ ومسلم (١/ ٩٧/ ١٥٩) واللفظ للبخارى.

وفي رواية قال: فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها عليَّ حتى لوددتُ أنَّ ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني كنت أسلمت يومئذ، وأني لم أقتله؛ قال: قلت: أنظرني يا رسول الله، أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبدًا، قال: «تقول بعدي يا أسامة»، قال: قُلت بعدك[١].

وإذا بهذا الدرس العظيم ينتفع به أسامة ـ رضي الله عنه ـ.

فإنه لما حدثت الفتنة بين (عليّ) و(معاوية) ـ رضي الله عنهما ـ اعتزل أسامة تلك الفتنة وقال: «لا أقاتل أحدًا يقول: لا إله إلا الله».

برّه بأمه

عن محمد بن سيرين قال: بلغت النخلة في عهد عثمان بن عفان ألف درهم. قال: فعمد أسامة إلى نخلة فعقرها فأخرج جمارها فأطعمه أمه، فقالوا له: ما يحملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ قال: إن أمي سألتنيه ولا تسألني شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها[٢].

إنفاذ بعث أسامة

كان ـ رضي الله عنه ـ على حداثة سنه مؤمنًا صلبًا ومسلمًا قويًا يحمل كل تبعات إيمانه ودينه، في ولاءٍ مكين، وعزيمة قاهرة جعلته قريبًا من قلب رسول الله ﷺ وكبيرًا في عينيه.

وفي سن مبكرة، لم تجاوز العشرين، أمَّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جيش، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر وسرت همهمة بين نفر من المسلمين تعاظمهم الأمر، واستكثروا على الفتى الشاب إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله لقد كان خليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده»[٣].

---

(١) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ١٤٢) وأصله في البخاري (١٢/ ٦٨٧٢).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢١٩).

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي، وأحمد في فضائل الصحابة، وابن سعد في الطبقات.

«بعث رسول الله ﷺ أسامة على جيش المسلمين إلى حيث قُتل أبوه والصحابة، وأمره أن يغير على «أُبْنَى» بالسراة ناحية البلقاء، وقيل: إلى «آبل الزيت» بنفس الجهة، وعقد له لواء فى آخر يوم من صفر سنة ١١هـ، ولكن مرض الرسول ﷺ مرضه الذى قبضه الله إليه فيه، فتأخر خروج الجيش حتى هلال ربيع الآخر سنة ١١هـ، وسار أسامة بجيشه ثلاثة آلاف يسرع السير على طريق ذى المروة ووادى القرى، فى اتجاه «أبنى» و«آبل الزيت»، من نواحى مؤتة، حتى إذا توسط مواطن (قضاعة) توقف يسيرًا، وبعث فرسانه لِيُنهضوا الثابتين منهم على إسلامهم، ويعينهم على من ارتدّ، وهرب المرتدون إلى مكان بعيد... إلى «دومة الجندل» فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبى، لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة، ولا على طريقه، فما إن عادت إلى خيوله، حتى مضى بجيشه إلى «الحمقتين» فأغار عليها، وكان بها بنو الضبيب من جذام، وبنو خيليل من لخم فهزم مَنْ هناك حتى «آبل» فى إغارة شديدة سريعة، وسبى وحرق بالنار منازلهم وحرثهم ونخلهم، حتى صارت أعاصير من الدخان، وأجال الخيل فى نواحيهم، وقضى يومه فى تعبئة ما أصابوا من غنائم، ثم لم يقم وإنما كرّ راجعًا من مساء يومه، حتى قدم وادى القرى فى تسع ليال، ثم قدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا، وقيل: غاب شهرين وأيامًا، عاد الجيش بلا ضحايا وقال عنه المسلمون يومئذ: «ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة»[1].

وكان هرقل بحمص حين بلغه ما صنع أسامة بعملائه العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته، فدعا بطارقته وقال لهم: «هذا الذى حذّرتكم فأبيتم أن تقبلوه منى، قد صارت العرب تأتى من مسيرة شهر فتُغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكلَم»[2]. أى تُجرح.

لقد حقق جيش أسامة هدفًا جليل الأثر، وأجلى مرتدى قضاعة عن طريق الشام، فرضى الله عن الشاب الربانى الحِب بن الحِب.

وظل أسامة ـ رضى الله عنه ـ ما امتدت به الحياة موضع إجلال المسلمين وحبهم وفاءً لرسول الله ﷺ وإجلالاً لشخصه.

فها هو عمر ـ رضى الله عنه ـ يحبه حبًا جمًا ، بل ويفضله على ابنه عبد الله بن

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ لخالد محمد خالد (ص ٤٤٩).

(٢) الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال، دار النفائس (ص ١٥٥).

عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

فعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب فضَّل المهاجرين الأولين وأعطى أبناءهم دون ذلك، وفضَّل أسامة بن زيد على عبد الله بن عمر فقال عبد الله ابن عمر: فقال لى رجل: فضَّل عليك أمير المؤمنين مَن ليس بأقدم منك سنًا ولا أفضل منك هجرة، ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد. قال عبد الله: وكلمته فقلت: يا أمير المؤمنين فضلت علىَّ من ليس هو بأقدم منى سنًا ولا أفضل منى هجرة، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد قال: ومن هو؟ قلت أسامة بن زيد قال: صدقت لعمر الله! فعلت ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر فلذلك فعلت(١).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة عذبة رقيقة مليئة بالحب والبذل والعطاء والتضحية والفداء نام (حِب رسول الله ﷺ) على فراش الموت، فلقد اشتاق الحبيب للقاء حبيبه ﷺ .

وفاضت روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ.

عن المقبرى، قال: شهدت جنازة أسامة، فقال ابن عمر: عجِّلوا بحِبٍّ رسول الله قبل أن تطلع الشمس(٢).

وهناك فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر يلتقى الأحباب والإخوان الذى اجتمعوا فى الدنيا على الحب فى الله.

فنسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجمعنا بالصالحين من أمة محمد ﷺ ، بل وأن يجمعنا بالحبيب محمد ﷺ ، وأن يرزقنا نعمة النظر إلى وجهه الكريم فى غير ضراء مُضرة ولا فتنة مضلة.

فرضى الله عن أسامة وعن أبيه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ٥٢)، وقال مصطفى العدوى: وهو صحيح لغيره.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٢/ ٤٠٢).



صاحب لواء الأنصار الغيور الكريم

إن صفة الشجاعة والكرم لا تجتمع فى رجلٍ إلا نادرًا.

ومن بين هؤلاء الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات: زعيم الخزرج السيد الكبير الشريف (سعد بن عبادة).

كان عقبيًا نقيبًا سيدًا جوادًا شهد العقبة، وكان أحد النقباء واختُلف فى شهوده بدرًا فأثبته البخارى.

كان يسمى فى الجاهلية «الكامل»

وكان سعد يكتب فى الجاهلية بالعربية، ويُحسن الرمى، والعوم، وكانت العرب تسمى من اجتمعت هذه الأشياء فيه: الكامل(١).

وعن ابن عباس قال: كان لواءُ رسول الله ﷺ مع علىّ، ولواءُ الأنصار مع سعد بن عُبادة(٢).

ومن هنا كانت البداية

لقد كان (سعد) يفكر كثيرًا فى تلك الجاهلية التى يعيشها الناس من حوله.. وكيف يمكن أن تتحول تلك القلوب الميتة والضمائر الخربة إلى قلوبٍ وضمائر حية تسير مع الحق أينما سار.

وعلى الرغم من مكانته السامقة بين الناس إلا أنه كان يتمنى من أعماق قلبه أن يعيش الناس فى محبة ووئام وسلام بدلاً من العداء المشتعل بين القبائل ـ وإن كان ذلك على حساب مكانته ـ.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢١٠).

(٢) ذكره الحافظ فى الإصابة (٤/ ١٥٢) ـ أخلاق النبى ﷺ لأبى الشيخ (ص ١٤٥).

وشاء الحق ـ جل جلاله ـ أن يبعث الحبيب ﷺ بهذا الدين العظيم ليأخذ بأيدي الناس من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وكان الحبيب ﷺ يدعو الناس ويخرج إليهم في مواسم الحج إلى أن أسلم على يديه ستة من أهل يثرب (المدينة) وواعدوا رسول الله ﷺ على إبلاغ رسالته في قومهم، وكان ذلك في موسم الحج سنة (١١) من البعثة.

وفي موسم الحج سنة (١٢) من البعثة جاء اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد أسلموا في العام الماضي وسبعة سواهم فأسلموا.

وبعد أن تمت بيعة العقبة الأولى بعث النبي ﷺ مع هؤلاء سفير الدعوة الأول (مصعب بن عمير) ـ رضي الله عنه ـ ليعلم الناس شرائع الإسلام ويدعوهم إلى الله تعالى حتى إنه لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

موقف مع الحبيب ﷺ

وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشر من البعثة جاء إلى الحبيب ﷺ بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب وبايعوا الحبيب ﷺ بيعة العقبة الثانية، وكان من بين هؤلاء السعداء (سعد بن عبادة) ـ رضي الله عنه ـ.

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ منهم انتخاب اثني عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة فكان من بين هؤلاء النقباء ـ سعد بن عبادة ـ.

ولما علمت قريش بأمر بيعة العقبة خرجوا إليهم ليتأكدوا من هذا الأمر فلما أيقنوا بأن البيعة قد حدثت خرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ـ وكلاهما كان نقيبًا ـ فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عُنقه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمته ـ وكان ذا شعرٍ كثير ـ.

قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض شَعشاع حلو من الرجال.

قال: فقلت في نفسي: إن يكُ عند أحد من القوم خَير فعند هذا؛ قال: فلما دنا مني رفع يدَه فَلكَمني لكمةً شديدة. قال: فقلت في نفسي: لا والله ما عِندهم بعد هذا من خَيْر قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوَى إليَّ رجلٌ ممن كان معهم، فقال: وَيْحك!

أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عَهْد؟ قال: قلت: بلى، والله، لقد كنت أُجير لجبير بن مُطْعم بن عدىّ ابن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى وللحارث بن حَرْب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف؛ قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجلُ إليهما، فوجدَهما فى المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً؛ قالا: ومَنْ هو؟ قال: سعد بن عُبادة؛ قالا: صدق والله، إن كان ليُجير لنا تُجارنَا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلّصا سعداً من أيديهم، فانطلق، وكان الذى لَكَم سعداً (سهيلُ بن عمرو)، أخو بنى عامر بن لُؤى[١].

وبعد ذلك عاد (سعد) إلى (يثرب) وقد امتلأ قلبه حقداً وكُرهًا على هؤلاء المشركين الذين أعلنوا حملتهم الشرسة ضد النبى ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

ولما أَذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة أحس (سعد) بأنه قد حاز الدنيا بكل ما فيها، فلقدَ امتلأ قلبه بالسعادة التى لو وُزعت على أهل الأرض لأسعدتهم جميعًا.

وهناك بدأ (سعد) يسخِّر أمواله لخدمة الحبيب ﷺ ولخدمة إخوانه المهاجرين ـ رضى الله عنهم ـ وعن الأنصار.

جفنة سعد تدور على بيوت أزواج النبى ﷺ

ولقد ضرب سعد بن عبادة المثل الأعظم فى الجود والكرم...

عن محمد ابن سيرين، قال: كان أهل الصُفة ـ الفقراء الذين لا يجدون ما يسدّ جوعتهم ـ إذا أمسوا انطلق الرجل بالرجل، والرجل بالرجلين، والرجل بالخمسة، فأما سعد بن عبادة فكان ينطلق بثمانين كل ليلة.

وعن يحيى بن أبى كثير قال: كانت لرسول الله ﷺ من سعد بن عبادة جفنة من ثريد ـ نوع من الطعام ـ فى كل يوم، تدور معه أينما دار من نسائه. وكان إذا انصرف من صلاة مكتوبة قال: اللهم ارزقنى مالاً أستعين به على فعالى فإنه لا يصلح الفعال إلا المال[٢].

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٤٥): رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢١١).

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان سعد بن عبادة يقول: اللهم هب لى مجداً، ولا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. اللهم لا يصلحنى القليل ولا أصلح عليه، ولو كان مناديًا ينادى على أُطمة من كان يريد الشحم واللحم فليأت سعداً[١].

شجاعته وثباته على الحق

وها هو سعد بن عبادة الذى كان سيداً فى الجاهلية يأبى إلا أن يكون سيداً فى الإسلام فيقف هذا البطل الشجاع الذى امتلأ قلبه بالإيمان ورسخ إيمانه بالعقيدة التى سكبها النبى ﷺ فى قلوب أصحابه.

ها هو بطلنا يقف موقفًا عظيمًا يوم بدر.

فعن أنس أن رسول الله ﷺ شاور[٢] حين بلغه إقبال أبى سفيان، قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه. ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد؟ يا رسول الله! والذى نفسى بيده! لو أمرتنا أن نخوض البحر لأخضناها[٣]. ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها[٤] إلى برك الغماد[٥] لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ الناس. فانطلقوا حتى نزلوا بدراً...»[٦].

غيرة سعد

ولا عجب أن نجد هذا البطل ـ الكريم الشجاع ـ غيوراً على عرضه وشرفه فى الوقت الذى نجد فيه كثيراً من المسلمين قد نزع الله الغيرة من قلوبهم فتجد الواحد منهم يترك ابنته وزوجته وأخته تخرج سافرة متبرجة لتفتن الشباب المسلم عن دينه ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٥٣)، وقال العدوى: إسناده صحيح..

(٢) أى شاور الناس لما بلغه إقبال أبى سفيان مع عير قريش،وكان مشاورته لهم للخروج للقاء العير.

(٣) (أن نخيضها البحر لأخضناها) يعنى الخيل.أي لو أمرتنا بإدخال خيولنا فى البحر وتمشيتنا إياها فيه لفعلنا.

(٤) (أن نضرب أكبادها) كناية عن ركضها. فإن الفارس إذا أراد ركض مركوبه يحرك رجليه من جانبه، ضاربًا على موضع كبده.

(٥) برك الغماد: قيل هو موضع من وراء مكة بخمس ليالٍ بناحية الساحل. وقال القاضى وغيره: هو موضع بأقاصى هجر.

(٦) أخرجه مسلم (١٧٧٩).

عن أبي هريرة قال: قال سعد بن عبادة: يا رسول الله! لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله ﷺ «نعم» قال: كلا والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم، إنه لغيور وأنا أغير منه، والله أغير مني»[١].

وفي رواية أخرى: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَح فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: أتعجبون من غَيرة سعدٍ؟ لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ مني[٢].

الفوز بدعاء النبي ﷺ

عندما أتذكر كيف عاش الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع الحبيب ﷺ يدعوهم ويدعو لهم ويعلمهم ويبشرهم بالجنة فإنني أجد قلمي عاجزاً عن وصف تلك المشاهد العظيمة وتلك اللحظات التي لا تتكرر أبداً على مدى العصور والأزمان. فهنيئًا لهؤلاء الصحب الكرام الذين صحبوا النبي ﷺ وفازوا بصحبته.

عن جابر بن عبد الله قال: أمر أبي بخزيرة فصُنعت، ثم أمرني فأتيت بها النبي ﷺ قال: فأتيته وهو في منزله قال: فقال لي: «ماذا معك يا جابر ألحم ذي؟» قال: قلت: لا. قال: فأتيت أبي فقال لي: هل رأيت رسول الله ﷺ ؟ قلت: نعم. قال: فهلا سمعته يقول شيئًا؟ قال: قلت: نعم. قال لي: «ماذا معك يا جابر ألحم ذي؟» قال: لعل رسول الله ﷺ أن يكون اشتهى، فأمر بشاة لنا داجن فذُبحت، ثم أمر بها فشُويت، ثم أمرني فأتيت بها النبي ﷺ فقال لي: «ماذا معك يا جابر» فأخبرته، فقال لي: «جزى الله الأنصار عنا خيراً، ولاسيما عبد الله بن عمرو بن حرام وسعد بن عبادة»[٣].

النبي ﷺ يبكي حزناً عليه في مرضه

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله، فقال: «قد قضى؟» قالوا: لا يا

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (١٤٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٨٤٦) وأحمد (٤/ ٢٤٨).
(٣) رواه أبو يعلى (المسند ٤/ ٦٠ ـ ٦١) وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٩١).

رسول الله. فبكى النبي ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: «ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»(١).

ورحل البطل الشجاع الكريم الغيور عن دنيا الناس ـ في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليتجدد اللقاء بينه وبين النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في جنات النعيم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

والجزاء من جنس العمل.. فكما كان يطوف بطعامه على بيوت النبي ﷺ والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فسوف يطوف عليه في الجنة (إن شاء الله) الولدان المخلدون بطعام وشراب أهل الجنة الذي لا يخطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ **[الواقعة:١٧:٤٠].**

وقال تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

[الإنسان:١٣:٢٢].

فرضي الله عن سعد وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٤) عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ



أبو سفيان بن الحارث من خير أهلي
أرجو أن يكون خلفًا من حمزة

محمد رسول الله ﷺ

لقد كان أبو سفيان من أجمل فتيان مكة، بل كان فارسًا من أقوى وأشجع فرسانها.. نشأ في مكة وتربى بين ربوعها.

إنه أبو سفيان آخر غير أبي سفيان بن حرب. إنه ابن عم النبي ﷺ وكان أخًا له من الرضاعة فقد أرضعته حليمة السعدية أيامًا، وكان ترب رسول الله ﷺ يألفه إلفًا شديدًا ويحبه من كل قلبه حتى إنه كان يُشبه النبي ﷺ. ولكنك تعجب عندما تعلم أن أبا سفيان الذي كان الناس جميعًا يعتقدون أنه سيسلم مع النبي ﷺ من أول وهلة، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يُسلم وليس ذلك فحسب، بل إنه كان من أشد الناس عداوة للحبيب ﷺ فقد أطلق العنان للسانه وسنانه لمعاداة النبي ﷺ.. فاستحالت بذلك الصداقة والأخوة إلى عداوة شديدة... والرحم إلى قطيعة.

واجتهد أبو سفيان منذ تلك اللحظة أن يكون صاحب النصيب الأوفر من العداوة والأذى للرسول ﷺ ولأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

ولقد كان شاعرًا من الشعراء المعدودين فأطلق لشعره العنان في هجاء الرسول ﷺ فقال فيه كلامًا بذيئًا.

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

* انتشرَ الإسلامُ في مكةَ، ودخل النّاسُ فيه أرسالاً(١) منَ الرّجال والنساء،واستمرّت الدّعوةُ إلى الإسلام إلى أنْ بايعَ الأنصارُ الرسولَ ﷺ ، وهاجرَ إلى المَدينة المنوّرة، واستقرّ المسلمونَ فيها...، حدثَ هذا كلُّه، وأبو سفيانَ بنُ الحارثَ ما يزالُ يسخِّرُ طاقاته جميعِها

(١) أرسال: جمع رَسَل وتعني جماعات.

لحرب الإسلام والمسلمين، ولما خاضت قريشٌ معركة بدْر كان أبو سفيانَ بنُ الحارث فى الصفوف الأولى مُشْهرًا سيفَه ولم يكتفِ بهذا فحسب، بل راحَ يرسلُ أشعارًا فى هجاء الرسول ﷺ وأصحابه(١)، ومكثَ فى عداوته زمنًا طويلاً يعاندُ رسولَ الله ﷺ ، وقد رُوِى أنه لم يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ ، فما من قتال إلا وكانَ فى المقدمةِ يحاربُ بسلاحَيْن (سيفه ولسانه) بل لم يتركْ نوعًا منْ أنواع الأذى للمسلمين إلا أَدلى فيه دَلْوَهُ ونالَ منهم، وقد تعرَّضَ أبو سفيان بنُ الحارث لحسّان ابنِ ثابت شاعرِ الرسولِ وهجاه فقال:

أبوكَ أبو سَوءٍ وخالُك مثْله ... فلست بخيرٍ منْ أبيكَ وخالكا
وإنَّ أحقَّ النّاسِ ألاَّ تلومَه ... على اللؤمِ منْ ألفى أباهُ كذلكَا(٢)

فقال فيه حسان:

ألا أبلغ أبا سفيانَ عنى ... مغلغلةً فقد برحَ الخفاءُ
هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ
أتهجوهُ ولستَ له بكُفْءٍ ... فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ(٣)

* وتمضى الأيام، وأبو سفيانَ بنُ الحارث يسيرُ فى طريق العناد والخلاف، وإذا فاتَته معركةٌ ضدَّ المسلمينَ لمْ يشاركْ فيها بسيفه كانَ لسانُه بالمرصاد...، ففى غزوة بنى النَّضير لما أجْلاهم رسولُ الله ﷺ عنِ المدينة، يرسلُ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ أشعارَه فى هجاءِ المسلمينَ(٤).

من الظلمات إلى النور

وبعد عداوة دامت نحوًا من عشرين عامًا بزغ النور فى قلب أبى سفيان وأذن الله لهذا القلب أن يسكنه نور الإيمان والتوحيد.

(١) انظر السيرة الحلبية (١/ ١٣٩) ومما هو جدير بالذكر أن إخوته الثلاثة قد سبقوه إلى الإسلام وهم: نوفل، وربيعة، والحارث.
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٥٠) تحقيق محمود محمد شاكر.
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٠٣)
(٤) رجال مبشرون بالجنة (ص:١٣٢:١٣٥) بتصرف.

آن الأوان لهذا الجسد ولهذا اللسان - الذى لطالما تحرك عداءً لرسول الله ﷺ - أن يتحرك بل وينتفض لنُصرة دين الله - جل وعلا -.

وكان ذلك عندما علم أبو سفيان أن النبى ﷺ توجَّه إلى مكة ليفتحها فأخذ ابنه جعفرًا وأطلق لفرسه العنان فى أول خطوة يخطوها نحو النور وقلبه يعتصر ألمًا على تلك السنوات التى ضاعت من عمره فى ظلمات الشرك والعداء لرسول الله ﷺ.

فتعالوا بنا لنعيش تلك الرحلة التى بدأت من ظلمات الشرك والوثنية إلى أنوار التوحيد والإيمان.

فإنه لما كان عام الفتح ألقى الله فى قلبه الإسلام، فخرج متنكرًا، فتصدى لرسول الله ﷺ فأعرض عنه فتحول إلى الجانب الآخر فأعرض عنه. قال: فقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه، فأسلمت وخرجت معه حتى شهدت فتح مكة وحُنينًا[١].

وفى رواية: - أنه كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المُغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضًا (بنيق العُقاب)، فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلَّمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: «لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال». قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبى سفيان بُنىّ له، فقال: والله ليأذننَّ لى أو لآخذنَّ بيدى بنىَّ هذا، ثم لنذهبنَّ فى الأرض حتى نموت عطشًا وجُوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، ثم أذِنَ لهما، فدخلا عليه، فأسلما.

وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله فى إسلامه، واعتذر إليه مما كان مضى منه، فقال:

لَعَمْـــرُكَ إنى يومَ أحمـلُ رايةً ... لتَغْلـبَ خَيلُ اللات خيلَ محمـدِ

لكالمُـدلج الحيرانِ أظلم ليلُهُ ... فهـذا أوانى حين أُهـدى واهتدى[٢]

هـدانى هـاد غيرُ نفسى ونالنى ... مع اللـه مَنْ طـرَّدتُ كلَّ مُطرد[٣]

أصـدُّ وأنأى جاهـدًا عن محمـد ... وأدعى - وإن لم أنتسب - من محمد

(١) صفة الصفوة (١/ ٢١٨).

(٢) المدلج: الذى يسير ليلاً. وأدلج القوم إذا ساروا الليل كله.

(٣) مطرد: مصدر ميمى بمعنى الطرد.

هُمُ مـا هم مَنْ لم يَقُلْ بهـواهُـمُ ـ وإن كـان ذا رأى ـ يُلم ويُفنَّد(١)

أُريـد لأرضيهـم ولسـتُ بلائـط مع القوم ما لم أُهدَ فى كلِّ مقعد(٢)

فَقُـل لثقيـف : لا أُريـد قتالهـا وقل لثقيف تلك : غيرى أوعـدى

فمـا كُنتُ فى الجيش الذى نال عامرًا وما كان عن جرًا لسانى ولا يدى

قبائل جـاءت مـن بلاد بعيـدة نزائعَ جـاءت من سهام وسَردد

قال ابن هشام: ويروى «وَدَلَّنى على الحقّ من طردت كلّ مطرد».

قال ابن إسحاق: فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله: «ونالنى مع الله من طرّدت كل مطرد» ضرب رسول الله ﷺ فى صدره، وقال: «أنت طرّدتنى كلّ مطرّد؟»(٣).

استدراك ما فات

ومنذ أن أسلم أبو سفيان جعل الجنة بين عينيه، فأعرض عن الدنيا، وأقبل على الله بجوارحه وجوانحه يتلو آيات القرآن، ويتعايش مع كلماته ويقوم الليل ويصوم النهار.

عن سعيد بن المسيِّب أن أبا سفيان بن الحارث كان يُصلى فى الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة، ثم يصلى من الظهر إلى العصر(٤).

يريد بذلك أن يستدرك ما فاته وكأن حياته بدأت منذ أن أسلم لله ـ جل وعلا ـ.

أرجو أن يكون خلفا من حمزة

وفى يوم حُنين خرج أبو سفيان ـ رضى الله عنه ـ وهو عازم على أن يكفِّر عن كل ما سلف منه من عداوة النبى ﷺ .

---

(١) يفند: ينسب إلى الفند وهو الكذب.

(٢) لائط: ملصق.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٣، ٤٤) وذكر فيه أبيات الشعر وفى آخره «يرد رسول الله ﷺ فى صدره فقال: أنت طردتنى كل مطرد» وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى. وذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٦٥ ـ ١٦٧) من حديث طويل عن ابن عباس وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٤) الطبقات لابن سعد (٤/ ١/ ٣٦).

فثبت مع النبى ﷺ فى تلك الغزوة ثباتًا سطَّره بسطورٍ من نور على جبين التاريخ.

فعن جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد من أودية تِهامة أجوف حطوط، إنما نتحدر فيه انحدارًا، قال: وفى عماية الصُّبح، وكان القومُ قد سبَقونا إلى الوادى فكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائبُ قد شدُّوا علينا شدَّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوى أحدٌ على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أين الناس؟ هلموا إلىَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، قال: فلا شىء، حملَت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نَفَر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علىٌّ بن أبى طالب، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، قُتل يومئذ[(١)].

قال أبو سفيان ـ رضى الله عنه ـ: «... فلما لقينا العدو «بحنين» اقتحمت عن فرسى وبيدى السيف صلتًا، والله يعلم أنى أريد الموت دونه، وهو ينظر إلىَّ، فقال العباس: يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارضَ عنه. فقال: «قد فعلت، فغفر الله له كلَّ عداوة عادانيها». ثم التفت إلىَّ فقال: «أخى لعمرى»[(٢)]. فكاد أبو سفيان أن يطير فرحًا بتلك الكلمات فأكب على رجليه يقبلهما ودموعه تسيل على خده، وقام يضرب المشركين ويشق صفوفهم ويدافع عن حبيبه ﷺ بكل ما أوتى من قوة، وهو آخذ برأس بغلته البيضاء والنبى ﷺ يقول: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[(٣)].

وتنتهى الغزوة بانتصار المسلمين بإذن الله وإذا بالنبى يجد هذا الفارس الذى كان ممسكًا بعنان فرسه ما زال فى مكانه، فقال الحبيب ﷺ: «من هذا؟» فقال أبو سفيان: أنا ابن أمك يا رسول الله[(٤)].

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٧٦) وأورده الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٧٩) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورواه البزار مختصرًا وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فى رواية أبى يعلى وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢١٨).
(٣) أخرجه البخارى (٤٣١٥) ومسلم (١٧٧٦).
(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٧٦) وأبو يعلى والبزار باختصار، كما قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٠) وصححه.

يا لها من لحظات تجعل الدماء تسيل على الخد قبل الدموع، إنها لحظات اللقاء بعد فراق دام أكثر من عشرين سنة مليئة بالبغض والعداء.. إنها لحظات الحب والود والصفاء.

لقد أحب النبي ﷺ أبا سفيان حبًا شديدًا ملك عليه لُبه وفؤاده وشهد له بالجنة وقال: «أرجو أن يكون خَلَفًا من حمزة»(١).

بل قال الحبيب ﷺ: «أبو سفيان بن الحارث خير أهلي»(٢).

حزنه على فراق الحبيب ﷺ

وبعد فترة يسيرة رحل الحبيب ﷺ عن الدنيا فحزن أبو سفيان حزنًا شديدًا فلطالما تمنى أن يصحب النبي أعوامًا وأعوامًا فأخذ ينشد أبياتًا يرثي بها النبي ﷺ فقال:

أرقتُ فبات ليلي لا يزولُ ... وليلُ أخي المصيبة فيه طُولُ

وأسعدني البكاءُ وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليلُ

فقد عظُمت مُصيبتنا وجلَّتْ ... عشيَّة قيل قد قُبضَ الرسولُ

فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروحُ به ويغدو جبرئيلُ

وذاك أحقُّ ما سالتْ عليه ... نفوسُ الخلق أو كادت تسيلُ

نبيٌّ كان يجلو الشكَّ عنا ... بما يُوحى إليه وما يقولُ

ويهدينا فلا نخشى ضلالاً ... علينا، والرسولُ لنا دليلُ

فلم نرَ مثلهُ في الناسِ حيًا ... وليس له من الموتى عديلُ

أفاطمُ إن جزعت فذاك عُذرٌ ... وإن لم تجزعي فهو السبيلُ

فعودي بالعزاءِ فإنَّ فيه ... ثواب الله والفضلُ الجزيلُ

وقولي في أبيك ولا تملِّي ... وهل يجزى بفضلِ أبيك قيلُ

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ٣٦) وابن عبد البر في الاستيعاب (١١/ ٢٩١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٥٥) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ـ وإسناده حسن.

وقد أشار بعض أهل العلم إلى أن لهذا الحديث رواية بلفظ «من خير أهلي» ومعنى هذه الرواية ينسجم ويتوافق مع سائر الأدلة. والله أعلم.

فقبرُ أبيكَ سيدُ كلِّ قبرٍ   وفيه سيدُ الناسِ الرسولُ[١]

وما زالت نفسه تتوق إلى الموت ليلحق بحبيبه ورسوله ﷺ .

وحان وقت الرحيل

وفي خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أحسَّ أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ بأنه قد حان وقت الرحيل فقام يحفر قبره بنفسه ولم يمض على ذلك سوى بضعة أيام حتى فاضت روحه الطاهرة.

قال أبو إسحاق السبيعي: لما احتُضِرَ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قال: لا تبكوا عليّ، فإني لم أتنطف[٢] بخطيئة منذ أسلمتُ[٣].

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو سفيان بن الحارث سيدُ فتيان أهل الجنة» فحجَّ، فحلقه الحلاق، وفي رأسه ثؤلول فقطعه فمات. فيرونه شهيداً[٤].

ومات بالمدينة المنورة سنة عشرين وصلى عليه (عمر) ودُفن بالبقيع.

فرضي الله عن أبي سفيان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) الاستيعاب (١١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) نقلاً من السير (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٢) لم أتنطف: أي لم أتلطخ بها.

(٣) الطبقات لابن سعد (٤/ ١/ ٣٦ ـ ٣٧).

(٤) رجاله ثقات، لكنه مرسل كما قال الحافظ في الإصابة (١/ ١٩٦) وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٥٥) وسكت عنه وكذلك الذهبي.



عبد الله بن سلام

إنه عاشر عشرة في الجنة

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن اليوم على موعد مع الرجل الذى يؤتَى أجره مرتين... إنه الرجل الذى شهد له النبى ﷺ بأنه من أهلِ الجنة، بل وشهد له قبلها بحسن الخاتمة وأنه يموت على الإسلام.

إنه عاشر عشرة فى الجنة... إنه عبد الله بن سلام.

ويسعدنى قبل أن أسوق لحضراتكم تلك الباقة العطرة من أخبار هذا الصحابى الجليل أن أبدأ تلك السطور بقول الحبيب ﷺ عندما يقول:

«ثلاثة لهم أجران: ـ وذكر منهم ـ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ....»(١).

وها نحن مع صحابى جليل من هذا الصنف الكريم... فقد كان حَبرًا من أحبار اليهود ـ عالمًا من علماء اليهود ـ ولما بُعث الحبيب ﷺ آمن برسالته وكان من خواص أصحاب النبى ﷺ حتى شهد له النبى ﷺ بالجنة.

إنه عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ الذى كان اسمه قبل بعثة النبى ﷺ (الحصين) فلما أسلم سماه النبى (عبد الله)... وهو من ولد يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ.

البعثة وموقف اليهود

وتعالوا بنا لنبدأ تلك القصة المباركة من أولها.

فإنه لما أرسل الله ـ تعالى ـ محمداً ﷺ من العرب ـ لا من اليهود ـ امتلأت نفوس اليهود بالحسد والغيرة، وأكل الحقد والغيظ قلوبهم، وجعلوا يشككون فى نبوته وفى

---

(١) أخرجه البخارى (٩٧) ومسلم (١٥٤) والترمذى (١١١٦).

دينه ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذى كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذى كنا نبتغى! وحرَّفوا ما جاء فى كتابهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة، علمًا بأن النبى ﷺ جاء مصدقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة هذا النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، ولكن طبيعة الأثرة غلبت على نفوسهم، إذ يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار فى الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم، وعزّ عليهم أن يكون هذا النبى من العرب، لذلك أضمروا له العداوة والبغضاء، وظلت العداوة كامنة فى صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ بعثته.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كانوا أول كافر به، بل إنهم منذ اليوم الأول الذى حلّ فيه رسول الله ﷺ المدينة واجهه اليهود بالعداوة والمكر، وشجعوا بعض العرب على النفاق وإلقاء أسئلة التعنت، وتواصوا بينهم بالكيد الدائم للرسول ﷺ والإسلام(1).

قصة إسلامه ـ رضى الله عنه ـ

ولقد كان (الحصين) عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ كما قلنا حَبرًا من أحبار اليهود، ولكنه كان أتقاهم لله وأكثرهم علمًا، وكان يعيش فى يثرب (المدينة)، وكان أهل المدينة جميعًا يوقرونه ويحبونه ويعظمونه، وذلك لما رأوا عليه من علامات الصلاح والتقوى والصدق والاستقامة.

وكان عالمًا بالتوراة.

وكان كلما وقعت عيناه على الأخبار التى تبشِّر بظهور خاتم الأنبياء ﷺ يزداد شوقًا لبعثته ولرؤيته والإيمان برسالته.. وكان يزداد سعادة عندما يقرأ أن النبى ﷺ سيترك بلده ويهاجر إلى يثرب (المدينة) لتكون مستقرًا له بعد ذلك.

وتوجه (الحصين) عبد الله بن سلام إلى الله ـ جل وعلا ـ أن يمدَّ له فى عمره ليرى اليوم الذى يأتى فيه الحبيب ﷺ إلى المدينة ليكون أول من يؤمن به.

وخرج هذا الدعاء من قلب صادق فاستجاب الله له وعاش (الحصين) حتى بُعث النبى ﷺ وسمع الناس ببعثته ففرح (الحصين) فرحًا عظيمًا واستيقن فى نفسه أنه هو النبى الذى لطالما قرأ عنه فى التوراة.

(1) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٦٨).

وها أنا أسوق لحضراتكم بعض الروايات التي تحكى لنا قصة إسلامه ـ رضى الله عنه ـ:

عن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة، انجفل الناس عليه، وكنت فيمن انجفل، فلما رأيته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب. فكان أول شيء سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(١).

وعن أنس: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مقدمهُ إلى المدينة، فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبيٌّ. ما أولُ أشراط الساعة؟ وما أولُ ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يُشبهُ الولدُ أباه وأمه؟.

فقال: «أخبرنى بهنَّ جبريل آنفًا» قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة.

قال: «أما أول أشراط الساعة فنارٌ تخرج من المشرق، فتحشرُ الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكله أهل الجنة، فزيادةُ كبد حوت، وأما الشبه، فإذا سبق ماءُ الرجل، نزع إليه الولد. وإذا سبق ماءُ المرأة، نزع إليهاَ» قال: أشهدُ أنك رسول الله.

وقال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قومٌ بُهتٌ؛ وإنهم إن يعلموا بإسلامى بهتونى، فأرسِل إليهم، فسلهم عنى.

فأرسل إليهم. فقال: «أى رجلٍ ابن سلام فيكم»؟ قالوا: حَبرُنا، وابنُ حبرنا؛ وعالمنا، وابنُ عالمنا. قال: «أرأيتم إن أسلم، تُسلمون»؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. قال: فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا؛ وجاهلنا وابنُ جاهلنا. فقال: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قومٌ بُهت(٢).

وعن عبد الله بن سلام قال: لما سمعتُ برسول الله ﷺ عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له، فكنت مُسراً لذلك، صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء، فى بنى عمرو بن عوف، أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرتُ؛ فقالت لى عمتى، حين سمعت تكبيرى: خيَّبك الله! والله لو

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥١) والترمذى (٢٤٨٧) وصححه الحاكم (٣/ ١٣) ووافقه الذهبى.
(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٢٦١) الأنبياء (٧/ ٢١٢) مناقب الأنصار.

كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، قال: فقلت لها: أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به، قال: فقالت: أى ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نُخبَر أنه يُبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذًا. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله، فأسلمتُ، ثم رجعت إلى أهل بيتى، فأمرتهم فأسلموا.

قال: وكتمتُ إسلامى من يهود، ثم جئتُ رسول الله ﷺ فقلتُ له: يا رسول الله، إن يهود قومٌ بُهتٌ، وإنى أحبّ أن تُدخلنى فى بعض بيوتك تغيّبنى عنهم، ثم تسألهم عنّى، حتى يُخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى، قال: فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته ودخلوا عليه، فكلّموه وساءلوه، ثم قال لهم: «أىّ رجل الحُصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسولُ الله، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله، وأُومن به، وأُصدقه وأعرفه؛ فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى. قال: فقلتُ لرسول الله ﷺ: ألم أُخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بُهتٌ، أهل غَدر وكذب وفجور! قال: فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث، فحسُن إسلامها[1].

ولقد عاش عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ مع القرآن والسُنة وتعايش معهما، فلقد كان ينتظر هذا اليوم منذ زمنٍ بعيد حتى إنه يوم أن أسلم.. أحسَّ وكأن عمره لم يبدأ إلا فى تلك اللحظة.

مناقبه ـ رضى الله عنه ـ والبشرى بالجنة

وتعالوا بنا لنقف كعادتنا مع تلك الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدر هذا الصحابى الجليل.

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: «ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال: وفيه نزلت هذه الآيةً:

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٢/ ٥٣٠، ٥٣١)، وذكره ابن كثير فى البداية (٣/ ٢١١) من طريق ابن إسحاق كما أخرجه البخارى بنحوه فى كتاب (الأنبياء) باب «حقن آدم وذريته» (٦/ ٣٣٢٩/ فتح). وفى «مناقب الأنصار» (٧/ ٣٩١١، ٣٩٣٨) وفى «تفسير القرآن» (٨/ ٤٤٨٠).
نتوكف: أى نترقب ونتوقع.



﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾ الآية(١).

وها هى القصة التى نزلت فيها تلك الآية الكريمة.

عن عوف بن مالك قال: انطلق نبى الله، وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود، فقال: «أرونى يا معشر يهود اثنى عشر رجلاً يشهدون أنَّ محمداً رسول الله، يحُطَّ الله عنكم الغضب» فأسكتوا. ثم أعاد عليهم، فلم يُجبهُ أحد.

قال: «فوالله، لأنا الحاشر، وأنا العاقب(٢)، وأنا المصطفى، آمنتم أو كذَّبتم». فلما كاد يخرج، قال رجلٌ: كما أنت يا محمد. أىُّ رجل تعلموننى فيكم؟ قالوا: ما فينا أعلم منك. قال: فإنى أشهدُ بالله أنه نبى الله الذى تجدونه فى التوراة. فقالوا: كذبت! فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم»!

قال: فخرجنا ونحنُ ثلاثة. وأُنزلت:

﴿ أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [الأحقاف:١٠] الآية(٣).

والشاهد هنا هو عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ.

وعن مصعب بن سعد عن أبيه أن النبى ﷺ أُتى بقصعة فأكل منها ففضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «يجىء رجلٌ من هذا الفج من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة» قال سعد: وكنت تركت أخى عميراً يتوضأ قال: فقلت: هو عمير. قال: فجاء عبد الله بن سلام فأكلها»(٤).

وعن يزيد بن عميرة أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قالوا : يا أبا عبد الرحمن أوصنا قال: أجلسونى ثم قال: إن العلم والإيمان مظانهما، مَن التمسهما وجدهما ـ أو العلم والإيمان مكانها من التمسهما وجدهما ـ فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود وعند عبد الله بن سلام

---

(١) أخرجه البخارى (٣٨١٢) ومسلم (٢٤٨٣) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٤٨).

(٢) الحاشر: الذى يُحشر الناس خلفه وعلى ملته دون ملة غيره، والعاقب: آخر الأنبياء.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦) وصححه ووافقه الذهبى ـ وفى الصحيح نحوه من حديث أنس بن مالك أخرجه البخارى (٧/ ١٩٥، ١٩٨) الهجرة.

(٤) رواه أحمد (١/ ١٦٩) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٤١٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. وقال الذهبى صحيح.

الذى كان يهوديًا فأسلم فإنى سمعت رسول الله يقول: «إنه عاشر عشرة فى الجنة»(١).

وعن ابن عباس: أنَّ هذه الآية نزلت فى ابن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣:١١٤](٢).

أنت على الإسلام حتى تموت

كانت تلك الكلمات التى خرجت من فم المصطفى ﷺ لعبد الله بن سلام عندما قصَّ عليه رؤيا رآها فى منامه.

فعن قيس بن عُبَاد قال: كنت فى مسجد المدينة، فجاء رجل بوجهه أثرٌ من خشوع، فقال القومُ: هذا من أهل الجنة. فصلى ركعتين، فأوجز فيهما. فلما خرج، اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته؛ فلما استأنس، قلت: إنهم قالوا لما دخلت المسجد: كذا وكذا. قال: سبحان الله! ما ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم. وسأُحدثُك: إنى رأيتُ رؤيا، فقصصتها على النبى ﷺ: رأيت كأنّى فى روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله فى الأرض، وأعلاه فى السماء، فى أعلاه عروة، فقيل لى: اصعد عليه. فصعدت حتى أخذت بالعروة . فقيل : استمسك بالعروة . فاستيقظت وإنها لفى يدى . فلما أصبحت ، أتيت رسول الله ﷺ فقصصتُها عليه. فقال: «أمَّا الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود، فعمود الإسلام، وأما العروة، فهى العروة الوثقى؛ أنت على الإسلام حتى تموت». قال: وهو عبد الله بن سلام(٣).

وعن خَرشةَ بن الحُرِّ. قال: كنت جالسًا فى حلقة فى مسجد المدينة. قال: وفيها شيخٌ حسنُ الهيئة. وهو عبد الله بن سلام. قال: فجعل يحدثهم حديثًا حسنًا. قال: فلما قام قال القوم: من سرَّهُ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. قال: فقلت: والله! لأتبعنَّه فلأعلمنَّ مكان بيته. قال: فتبعته. فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة. ثم دخل

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٧٠، ٤١٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه. وقال الذهبى: صحيح.

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٧٦٤٤) و(٧٦٤٥).

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٩٨) المناقب ـ ومسلم (٢٤٨٤) وأحمد (٥/ ٤٥٢).

منزله، قال: فاستأذنتُ عليه فأذن لي. فقال: ما حاجتك يا ابن أخي؟ قال: فقلت له: سمعت القوم يقولون لك، لمَّا قمت: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فأعجبني أن أكون معك، قال: الله أعلم بأهل الجنة. وسأُحدثك ممَّ قالوا ذاك. إني بينما أنا نائم، إذ أتاني رجل فقال لي: قُم. فأخذ بيدي فانطلقت معه. قال: فإذا أنا بجواد عن شمالي. قال: فأخذت لآخذ فيها. فقال لي لا تأخذ فيها فإنها طُرُقُ أصحاب الشمال. قال: فإذا جوادٌ منهجٌ على يميني. فقال لي: خُذ ههنا. فأتى بي جبلاً، فقال لي: اصعد. قال: فجعلت إذا أردت أن أصعد خررتُ على إستي، قال: حتى فعلت ذلك مرارًا. قال: ثم انطلق بي حتى أتى بي عمودًا. رأسه في السماء وأسفله في الأرض. في أعلاه حلقةٌ، فقال لي: اصعد فوق هذا. قال: قلت: كيف أصعدُ هذا ورأسه في السماء. قال: فأخذ بيدي فزجل بي. قال: فإذا أنا متُعلقٌ بالحلقة. قال: ثم ضرب العمود فخرَّ. قال: وبقيت متعلقًا بالحلقة حتى أصبحت. قال: فأتيت النبي ﷺ فقصصتُها عليه. فقال: «أمَّا الطرق التي رأيت عن يسارك فهي طرق أصحاب الشمال، قال: وأما الطرق التي رأيت عن يمينك فهي طرق أصحاب اليمين. وأما الجبل فهو منزل الشهداء. ولن تناله. وأما العمود فهو عمود الإسلام. وأما العروة فهي عروة الإسلام، ولن تزال متمسكًا بها حتى تموت»[1].

تواضعه ـ رضي الله عنه ـ

وعن عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردتُ أن أدفع الكبْرَ؟... سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه خردلة من كِبْر»[2].

نعمة التوكل

عن سعيد بن المسيب، قال: التقى عبد الله بن سلام وسلمان، فقال أحدهما لصاحبه: إن متَّ قبلي فالقني فأخبرني ما لقيتَ من ربِّك، وإن أنا متُّ قبلك لقيتُك فأخبرتُك. فقال أحدهما للآخر: أَوَ يلقى الأموات الأحياء؟! قال: نعم، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءت.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) السير للإمام الذهبي (٢/ ٤١٩) والحديث أخرجه مسلم (٩١) عن ابن مسعود.

قال: فمات فلان فلقيه في المنام فقال: توكَّل وأبْشِر، فلم أَرَ مِثْلَ التَوكُّل قطُّ، توكَّلْ وأبشر، فلم أَرَ مثل التوكل قط[١].

جهاده في سبيل الله

روى بشر بن شغاف، عن عبد الله بن سلام: أنه شهد فتح نهاوند.

وعن ابن سيرين قال: نبئت أن عبد الله بن سلام قال: إن أدركني، وليس لي ركوب[٢]، فاحملوني،حتى تضعوني بين الصفين. يعني قُبال الأعماق[٣].

وحان وقت الرحيل

وتمر الأيام و (عبد الله بن سلام) يعيش في رحاب الحبيب ﷺ يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه إلى أن جاءت اللحظة التي مات فيها الحبيب ﷺ فحزن عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبه... وطال به العمر حتى شهد فتح نهاوند.

وبعد هذا العمر المبارك ـ الذي عاش صاحبه في طاعة الله عالمًا عابدًا صائمًا قائمًا ـ نام عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها وهو مستمسك بالعروة الوثقى ـ كما بشّره الحبيب ﷺ ـ ليلحق بالحبيب ﷺ في جنة الرحمن.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) إسناده صحيح: التوكل لابن أبي الدنيا (ص ٤٨).

(٢) الركوب: كل دابة تُركت.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٢، ٤٢٣) للإمام الذهبي.

عتبة بن غزوان

سابع سبعة أسلموا في هذا الكون لله (جل وعلا)

وها هو صحابى جليل قد لا يعرفه الكثير من المسلمين.

إنه الصحابى الجليل عتبة بن غزوان.

السيدُ الأمير المجاهد أبو غزوان المازنى، حليفُ بني عبد شمس.

أسلم سابع سبعة في الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، ثم شهد بدرًا والمشاهد. وكان أحد الرماة المذكورين، ومن أمراء الغزاة، وهو الذى اختط البصرة وأنشأها(١).

ودعونا لنبدأ القصة من أولها.

لقد أسلم (عتبة) ـ رضى الله عنه ـ مبكرًا حتى كان سابع سبعة فى الإسلام وصمد مع المسلمين فى تلك الأيام العصيبة التى كان من يستعلى فيها بإيمانه ويعلن إسلامه يتحول جسده إلى أشلاء ممزقة من سياط المشركين.

ولما أشفق النبى ﷺ على أصحابه من هذا الظلم الذى كان يزداد يومًا بعد يومٍ أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فخرج عتبة مع من هاجر إلى الحبشة، ولكن حنينه وشوقه لمجاورة الحبيب ﷺ جعله لا يهنأ بالراحة والنعيم فى الحبشة، بل آثر العذاب والشقاء فى مكة طالما أنه يملأ عينيه من رؤية الحبيب ﷺ فسرعان ما عاد إلى مكة حتى آن أوان الهجرة إلى المدينة فهاجر عتبة مع إخوانه المسلمين، وهناك جمع بين الحُسنيين ـ بين رؤية الحبيب ﷺ والنعيم والراحة فى رحاب الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ.

وبدأت مرحلة الجهاد فى سبيل الله ـ جل وعلا ـ وعتبة يسير معها خطوة خطوة فهو من الرُماة المذكورين فما زال يخوض المشاهد مع النبى ﷺ وهو يقاتل بكل بسالة وشجاعة مساهمًا فى هدم صرح الباطل وإقامة دولة الإسلام.

ولما توفى النبى ﷺ ظل (عتبة) على عهده مجاهدًا صابرًا مخلصًا لله فى كل وقتٍ وحين.

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٠٤).

مشهد لا ينساه التاريخ

وفي عهد الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ ترامى إلى مسامعه أن جيوش الفُرس المنهزمة أمام جند المسلمين كانت كلما أوشك المسلمون على أن يقضوا عليها، وإذا بها يأتيها المدد من هنا وهناك، وما بين غمضة عينٍ وانتباهتها تستعيد جيوش الفرس قوتها ونشاطها مرة أخرى وتستأنف القتال.

وكانت مدينة «الأُبُلَّة» وقتها من أهم المدن التي تُرسل الأموال والرجال والسلاح إلى جيوش الفرس.

فرأى عمر ـ رضي الله عنه ـ بفطنته وذكائه أن يفتح تلك المدينة ليقطع المدد عن جيوش الفرس، ومن ثَم تكون الهزيمة التي لا تقوم بعدها للفرس قائمة.

ولما تهيأ عمر لأن يرسل جيشًا من المسلمين وإذا به يتذكر أن شباب المسلمين بل وكُهولهم قد خرجوا غُزاة في سبيل الله يفتحون البلاد ليُخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

فأراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يستعيض عن قلة الجند بقوة القائد وإخلاصه وتقواه وذكائه.

فأخذ يبحث في قائمة الأتقياء الأنقياء الأصفياء الأقوياء وإذا به يجد صورته أمام عينيه، بل وفي قلبه: نعم إنه سابع سبعة أسلموا في هذا الكون.. إنه المجاهد الكبير... إنه الذي شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ... إنه الرامي الذي لا تخطئ له رمية... إنه عتبة ابن غزوان.

فبعث إليه في الصباح وأخبره بتلك المهمة الصعبة التي تحتاج إلى رجال يعرفون ربهم ويعبدونه حق عبادته ليعوضهم الله بالنُصرة من عنده، وإن كانوا لا يملكون إلا النذر القليل من الرجال والعتاد.

وعقد له الراية على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وسار إليه من الأعراب ما كمل معه خمسمائة.

ووقف ـ الفاروق ـ كعادته يوصي هذا الجيش ويوصي قائده قبلهم بتقوى الله فقال له عمر: يا عتبة إني قد وجهتك إلى أرض «الأُبُلَّة»، وهي حصن من حصون الأعداء

فأرجو الله أن يُعينك عليها. فإذا نزلت بها فادع قومها إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أَبَى فخذ منه الجزية عن صَغار وذلة... وإلا فضع في رقابهم السيف في غير هوادة... واتق الله يا عتبة فيما وُلِّيتَ عليه... وإياك أن تُنازعك نفسك إلى كبر يُفسدُ عليك آخرتك. واعلم أنك صحبت رسول الله ﷺ، فأعزَّك الله به بعد الذلة، وقواك به بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مسلطًا، وقائدًا مطاعًا، تقول فيُسمع منك، وتأمرُ فيطاعُ أمرك... فيا لها من نعمة إذا هي لم تُبطرك على من دونك. احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية وهي أخوفهما عندي عليك أن يستدرجك ويخدعك فتسقط سقطة فتصير بها إلى جهنم أُعيذك بالله ونفسي من ذلك.

إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها فأرِد الله ولا تُرد الدنيا واتقِ مصارع الظالمين[١].

كانت «الأُبُلَّة» التي اتجه إليها عتبة بن غزوان بجيشه الصغير مدينة حصينة قائمة على شاطئ «دجلة»[٢]. وكان الفرس قد اتخذوها مخازن لأسلحتهم. وجعلوا من أبراج حصونها مراصد[٣] لمراقبة أعدائهم. لكن ذلك لم يمنع عتبة من غزوها على الرغم من قلة رجاله وضآلة سلاحه... إذ لم يجتمع له من الرجال غير ستمائة مقاتل تصحبهم طائفة قليلة من النساء. ولم يكن عنده من السلاح غير السيوف والرماح. فكان لابد له من أن يستعمل ذكاءه.

أعد عتبة للنسوة رايات رفعها على أعواد الرماح... وأمرهنَّ أن يمشين بها خلف الجيش، وقال لهن: إذا نحن اقتربنا من المدينة فأثرن التراب وراءنا حتى تملأن به الجو. فلما دنوا من «الأبلة» خرج إليهم جند الفرس، فرأوا إقدامهم عليهم. ونظروا إلى الرايات التي تخفق وراءهم.

ووجدوا الغُبار يملأ الجو خلفهم. فقال بعضهم لبعض: إنهم طليعة[٤] العسكر، وإن وراءهم جيشًا جرارًا[٥] يُثيرُ الغُبار، ونحنُ قلةٌ...

---

(١) البداية والنهاية للإمام ابن كثير (٧/ ٤٩ ـ ٥٠) بتصرف.

(٢) دجلة: نهر ينبع من تركيا ثم يجري في العراق، ويصبُّ في شط العرب.

(٣) مراصد: جمع مرصد، وهو مكان رصد العدو ومراقبته.

(٤) طليعة العسكر: مقدمة العسكر.

(٥) الجيش الجرار: الجيش الكثيف الكثير العدد والعُدد.

ثم دبَّ في قلوبهم الذعر، وسيطر عليهم الجزع، فطفقوا يحملون ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، ويتسابقون إلى ركوب السفن الراسية في «دجلة» ويُولُّون الأدبار[١].

فدخل عتبة «الأبلة» دون أن يفقد أحدًا من رجاله... ثم فتح ما حولها من المدن والقرى. وغنم من ذلك غنائم عزَّت على الحصر[٢]، وفاقت كل تقدير؛ حتى إن أحد رجاله عاد إلى المدينة، فسأله الناس: كيف المسلمون في «الأبلة»؟.

فقال: عمَّ تتساءلون؟!...

والله لقد تركتهم وهم يكتالون الذهب والفضة اكتيالاً... فأخذ الناس يشدون إلى «الأبلة» الرِّحال[٣].[٤]

عند ذلك بدأ (عتبة) في إنشاء مدينة (البصرة) مكان (الأُبُلَّة) وبدأ تلك المدينة ببناء المسجد فيها.

نعم ـ المسجد أولاً ـ فمنه يخرج الرجال والأبطال والأتقياء الذين يُصلح الله بهم الدنيا وينشر بهم دينه في العالمين.

وتسابق الناس إلى بناء البيوت، أما عتبة فإنه أَبَى أن يبنى لنفسه بيتًا فلقد كان قلبه يتطلع دومًا وأبدًا إلى بيته الذى فى الجنة فكان يخشى على قلبه من أن يتعلق بشىء من حُطام الدنيا.. فجعل لنفسه خيمة ليعيش فيها.

وظل عتبة في البصرة يصلى بالناس ويعلمهم أمور دينهم ويضرب المثل في العدل والزهد والتقوى.

فلما رأى أن الدنيا أقبلت على المسلمين وأن كثيرًا منهم قد استطابوا تلك العيشة الناعمة خشى عليهم من فتنة الدنيا التى تعصف بقلب الرجل وبدينه، فقام يخطب فى الناس بتلك الكلمات التى يجب أن تُنقش على القلوب بحروفٍ من الذهب.

فعن خالد بن عمير العدوى قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإن الدنيا قد آذنت بصُرْمٍ وولت حذَّاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة

---

(١) يولون الأدبار: ينهزمون.

(٢) عزت على الحصر: تعذَّر إحصاؤها.

(٣) يشدون الرحال إلى الأبلة: يسافرون إليها.

(٤) صور من حياة الصحابة (٤٠٨ ـ ٤٠٩).

الإناء يتصابُها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها. فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. فإنه قد ذُكر لنا أن الحجر يُلقى من شفة جهنم فيهوى فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا. ووالله لتُملأنَّ. أفعجبتم؟ ولقد ذُكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة. وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر. حتى قرحت أشداقنا. فالتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها. فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصرٍ من الأمصار.

وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيمًا، وعند الله صغيرًا. وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا. فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا»[١].

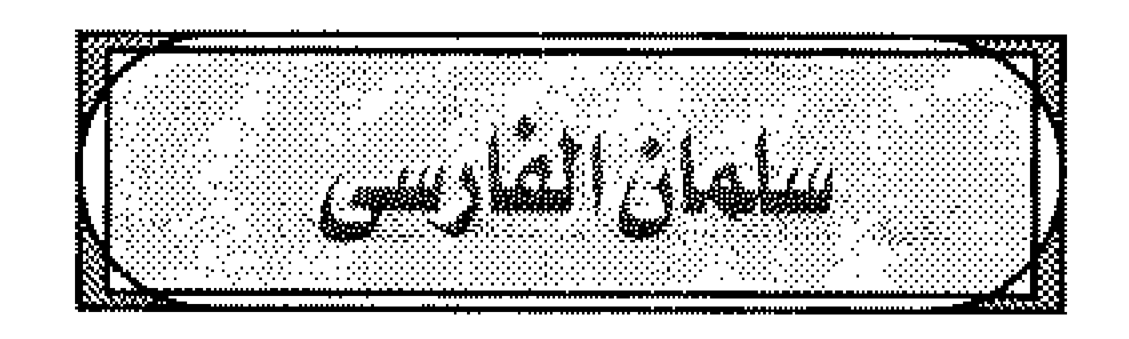
ولما جاء موسم الحج استخلف (عتبة) رجلاً من إخوانه، وهو (أبا سبرة بن أبى رهم) وخرج حاجًا واجتمع بعمر فى الموسم وسأله أن يقيله ـ يعفيه من الإمارة ـ فلم يفعل وأقسم عليه ليرجعن إلى البصرة مرة أخرى فأذعن لأمر (عمر) كارهًا وعاد إلى البصرة، ولكن قلبه الذى اشتاق إلى جنة الرحمن توجه إلى الله ـ جل وعلا ـ وسأله أن لا يرده إلى البصرة وإلى الإمارة مرة أخرى.. فاستجاب الله دعاءه، فمات ببطن نخلة فتأثر عليه عمر وأثنى عليه خيرًا.. وهكذا رحل (عتبة) ليلقى الأحبة محمدًا ﷺ وحزبه فى جنات النعيم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

رضى الله عن عتبة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) هامش (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبى (١/ ٣٠٦).





سلمان منا أهل البيت

محمد رسول الله ﷺ

إننا اليوم على موعد مع رجل استجاب قلبه قبل أن تستجيب جوارحه لنداء الحق ـ جلَّ وعلا ـ فذهب يطوفُ البلدان بحثًا عن الحق والحقيقة.

إنه الرجل الذى نصر الله به المسلمين فى يوم الأحزاب... إنه الرجل الذى اشتاقت الجنة إليه... نعم والله اشتاقت الجنة إليه.

إنه ابن الإسلام الذى كان يعتز دائمًا ويقول:

أبى الإسلام لا أبَ لى سواه   إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

إنه سلمان الفارسى.

لقد حفل التاريخ الإسلامى قديمه وحديثه بنماذج رائعة من المهتدين الذين ارتفعت همتهم فى البحث عن الدين الحق، وبذلوا فى سبيل ذلك النفس والنفيس، فصاروا مضرب الأمثال، وحجة لله على خلقه أن من انطلق باحثًا عن الحق مخلصًا لله تعالى، فإن الله ـ عز وجل ـ يهديه إليه، ويَمُن عليه بأعظم نعمة فى الوجود.... نعمة الإسلام[1].

وها نحن على موعد مع هذا الصحابى الجليل الذى سلك الدروب والشعاب والبلدان باحثًا عن الحق وتأبى همته العالية أن تجعله يتخاذل عن هذا المطلب العالى لحظة واحدة.

وأنا فى الحقيقة أُهدى تلك القصة إلى مسلمى زماننا الذين لا يعرفون قدر نعمة الإسلام ـ إلا من رحم الله ـ فإذا تعارض الدين مع الدنيا طرحوا الدين جانبًا ووضعوا الدنيا نُصب الأعين وفوق الرؤوس ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

---

(١) علو الهمة/ محمد إسماعيل (ص: ٢١٧).

الباحث عن الحقيقة

المكان: شجرة ملتفة وارفة الظلال، تجثم أمام دار متواضعة بـ«المدائن»، يجلس تحت ظلها صاحب الدار ـ شيخ كبير تعلوه الهيبة، ويزينه الوقار ـ قد أحاط به جلساؤه الأخيار، ينصتون لحديثه الشيق، وقصته الرائعة ورحلته المباركة فى البحث عن الحقيقة.

ها هو ذا يروى لهم كيف غادر دين قومه الفرس إلى النصرانية، ثم إلى الإسلام، وكيف ضحّى فى سبيل «الحقيقة الكبرى» بثراء أبيه الباذخ، ورمى نفسه فى أحضان الفاقة ـ الفقر ـ بحثًا عن خلاص عقله وروحه.

إنه يروى لهم: كيف بيع فى سوق الرقيق، وهو فى طريق بحثه عن الحقيقة..؟ كيف التقى برسول الله ﷺ.... وكيف آمن بـ....؟

إنه: سلمان الفارسى، أو سلمان الخير صاحب رسول الله ﷺ... مَثلٌ أعلى لكل باحث عن الحقيقة بصدق وإخلاص وتجرد.. هيا بنا نقترب من مجلسه المهيب، وتعالوا معى نُصغ إلى النبأ الباهر الذى يرويه(١).

قال سلمان ـ رضى الله عنه ـ: كنت رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها (جى)، وكان أبى دهقان قريته ـ رئيسها ـ وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيتى كما تُحبس الجارية، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قاطن النار(٢) الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. قال: وكانت لأبى ضيعة عظيمة قال: فشُغل فى بنيان له يومًا فقال لى: يا بنى إنى قد شُغلت فى بنيان هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فاطلعها، وأمرنى فيها ببعض ما يريد. فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. قال: فلما رأيتهم أعجبنى صلاتهم، ورغبت فى أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس. وتركت ضيعة أبى ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله. قال: فلما جئته قال: أى بنى أين كنت؟

---

(١) علو الهمة/ محمد إسماعيل (ص: ٢١٧: ٢١٨).

(٢) قاطن النار: القيم على نار المجوس ومُوقدها.

ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم، فأعجبنى ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أى بنى ليس فى ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت: كلا والله إنه خير من ديننا. قال: فخافنى، فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته. قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى. قال: فأخبرونى بهم. قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم، فألقيت الحديد من رجلى، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأُسقف فى الكنيسة. قال: فجئته فقلت: إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك، وأتعلم منك وأصلى معك. قال: فادخل فدخلت معه. قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق ـ فضة ـ قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه. فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدُلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه. قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه. قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه. أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حبًا لم أحبه من قبله، وأقمت معه زمانًا ثم حضرته الوفاة فقلت له: يا فلان إنى كنت معك وأحببتك حبًا لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى مَن توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل ـ اسم مدينة ـ وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به. قال: فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان إن فلانًا أوصانى عند موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنك على أمره قال: فقال لى: أقم عندى فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلانًا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من

الله ـ عز وجل ـ ما ترى، فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به. قال: فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب (نصيبين) فجئته فأخبرته بخبرى وما أمرنى به صاحبى قال: فأقم عندى، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضر قلت له: يا فلان إن فلانًا كان أوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى، والله ما نعلم أحدًا بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً (بعمورية) فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال: فإنه على أمرنا. قال: فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى، فقال: أقم عندى فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كان لى بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حُضر قلت له: يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى فلان إلى فلان، وأوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حَرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. قال: ثم مات وغيب فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بى نفر من (كلب) تجارًا فقلت لهم: تحملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملونى، حتى إذا قدموا بى وادى القرى ظلمونى، فباعونى إلى رجل من يهود عبدًا، فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذى وصف لى صاحبى. ولم يحق لى فى نفسى، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بنى قريظة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى، فأقمت بها. وبعث الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرِق. ثم هاجر إلى المدينة فوالله إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل فيه بعض العمل، وسيدى جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال فلان: قاتل الله بنى قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى قال: فلما سمعتها أخذتنى العرواء ـ يعنى الرِّعدة ـ حتى ظننت سأسقط على سيدى. قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال:

قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبت عما قال... وقد كان عندى شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كُلوا» وأمسك يده فلم يأكل. قال: فقلت فى نفسى: هذه واحدة. ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به فقلت: إنى رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت: فى نفسى هاتان اثنتان. ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد. قال: وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس فى أصحابه فسلمت عليه. ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى؟ فلما رآنى رسول الله استدرته عرف أنى أستثبت فى شيء وُصف لى. قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أُقبله وأبكى، فقال لى رسول الله ﷺ: «تحول» فتحولت فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس . قال : فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحدٌ قال: ثم قال لى رسول الله ﷺ كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أعينوا أخاكم فأعانونى بالنخل الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر ـ يعنى الرجل بقدر ما عنده ـ حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية، فقال لى رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقِّر لها فإذا فرغت فائتنى أكون أنا أضعها بيدى. ففقرت لها وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معى إليها، فجعلنا نقرب له الودى ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأدَّيت النخل وبقى علىَّ المال. فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازى فقال: «ما فعل الفارسى المكاتب؟» قال: فدُعيت له فقال: «خذ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان» فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىَّ؟ قال: «خذها فإن الله ـ عز وجل ـ سيؤدى بها عنك». قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم، وعُتقت فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتنى معه مشهد[1].

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٤١) وابن سعد فى الطبقات (٤/ ١/ ٥٣) وإسناده حسن.

يا لها من رحلة طويلة في البحث عن الحق والحقيقة... أين هم الرجال الذين يجدون الحق أمام أعينهم ثم ينصرفون عنه إلى غيره.

صاحب فكرة الخندق

وفي يوم الأحزاب (الخندق) وقف سلمان ـ رضي الله عنه ـ موقفًا عظيمًا لا ينساه التاريخ أبدًا على مدى العصور والأزمان.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل، خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحُقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ويؤلبونهم، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف، ووافتهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة، وأشجع وبنو مرة وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان مَن وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف[1].

واشتد الخطب على المؤمنين حينما غدرت يهود بني قريظة، ونكثوا عهدهم كعادة اليهود في كل زمان أو مكان، وكان موقعهم يُمكنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف، وصار المسلمون كما وصفهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٩ ـ ١١].

فجمع النبي ﷺ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ليشاورهم في الأمر.

وهنا يتقدم البطل سلمان الفارسي بتلك الفكرة العظيمة ألا وهي: حفر الخندق.

قال الحافظ في الفتح: فالذي أشار بذلك سلمان (أي بحفر الخندق).

قال سلمان للنبي ﷺ: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه. ا.هـ.

وهكذا يجب على المسلم أن يبحث لنفسه عن دورٍ وعن عملٍ لخدمة دين الله ـ جل وعلا ـ.

ولن تعجز أيها المسلم أن تجد هذا الدور، ولكن أخلص النية لله واسأله أن يستعملك وأن يستخدمك لنُصرة دينه وسوف يُجرى الله الخير على يديك وينفع بك الإسلام والمسلمين... فها هو سلمان ـ رضى الله عنه ـ يأتى من بلاد فارس ليُسلم لله ـ جل وعلا ـ ويكون سببًا فى حفر الخندق لينفع الله به الإسلام والمسلمين.

فاللهم استعملنا لنُصرة دينك يا أرحم الراحمين.

علمه ـ رضى الله عنه ـ

ولقد امتن الله ـ عز وجل ـ على (سلمان) ـ رضى الله عنه ـ بسعة العلم، ولعل من تدبر وتأمل قصة إسلامه يتبين له هذا الأمر واضحًا جليًا. فعن رجل، عن زاذان قالا: كنا عند عليّ، قلنا: حدِّثنا عن سلمان، قال: مَن لكم بمثلِ لقمان الحكيم، ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت، أدرك العلم الأول والعلم الآخر، بحر لا يُنزف[١].

وعن قتادة فى قوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قال: سلمان وعبد الله بن سلام[٢].

وعن أبى البخترى قال: قيل لعليّ: أخبرنا عن أصحاب محمد ﷺ قال: عن أيهم تسألون؟ قيل: عن عبد الله، قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى وكفى به علمًا. قالوا: عمار؟ قال: مؤمن نَسىٌّ فإن ذكَّرته ذكر. قالوا: أبو ذر؟ قال: وعى علمًا عجز عنه. قالوا: أبو موسى؟ قال: صُبغ فى العلم صبغة، ثم خرج منه. قالوا: حذيفة؟ قال: أعلمُ أصحاب محمد بالمنافقين. قالوا: سلمان؟ قال: أدرك العلم الأول، والعلم الآخر، بحر لا يُدركُ قعرهُ، وهو منا أهل البيت. قالوا: فأنت يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت إذا سألتُ أُعطيتُ، وإذا سكتُ ابتديت[٣].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ٦١) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٨٧) والاستيعاب (٤/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٧٧) وانظر «الدر المنثور» تفسير [الرعد: ٤٢].

(٣) أخرجه الفسوى فى المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٤٠) والطبرانى (٦٠٤١) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٨٧) ورجاله ثقات.

بل لقد كان ـ رضي الله عنه ـ يحوّل هذا العلم إلى واقع عملي منظور يعيشه ويتعايش معه، بل ويدل من حوله إلى كل خير من خلال هذا العلم الذي امتن الله به عليه.

فعن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال له: كُل، قال: فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال: نم. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل. قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حقٍ حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ: صدق سلمان»(١).

بل لقد كان كلما ازدادت المحن والفتن والابتلاءات على أصحاب النبي ﷺ كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ يُذكّرهم بنُصرة الله لأوليائه المؤمنين الصابرين على المحن والابتلاءات.. فيقول: كانت امرأةُ فرعون تُعذَّب، فإذا انصرفوا، أظلّتها الملائكة بأجنحتها، وترى بيتها في الجنة وهي تُعذَّب، قال: وجُوِّع لإبراهيم أسدان ثم أُرسلا عليه، فجعلا يلحسانه، ويسجُدانِ له(٢).

وهكذا فإن العلم من أعظم أسباب الثبات في الدنيا والآخرة، وبخاصة إذا كان العالم عاملاً بعلمه مريداً به وجه الله تعالى.

مناقبه ومكانته عند الله

عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان مرّ على سلمان وبلال وصهيب في نفر فقالوا: ما أخذت سيوفُ الله من عُنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها! ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر يغفر الله لك(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) والترمذي (٢٤١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٦) نقلاً من السير للذهبي (١/ ٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٦٤) ومسلم (٢٥٠٤) في الفضائل.

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ فأُنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسى فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثُريا لناله رجال، أو رجل، من هؤلاء»(١).

وعن كثير بن عبد الله المُزنى، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ خط الخندق، وجعل لكل عشرة أربعين ذراعًا، فاحتج المهاجرون والأنصار فى سلمان، وكان رجلاً قويًا، فقال المهاجرّون: سلمان منا، وقالت الأنصار: لا بل سلمان منا. فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»(٢).

بل وتأتى أعظم منقبة فى الكون كله... فها هو رسول الله ﷺ **يبشره بأن الجنة تشتاق إليه**، فقال ﷺ: «**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمار وسلمان**»(٣).

خوفه من المظالم

وكان يخشى من المظالم أيما خشية وكان يحذّر أصحابه من الجور والظلم والبُعد عن العدل بين الناس.

عن يحيى بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان: هلمَّ إلى الأرض المقدسة. فكتب إليه: إن الأرض لا تُقدس أحدًا، وإنما يُقدس المرء عمله. وقد بلغنى أنك جُعلت طبيبًا، فإن كنت تُبرئ، فنعمًّا لك، وإن كنت متطببًا فاحذر أن تقتل إنسانًا، فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين، ثم أدبرا عنه، نظر إليهما، وقال: متطبب والله، ارجعا أعيدا علىّ قصتكما(٤).

* * *

(١) أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٧٥).
(٣) رواه الترمذى والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).
(٤) أخرجه مالك فى «الموطأ» (ص: ٤٨٠) فى الوصية: باب جامع القضاء برقم (٧). وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٠٥).

خفة ظله ـ رضي الله عنه ـ

وكان سلمان ـ رضى الله عنه ـ يتمتع بخفة الظل، فعلى الرغم من أنه العابد التقى الورع المخبت البكَّاء إلا أنه كان يتحين الفرص ليُدخل الفرحة والبسمة على قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.

عن أبى وائل قال: ذهبت أنا وصاحب لى إلى سلمان، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف، لتكلفت لكم. فجاءنا بخبز وملح. فقال صاحبى: لو كان فى ملحنا صعتر. فبعث سلمان بمطهرته، فرهنها فجاء بصعتر، فلما أكلنا، قال صاحبى: الحمد لله الذى قنَّعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت لم تكن مطهرتى مرهونة(١).

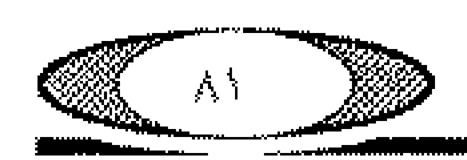
وعن أبى البخترى قال:جاء الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله، فدخلا على سلمان فى خص، فسلما وحيياه، ثم قالا:أنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ قال: لا أدرى. فارتابا. قال: إنما صاحبه من دخل معه الجنة. قالا: جئنا من عند أبى الدرداء، قال: فأين هديته؟ قالا: ما معنا هدية. قال: اتقيا الله، وأديا الأمانة، ما أتانى أحد من عنده إلا بهدية، قالا: لا ترفع علينا هذا، إن لنا أموالاً فاحتكم، قال: ما أُريدُ إلا الهدية، قالا: والله ما بعث معنا بشىء إلا أنه قال: إن فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به، لم يبغِ غيره، فإذا أتيتماه، فأقرئاه منى السلام. قال: فأى هديةٍ كنتُ أُريدُ منكما غير هذه؟ وأى هديةٍ أفضلُ منها(٢)؟

تواضعه ـ رضى الله عنه ـ

قال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله»(٣).

وقال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكبر مع الأدب والسخاء. فأنبل بحسنة غطّت على سيئتين وأقبح بسيئة غطت على حسنتين.

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٧٩): أخرجه الطبرانى (٦٠٨٥) ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الطوسى وهو ثقة.
(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٠١)، والطبرانى (٦٠٥٨)، وذكره الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤١)، وقال: رجاله رجال الصحيح، غير يحيى بن إبراهيم المسعودى، وهو ثقة.
(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٣٨).



كيف يزهو مَن رجيعُه　　　أبد الدهر ضجيعُـــه

ولقد كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ متواضعًا، ولذلك رفعه الله تعالى وأعلى قدره في الدنيا والآخرة.

وها هي أمثلة نادرة من التواضع لهذا الصحابي الجليل.

عن جرير بن حازم قال: سمعت شيخًا من بني عبس يذكر عن أبيه قال: أتيتُ السوق، فاشتريتُ علفًا بدرهم، فرأيتُ سلمان ولا أعرفه، فسخَّرته، فحملت عليه العلف، فمرَّ بقوم، فقالوا: نحملُ عنك يا أبا عبد الله، فقلت: من ذا؟ قالوا: هذا سلمان صاحبُ رسول الله. فقلتُ له: لم أعرفك، ضعه. فأبى حتى أتى المنزل[١].

وعن جرير بن عبد الله قال: نزلت بالصِّفاح في يومٍ شديد الحر، فإذا رجل نائم في حر الشمس يستظل بشجرة، معه شيء من الطعام، ومزوده تحت رأسه، ملتفٌ بعباءة، فأمرته أن يظلل عليه، ونزلنا فانتبه، فإذا هو سلمان. فقلت له: ظللنا عليك وما عرفناك. قال: يا جرير! تواضع في الدنيا فإنه من تواضع يرفعه الله يوم القيامة، ومن يتعظم في الدنيا يضعه الله يوم القيامة، لو حرصت على أن تجد عودًا يابسًا في الجنة لم تجده. قلت: وكيف؟ قال: أصولُ الشجر ذهب وفضة، وأعلاها الثمار، يا جرير! تدري ما ظلمة النار؟ قلت: لا، قال: ظلم الناس[٢].

وعن عبد الله بن بريدة أن سلمان كان يعمل بيده، فإذا أصاب شيئًا اشترى به لحمًا أو سمكًا ثم يدعو المجذَّمين، فيأكلون معه[٣].

وعن عبيدة السلماني ـ رحمه الله ـ أن سلمان مرَّ بحجر المدائن غازيًا، وهو «أميرُ الجيش» وهو ردف رجل من كندة على بغلٍ موكوف.

فقال أصحابه: أعطنا اللواء أيها الأمير نحمله، فيأبى حتى قضى غزاته ورجع وهو ردف الرجل[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ٦٣) نقلاً من السير للذهبي (١/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٢) والصِّفاح: موضع بين حنين وأنصاب الحرم، على يسرة الداخل إلى مكة من مشاش.

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ٦٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٠).

(٤) رجاله ثقات: الأرنؤوط [سير أعلام النبلاء (١/ ٥٤٥، ٥٤٦)]. يردف الرجل: أي خلفه.

وعن الحسن: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان على ثلاثين ألفًا من الناس، يخطب فى عباءة يفرش نصفها، ويلبسُ نصفها. وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده ـ رضى الله عنه ـ.

وعن أبى قلابة أن رجلاً دخل على سلمان وهو يعجن فقال: ما هذا؟ قال: بعثنا الخادم فى عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين[1].

كلمات من القلب ونور على الدرب

أيها الأخ الحبيب: افتح قلبك قبل عينيك لتقرأ تلك الكلمات التى خرجت من هذا القلب الطاهر واللسان الذاكر.

عن أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى قال: ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى: مؤمّل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ـ فمه ـ لا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راضٍ عنه. وثلاث أحزننى حتى أبكيننى: فراق محمد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدى ربى ـ عز وجل ـ ولا أدرى إلى جنة أو إلى نار.

وعن حفص بن عمرو السعدى عن عمه قال: قال سلمان لحذيفة: يا أخا بنى عبس العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاج إليه فى أمر دينك، ودع ما سواه فلا تعانه.

وعن أبى سعيد الوهبى عن سلمان قال: إنما مثل المؤمن فى الدنيا كمثل المريض معه طبيبه الذى يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى ما يضره منعه وقال: لا تقربه؛ فإنك إن أتيته أهلكك. فلا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه. وكذلك المؤمن يشتهى أشياء كثيرة مما قد فُضّل به غيره من العيش فيمنعه الله ـ عز وجل ـ إياه، ويحجزه حتى يتوفاه، فيدخله الجنة.

وعن أبى عثمان عن سلمان، قال: لما افتتح المسلمون (جوخى) دخلوا يمشون فيها، وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال. قال: ورجل يمشى إلى جنب سلمان، فقال: يا أبا عبد الله ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟ فقال سلمان: وما يعجبك فيما ترى... إلى جنب

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٢٧).

كل حبة مما ترى حساب.

وعن سعيد بن وهب قال: دخلت مع سلمان على صديق له من (كندة) نعوده ـ نزوره في مرضه ـ فقال له سلمان: إن الله ـ عز وجل ـ يبتلى عبده المؤمن بالبلاء. ثم يعافيه فيكون كفارة لما مضى، فيستعتب فيما بقي. وإن الله ـ عز وجل ـ يبتلى عبده الفاجر بالبلاء ثم يعافيه، فيكون كالبعير عقله أهله ثم أطلقوه فلا يدرى فيم عقلوه ولا فيم أطلقوه حين أطلقوه.

وعن قتادة قال: قال سلمان: إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية فأحسن حسنة في علانية لكي تكون هذه بهذه.

وعن ميمون بن مهران قال: جاء رجل إلى سلمان، فقال: أوصني. قال: لا تكلم. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم. قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو اسكت. قال: زدني. قال: لا تغضب. قال: إنه ليغشاني ما لا أملكه. قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك. قال: زدني. قال: لا تُلابس الناس. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يلابسهم. قال: فإن لابستهم فاصدق الحديث وأدّ الأمانة[1].

بل إن سلمان ـ رضي الله عنه ـ من زهده وورعه كان يخشى من أن تُبسط عليه الدنيا فكان يخشى حتى من أن يكون في بيته أي شيء من المتعة، ولو كانت قليلة.

فعن مالك بن أنس أن سلمان الفارسي كان يستظل بالفيء حيثما دار، ولم يكن له بيت. فقال له رجل: ألا نبني لك بيتًا تستظل به من الحر، وتسكن فيه من البرد؟ فقال له سلمان: نعم. فلما أدبر صاح به فسأله سلمان: كيف تبنيه؟ قال: أبنيه إن قمت فيه أصاب رأسك وإن اضطجعت فيه أصاب رجليك. فقال سلمان: نعم[2].

وحان وقت الرحيل

وهكذا ظل سلمان ـ رضي الله عنه ـ (الباحث عن الحقيقة) شمسًا في سماء الكون تنشر النور والدفء على من حولها.

فهو الزاهد العابد المجاهد الحكيم.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٢٩: ٢٣١) بتصرف.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٢٦).

ولكن آن لهذا العملاق أن يرحل عن تلك الحياة ليعيش حياة أخرى حيث النعيم المقيم.

عن ثابت، عن أنس قال: دخل سعد وابن مسعود على سلمان عند الموت، فبكى. فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: عهد عهده إلينا رسول الله ﷺ لم نحفظه. قال: «ليكن بلاغُ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب».

وأما أنت يا سعد فاتق الله فى حُكمك إذا حكمت، وفى قسمك إذا قسمت، وعند همك إذا هممت.

قال ثابت: فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهمًا نفيقة كانت عنده[1].

وعن بُقيرة امرأة سلمان أنها قالت: لما حضره الموت: دعانى وهو فى علية له لها أربعة أبواب، فقال: افتحى هذه الأبواب فإن لى اليوم زوّارًا لا أدرى من أى هذه الأبواب يدخلون علىّ، ثم دعا بمسك فقال: أديفيه فى تور ثم انضحيه حول فراشى، فاطلعت عليه فإذا هو قد أُخذ روحُهُ ـ مات ـ فكأنه نائم على فراشه[2].

عمره عند موته

قال العباس بن يزيد البحرانى: يقول أهل العلم: عاش سلمان ثلاث مئة وخمسين سنة، فأما مئتان وخمسون، فلا يشكون فيه.

قال الإمام الذهبى: ومجموع أمره وأحواله، وغزوه، وهمته، وتصرفه، وسفّه للجريد، وأشياء مما تقدم يُنبئ بأنه ليس بمعمّرٍ ولا هرم. فقد فارق وطنه وهو حَدَث ـ صغير ـ ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل، فلم ينشب أن سمع بمبعث النبى ﷺ ثم هاجر، فلعله عاش بضعًا وسبعين سنة. وما أراه بلغ المئة. فمن كان عنده علم، فليُفدنا.

وقد ذكرت فى تاريخى الكبير أنه عاش مئتين وخمسين سنة، وأنا الساعة لا أرتضى

(١) حديث صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٠٤) والحاكم (٤/ ٣١٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٠٨) وذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٤٤) وقال: رواه الطبرانى من طريق: الجزل عن بقيرة، ولم أعرفهما، وباقى رجاله ثقات، وكذلك أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ٦٦) وقوله: أديفيه: أى اخلطيه، والتور: إناء: إناء من صفر أو حجارة، يوضع فيه الماء. وجاء فى الأصل: أودفيه، وما أثبتناه من «غريب الحديث» لابن الأثير، والحلية والمجمع.

ذلك ولا أصححه[١].

وهكذا رَحَل الباحث عن الحقيقة عن تلك الدنيا ذات المتاع الزائف ليعيش هناك في النعيم الحقيقي في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وتوفي في خلافة عثمان بن عفان.

فرضي الله عنه وعن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦).

ثمامة بن أثال

أول مسلم على وجه الأرض دخل مكة ملبيًا

إن الإنسان بلا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال ولا تسكن إلى قرار أينما تميلها الريح تميل ـ والفرد بلا إيمان لا قيمة له ولا جذور ـ إنسانٌ قَلِق متبرم حائر لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده.

لا يدري من ألبسه ثوب الحياة ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

فالإنسان بلا إيمان قلبه لا يفقه، وأُذنه لا تسمع، وعينه لا تبصر، والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأتقى فهو مجتمع شقاء وإن ذخر بأدوات الرفاهية والرخاء.

إنه الإيمان الذي يحوّل الظلام الدامس إلى نورٍ ساطع والقلوب الميتة إلى ضمائر حية والعبيد إلى سادةٍ للأمم والضعفاء إلى قادةٍ للشعوبٍ والأجيال.

ولذا فإن الأمم لا تنهض من كبوة ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقي من هبوط إلا بعد أن يلامس الإيمان شغاف القلوب.

ونحن نعلم جميعًا أن هدم الجبال أو تحويل مياه النيل أو تغيير معالم الكون أسهل بكثير من تغيير القلوب والعقول وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي تغيرت به القلوب وتنورت به العقول فالإيمان بالله وحده هو الذي يصنع العجائب ويغير وجهة الإنسان وسلوكه بين التو واللحظة ـ فلو أنك كنت تعرف إنسانًا في جاهليته ثم رأيته مرة أخرى بعد إسلامه أو بعد توبته (إن كان من عصاة المسلمين) لرأيت إنسانًا آخر، وكأن الله أحياه من بعد موته!!![1].

وها هو الصحابي الجليل ثمامة بن أثال الذي لامس الإيمان شغاف قلبه فهدم الجاهلية من جذورها وبنى فيه صرحًا شامخًا من الإيمان والتقوى.

(١) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ـ للمصنف (ص: ٦٥ ـ ٦٧) بتصرف.

لقد كان قبل ذلك يتحين أى فرصة ليقتل النبى ﷺ لولا أن أحد أعمامه ثناه عن عزمه فى آخر لحظة وكتب الله النجاة لنبيه ﷺ ، بل كان يتربص بأصحاب النبى ﷺ حتى إنه قتل عددًا من أصحاب النبى ﷺ فأهدر النبى ﷺ دمه.

سرية نجد تحمل النجاة لثمامة

خرج ثمامة من أرض اليمامة موليًا وجهه شطر مكة المكرمة يريد الطواف حول الكعبة والذبح لأصنامها.

وإذا بالنبى ﷺ يرسل سرية إلى أرض نجد فيأتوا به أسيرًا.

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: بعث النبى ﷺ خيلاً قِبلَ نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثُمامة؟ فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فتُرك حتى كان الغد ثم قال له: «ما عندك يا ثُمامة؟» فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندى ما قلت. فقال: «أطلقوا ثمامة».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىَّ، والله ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلىَّ، والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىَّ. وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ـ وفى رواية: فاغتسل وصلى ركعتين فقال رسول الله ﷺ: لقد حسن إسلام صاحبكم»[١].

فلما قدم مكـة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمـد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ[٢].

الله أكبر... يدخل ثمامة مكة ملبيًا فيكون أول مسلم على وجه الأرض يدخل مكة ملبيًا ورافعًا صوته بالتلبية.

---

(١) رواه ابن حبان (موارد الظمآن ٣٢٨١) قال العدوى: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخارى (٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

«لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك... لا شريك لك».

إن قريشًا تعلم أن ثمامة سيدٌ من سادات بني حنيفة المرموقين وملك من ملوك اليمامة الذين لا يُعصى لهم أمر.

ولقد أقسم بالله ليمنعن عن قريشٍ الطعام حتى يتّبعوا محمداً ﷺ.

ولقـد عـاد ثمامـة إلى بلاده (اليمامـة) التي كانت بمثابة الريف لأهل مكة، فأمر قومه أن يحبسوا الميرة ـ الطعام ـ عن قريش فاستجابوا لأمره، وحبسوا الطعـام عن أهل مكـة حتى جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ففعل رسول الله ﷺ (١).

ثبات على المبدأ

هكذا استطاع ثمامة ـ رضي الله عنه ـ أن يقف هذا الموقف الإيجابي للذود عن حياض الإسلام فيمنع الخير عن أعداء الله رغبة في إسلامهم ليحقق بذلك تلك الخيرية التي امتن الله بها على تلك الأمة الميمونة حيث يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

ويا له من درس عظيم... فلو أن الأمة منعت خيرها عن اليهود وسائر أعداء هذا الدين لجاءوا جميعاً ووضعوا رؤوسهم على عتبة الإسلام بدلاً من الذل الذي تعيشه الأمة المسلمة في ظل التخاذل الجماعي من أبنائها ـ إلا من رحم الله ـ عن نُصرة دين الله وعن العمل لهذا الدين العظيم.

فيا ليتنا نعي هذا الدرس جيداً.

ولم يكتفِ ثمامة بهذا الموقف، بل ظل طوال حياته يعمل لُنصرة دين الله حتى بعد وفاة النبي ﷺ عندما ارتدت الكثير من قبائل العرب وقام مسيلمة الكذاب يدعوهم إلى الإيمان به فوقف ثمامة كالأسد الثائر في وجه هذا الكذاب. وقال لقومه: يا بني حنيفة إياكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه.. إنه والله لشقاءٌ كتبه الله ـ عز وجل ـ على من أخذ به منكم، وبلاءٌ على من لم يأخذ به.

(١) زاد المعاد (٢/ ١١٩) ومختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي (ص: ٢٩٢ ـ ٢٩٣) بتصرف.

ثم قال: يا بني «حنيفة» إنه لا يجتمع نبيان في وقت واحد... وإن محمدًا رسول الله لا نبي بعده، ولا نبي يُشرك معه.

ثم قرأ عليهم: ﴿حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ [غافر:١ ـ ٣].

ثم قال: أين كلام الله هذا من قول مُسيلمة: «يا ضفدع نقِّي ما تنقين، لا الشراب تمنعين، ولا الماء تُكدِّرين».

ثم انحاز بمن بقي على الإسلام من قومه، ومضى يقاتل المرتدين جهادًا في سبيل الله، وإعلاءً لكلمته في الأرض(١).

وظل يبذل ماله ونفسه وحياته كلها لله ولُنصرة دين الله ـ جل وعلا ـ حتى حان وقت الرحيل وخرج هذا البطل ـ الذي امتلأ قلبه حبًا لله، بل وشوقًا إلى لقائه ـ من هذه الدنيا ولسان حاله: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه:٨٤].

فرضي الله عن ثمامة وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ٦٥).



عبد الله بن رواحة

(الأمير السعيد الشهيد)
كلامه أشد على المشركين من وقع النبل

إنه عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة.
الأميرُ السعيد الشهيدُ أبو عمرو الأنصارى الخزرجى البدرىُّ النقيبُ الشاعر.
شهد بدرًا والعقبة. يُكنى أبا محمد، وأبا رواحة، وليس له عقب.
وهو خال النعمان بن بشير. وكان من كُتّاب الأنصار. استخلفه النبى ﷺ على المدينة فى غزوة بدر الموعد(١)، وبعثه النبى عليه السلام سرية فى ثلاثين راكبًا إلى أُسير بن رِزام اليهودى بخيبر فقتله(٢).

قصة الأمير السعيد الشهيد

وتعالوا بنا لنعيش قصة الأمير السعيد الشهيد من أولها لنستنشق عبير السعادة والشهادة عسى الله أن يجمعنا فى زمرة السعداء والشهداء فى جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سُرِرٍ متقابلين.
لقد نشأ (ابن رواحة) فى أسرة كريمة فنشأ نشأة مباركة فكان يكتب ويقرأ، وكانت الكتابة وقتها نادرة فى العرب.

وكان فى تلك البيئة الخصبية ذات العيون والزروع والخضرة يحب أن يتعايش مع الشعر إلى أن أصبح شاعرًا لا يُشق له غبار ولم يكن شاعرًا فحسب!! بل كان شاعرًا وفارسًا مغوارًا يعتمد عليه قومه (الخزرج) فى حروبها ضد (الأوس) حيث كان العداء مشتعلاً بينهم بصورة دائمة.

---

(١) بدر الموعد: هى التى تواعدوا عليها من أحد. وذلك أن أبا سفيان لما انصرف منها نادى إن موعدكم بدر، العام المقبل. ولما رجع النبى ﷺ من غزوة ذات الرقاع أقام فى المدينة إلى شعبان حيث خرج لميعاد أبى سفيان. وخرج أبو سفيان حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ثم رجع ورجع الناس، فسماهم أهل مكة: جيش السويق، إذ يقولون: خرجتم تشربون السويق.
(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) بتصرف ـ ابن سعد (٣/ ١/ ٧٩).

ولكن الله ـ عز وجل ـ أراد الخير للكون كله ببعثة الحبيب محمد ﷺ . فأشرقت شمس الهداية على أرض الجزيرة لينعم بدفئها من أراد النور وسئم الظلام بكل ما فيه.

ولما بعث الحبيب ﷺ مصعب بن عمير سفيراً للدعوة إلى الله فى المدينة المنورة.. وكان مصعب لبيبًا ذكيًا رحيمًا فى دعوته فلم يمض عليه فترة يسيرة حتى جعله الله سببًا فى إسلام تلك الباقة العطرة من سادة وأشراف يثرب (المدينة).

موعد مع السعادة

وفى موسم من مواسم الحج خرج (ابن رواحة) لأداء الحج مع قومه وعشيرته فكان هذا اللقاء التاريخى عند العقبة، وكانت بيعة العقبة الثانية فتقدم (ابن رواحة) ومدَّ يده لتصافح وتبايع الحبيب ﷺ تلك البيعة المباركة.

وكان (ابن رواحة) من النُقباء الاثنى عشر فى تلك البيعة. ثم عاد إلى المدينة، وقد امتلأ قلبه غبطة وسعادة وسروراً يكفى الكون كله من حوله، بل ويزيد عليه.

وهنا بدأ (ابن رواحة) رحلته فى الدعوة إلى الله على بصيرة.

شوق وحنين

وازداد شوقه وحنينه لرؤية الحبيب ﷺ وملازمته فشاء الله ـ عز وجل ـ أن يهاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة لتدخل التاريخ من أوسع أبوابه ولتصبح منارة للكون كله عبر العصور والأزمان. وخرج (ابن رواحة) مع قومه لاستقبال الحبيب ﷺ . وما إن استقر النبى ﷺ فى المدينة حتى كان (ابن رواحة) يلازمه ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة المباركة. ولم يكن ابن رواحة يدافع عن الإسلام بسيفه ولسانه فحسب، بل كان يدعو إلى الله ورسوله بكل ما أوتى من قوة فى البيان والإقناع، وهو سبب إسلام أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ.

كان سببا فى إسلام أبى الدرداء

كان أبو الدرداء تربطه بعبد الله بن رواحة (فى الجاهلية) صداقة ومحبة فقد كانا متآخيين فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام اعتنقه عبد الله بن رواحة وأعرض عنه أبو الدرداء. وتمر الأيام والليالى وما زال أبو الدرداء على الشرك.

وفى يومٍ من الأيام خرج أبو الدرداء كعادته إلى متجره وأخذ يبيع ويشترى ثم عاد إلى منزله وهو فى غاية الاشتياق لرؤية إلهه (الصنم) الذى كان يعبده، وإذا به يجد

مفاجأة لم تخطر بباله أبدًا.

فلقد دخل بيته ـ وهو غائب عنه ـ عبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة فكسرا صنمه، فرجع يجمعُ الصنم، ويقول: ويحك! هلا امتنعتَ! ألا دفعت عن نفسك. فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفعُ عن أحد، دفع عن نفسه، ونفعها!

فقال أبو الدرداء: أعدِّى لى ماء فى المغتسل. فاغتسل، ولبس حُلته، ثم ذهب إلى النبى ﷺ فنظر إليه ابن رواحة مُقبلاً، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء فى طلبنا؟ فقال: «إنما جاء ليُسلمَ، إنَّ ربى وعدنى بأبى الدرداء أن يُسلم»[١].

وهكذا احتل عبد الله بن رواحة مساحة عظيمة فى نفس أبى الدرداء، إذ هو سبب فى إسلامه وهدايته، وكان أبو الدرداء يعترف بهذا له، وأُثر عنه قوله: «أعوذ بالله أن يأتى علىَّ يومٌ لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة»[٢].

وفى كل مجلس يجلسه أبو الدرداء كان يحدث عن عبد الله بن رواحة، ويذكر فضائله ومناقبه، فلم تكن صورته تبرح مخيلة أبى الدرداء.

عبادته وخوفه من الله

قال أبو الدرداء: إن كنا لنكونُ مع رسول الله ﷺ فى السفر فى اليوم الحار ما فى القوم أحد صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة[٣].

وعن ابن أبى ليلى قال: تزوج رجلٌ امرأة ابن رواحة ـ بعد وفاته ـ فقال لها: تدرين لِمَ تزوجتك؟ لتخبرينى عن صنيع عبد الله فى بيته. فذكرت له شيئًا لا أحفظه، غير أنها قالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل، صلى ركعتين. لا يدع ذلك أبدًا[٤].

قال عروة: لما نزلت ﴿والشعراءُ يتَّبِعهم الغاوُونَ﴾ قال ابنُ رواحة: أنا منهم. فأنزل الله ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر (١٣/ ٣٦٩/ ٢) وانظر المستدرك (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٥).

(٣) أخرجه البخارى (١٩٤٥) ـ ومسلم (١١٢٢) الصيام.

(٤) نسبه الحافظ فى الإصابة (٦/ ٧٨ ـ ٧٩) إلى ابن المبارك فى الزهد وصحح سنده.

(٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٨١) والحافظ فى الإصابة (٦/ ٧٩) وابن هشام (٢/ ٣٧٣).

قال ابن سيرين: كان شعراءُ رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك(١).

وكان (ابن رواحة) قد جعل ماله ولسانه وسنانه لنُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ وكان رحيمًا باليتامى فها هو يكفل (زيد بن أرقم) الذى كان يتيمًا وقتها فيتربى فى حجره ويعطف عليه (ابن رواحة) ويُغدق عليه الخير الكثير.

موقفه المبارك أمام رأس المنافقين (ابن سلول)

ذهب رسول الله ﷺ ـ بعد الهجرة ـ يعود سعد بن عبادة فى مرض أصابه قبل وقعة بدر، فركب حمارًا وأردف وراءه أُسامة بن زيد، وسارا حتى مرا بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيّ. وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين (عبدة الأوثان) واليهود. وفى المسلمين عبد الله بن رواحة.

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبد الله أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلَّم رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ثم وقف ونزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن.. فقال له عبد الله: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به فى مجالسنا. وارجع إلى رحلك. فمن جاءك فاقصص عليه..

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل الرسول (عليه الصلاة والسلام) يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال النبى ﷺ: «ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب»؟ ـ يعنى ابن أُبيّ ـ: قال سعد: وما قال؟ قال رسول الله ﷺ: قال كذا وكذا. فقال سعد: اعف عنه يا رسول الله، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى أُنزل عليك، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة ـ يعنى المدينة ـ على أن يتوجوه، ويعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك، شرق بذلك، فذلك الذى فعل به ما رأيت(٢).

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ١٨٥ ـ ١٨٦) بشرح فتح البارى ـ ومسلم (٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

بهذا قامت السماوات والأرض

عن سليمان بن يسار أن النبي ﷺ كان يبعث ابن رواحة إلى خيبر فيخرُصُ بينه وبين يهود، فجمعوا حُليًا من نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفِّف عنا.

قال: يا معشر يهود! والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليَّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم[١]، والرشوةُ سُحت.

فقالوا: بهذا قامت السماء والأرض[٢].

شهادة عظيمة

عن الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر النبي ﷺ يقول: إن أخًا لكم لا يقولُ الرَّفثَ - يعني بذلك ابن رواحة - قال:

فينا رســولُ اللــه يتلو كتابهُ ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجرِ ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أن مـا قـال واقـعُ
يبيتُ يُجـافي جَنْبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضـاجعُ[٣]

ولما حمي الوطيس كان (ابن رواحة) من المسارعين لنُصرة دين الله وللذود عن حياضه.

فها هو تراه في غزوة بدر يقاتل قتال الليوث المهتاجة فكان يهدّ صفوف المشركين هدًا.... وفي غزوة أُحُد أبلى بلاءً حسنًا.

ولما قُتل حمزة عم النبي ﷺ قام (ابن رواحة) فرثاه بقصيدة قال فيها:

بكَتْ عيني وحقَّ لها بُكَاهـا ... وما يُغْني البكـاء ولا العويل
علَى أسَدِ الإله غـداةَ قالوا: ... أحَمْـزةُ ذاكُم الرجُـل القتيل
أُصيبَ المسلمـون به جميعًا ... هناك وقد أُصيبَ به الرسـول
أبا يَعْلى، لكَ الأركان هُدَّت ... وأنتَ الماجـدُ البَرُّ الوصـول

---

(١) أجور عليكم أو أظلمكم.
(٢) السير للإمام الذهبي (١/ ٢٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٥١).

وكان كذلك من الأبطال فى غزوة الخندق.

وكان لا يقاتل بالسنان فحسب، بل كان يحارب المشركين بشعره وكلامه الذى هو أشد عليهم من وقع النَبل.

وعن أنس قال: دخل النبى ﷺ مكة فى عمرة القضاء، وابن رواحة بين يديه يقول:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكـم على تنزيله

ضربًا يُزيلُ الهام عن مقيله   ويُذهلُ الخليـل عـن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة! فى حرم الله وبين يدى رسول الله تقولُ الشعر؟ فقال النبى ﷺ: «خَلِّ يا عمرُ، فهو أسرعُ فيهم من نضح النَّبْل».

وفى لفظ: «فوالذى نفسى بيده، لكلامه عليهم أشدُّ من وَقْعِ النَّبْل»(١).

وظل هذا البطل المغوار شوكة فى ظهر المشركين إلى أن جاء اليوم الذى كان ينتظره بطلنا على شوقٍ ولهفة ـ ألا وهو اليوم الذى رزقه الله فيه الشهادة فى سبيله ـ.

فتعالوا بنا لنتعايش مع هذا المشهد المهيب لهذا الفدائى الباسل فى يوم (مؤتة).

وحان وقت الرحيل

عن عروة بن الزبير قال: بعث النبى بعثًا إلى مؤتة فى جمادى الأولى من سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثة فقال لهم: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودّع بكى فقيل له: ما يبكيك يا ابن رواحة فقال: والله ما بى حب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿وإن منكم إلا واردُها كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾ فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ورفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنّنى أسـألُ الرحمنَ مغفـرةً   وضربةً ذات فرغ تقـذفُ الزّبدا

أو طعنةً بيـدى حرانَ مجهـزةً   بحربةٍ تنفذ الأحشاءَ والكبـدا

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده قوى وأخرجه الترمذى (٢٨٥١) وأبو يعلى بسندٍ حسن.

حتى يقولوا إذا مرّوا على جَدَثى ... أرشدهُ اللهُ من غازٍ وقد رشدا

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يودعه فقال:

يثبتُ اللهُ ما أتاكَ من حُسنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذى نصروا

إنى تفرّستُ فيكَ الخيرَ نافلةً ... فراسةٌ خالفتهم فى الذى نظروا

أنتَ الرسولُ فمن يُحرَم نوافله ... والوجهَ منهُ فقد أزرى به القدرُ

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودعته ... فى النخل غير مودع وكليل

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام فبلغهم أن هرقل فى باب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلى فى مائة ألف، عليهم رجل يلى أخذ رايتهم يقال له ملك بنى زانة، فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له، فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

... ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها فقاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام[1].

فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه وتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمتُ يا نفسى لتنزلنّه ... طائعة أو لتكرهنّه

ما لى أراكِ تكرهين الجنّة ... إن أجلب الناس وشدوا الرنّةَ

لطالما قد كنتِ مُطمئنة ... هل أنت إلا نطفةٌ فى شنّه

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات إلى عروة ـ مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٩).

وقال عبد الله بن رواحة:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي　　　هذا حمامُ الموت قد صليت

وما تمنيتِ فقد لقيتِ　　　إن تفعلي فعلهما هُديتَ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صُلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس فقال: وأنت فى الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى عجلان وقال: يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف»(1).

عن أنس رضى الله عنه: «أن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم: فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(2).

وعاد خالد بن الوليد رضى الله عنه بالجيش بعد أن أوقع الخسائر الفادحة فى جيش الروم، ولا شك أن النجاة بهذا الجيش الذى لا يتجاوز الثلاثة آلاف من جيش الكفار الذى بلغ مائتى ألف لنجاح عظيم، ولذلك سمى النبى ﷺ ذلك فتحًا، ووصف خالدًا بأنه سيف من سيوف الله(3).

وهكذا رحل (ابن رواحة) بعد أن سالت دماؤه الزكية الطاهرة فى أرض الشرف والجهاد.. تلك الدماء التى لطالما امتزجت بحب الله وحُب رسوله ﷺ وتحركت شوقًا لنُصرة دين الله.

رحل (ابن رواحة) ليجمعه الله فى الجنة مع حبيبه ﷺ لتكتمل سعادته فى الدنيا والآخرة.

فرضى الله عن (ابن رواحة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(1) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات (٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠) مجمع الزوائد.

(2) رواه البخارى (٧/ ٥٨٥) المغازى.

(3) وقفات تربوية لأحمد فريد (٣٢٤ ـ ٣٢٧) بتصرف.





(صاحب عصابة الموت)

الرجل الذي أخذ سيف رسول الله ﷺ بحقه

لقد كان أصحاب النبي ﷺ أسوة وقدوة في كل شيء، لكن بعضهم كان يتميز أحيانًا عن غيره بصفة تظهر فيه جليّة واضحة كالشمس في رابعة النهار.

وها نحن على موعدٍ مع بطلٍ كان إذا ربط على رأسه العصابة الحمراء هبَّت رياح الموت من كل مكان.

لقد كان الناس يعرفون للحرب قدرها ورهبتها ويعملون لها ألف حساب... أما بطلنا فقد كان يدخل الحرب فينظر إلى أعداء الله كأنهم حشرة حقيرة يمشي عليها ويطأها بقدميه. فتجده يمشي يختال في مشيته عند الحرب.

كان أبو دجانة صاحب همة عالية في القتال وكانت تلك الهمة في حاجة إلى أن تأخذ طريقها إلى رقاب (أعداء الله) لولا أن صاحبها لم يُسلم بعد.

فلما أسلم أبو دجانة ولامس الإيمان شغاف قلبه ازدادت همته، وذلك لأنه سيقاتل من أجل العقيدة التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض وأرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار... فأصبحت همته موجهة لحصد رقاب أعداء الله.

صاحب عصابة الموت

* في حياة الصَّحابة الفُرسان ملامحُ طريفة من نوادرِ البسالة، والفروسيّة، والإقدام؛ هذه الملامح تلتصقُ بشخصيَّة صاحبها حيث يُعْرَفُ بها بين أقرانه، وتبقى خالدة على مرِّ الأيام والأزمان، ماثلةٌ للعيان عبر تتالي الدهور والأعوام.

* وأبو دجانة واحدٌ من أولئك الأبطال الذين عُرفوا بالشَّجاعة، وخاصَّة إذا وضع شَارَةَ الحربِ على رأسه.

* ولقد شهد لهذا الفارس البطل بالفروسية، والجرأة، والإقدام، أقرانه الشّجعان، ويكفيه فخرًا وقَدْرًا أنّ الزُّبير بنَ العوام ـ وهو من أشجع فرسان الصَّحابة، وأشدّهم، وأقواهم جَنانًا ـ قد شهد لبطلنا بكمالِ الفروسية، وجلال البطولة، وشدّة البأس، وإحكام المراس[(١)].

شهد أبو دجانة (سماك بن خرشة) بدرًا وأُحُدًا.

وفى يوم أُحد قام الحبيب ﷺ يحرض أصحابه على القتال والمصابرة والجلاد عند لقاء المشركين.

فعن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحُد فقال: «من يأخُذُ منى هذا» فبسطوا أيديهم كلُّ إنسان منهم يقول: أنا أنا قال: «فمن يأخذه بحقه؟» قال: فأحجم القومُ فقال سماكُ بن خرشة (أبو دجانة): أنا آخذه بحقه قال: فأخذه ففلق به هام المشركين[(٢)].

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين؛ فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود وهم يقولون: «أمِت، أمت»، كان ذلك شعارًا لهم يوم أُحد[(٣)].

أقبل أبو دجانة معلمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ مصممًا على أداء حقه فقاتل حتى أمعن فى الناس وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهدّ صفوف المشركين هدًا. قال الزبير بن العوام: وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت ـ أى: فى نفسى ـ: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخرَج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. فخرج وهو يقول:

أنـا الذى عاهـــدنى خليـلى ... ونحنُ بالسَّفْح لدى النَّخيـل
أن لا أقوم الدهرَ فى الكيُّولِ[(٤)] ... أضْرِب بسيف اللـه والرَّسُولِ

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٥٩، ٦٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧٠) وابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ١٠١).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤٦) والحاكم (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) الكيول: آخر الصفوف. يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف، بل يظل أبدًا فى المقدمة.

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، كان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذُفَّ عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته،فعضت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله(١).

ثم أمعن أبو دجانة في هدِّ الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش وهو لا يدري بها. قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هي (هند بنت عتبة)، قال الزبير بن العوام:رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بن عتبة ثم عدل السيف عنها، فقلت:الله ورسوله أعلم(٢).

رحمك الله، ورضي عنك يا أبا دجانة.. يا صاحب عصابة الموت. يا مَنْ لا تقوم الدهرَ في الكيول بل تفلق هامَ المشركين.

أما نحن، فتُفلق هامُنا.. وتصبغ العصابات من دمانا وأعراض نسائنا

قد استردَّ السبايا كلُّ منهزم — لم تبقَ في أسرها إلا سبايانا
وما رأيتُ سياطَ الذلِّ داميةً — إلا رأيتُ عليهم لحم أسرانا
وما نموتُ على حدِّ الظبا أنفًا — حتى لقد خجِلَتْ منّا منايانا(٣)

دفاع عن النبي ﷺ

* ولقد ثبتَ أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ يوم أحد، وترّس بنفسه على رسول الله ﷺ ، فحنى ظهره عليه، والنَّبل يقعُ فيه، حتى كثرت به الجراح، ولم تتوقفْ غزوةَ أحد حتى جَنْدَلَ بسيفه بضعة رجال من أبطال المشركين... وسأروي لك ـ عزيزي القارىء ـ كيف قتل رجلاً يوم أحد، فشقّه نصفين.

جهاده في سبيل الله تعالى

* شهدَ أبو دجانة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ المغازي النّبويّة جميعها، وفي شهر ربيع الأوّل من السَّنة الرَّابعة للهجرة، أمر رسول الله ﷺ بالتّهيؤ لحرب يهود بني النّضير

(١) ابن هشام (٢/ ٦٨ ـ ٦٩).
(٢) السيرة لابن هشام (٣/ ٥٨٩) والطبقات لابن سعد (٣/ ٤٢٠).
(٣) علو الهمة ـ د. سيد حسين (٣/ ٣٤٣).

وقتالهم، فسار أبو دجانة لقتالهم، فاعتصموا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون، وملأ الرُّعبُ قلوبَ بني النَّضير، واشتدَّ الحصار عليهم، وأيقنوا أنَّ حصونَهم لا تمنعهم من سوءِ المصير، وعند ذلك صالَحَهم رسولُ الله ﷺ على الجلاء، فخرجوا، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال، وسلاح، وعقار، ودُور.

* هذا؛ ولمّا كان المسلمون قد أخذوها صُلحًا دون حرب أو قتال، كانت فيئًا من حقِّ رسول الله ﷺ، يتصرّف فيها كيف يشاء، وقد قَسمَها على المهاجرين دون الأنصار، وبذلكَ أغنى الله عزَّ وجلَّ المهاجرين، وأزال حاجتَهم وفاقتَهم، ولم يأخذْ منَ الفيء منَ الأنصار إلا أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصِّمة، فقد شكوا فَقْرًا، عند ذلك أعطاهم رسول الله ﷺ [١].

* وفي غزاة خيبر أبلى أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ أحْسَن البلاء، فقد خرج أحدُ فرسان اليهود، ويدعى «غزال» فدعا إلى البراز، فبرزَ له الحباب بن المنذر، فقطع يده اليمنى، ثم أجهز عليه، وخرج يهودي آخر فصاح: مَنْ يُبارز؟ فبرز إليه رجلٌ من المسلمين، فقتله اليهودي، وقام مكانه يدعو إلى البراز، ويبرزُ له فارس الأنصار أبو دجانة، وقد عَصَبَ رأسه بعصابة حمراء فوق المغْفَر، يختالُ في مشيته، فضربه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ودرعه وسيفه، فجاءَ به إلى رسول الله ﷺ فنفله ذلك.

* وأحجم اليهودُ إذ ذاك عن البراز، عند ذلك كبَّر المسلمون، ثمَّ تحاملوا على الحصن فدخلوا وأمامهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثًا، ومتاعًا، وغنمًا، وطعامًا، وهرب مَن كان فيه منَ المقاتلين.

* يوم حنين، كان لأبي دجانة مواقف لا تنسى، فقد كان رجلٌ من بني هوازن يركبُ على جملٍ أحمر، ومعه رمح طويل قد أكثر في المسلمين القتل، فثبت له أبو دجانة، وعرقب جَمله، وجاء فارس الإسلام والمسلمين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقطع يدَ المشرك، وقطع أبو دجانة يده الأخرى، ثمّ قتلاه، وصيّراه عدمًا كأمسِ الدَّابر.

* وظلّ أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ من فرسان مدرسة النّبوة، يجاهدُ بسيفه، حتى سجَّل أضوأَ الآثار في تاريخ الفروسيّة في عصر النّبوّة، وفي المغازي النّبويّة أمام رسول الله ﷺ [٢].

---

(١) السير الكبير (٢/ ٦٠٩).

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦٦٧ ـ ٦٦٨).

أين تلك المكارم

قال زيد بن أسلم: دُخل على أبى دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل. فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندى من اثنتين: كنتُ لا أتكلمُ فيما لا يعنينى، والأخرى فكان قلبى للمسلمين سليمًا(١).

فأين تلك الأخلاق والمكارم أيها المسلمون.

لقد أصبح الكثيرون ممن ينتسبون إلى الإسلام لا يفترون لحظة واحدة عن الخوض فى أعراض المسلمين حتى استفحل الأمر وأصبحوا يخوضون فى أعراض علماء المسلمين ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

وأما عن الأخرى فأنا أسألكم بالله: مَن منا يبيت ليلة وليس فى قلبه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغينة لأحد من المسلمين.

فهنيئًا لمن اكتحلت عيناه برؤية هذا الجمع الطيب المبارك من أصحاب الحبيب ﷺ ، بل هنيئًا ثم هنيئًا لمن رأى الحبيب ﷺ .

وظل أبو دجانة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة الرجل لظله.. يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه.. ولقد أحبَّ النبى ﷺ حبًا شديدًا حتى إن النبى ﷺ لو أمره أن يهدم الجبال، وأن يحوِّل مياه البحار للذهب لتنفيذ تلك المهمة بكل حبٍ ووفاء.

ولما توفى الحبيب ﷺ حزن أبو دجانة حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبه حتى ضاقت عليه الدنيا بما فيها.

حديقة الموت وساعة الرحيل

وظل أبو دجانة الشجاع الثائر يبحث عن الشهادة فى مظانها وأطلق لسيفه العنان لحرب أعداء الله إلى أن جاءت موقعة اليمامة.

فلقد بعث أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وبنى حنيفة، وكانوا فى قريب [من] مائة ألف أو يزيدون، وكان المسلمون بضعة عشر ألفًا، فلما التقوا جعل كثير من الأعراب يفرون، فقال المهاجرون والأنصار: خلصنا يا خالد،

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ١٠٢) نقلاً من السير (١/ ٢٤٣).

فميزهم عنهم، وكان المهاجرون والأنصار قريبًا من ألفين وخمسمائة، فصمموا الحملة وجعلوا يتدابرون ويقولون يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، فهزموهم بإذن الله وألجأوهم إلى حديقة هناك (تسمى حديقة الموت) فتحصّنوا بها، فحاصروهم فيها، ففعل البراء بن مالك، أخو أنس بن مالك ـ وكان الأكبر ـ ما ذكر من رفعه على الأسنة فوق الرماح حتى تمكن من أعلى سورها، ثم ألقى نفسه عليهم ونهض سريعًا إليهم، ولم يزل يقاتلهم وحده ويقاتلونه حتى تمكن من فتح الحديقة ودخل المسلمون يكبرون وانتهوا إلى قصر مسيلمة وهو واقف خارجه عند جدار كأنه جمل أزرق، أى من سمرته، فابتدره وحشى بن حرب الأسود، قاتل حمزة، بحربته، وأبو دجانة سماك بن حرشة الأنصارى، فسبقه وحشى فأرسل الحربة عليه من بعد فأنفذها منه، وجاء إليه أبو دجانة فعلاه بسيفه فقتله[1].

وما زال البطل يصول ويجول بسيفه الّذى فلق بها هام المشركين.. فانكسرت رجله، وعلى الرغم من ذلك نهض وظل يقاتل ببسالة وفداء وكأن الله أبدله بجناحين يطير بهما فى أرض المعركة.

وسقط من المسلمين مئات وكان من بينهم بطلنا الحبيب أبو دجانة ونزفت دماؤه الشريفة التى لطالما امتزجت بحب الله وحُب رسول الله ﷺ والغيرة على دينه.

وها نحن نذكر سيرته العطرة التى لم تمت ولن تموت فى قلوبنا، بل ستبقى حية ما دامت السماوات والأرض.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) بتصرف.



عبادة بن الصامت

رجل يعدل ألف رجل

ولقد آن الأوان لكي نُفسح المجال لتنساب الكلمات عذبة رقراقة لتصف لنا صفحات مضيئة من حياة هذا البطل المغوار الذي يعدل ألف رجل.

ولم يكن هذا الرأى من عندى.. وإنما هو رأى (عمر بن الخطاب) ذلكم الصحابى الجليل الذى لا يجامل أحداً ولا يحابى أحداً فى دين الله فهو الذى أجرى الله الحق على قلبه ولسانه ـ كما شهد له الحبيب ﷺ بذلك ـ.

ولعلكم تريدون أن نبدأ قصته من البداية.

ومن هنا كانت البداية

لقد كان هذا الفارس المغوار سيداً من سادات الخزرج.. فوالده الصامت ابن قيس الخزرجي وأمه قرة العين بنت عبادة.

وأخوه (أوس بن الصامت) الذى تزوج من (خولة بنت ثعلبة) التى أنزل الله فيها: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١].

وكان عبادة ـ رضى الله عنه ـ يتمنى من أعماق قلبه أن تتخلص أرض الجزيرة من تلك الجاهلية التى كادت أن تحول الحياة إلى جحيم دائم لا يغيب ولا يزول.

وإذا بالنور الإلهى ينبثق من بين الظلام الدامس ليضيء أرجاء الكون كله.. وإذا بالحبيب ﷺ تتنزل عليه رسالة ربه لينقذ الله به البشرية من ظلمات الجاهلية والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

ولما وجد النبى ﷺ قلوب أكثر المشركين من حوله لا تقبل الهداية ولا تريدها ـ كالحجر الذى لا يقبل الماء ـ خرج يدعو الناس فى مواسم الحج.

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة ـ يوليو سنة ٦٢٠م ـ وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام.

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله ـ أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين[١].

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعليّ، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام، وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام[٢].

ثم مرَّ رسول الله ﷺ بعقبة (منى)، فسمع أصوات رجال يتكلمون[٣]، فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج.

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيًا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان، سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم»؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: «من موالى اليهود»؟ ـ أى: حلفائهم ـ قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا.

وكانوا من عُقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت من قريب، والتى لا يزال لهيبها مستعراً، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

---

(١) تاريخ إسلام للنجيب آبادى (١/ ١٢٩).

(٢) مختصر سيرة الرسول/ للشيخ عبد الله النجدى (ص: ١٥٢).

(٣) رحمة للعالمين (١/ ٨٤).

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكر رسول الله ﷺ(١).

وكـان من جرّاء ذلك أن جـاء فى الموسم التالى ـ موسم الحج سنة ١٢ من النبوة ـ اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ فى العام السابق... وكان من بينهم ـ عبادة بن الصامت ـ.

واتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه(٢).

روى البخارى عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه». قال: فبايعته ـ وفى نسخة: فبايعناه ـ على ذلك(٣).

وفى يوم بيعة العقبة الثانية كان (عبادة) من المسارعين إلى بيعة الحبيب ﷺ فوضع يده فى يد النبى ﷺ ليبايعه تلك البيعة المباركة التى لا تتكرر عبر الزمان أبدًا.

وبعد أن تمت البيعة أراد النبى ﷺ منهم أن ينتخبوا اثنى عشر زعيمًا يكونون نُقباء على قومهم يكفلون المسئولية عنهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة فقال للقوم: «أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومكم بما فيهم»(٤).

فكان (عبادة) من نُقباء الخزرج.

وعاد بعدها (عبادة) إلى يثرب (المدينة) وقد امتلأ قلبه بالسعادة والسرور والفرحة التى تكفى الكون كله من حوله.

وعاش (عبادة) ـ رضى الله عنه ـ بل وتعايش مع كل آية فى كتاب الله ومع كل سُنة من سنن الحبيب ﷺ.

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٩٢) وأبو نعيم فى الدلائل (ص ٢٥٣) والطبرى فى تاريخه (٢/ ٣٥٣).
(٢) رحمة للعالمين (١/ ٨٥) وابن هشام (١/ ٤٣٣).
(٣) أخرجه البخارى (١٨) ـ ومسلم (١٧٠٩) ـ والترمذى (١٤٣٩).
(٤) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٤٨): رواه أحمد والطبرانى نحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

ولقد عاش (عبادة) فى أفضل عصور الإسلام على الإطلاق فهو قد عاصر أحداث النبوة برمّتها، شهد نزول الوحى على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحاز قصب السبق من كل نوع من أنواع الخير، فجمع بين فضيلة الصُحبة عمومًا، وميزة مشاهير الصحابة خاصة، واصطبغ بصبغة الإسلام النقية، وذاق حلاوته الشذية.

وكان ـ رضى الله عنه ـ مثلاً أعلى فى الإيمان القوى والعقيدة الراسخة، والإخلاص لخالقه وموجده منذ اللحظة الأولى التى آمن فيها، وكان إيمانه منبع البطولات فى المعارك التى خاضها، وسر صلابته فى الحق، وثباته على السنة[1].

ولما هاجر الحبيب ﷺ فرح (عبادة) بقدومه فرحًا عظيمًا يعجز قلمى عن وصفها.. فلقد كان (عبادة) يحبه حبًا ملَكَ عليه لُبَّه وفؤاده.

ولقد شهد (عبادة) المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلَى فيها بلاءً حسنًا فكان يقاتل فيها قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن قطرة ماءٍ فى صحراءٍ موحشة.

إنما أتولى الله ورسوله والمؤمنين

ومنذ أن اختار الله ورسوله، وهو يقوم على أفضل وجه بتبعات هذا الاختيار...

كُلُّ ولائه لله.. وكل طاعته لله.. وكل علاقاته بأقربائه. وبحُلفائه. وبأعدائه، إنما يُشكِّلُهَا إيمانَه، ويُشكلها السُّلوك الذى يفرضه هذا الإيمان..

كانت عائلة «عُبَادَة» مرتبطة بحلفٍ قديم مع يهود بنى قَيْنُقَاع بالمدينة...

ومنذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة، ويهودها يتظاهرون بمُسَالمته.. حتى كانت الأيام التى تعقُب غزوة بدر وتسبق غزوة أُحُد، فشرَع يهود المدينة يتنمَّرُون..

وافْتعلَتْ إحدى قبائلهم ـ بنو قينقاع ـ أسبابًا للفتنة وللشغب على المسلمين..

ولا يكاد «عُبادة» يرى موقفهم هذا، حتى ينبذ إليهم عهدهم ويَفْسَخَ حِلفهم قائلاً:

[إنما أَتولى الله، ورسوله، والمؤمنين]...

فيتنزل القرآن مُحييًا موقفه وولاءه، قائلاً فى آياته:

---

(١) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد السحيبانى (ص ١٨٢).

﴿وَمَنْ يَتولَّ الله ورسولَهُ والذين آمنوا فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون﴾(١).

وها هي قصة إجلاء يهود بني قينقاع كما أوردها الإمام ابن القيم:

فلقد ذكر أن الحبيب ﷺ غزا بني قينقاع وكانوا من يهود المدينة، فنقضوا عهده، فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حُكمه، فشفع فيهم عبد الله بن أُبيّ، وكان حليفًا لهم، كما كان عبادة بن الصامت حليفًا لهم، فلما كان من نقضهم عهد رسول الله ﷺ تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أُبيّ نزلت هذه القصة من المائدة:

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخذُوا اليهُود والنَّصارىٰ أولياء بعضُهُم أولياءُ بعضٍ ومن يتولَّهُم منكُم فإنَّهُ منهُم إنَّ الله لا يهدي القوم الظَّالمين (٥١) فترى الَّذين في قُلُوبهم مَّرضٌ يُسارعُون فيهم يقُولُون نخشىٰ أن تُصيبنا دائرةٌ فعسى اللَّهُ أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيُصبحُوا علىٰ ما أسرُّوا في أنفُسهم نادمين (٥٢) ويقُولُ الَّذين آمنُوا أهؤُلاء الَّذين أقسمُوا بالله جهد أيمانهم﴾ إلى قوله: ﴿ إنَّما وليُّكُمُ اللَّهُ ورسُولُهُ والَّذين آمنُوا ﴾ [المائدة:٥١-٥٥].

وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا وتبريه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم ﴿ ومن يتولَّ اللَّه ورسُولهُ والَّذين آمنُوا فإنَّ حزب اللَّه هُمُ الغالبُون ﴾ [المائدة:٥٦]، فحقن النبي ﷺ دماءهم وأطلقهم، ووكَّل بجلائهم عبادة بن الصامت، وأمهلهم ثلاث ليالٍ(٢).

مبايعة على الموت

وعندما أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ سفيرًا إلى قريش في وقعة الحديبية فاحتبسته قريش عندها ـ ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا معه في الوضع الراهن ـ فلما طال احتباسه عندهم وشاع بين المسلمين خبر مقتل عثمان قام الحبيب ﷺ ودعا أصحابه إلى البيعة فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا... وبايعته جماعة على الموت، وكان من بينهم (عبادة بن الصامت) ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٢٨٢: ٢٨٣) بتصرف.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٩٠) وتهذيب السيرة (١٣٩، ١٤٠).

فأنزل الله في شأنهم قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:١٨، ١٩].

فشهد الله لهم بالإيمان وأسبغ عليهم نعمة الرضوان.

وظل (عبادة) ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة الرقيقة.

فلما توفي الحبيب ﷺ حزن (عبادة) حزنًا كاد أن يمزق قلبه، ولكنه ظل ثابتًا على إيمانه وعقيدته مقتفيًا أثر الحبيب ﷺ في كل صغيرة وكبيرة.

ولما تولى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الخلافة وجاءت حروب الردة كان (عبادة) من الفرسان الذين لا يُشق لهم غبار فخاض حروب الردة بكل شجاعة وفدائية لم يسبق لها مثيل.

فقبّح الله أرضًا لست فيها وأمثالك

وفي خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتب يزيد بن أبي سفيان إليه: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم. فأرسل إليه عمر معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء. فأقام عبادةُ بحمص فاستخلفه عليها أبو عبيدة بن الجراح، عندما سار لفتح اللاذقية. ثم صرفه لفتح «طرطوس» ففتحها، وكان أول من ولي قضاء فلسطين[١]، من قِبل عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يخاف في الله لومة لائم، بل كان يصدع بكلمة الحق دائمًا.

وذات مرة قام ـ رضي الله عنه ـ وأنكر على معاوية ـ رضي الله عنه ـ شيئًا فقال: لا أساكنك بأرض.. فرحل إلى المدينة. قال له عمر: ما أقدمك؟ فأخبره (بفعل معاوية). فقال له: ارحل إلى مكانك فقبّح الله أرضًا لست فيها وأمثالك فلا إمرة له عليك؟[٢].

❊ ❊ ❊

(١) أسد الغابة (٣/ ٥٦).

(٢) السير للإمام الذهبي (٢/ ٧) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

موقفه التاريخي في فتح مصر و(الإسكندرية)

وعندما أراد المسلمون أن يفتحوا (مصر) واتجه إليها عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ في جيشٍ كبير.

ولكنه عندما وصل إلى أرض مصر رأى كثرة عدد وعدة من المصريين والروم فطلب مددًا من عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ واستجاب عمر لرأى عمرو. وأمده بأربعة آلاف رجل، وكتب له كتابًا قال فيه: إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف (رجل) منهم مقام ألف.

وكان عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة.

ثبتت قدم عمرو فى أم دنين وعين شمس التى صارت مركزًا لقيادته الحربية، ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون، فسار إليه وحاصروه سنة ٢٠هـ، وكان ذلك وقت فيضان النيل. وطال أمد الحصار إلى سبعة أشهر لمناعة أسوار المدينة وقلة معدات الحصار عند العرب.

وبعد شهور رأى المقوقس الجد من المسلمين وصبرهم على القتال، وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم. فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح، وقال له فى كتاب أرسله إليه: «قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها، وأنتم عصبة يسيرة، وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ما نحب وتحبون».

ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو، أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس، ثم قال لهم عمرو: ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث.

١ ـ إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا.

٢ ـ وإن أبيتم فالجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون.

٣ ـ وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

ولما عاد الرسل إلى المقوقس سُرَّ بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم فى

الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف كبيرهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم.

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث، فأشار على قومه بطلب الصلح، وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا إليه رسلاً للمفاوضة فى الصلح، فبعث عمرو عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت، وأمره أن يكون هو المتكلم[١].

وعندما دخل القوم على المقوقس يتقدمهم عبادة أخذ يرتعد منه ويخافه ويقول لهم: نحّوا عنى هذا الأسود، وقدِّموا غيره يكلمنى[٢].

فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل كلهم مثلى، وأشد سوادًا منى، وأفظع منظرًا، لو رأيتهم لكنتَ أهيب لهم منى، وأنا قد وليت وأدبر شبابى، وإنى بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعًا، وكذلك أصحابى.. لأنَّ رغبتنا الجهادُ فى الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوًا لله لرغبة فى الدنيا.. وما يبالى أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك درهمًا؛ لأن غاية أمرنا من الدنيا أكلةٌ يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه.

وإن كان لأحدنا قنطارٌ من ذهب أنفقه فى طاعة الله ـ تعالى ـ واقتصر على هذا الذى بيده..

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبتُ منظره، وإن قوله لأهيب عندى من منظره.. ثم أقبل المقوقس على (عبادة) قائلاً له: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت عنك وعن أصحابك..

ثم قال: «وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده.

قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم...»[٣].

---

(١) الخلفاء الراشدون/ الشيخ حسن أيوب (ص ١٦٤: ١٦٥).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٢).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٣: ١٤).

فقال عبادة: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنَّا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه..

وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة وألا يردَّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربَّه أهلَه وولَده، وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك: إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذى تريد فبيِّنه لنا.

فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاثٍ، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك فى الباطل. بذلك أمرنى الأمير. وبها أمره أمير المؤمنين. وهو ما عهد به رسول الله ﷺ من قبله إلينا[1].

وبذلك كوّن عبادة ـ رضى الله عنه ـ حربًا نفسية شنها على عظيم مصر، فقضى على كل مقاومة عنده، وملأ نفسيته بالرعب والفزع، وإذا ما وصل قائد من قواد الدول والجيوش إلى هذه الحالة من الاضطراب والهول فقد خسر المعركة وسلمت بلاده. أما ما جاء بعد ذلك فهى توسلات المقتول إلى قاتله أن يترفق به فى ذبحه، ويحد شفرته، حتى لا يحس بألم القتل[2].

وتمت سفارة عبادة بن الصامت، وعاد إلى عمرو بن العاص يزف إليه فتح مصر بعد أن خرّب نفسية القائد، وفتَّ فى عَضُد جنوده. وبينما هم على أهبة الاستعداد لخوض معركة فاصلة مع إحدى حصون الروم، والتى لم تستسلم بعد، وصلت رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وفيها يقول:

«أما بعد: فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم.

وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنتُ وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا قد غيّرهم ما غيّرهم.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ١٥).

(٢) «رجال أنزل الله فيهم قرآنًا» د. عبد الرحمن عميرة (٢/ ١٥٩).

فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغّبهم فى الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس، ومُر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة، فإنها تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليدعُ الناس ربهم، ويسألونه النصر على عدوهم(١).

لقد قرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين، وأخذ يفكر فى خطة يفتح بها الإسكندرية. ولم يحتج إلى مجهود كبير؛ لأن الخطة الحية كانت مجسمة أمامه فى عملاق المعارك. عبادة ابن الصامت.. ووجهه إليها ففتح الله على يديه الإسكندرية..

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهاد فى سبيل الله نام (عبادة) ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنات النعيم إخوانًا على سُرٍر متقابلين.

ودُفن ـ رضى الله عنه ـ ببيت المقدس سنة أربع وثلاثين.

فرضى الله عن (عبادة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رجال أنزل الله فيهم قرآنًا (٢/ ١٦٠) نقلاً من (صور من سير الصحابة) عبد الحميد السحيبانى.



سعيد بن عامر

صاحب التجارة الرابحة مع الله

إن أى تجارة قد تخسر وقد تربح، ولكن من أراد التجارة الرابحة التى لا تخسر أبداً فعليه أن يتاجر مع الله ـ عز وجل ـ.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

(سعيد بن عامر) ثمرة من ثمرات الثبات

اعلم أيها الأخ الكريم أن ثباتك على الحق يثمر لك كل خير فى الدنيا والآخرة... وقد يشرح الله صدر إنسان إلى الدخول فى الإسلام أو إلى الالتزام ـ إن كان من عُصاة المسلمين ـ عندما يراك ثابتاً على الحق.

وها هو سعيد بن عامر ـ رضى الله عنه ـ كان إسلامه ثمرة من ثمرات الثبات للصحابى الجليل خبيب ابن عدى ـ رضى الله عنه ـ.

فلقد كان سعيد مشركًا عندما ذهب مع مشركى قريش وزعمائهم لمشاهدة مصرع (خبيب بن عدى) بعد أن غدروا به وبأصحابه، وعندما اجتمعت تلك الحشود والجماهير من مشركى قريش وقف سعيد بن عامر يرقب الموقف، وإذا بخبيب بن عدى يقول لهم بصوت هادئ: دعونى حتى أركع ركعتين... فتركوه فصلاهما ـ ويا لها من صلاة عندما تكون صلاة مودِّع ينتظر بعدها لقاء ربه ـ جل وعلا ـ فلما سلَّم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بى جزع لزدت.

فقال له أبو سفيان ـ وكان مشركًا فى هذا الوقت ـ: أيسرّك أن محمداً عندنا نضرب عُنقه وأنك فى أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمداً فى مكانه الذى

هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

ثم قال خبيب:

اللهم احصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبق منهم أحدًا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألَّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمَنَّع

إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما جمع الأحزابُ لي عند مضجعي

فذا العرش صبِّرني على ما يُرادُ بي ... فقد بضَعُوا لحمي وقد بؤس مطمعي

وقد خيروني الكفرَ والموتُ دونه ... فقد ذرفت عيناى من غير مدمع

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي شق كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ مُمزَّعِ[1]

فقاموا وصلبوه ولفظ أنفاسه الأخيرة.

بعد ساعات معدودة كانت قريش قد تناست ما فعلته بخبيب، ولكن سعيد ابن عامر لم يستطع أبدًا أن ينسى هذا المشهد المهيب، وهذا الثبات العجيب ، وظل يتذكر هذا الثبات الذى نبع من قلبٍ قد امتلأ حبًا لله ولرسول الله ﷺ .

لقد تعلَّم (سعيد) أن العقيدة هو القوة الحقيقية التي تجعل الإنسان يثبت أمام الفتن ثبات الجبال، وتعلَّم في الوقت ذاته أن خبيبًا ما كان ليضحِّي بحياته من أجل محمد بن عبد الله ﷺ إلا لأنه هو الرسول المؤيَّد من السماء.

وكانت هذه هي نقطة البداية لانطلاق هذا الكوكب الساطع في سماء الإسلام... فأسلم سعيد بن عامر قبل غزوة خيبر، وهاجر إلى النبي ﷺ وشهد معه غزوة خيبر وما بعدها، وظل ملازمًا لرسول الله ﷺ حتى مات الحبيب ﷺ وهو عنه راضٍ... وجاء أبو بكر ومن بعده عمر، وهما يعرفان للرجل قدره ومكانته.

* * *

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص ٣١٤).

فطنة وذكاء ... وزهد وحياء

إن فطنة وذكاء عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى اختيار الولاة لا يستطيع قلمٌ أن يصفها أبدًا.

فقد كان لا يعطى الولاية لمن يريدها... بل كان يعطيها لمن يهرب منها، ولمن امتلأ قلبه خوفًا من الله وحبًا لمن حوله من البشر وزهدًا فى الدنيا... وهنا وقع الاختيار على (سعيد بن عامر) ليتولى شأن مدينة (حمص) التى كانت مركزًا تجاريًا مرموقًا، ودارًا مليئة بالإغراءات التى لا يثبت أمامها إلا الزهّاد العبّاد.

فدعا عمر بن الخطاب سعيدًا وعرض عليه ولاية مدينة (حمص) فما كان من سعيد إلا أن قال: لا تفتنّى يا أمير المؤمنين. فقال: والله لا أدعك قلدتموها فى عنقى وتركتمونى. فقال عمر: ألا نفرض لك رزقا؟ قال: قد جعل الله تعالى فى عطائى ما يكفينى دونه أو فضلاً على ما أريد.

قال: وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم وتصدق ببقيته. فتقول له امرأته: أين فضل عطائك؟ فيقول لها: قد أقرضته. فأتاه ناس فقالوا: إن لأهلك عليك حقًا وإن لأصهارك عليك حقًا. فقال: ما أنا مستأثر عليهم، ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين، ولو اطلعت خيِّرة من خيِّرات الجنة لأشرقت لها الأرض كما تشرق الشمس.

وفى رواية: أنه لما عزل عمر بن الخطاب معاوية بن أبى سفيان عن الشام بعث سعيد ابن عامر بن حذيم الجمحى. قال: فخرج معه بجارية من قريش نضيرة الوجه. قال: فما لبث إلا يسيرًا حتى أصابته حاجة شديدة. قال: فبلغ ذلك عمر فبعث إليه بألف دينار. قال: فدخل بها على امرأته فقال: إن عمر بعث إلينا بما ترين. فقالت: لو أنك اشتريت أدمًا ـ جلدًا ـ وطعامًا وادخرت سائرها. فقال لها: أوَ لا أدلك على أفضل من ذلك؟ نعطى هذا المال من يتجر لنا فيه فنأكل من ربحها وضمانها عليه. قالت: فنعم إذًا.

فاشترى أدمًا وطعامًا واشترى غلامين وبعيرين يمتاران عليهما حوائجهم وفرقها على المساكين وأهل الحاجة.

قال: فما لبث إلا يسيرًا حتى قالت له امرأته: إنه قد نفد كذا وكذا ـ الطعام والشراب ـ فلو أتيت ذلك الرجل فأخذت لنا من الربح فاشتريت لنا مكانه. قالت: فسكت عنها،



ثم عاودته فسكت عنها، حتى آذته ولم يدخل بيته إلا من ليلٍ إلى ليل.

قال: وكان رجل من أهل بيته ممن يدخل بدخوله. فقال لها: ما تصنعين؟ إنك قد آذيته، وإنه قد تصدق بذلك. قال: فبكت أسفًا على ذلك المال.

قال»ثم إنه دخل عليها يومًا فقال: على رسلك إنه كان لى أصحاب فارقونى منذ قريب ما أحب أنى صددت عنهم وإن لى الدنيا وما فيها، ولو أن خيِّرة من خيِّرات الجنان اطلعت من السماء لأضاءت لأهل الأرض، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولنصيف تكسى خير من الدنيا وما فيها. فلأنت فى نفسى أحرى أن أدعك لهن من أن أدعهن لك. قال: فسمحت ورضيت[1].

رسالة عاجلة إلى حكام المسلمين

وأسوق تلك القصة على وجه السرعة إلى كل راعٍ استرعاه الله رعية صغرت أم كبرت لكى يتعلم أن الولاية تكليفٌ لا تشريف، وأنها أمانة وأنها يوم القيامة خزىٌ وندامة.

قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤].

وقال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته...»[2].

وقال ﷺ: «ما من رجل يلى أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله مغلولاً يده إلى عنقه.. فكَّهُ برُّهُ أو أوثقه إثمهُ.. أولُها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزىٌ يوم القيامة»[3].

فيا لها من كلمات تخلع القلوب وتمزق الأكباد.

ـ والآن نعيش سويًا مع هذا المشهد المهيب.

ها هو أمير المؤمنين ـ عمر ـ يأمر بعض من يثق بهم من أهل مدينة (حمص) أن يكتبوا له كشفًا بأسماء الفقراء فرُفع إليه الكتاب فإذا فيه سعيد ابن عامر بن حذيم

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٢) متفق عليه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٦٩).

(٣) رواه أحمد عن أبى أمامة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧١٨).

(أميرها) فقال: مَن سعيد بن عامر؟ قالوا: أميرنا. قال أميركم؟ قالوا: نعم. فعجب عمر، ثم قال: كيف يكون أميركم فقيراً. أين عطاؤه. أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئًا. قال: فبكى عمر ثم عمد إلى ألف دينار فصرّها ثم بعث بها إليه وقال: أقرئوه منى السلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك. قال فجاء بها إليه الرسول فنظر فإذا هى دنانير. قال: فجعل يسترجع ـ يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ قال: تقول له امرأته: ما شأنك يا فلان أمات أمير المؤمنين. قال: بل أعظم من ذلك. قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتنى، الفتنة دخلت علىّ. قالت: فاصنع فيها ما شئت. قال: عندك عون؟ قالت: نعم. قال: فأخذ دريعة فصرّ الدنانير فيها صراراً ثم جعلها فى مخلاة ثم اعترض جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها. فقالت له امرأته: رحمك الله لو كنت حبست منها شيئًا نستعين به فقال لها: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو اطّلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى أهل الأرض لملأت ريح مسك» وإنى والله ما كنت لأختارك عليهن. فسكتت[1].

شامة فى جبين التاريخ ... وتجارة رابحة مع الله.

انطلق عمر بن الخطاب كعادته يتقصى أحوال الولاة خوفًا من أن تدخل الدنيا إلى قلوبهم أو أن يكون هناك مظلمة واحدة فى أى بلد من بلاد المسلمين. فلما قدم عمر (حمص) قال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه. وكان يقال لأهل حمص الكويفة الصغرى، لشكاتهم العمال. قالوا: نشكوا أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال أعظِم بها، قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: له يوم فى الشهر لا يخرج فيه إلينا. قال: عظيمة. قال: وماذا؟ قالوا: تأخذه الغشية ـ الإغماء ـ بين الحين والحين.

قال: فجمع عمر بينهم وبينه، وقال: اللهم لا تخيّب ظنى فيه اليوم.

ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يخرج حتى يتعالى النهار. قال (سعيد بن عامر): والله إن كنت لأكره ذكره، إنه ليس لأهلى خادم، فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزى، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم.

فقال (عمر): ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال: ما يقولون؟ قال: إن

---
(١) صفة الصفوة (١/ ٢٨٠).

كنت لأكره ذكره، إنى جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل. قال: وما تشكون منه؟ قالوا: إن له يومًا فى الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال: ما يقولون؟ قال: ليس لى خادم يغسل ثيابى، وليس لى ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار. قال: ما تشكون منه؟ قالوا: تأخذه الغشية بين الحين والحين.

قال: ما يقولون؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصارى بمكة وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذع فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى وأن محمدًا شيك بشوكة. ثم نادى: يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم وتركى نُصرته فى تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لى بذلك الذنب أبدًا فتصيبنى تلك الغشية. فقال عمر: الحمد لله الذى لم يفل فراستى. فبعث إليه بألف دينار وقال: استعن بها على حاجتك. فقالت امرأته: الحمد لله الذى أغنانا عن خدمتك فقال لها: فهل لك فى خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها. قالت: نعم فدعا رجلاً من أهله يثق به فصررها صررًا ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلى آل فلان. فبقيت منها ذهيبة. فقال: انفقى هذه ثم عاد إلى عمله فقالت: ألا تشترى لنا خادمًا؟ ما فعل ذلك المال؟ قال: سيأتيك أحوج ما تكونين ـ يعنى فى الآخرة ـ[1].

هكذا يكون المسلم الذى لا يتعلق قلبه بحُطام الدنيا الفانية، بل يتطلع دومًا وأبدًا إلى النعيم المقيم فى جنات الخلود التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبعد تلك الحياة المليئة بالزهد والورع والإيثار نام (سعيد) على فراش الموت ليُسلم روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ وليلحق بالحبيب ﷺ.

فرضى الله عن سعيد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

أبو أيوب الأنصارى

المدفون تحت أسوار القسطنطينية
الفائز بضيافة خير البرية ﷺ

هل يستطيع إنسان فى هذه الدنيا أن يتصور أو يتخيل مدى الفرحة التى يشعر بها من رأى النبى ﷺ ولو مرة واحدة فى منامه؟!! فكيف بمن رآه حال اليقظة؟!! فكيف بنا ونحن نريد أن نصف مدى فرحة أبى أيوب الأنصارى الذى نزل النبى ﷺ فى ضيافته؟!

إننى والله أجد نفسى عاجزاً عن وصف هذا المشهد المهيب.

فعن عبد الرحمن بن عُويم بن ساعدة قال: حدَّثنى رجالٌ من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرَج رسول الله ﷺ من مكة، وتَوكّفنا قدومه[١]، كنا نخرج إذا صلينا الصبح ، إلى ظاهر حَرَّتنا ننتظر رسول الله ﷺ ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك فى أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبقَ ظلٌ دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت ، فكان أوّلَ من رآه رجلٌ من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بنى قَيْلة[٢] هذا جَدُّكم قد جاء. قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى ظلٍّ نخلة، ومعه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فى مثل سنه، وأكثرُنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، ورَكِبَه الناس[٣] وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكر فأظلَّه بردائه، فعرفناه عند ذلك[٤].

قال ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ على كُلْثوم بن هِدْم، أخى بنى

---

(١) توكفنا قدومه: أى استشعرناه وانتظرناه.

(٢) بنى قيلة: يريد بهم الأنصار. وقيلة اسم جيرة كانت لهم وهى كذلك. عند أبى ذر.

(٣) ركبه الناس: أى ازدحموا عليه.

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب «مناقب الأنصار» باب «هجرة النبى ﷺ» (٧/ ص ٢٨١، ٢٨٢) مرسلاً عن عروة بن الزبير. والبيهقى فى الدلائل (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩).

عمرو بن عوف(١).

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: لما قَدم رسول الله ﷺ المدينةَ نزلَ فى عُلوِّ المدينة، فى حىٍّ يُقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربعَ عشرةَ ليلةً، ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار، قال: فجاءوا متقلدى سيوفهم. قال: وكأنى أنظرُ إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردْفَه وملأ بنى النجار حَوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب، قال: فكان يُصلى حيثُ أدركته الصلاة ويُصلى فى مَرابضِ الغنم. قال: ثم إنه أمرَ ببناء المسجد، فأرسلَ إلى ملأ بنى النجار، فجاءوا. فقال: يا بنى النجَّار ثامنونى بحائطكم هذا، فقالوا: لا. والله لا نطلُبُ ثمنَهُ إلا إلى الله. قال: فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبورُ المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ، وكان فيه نخلٌ. فأمر رسولُ الله ﷺ بقبور المشركين فنُبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقُطعَ، قال: فصفوا النخلَ قبلةَ المسجد. قال: وجعلوا عضادتَيه حجارةً. قال: جعلوا ينقلون ذاكَ الصخرَ وهم يرتجزون ورسولُ الله ﷺ معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة(٢)

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له فأدركته الجمعةُ فى بنى سالم بن عوف فجمَّع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى.

ثم ركب فأخذوا بخطام راحلته.. هَلُمَّ إلى العدد والعُدة والسلاح والمنعة(٣).

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هَلُمَّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك فى ديار بنى النجار أخواله ﷺ. وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ١٠٠).
(٢) أخرجه البخارى (٣٩٣٢) كتاب مناقب الأنصار.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٥٩).

رحله»، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده[١].

وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟».

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلاً»، قال: قوما على بركة الله[٢].

نعمت الدار

* لئن كانتْ دارُ الأرقم بنِ أبي الأرقم المخزومي هي نواة الدّعوة الإسلامية في مكة المكرمة، لقد أصبحت دارُ فارسنا في هذه الصَّفحات هي الدَّار التي انطلقتْ منها نفحات الإيمانَ في المدينة المنوّرة، فنعمت الدَّارُ، ونعْم ساكنُها.

* فعبير الشَّذا، وشذا العبير نشمُّه منْ زهْر رياض سيرةِ هذا الصَّحابي الفارس أبي أيوب الأنصاريّ الخزرجيّ النجّاريّ البدريّ، السَّيد الكبير، الذي خصَّه رسولُ الله ﷺ بالنّزولِ عليه في بني النَّجار، فكان مضيف سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وصاحبه، وفارسه، وناهيك بها من صفات فوّاحة بأريج العطْر، إذ كان منْ أكبر الشّرف له أنْ يشرِّفَ رسولُ الله ﷺ بيته بالنُّزول عليه، ولله درُّ الإمام السُّبكي إذ أحسن، فأجادَ، فقال:

نَزَلْـت على قوم بأيْمَنِ طَـائرٍ ... لأنَّك ميمـونُ السَّنَا والنَّقيبـة

فيا لبني النَّجار من شرف به ... يجرُّون أذيالَ المعالي الشَّريفة

إنَّ نزولَ رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب بأمْرِ الله عزَّ وجلَّ منقبة عظيمة لأبي أيّوب الأنصاريّ النّجاريّ، تُضاف إلى مناقب الأنصار عامّة، وإلى مفاخر بني النَّجار خاصةً، وبمثلِ هذا فليتفاخر النّاسُ: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦][٣].

النبي ﷺ في ضيافة أبي أيوب

ولنترك المجال لأبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ يحدثنا عن تلك الفرحة الشديدة التي ملأت عليه جوانحه وجوارحه لنزول النبي ﷺ عليه في بيته.

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٣٤٣) والطبقات لابن سعد (١/ ١٨٣) والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٤) وزاد المعاد (٢/ ٥٥) ورحمة للعالمين (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١) وأحمد (٣/ ١٢٢).

(٣) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦٤٠، ٦٤٢).

عن أبى أيوب قال: لما نزل علىَّ رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السُّفل، وأنا وأم أيوب فى العُلو، فقلت له: يا نبى الله، بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى العُلو، وننزل نحن فنكون فى السفل، فقال: «يا أبا أيوب، إنَّ أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سُفل البيت»(١).

وفى رواية أخرى: أن رسول الله ﷺ لما نزل المدينة نزل على أبى أيوب فنزل النبى ﷺ أسفل، وأبو أيوب فى العلو، فانتبه أبو أيوب ذات ليلة فقال: نمشى فوق رأس رسول الله ﷺ ! فتحول فباتوا فى جانب. فلما أصبح ذكر ذلك للنبى ﷺ. فقال النبى ﷺ: أسفل أرفق بى. فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول أبو أيوب فى السفل، والنبى ﷺ فى العلو(٢).

وعن أبى رُهم: أن أبا أيوب حدثه: أنَّ رسول الله ﷺ نزل فى بيتنا الأسفل، وكنت فى الغرفة، فأُهريق ماءٌ فى الغرفة، فقمتُ أنا وأُمُّ أيوب بقطيفة لنا نتتبعُ الماء، ونزلتُ فقلتُ: يا رسول الله، لا ينبغى أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر بمتاعه فنُقلَ ـ ومتاعهُ قليلٌ ـ قلتُ: يا رسول الله، كنت تُرسلُ بالطعام، فأنظرُ، فإذا رأيتُ أثر أصابعك، وضعتُ فيه يدى(٣) ـ يلتمس بركة الحبيب ﷺ ـ.

* وأقام رسولُ الله ﷺ فى دار(٤) أبى أيوب قرابة سبعة أشهر، وهو يلقى الإكرام حتى تمَّ بناء مسجده الشَّريف فى المَكان الذى بركت فيه ناقته، فانتقلَ إلى الحجرات التى أُقيمت حولَ المسجد لأزواجه؛ وغدا أبو أيوب ـ رضى الله عنه ـ أقرب النَّاس جوارًا لرسولِ الله ﷺ ، فغُبط مرةً أُخرى من الأنصار بهذه الخصوصية الكريمة.

* وظلَّ أبو أيوب ـ رضوان الله عليه ـ منْ كُرَماء الأنصار، والمخلصين فى أعمالهم، والمتفانين فى محبته ﷺ ، حيث كان يدخر لرسولِ الله ﷺ كلَّ يوم طعامًا، فإذا أبطأ ولم يأتِ إليه فى حينه، أطعمه لأهله(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٧١/ ١٦٢٣) كتاب الفتن.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٧١).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٤) إنَّ دار أبى أيوب ـ رضوان الله عليه ـ التى حظيت بهذا الشَّرف الرفيع، قد صارتْ فيما بعد إلى مولاه أفلح بعد وفاته، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، وأصلح ما وهنَ منْ بنيانها، ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة المنورة. (البداية والنهاية ٣/ ٢٠٣).

(٥) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٤٦ ـ ٦٤٧).

إكرامه ومحبته للحبيب ﷺ

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج أبو بكر ـ رضى الله عنه بالهاجرة[١] إلى المسجد فرآهُ عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة؟!.

قال: ما أخرجنى إلا ما أجدُ من شدة الجوع.

فقال عمر: وأنا والله ما أخرجنى غيرُ ذلك.

فبينما هما كذلك؛ إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «ما أخرجكما هذه الساعة؟!».

قالا: والله ما أخرجنا إلا ما نجده فى بطوننا من شدة الجوع.

قال عليه السلام: «وأنا ـ والذى نفسى بيده ـ ما أخرجنى غيرُ ذلك... قُوما معى».

فانطلقوا فأتوا باب أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ وكان أبو أيوب يدَّخرُ لرسول الله ﷺ كل يومٍ طعامًا، فإذا أبطأ عنه ولم يأت إليه فى حينه أطعمه لأهله.

فلمَّا بلغوا الباب خرجت إليهم أمُّ أيوب، وقالت: مرحبًا بنبى الله وبمن معه.

فقال لها النبى عليه الصلاة والسلام: «أين أبو أيوب؟»...

فسمع أبو أيوب صوت النبى ﷺ ـ وكان يعملُ فى نخلٍ قريب له ـ فأقبل يُسرِعُ، وهو يقول: مرحبًا برسول الله وبمن معه، ثم أتبع قائلاً: يا نَبِى الله ليس هذا بالوقت الذى كنت تجىءُ فيه.

فقال عليه الصلاة والسلام: «صدقت»، ثم انطلق أبو أيوب إلى نخيله فقطع منه عذقًا[٢] فيه تمرٌ ورُطبٌ وبُسرٌ[٣].

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أردت أن تقطع هذا، ألا جنيت لنا من تمره؟».

قال: يا رسول الله أحببت أن تأكل من تمره ورُطبه وبُسره، ولأذبحنَّ لك أيضًا.

قال: «إن ذبحت فلا تذبحنَّ ذات لَبَنٍ».

---

(١) الهاجرة: نصف النهار فى شدة القيظ.

(٢) العذق: غصن له شعب.

(٣) الرطب: ما نضج من تمر النخل، والبسر: ما لم يكتمل نضجه.

فأخذ أبو أيوب جَدْيًا فذبحه، ثم قال لامرأته: اعجنى واخبزى لنا، وأنت أعلم بالخبز، ثم أخذ نصف الجَدى فطبخه، وعمد إلى نصفه الثانى فشواه، فلمَّا نضج الطعام ووضع بين يدى النبى ﷺ وصاحبيه، أخذ الرسول قطعة من الجَدى ووضعها فى رغيف، وقال: «يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تُصب مثل هذا منذ أيام».

فلما أكلوا وشبعوا قال النبى ﷺ: «خُبزٌ، ولحمٌ، وتمرٌ، وبُسرٌ، ورُطبٌ!!!».

ودمعت عيناه ثم قال: «والذى نفسى بيده إنَّ هذا هو النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة».

ثم نهض الرسول صلوات الله عليه، وقال لأبى أيوب: «ائتنا غداً».

وكان عليه الصلاة والسلام لا يصنع له أحدٌ معروفًا إلا أحبَّ أن يُجازيه عليه؛ لكنَّ أبا أيوب لم يسمع ذلك.

فقال له عمر ـ رضوان الله عليه ـ: إن النبى ﷺ يأمرك أن تأتيه غداً يا أبا أيوب.

فقال أبو أيوب: سمعًا وطاعةً لرسول الله.

فلما كان الغدُ ذهب أبو أيوب إلى النبى عليه الصلاة والسلام فأعطاه وليدةً[1] كانت تخدمه، وقال له: «استوصِ بها خيراً ـ يا أبا أيوب ـ فإنا لم نر منها إلا خيراً ما دامت عندنا».

عاد أبو أيوب إلى بيته ومعه الوليدةُ؛ فلما رأتها أم أيوب: قالت: لِمَنْ هذه يا أبا أيوب؟!.

قال: لنا... منحنا إياها رسول الله ﷺ.

فقالت: أعظم به من مانح؛ وأكْرِمْ بها من منحةٍ.

فقال: وقد أوصانا بها خيراً.

فقالت: وكيف نصنع بها حتى نُنَفِّذَ وصيةَ رسول الله ﷺ؟.

فقال: والله لا أجدُ لوصية رسول الله بها خيراً مِنْ أن أُعتقها.

فقالت: هُديتَ إلى الصواب، فأنت مُوفق... ثم أعتقها[2].

---

(١) وليدة: جارية صغيرة.

(٢) صور من حياة الصحابة (٧٠: ٧٣) بتصرف.

هذا هو الفائز

وتالله لا أجد تعليقًا على كل هذا إلا أن أُسمى أبا أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ بالفائز.

فهل بعد هذا الفوز شيء تطمح النفس فى الوصول إليه.

ودعونا نتعرف على هذا الصحابى الجليل أكثر من ذلك.

إنه أبو أيوب الأنصارى الخزرجى النجارى البدرى. السيد الكبير. الذى خصه النبى ﷺ بالنزول عليه فى بنى النجار إلى أن بُنيت له حجرة أم المؤمنين سودة، وبنى المسجد الشريف[١].

شهد العقبة وبدراً وما بعدها، ونزل عليه النبى ﷺ لما قدم المدينة، فأقام عنده حتى بنى بيوته ومسجده، وآخى بينه وبين مصعب بن عمير.

وشهد الفتوح، وداوم الغزو، واستخلفه (علىّ) على المدينة لما خرج إلى العراق، ثم لحق به بعدُ، وشهد معه قتال الخوارج[٢].

إكرام الصحابة له

وظل أصحاب النبى ﷺ يعرفون لأبى أيوب قدره ومنزلته وعظيم مكانته.

وفى سيرة ابن عباس: أنه كان أميراً على البصرة (لعلىّ)، وأن أبا أيوب الأنصارى وفد عليه، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينك على إنزالك النبى ﷺ عندك، فوصله بكل ما فى المنزل، فبلغ ذلك أربعين ألفًا.

وفى رواية: أنَّ أبا أيوب قَدِمَ على ابن عباس البصرة، ففرَّغ له بيته، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعت برسول الله ﷺ ،... كم عليك؟ قال: عشرون ألفًا فأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا، ومتاع البيت[٣].

---

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٤٠٢).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه الطبرانى برقم (٣٨٧٧) من طريق محمد بن عبد الله الحضرمى، عن أبى كريب بهذا الإسناد، ورجاله ثقات، إلا أن حبيب بن أبى ثابت لم يسمع من أبى أيوب، وأخرجه الحاكم (٣/ ٤٦١، ٤٦٢) وصححه، ووافقه الذهبى. وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٣).

نبذة من حياته

وظل أبو أيوب يعيش حياته زاهدًا في الدنيا راغبًا فيما عند الله ـ جل وعلا ـ لا تشغله الدنيا بحالٍ من الأحوال.

عن سالم، قال: أعرستُ، فدعا أبي الناس، فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتي بجنادي أخضر. فجاء أبو أيوب، فطأطأ رأسه، فنظر فإذا البيت مُستَّر. فقال: يا عبد الله، تسترون الجُدُر؟ فقال أبي واستحيى: غَلبنا النساءُ يا أبا أيوب. فقال: من خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يغلبنك. لا أدخلُ لكم بيتًا، ولا آكلُ لكم طعامًا![1]

بل كان لا يخاف في الله لومة لائم فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يبتغي بذلك إلا وجه الله تعالى. عن محمد بن كعب، قال: كان أبو أيوب يُخالفُ مروان، فقال: ما يحملك على هذا؟ قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يُصلي الصلوات، فإن وافقته، وافقناك، وإن خالفته، خالفناك[2].

رحلته المباركة في طلب حديث واحد

قال عطاء بن أبي رباح: «خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري؛ وهو أمير مصر، فأُخبر به، فعجل، فخرج إليه، فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم يبقَ أحدٌ سمعه غيري وغير عقبة، فابعث مَنْ يدلُّني على منزله، قال: فبعث معه مَنْ يدلُّه على منزل عقبة، فأخبر عقبة به، فعجل، فخرج إليه، فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ستر مؤمنًا في الدنيا على خُربة ستره الله يوم القيامة»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلَّد إلا بعريش مصر»[3].

---

(١) قال الأرنؤوط: رواه الطبراني (٣٨٥٣) وهو في التاريخ لابن عساكر (٥/ ٢١٨/ ٢) وإسناده قوي.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٦٨): رواه الطبراني (٣٩٩٣) ورجاله ثقات.

(٣) الحديث حسن بمجموع الطرق: رواه أحمد، والحميدي، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث (ص ١١٨ ـ ١٢٠).

موقف جليل

وكان لأبى أيوب موقف جليل فى حادثة الإفك التى تولَّى كبرها رأس المنافقين عبد الله بن أُبى بن سلول.. فلقد خاض كثير من المسلمين فى تلك الحادثة وهلك بسببها من هلك وإذا بأبى أيوب يقف موقف المؤمن الصادق صاحب القلب التقى النقى الذى لا يظن بالناس إلا خيراً فكيف بأم المؤمنين الطاهرة المطهرة المبرأة من فوق سبع سماوات.

قال تعالى: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور:١٢].

* قال الحافظ ابن كثير فى هذه الآية:

نزلت فى أبى أيوب الأنصارى وامرأته (رضى الله عنهما)، فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة (رضى الله عنها)؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، فذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور:١٢] كما قال أبو أيوب وصاحبته(١).

جهاده فى سبيل الله

شهد أبو أيوب المشاهد كلها فلم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون، وكانت آخر غزواته حين جهَّز معاويةُ جيشًا بقيادة ابنه «يزيد» لفتح القسطنطينية، وكان أبو أيوب آنذاك شيخًا طاعنًا فى السن يحبو نحو الثمانين من عمره، فلم يمنعه ذلك من لقاء العدو، لكنه لم يمض غيرُ قليل على مُنازلة العدو، حتى مرض أبو أيوب مرضًا أقعده، فأتاه يزيد يعوده، فقال: حاجتك؟ قال: نعم، إذا أنا مت فاركب بى، ثم تبيَّغ(٢) بى فى أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإذا لم تجد مساغًا، فادفنى ثم ارجع، فلما مات ركب به، ثم سار به، ثم دفنه. وكان يقول: قال الله: ﴿انفروا خفافًا وثقالاً...﴾ الآية [التوبة:٤١]، لا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقيلاً.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٦).

(٢) تبيَّغ به الدم: أى تردد فيه. وفى الطبقات وأُسد الغابة وابن عساكر: ثم سُغ أى: ادخل فيها ما وجدت مدخلاً.

هذه حاجة أبي أيوب وهو يجود بروحه، تُعجز وتُعيي كلَّ تصور وكلَّ تخيل لبني الإنسان!! أتحسبون هذا شعراً؟! لا.. ولا هو خيال.. بل واقعٌ.. وحقٌّ شهدته الدنيا ذات يوم، ووقفت تُحدِّق بعينيها وبأُذُنيها، لا تكاد تصدِّق ما تسمع وما ترى. ولقد أنجز يزيد وصيَّةَ أبي أيوب، وفي قلب القسطنطينية ـ وهي اليوم استانبول ـ ثوَى جثمانُ رجُلٍ عظيم، جدّ عظيم!!

أراد أن يكون مثواه الأخير حيث يزحف جيش الإسلام، وتَخفُق الأعلام، وتصهَل الخيول، هناك حيث صلصلة السيوف.

وعند ابن سعد: عن أبي ظِبيان، قال: أغزى أبو أيوب فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدوَّ، فارموني تحت أقدامكم. أما إني سأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[1].

يا له من شوق عارم إلى الجهاد، لا يحدُّه حدٌّ! فرضي الله عن السيد الشيخ المجاهد، المدفون تحت أسوار القسطنطينية.

وعن الأصمعي، عن أبيه: أن أبا أيوب قُبر مع سور القسطنطينية، وبُني عليه، فلما أصبحوا، قالت الرومُ: يا معشر العرب، قد كان لكم الليلة شأنٌ. قالوا: مات رجلٌ من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبِشَ، لا ضُرِبَ بناقوسٍ في بلاد العرب. فكانوا إذا قحطوا، كشفُوا عن قبره، فأُمطروا[2].

رضي الله عمَّن قضى حياته في أشواق عابد.. يؤمن بالنصر، ويرى بنور بصيرته بقاع القسطنطينية، وقد أخذت مكانها بين واحات الإسلام؛ ودخلتْ مجال نوره وضيائه.

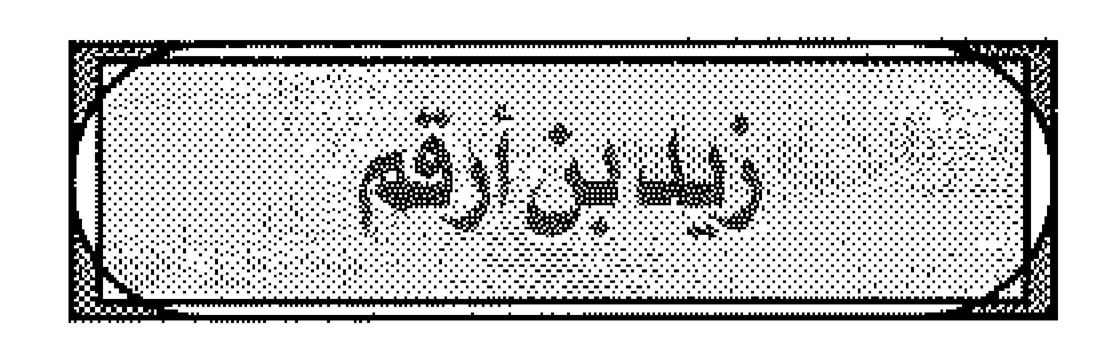
فرضي الله عن أبي أيوب وعن سائر الصحابة أجمعين

※ ※ ※

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده قوي: أخرجه ابن سعد (٣/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٤٦) نقلاً من السير (٢/ ٤١٢).



زيد بن أرقم

« إن الله قد صدقك يا زيد »

محمد رسول الله ﷺ

إنه واحد من مشاهير الصحابة تفاعل قلبه وتفاعلت جوارحه مع هذا الدين قلبًا وقالبًا، ففاز بمنقبة لا توازيها الدنيا بأسرها. (وستأتى).

أسلم وهو صغير وقد تجرع مرارة اليُتم وتربَّى فى حجر ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ.

ويا ليتنا نبدأ القصة من أولها لنتعايش مع هذا الصحابى الجليل من خلال قصته المباركة التى تملأ القلب نورًا ويقينًا وثباتًا.

لقد سكن العرب القدماء يثرب، وزرعوا النخل فيها، وبنوا الآطام، واتخذوا الضياع، ثم وفد اليهود إليها، وسكنوا فيها بجوار أهلها الأصليين من العرب، وذلك قبل وفود الأوس والخزرج إليها مرتحلين من اليمن. ولم يستطع اليهود منع هذه القبائل العربية من مجاورتهم، فاكتفوا ببسط النفوذ الاقتصادى والاجتماعى عليهم، وقَبِل المهاجرون ذلك على مضض لضعفهم، وعملوا عندهم أُجراء فى زراعة الأرض، واستمر الحال كذلك إلى أن اشتدت شوكتهم ونازعوا اليهود سلطانهم وسيادتهم.

ولما أن رأى اليهود أن هؤلاء العرب قد زاحموهم فى ديارهم، ونازعوهم ملكهم وسيادتهم، وأنهم على مرور الأيام تشتد شوكتهم ويزداد نفوذهم وسلطانهم، عندها لجأ اليهود إلى الحرب النفسية وإلى الحيلة والفتنة للتفريق والوقيعة بين الحيين العربيين، وجعلوا يدسون الحقد والكراهية بينهم، ويستثيرون فيما بينهم أسباب العداوة والبغضاء، ويغذون الأحقاد بكل وسائلهم المشروعة وغير المشروعة حتى تمَّ لهم ما أرادوا، فحلت البغضاء محل المودة، والعداوة محل الألفة، فقامت بينهما حروب طاحنة، كان لها فى حياتهم تاريخ طويل، وكان لهم فى ذلك أيام مشهورة، ويعتبر يوم بُعاث آخر هذه الأيام الهوجاء، وكان قبل الهجرة النبوية بنحو خمس سنين، وكان يومًا أليمًا على كلا الحيين، وبخاصة الخزرج الذين كادوا يُقتلون حرقًا بديارهم بيد الأوس لولا أن مَنَّ الله عليهم،

ووقاهم شر ذلك النزيف القديم، ووقف أحد عقلاء الأوس، وأشار بوقف الحرب والانتباه لما يرميه جيرانهم الثعالب أصحاب المكر والمقاصد الخبيثة.

واستفاق الخزرج والأوس من سُبات هذه الغفلة، وشعروا بسوء ما جنته حروبهم بأيديهم فى الأيام الخالية، وأحسوا بالخسارة الكبيرة التى حلت بهم حيث كَثُر عدد الأرامل والأيتام، وفقدوا الشباب، وأنفقوا الأموال فى غير طائل، فحاولوا إصلاح ذات بينهم وتواصوا بإنهاء الخلافات وطمس معالم الأحقاد والحروب.

وفى ظل هذه الأحداث نشأ زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الخزرجى، ولم يعش مرحلة طفولته فى أحضـان والديه، بل نشأ يتيمًا فى كنف أحـد سادات بنى الخزرج (عبد الله بن رواحة) ـ رضى الله عنه ـ والذى كان يرعاه ويوجهه[1].

وكان (زيد) الذى تعايش مع تلك الأحداث المؤلمة يتمنى من أعماق قلبه أن يأتى من يُنقذ البشرية كلها من أوحال الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

ولم تمضِ مدة يسيرة حتى جاء طوق النجاة وظهر الإسلام على أرض الجزيرة وأشرقت أنوار التوحيد على البشرية لتضىء لهم الطريق إلى الله بعد قرونٍ طويلة عاش الناس فيها فى ظل جاهلية يعجز القلم عن وصفها.

وخرج (عبد الله بن رواحة) لأداء الحج مع قومه وعشيرته.

وكان اللقاء التاريخى مع الحبيب ﷺ عند العقبة فبايعه (ابن رواحة) وكان من نُقباء الخزرج الذين وقع الاختيار عليهم ليكونوا نُقباء على قومهم لتنفيذ بنود هذه البيعة.

وعاد (ابن رواحة) وقد امتلأ قلبه بالفرحة والسعادة التى تكفى الكون بأكمله.

عاد وقد حمل أمانة الدين والدعوة إلى الله على كتفيه وسخَّر ماله ونفسه لخدمة دين الله وللذود عن حياضه.

وسرعان ما انتشر الإسلام فى ربوع المدينة وأصبح المكان مهيأ لاستقبال خير البشر ﷺ.

وهنا أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) لتكتمل سعادة أهلها الذين كانوا فى شوقٍ شديد لرؤياه ﷺ وملازمته.

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص ٢٣٣: ٢٣٥) بتصرف.

وقام أهل المدينة ومعهم (زيد بن أرقم) لاستقبال الحبيب ﷺ فى موكبٍ يعجز القلم عن وصف سعادة أهله.

وما إن دخل الحبيب ﷺ المدينة حتى كاد (زيد) أن يطير فوق السحاب ويسابق الريح من شدة فرحته بقدوم الحبيب ﷺ .

وظل ملازمًا للنبى ﷺ ملازمة العين لأختها لينهل من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، وامتلأ قلبه حبًا لرسول الله ﷺ حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بنفسه وبكل ما يملك.

ولما شرع الحبيب ﷺ فى بناء مسجده كان (زيد) ـ على الرغم من صِغر سنه ـ من المسارعين إلى المشاركة فى بناء المسجد.

حرصه على الجهاد

وجاءت غزوة بدر وكان (زيد) يتمنى أن يكرمه الله بنعمة الشهادة فى سبيله فعرض نفسه على الحبيب ﷺ ، ولكن النبى ﷺ ردَّه مع ثلة من أترابه لصغر السن فعاد (زيد) ودموعه تقطر على وجنتيه حُزنًا على حرمانه من الجهاد فى سبيل الله.

ولما كانت غزوة أُحد أراد زيد أن يشارك فيها على الرغم من صغر سنه ليفوز بالشهادة فى سبيل الله، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السُفلى.

فعن عُروة قال: ردَّ رسول الله ﷺ نفرًا يوم أُحُد استصغرهم، منهم: أسامة، وابن عمر، والبراء، وزيد ابن أرقم، وزيدُ بن ثابت، وجعلهم حرسًا للذُّرِّيَّة[1].

صبر واحتساب

قال زيد بن أرقم: رمدت فعادنى رسول الله ﷺ ، فقال: «أرأيت يا زيدُ إن كانت عيناك لما بهما، كيف تصنعُ؟» قلتُ: أصبرُ وأحتسبُ. قال: «إن فعلت دخلت الجنة» وفى لفظ: «إذًا تلقى الله ولا ذنب لك»[2].

* * *

---

(١) ابن هشام (٢/ ٦٦) و«زاد المعاد» (٣/ ١٩٥).

(٢) قال الأرنؤوط: رواه أحمد (٤/ ٣٧٥) والطبرانى (٥٠٥٢) ورجاله ثقات.

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

لقد كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد، كانت مخاصمته تتخذ طريق الهجرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التى تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التى يعالن بها الأقوياء. وائتمار الضعفاء فى جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء فى ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة.

وفى الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التى تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحى من استخدامه الرجل الشريف!.

وقد لجأ المنافقون فى المدينة إلى مناوأة النبى ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك والافتراء حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصًا بهم. وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يُقف مد الإسلام شىء، ولم تهده هزيمة. وأخذت القبائل العادية تختفى واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع فكانت سيرتهم تلك، مثار فتن شداد تأذَّى منها رسول الله والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًا فى غزوة «بنى المصطلق».

فقد بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ بنى المُصطلق يَجْمعون له، وقائدهم الحارث ابن أبى ضِرَار أبو جُويرية بنت الحارث، زوج رسول الله ﷺ؛ فلما سمع رسولُ الله ﷺ بهم خَرَج إليهم، حتى لَقيهم على ماء لهم يقال له: المُريسيع، من ناحية قُدَيد إلى الساحل، فتزاحف الناسُ واقتتلوا؛ فهزمَ اللّهُ بنى المصطلق، وقُتل من قُتل منهم، ونَفَّلَ رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه[1].

---

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٤٢) وقال: رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

على أن هذا النصر شابه من أعمال المنافقين ما عكَّر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته.

فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وَرَدَتْ واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار، يقال له: جَهْجاه بن مَسْعود[1]، يقود فرسَه، فازدحم جَهجاه وسنان بن وَبَر الجُهنى[2]، حليف بنى عوف ابن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصَرخ الجُهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أُبَىّ بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حَدَث، فقال: أو قَد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كَلْبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ.

ثم أقبل على مَنْ حَضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم... فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبرَ، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به (عبَّاد بن بشر) فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيفَ يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، لا ولكن أذِّن بالرحيل، وذلك فى ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس[3].

وقد مشى عبد الله بن أُبىّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان فى قومه شريفًا عظيمًا ـ فقال مَن حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل،... حدبًا على ابن أُبىّ بن سلول، ودفعًا عنه.

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقالته الثابتة ولو أن الجبان ذهب يطلب

---

(١) جهجاه بن مسعود: وقيل ابن قيس وقيل ابن مسعود الغفارى شهد بيعة الرضوان بالحديبية عاش إلى خلافة عثمان وقال ابن السكن مات بعد عثمان بأقل من سنة. [الإصابة ١/ ٢٦٥، أسد الغابة ١/ ٣٦٥].

(٢) سنان بن وبر الجهني: سنان بن وبرة أو وبر الجهنى حليف بنى الحارث بن الخزرج.
قال ابن أبى حاتم عن أبيه هو الذى سمع عبد الله بن أُبىّ يقول: لئن رجعنا إلى المدينة (الإصابة: ٣/ ١٣٥)، (أسد الغابة: ٢/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب (٦/ ح ٣٥١٨) ومسلم فى كتاب البر والصلة (٤/ ٦٣/ ١٩٩٨) بنحوه ـ وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٧٥) بطوله من طريق ابن إسحاق.

النجاة من عقباها، لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد ـ على السماح الذى قُوبل به ـ إلا خسة وخصامًا والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله، لقد كان «أبو جهل» خصمًا لدودًا لكل من دخل فى هذا الدين، وكان طاغية عنيدًا لا تنتهى لجاجته، إلا أنه كان كالضبع المفترسِ لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف فى وضح النهار، وما زال يُقاتل به حتى صُرع.

أما عبد الله بن أُبىّ، فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين: قبع هذا المنافق فى جنح الظلام، وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلَّى ـ فى غوايته ـ إلى حضيضٍ بعيد، فلم يُبال أن يتهجم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جَبين الحرائر العفيفات(١).

قال ابن إسحاق: فلما استقلَّ رسول اللهﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حُضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبى الله، والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكرة، ما كنتَ تروح فى مثلها، فقال له رسولُ اللهﷺ : «أو ما بَلَغَكَ ما قال صاحبكم؟» قال: وأىّ صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أُبىّ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعز منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله، والله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليلُ وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لَينظمون له الخَرَز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلْكًا(٢).

إن ابن أُبىّ غص بالإسلام لأنه رآه خطرًا على زعامته، وكذلك فعل أبو جهل من قبل، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعدما تبينوه، إن هناك ألوفًا غيرهم لا يدركون قيلاً ولا يهتدون سبيلاً، كرهوا الإسلام وحاربوه.

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة، والعداوات المقصودة أو المضللة، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة، أخذ الإسلام رويدًا رويدًا ينشر أشعته، فأخرج أمة من الظلام إلى النور، بل جعلها مصباحًا وهاجًا يضىء ويهدى.

والدروس التى أحدثت هذا التحول الخطير والتى رفعت شعوبًا وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواء موقوتًا أو مخصوصًا، بل هى علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٢٩).
(٢) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

التاثت. وستظل ما بقى الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة(١).

قال (زيد): فأصابنى غمٌّ لم يُصبنى مثله قط، فجلست فى بيتى، وقال عمى: ما أردت إلى أن كذبك النبى ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ الله﴾، وأرسل إلىَّ النبىُّ ﷺ فقرأها وقال: إنَّ الله قد صدَّقك»(٢).

وهكذا أنزل الله قرآنًا ليصدق (زيد بن أرقم) وليدافع عنه كما دافع هو عن رسوله ﷺ.

فراق أليم

وتأتى أحداث غزوة مؤتة، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث ابن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطًا ثم قدَّمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة»(٣).

فخرج (زيد بن أرقم) مع (عبد الله بن رواحة) الذى لطالما أحسن إليه وربّاه فى حجره.

قال (زيد): كنت يتيمًا فى حجر ابن رواحة فخرج بى معه إلى مؤتة مُردفى على حقيبة رحله(٤).

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودعته   فى النخل غير مودع وكليل

ثم مضوا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام فبلغهم أن هرقل فى باب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلى فى مائة ألف، عليهم رجل بلى أخذ رايتهم يقال له ملك بنى زانة، فلما بلغ

(١) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٢ - ٣٣).
(٢) أخرجه البخارى (٤٩٠٤) كتاب التفسير.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٨١). والحديث رواه البخارى (٧/ ٥٨٣) المغازى.
(٤) الإصابة (١/ ٥٦٠) و«الوافى بالوفيات» (١٥/ ٢٢).

ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له، فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها فقاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام[١].

فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه وتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمتُ يا نفسى لَتنزلنّهُ	طائعـــــة أو لتُكرهنّـــــه
مـــا لى أراكِ تكرهينَ الجنّةَ	إنْ أجلب الناس وشدوا الرّنّةَ
لَطالما قـــد كنت مُطمئنّـــة	هل أنتِ إلا نُطفةٌ فى شنّة

وقال عبد الله بن رواحة:

يا نفس إلا تُقتلى تموتى	هذا حِمامُ الموتِ قد صليتِ
ومـــا تمنيتِ فقـــد لقيتِ	إنْ تفعلى فعلهما هُديتِ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صُلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس فقال: وأنت فى الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل[٢].

وعاد (زيد) من (مؤتة) وقد مات حبيبه الذى كفله وربّاه وأحسن إليه (عبد الله بن رواحة) فحزن عليه حزنًا شديدًا.

وظل (زيد) ملازمًا للنبى ﷺ يقبس من هديه وأخلاقه ويشعر معه بالأمان والحب والرحمة التى كان فى أشد الحاجة إليها.

---

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات إلى عروة ـ مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٩).
(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

إلى أن جاء اليوم الذى تُوفى فيه الحبيب ﷺ فأظلمت الدنيا كلها فى عين (زيد) وكاد قلبه أن يتمزق من الحزن. ولكنه مضى فى طريقه إلى الله تعالى عابدًا زاهدًا مجاهدًا فى سبيل الله فلم يترك فرصة للجهاد فى سبيل الله إلا ويبيع نفسه فيها لله عسى الله أن يرزقه الشهادة فى سبيله.

ولقد عرف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ قدره ومكانته فحملوا له الحب والتقدير إلى أن جاءت اللحظة المناسبة التى نام فيها (زيد) على فراش الموت، وفاضت روحه الطاهرة لبارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنات النعيم التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن زيد وعن الصحابة أجمعين





أبو سلمة

« اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين »

محمد رسول الله ﷺ

إنه الصحابى الجليل أبو سلمة.. إنه السيد الكبير أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وابن عمته برَّة بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين، هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً، وماتَ بعدها بأشهر(١).

فجرٌ جديد

كان (أبو سلمة) ـ رضى الله عنه ـ يتألم لكل ما يراه من حوله من أمور الجاهلية التى لا يرتضيها أصحاب المروءة والقلوب الحية.. وكان يتمنى من أعماق قلبه أن يأتى فجرٌ قريب ينير أرجاء الكون بنور التوحيد والإيمان. وسرعان ما بزغ هذا الفجر ببعثة الحبيب ﷺ فكان أبو سلمة من المسارعين إلى الإسلام.

ولقد تحمل فى سبيل الله كثيراً من الأذى فلما رأى النبى ﷺ ما يحدث لأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة فكان أبو سلمة ممن هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من بطش قريش وتعذيبهم وإيذائهم.. ولتغسل شلالات الحبشة جراحاتهم الدامية.

ولكن أبو سلمة لم يستطع البقاء فى الحبشة بعيداً عن الحبيب ﷺ فسرعان ما عاد إلى مكة لينعم بصحبة النبى ﷺ وليكن ما يكن.

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب النبى ﷺ أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) ليكونوا فى رحاب إخوانهم الأنصار الذين وضعوهم فى العيون وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم من نسيم الهواء.

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ١٥٠).

صبرٌ واحتساب

ولقد تحمل أبو سلمة الإيذاء الشديد عند هجرته فصبر واحتسب ذلك كله عند الله ـ جل وعلا ـ.

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: لما أجمع أبو سلمة رضى الله عنه الخروج إلى المدينة، أى فى الهجرة، رَحَّل لى بعيره، ثم حملنى عليه، وجعل معى ابنى «سَلَمة بن أبى سلمة» فى حجرى، ثم خرج يقود بى بعيره. فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها فى البلاد؟.

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذونى منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابنى «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرّق بينى وبين ابنى وبين زوجى.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس فى الأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى سَنَةً أو قريبًا منها، حتى مَرّ بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة فرأى ما بى، فرحمنى.

فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون من هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟.

قالت: فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت.

قالت: فردّ بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى.

قالت: فارتحلتُ بعيرى، ثم أخذت ابنى، فوضعته فى حجرى، ثم خرجتُ أريد زوجى بالمدينة.

قالت: وما معى أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار. فقال: إلى أين يا ابنة أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معى إلا الله وبنى هذا.

فقال: والله! ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معى يهوى بى، فوالله! ما صحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. وكان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم

استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر بعيرى، فحط عنه، ثم قيده فى الشجر، ثم تنحىّ إلى شجرة، فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيرى فقدمه فرحّله، ثم استأخر عنى، وقال: اركبى، فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه، فقادنى حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة.

فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء، قال : زوجك فى هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة؛ وما رأيتُ صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[1].

ولما أَذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة أحسّ (أبو سلمة) بأن السعادة تغمر قلبه وجوارحه. وظل ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة الرجل لظله يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة فازدادت محبته لرسول الله ﷺ يومًا بعد يوم حتى كان يتمنى أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه وماله وولده وبكل ما يملك.

سرية أبى سلمة

وها هى صفحة مشرقة من جهاده ـ رضى الله عنه ـ فلقد شهد بدرًا، وشهد أُحُدًا، وقاتل فيهما قتال من يبحث عن الشهادة فى سبيل الله فجُرح بأُحد وأقام شهرًا يداوى جُرحه.

ولما تجرأت بعض القبائل على المسلمين بعد غزوة أُحد أرسل النبى ﷺ سرية أبى سلمة.

وأول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أُحُد هم بنو أسد بن خزيمة.

فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما، يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٦٩). ابن هشام (٢/ ٧٥، ٧٦) وفى سنده مسلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة «لم يوثقه غير ابن حبان» وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣١٧): مقبول.



والأنصار، وأمَّر عليهم «أبا سلمة» وعقد له لواء، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا فى الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاءً لهم، فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه فى أُحُد، فلم يلبث حتى مات(١).

الفوز بدعوة النبى ﷺ

وينام هذا الصحابى الجليل على فراش الموت وتأتيه فى تلك اللحظة الحاسمة أعظم بشرى يتحصل عليها مسلمٌ فى تلك الحياة الدنيا: ألا وهى دعوة رسول الله ﷺ له.

عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شُقَّ بصرُه فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصر» فضجَّ ناسٌ من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يُؤمِّنون على ما تقولون» ثم قال: «اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهدين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وافسح له فى قبره ونوِّر له فيه»(٢).

أى المسلمين خيرٌ من أبى سلمة

إنها الكلمة التى خرجت من فم زوجه (أم سلمة) عندما مات زوجها الحبيب.

عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مُسلم تُصيبه مُصيبةٌ فيقول ما أمره الله: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجُرنى فى مُصيبتى وأخلف لى خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أىُّ المسلمين خيرٌ من أبى سلمة؟ أوَّلُ بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ... ثم إنى قلتها، فأخلف الله لى رسول الله ﷺ . قالت: أرسل رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له فقلت: إن لى بنتًا وأنا غيورٌ قال: «أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة»(٣).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٤٣) ط. دار الريان.

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠) عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ.

(٣) أخرجه مسلم (٩١٨) الجنائز.

وفي رواية أخرى عند مسلم:

فلما احتُضِرَ أبو سلمة، قلت ذلك، وأردت أن أقول: «وأبدلني خيرًا منها» فقلت: ومَنْ خَيْرٌ من أبي سلمة؟ فلم أزل حتى قلتُها، فلما انقضت عدَّتها، خطبها أبو بكر، فردَّته، وخطبها عمر، فردَّته، فبعث إليها النبيُّ ﷺ ، فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ ! وبرسوله.

وهكذا رحل العابد الزاهد المجاهد في سبيل الله تعالى.. الفائز بدعاء رسول الله ﷺ له.

رحل عن الدنيا بعد أن سالت دماؤه الزكية الطاهرة التي لطالما تحركت من أجل نُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ وليلقى الله طاهرًا نقيًا مغفورًا له بدعاء رسول الله ﷺ **له بأن يغفر الله له.**

فرضي الله عن أبي سلمة وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

عبد الله بن أم مكتوم

راقع شعار التوحيد

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عملها فى أصحاب الأفئدة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويسارعون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التى استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة.

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج:٥].

كان أصحاب العقائد يتجمعون ـ فى تؤدة ـ حول عقائدهم، ويلتفون ـ فى حب وإعجاب ـ حول إمامهم، ويشرحون فى حذر ـ أصول فكرتهم.

والإيمان قوة ساحرة، إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت فى أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكنًا(١).

وها نحن على موعد مع هذا المثل الحى الذى يُثبت للكون كله أنه لا مستحيل فى ظل العقيدة الراسخة والإيمان العميق.

فها هو (عبد الله بن أم مكتوم) ذلكم الصحابى الجليل الذى ابتلاه الله ـ عز وجل ـ فى بصره وأنعم عليه بنعمة البصيرة الثاقبة. فكان عَلَمًا من أعلام الصحابة.. فلا تكاد تجد مسلمًا فى هذا الكون لا يعرفه.

إننا ما إن نفتح كتاب الله ونبدأ فى قراءة سورة (عبس) إلا ونذكر فى التو واللحظة قصة (عبد الله بن أم مكتوم) مع رسول الله ﷺ .

إنه الصحابى الذى عوتب فيه الحبيب ﷺ من فوق سبع سماوات وأنزل الله فى شأنه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

فتعالوا بنا لنفتح تلك الصفحة الناصعة ليعلم أهل البلاء أنه لا مستحيل فى ظلال

---

(١) فقه السيرة للشيخ الغزالى (ص: ١١١).

العقيدة وأن الإيمان يصنع المعجزات.

كان (ابن أم مكتوم) رجلاً بسيطًا من رجالات مكة لم يكن له شأن قبل الإسلام فإنه لم يكن سيدًا في قومه، ولكنه بعد أن أسلم واستعلى بإيمانه أصبح سيدًا في الكون كله.

وابن أم مكتوم تربطه بالرسول ﷺ صلة رحم، فلقد كان ابن خال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ.

ولقد اختلفوا في اسمه.. فأهل المدينة يقولون: عبد الله بن قيس بن زائدة وأهل العراق يسمونه عمرًا.

أما أبوه فقيس بن زائدة، وأما أمه فعاتكة بنت عبد الله، ولقد دُعيت بأم مكتوم لأنها ولدته أعمى مكتومًا.

الإسلام يضيء أرجاء الكون

وكان (عبد الله بن أم مكتوم) يحمل عزيمة قوية تفتت الجبال وتنفذ في الحديد، ولكنه كان بحاجة إلى رسالة وغاية شريفة يبذل فيها جهده وطاقته.

وإذا بالنور الإلهي يسطع على أهل مكة ليضيء أرجاء الكون.. وإذا بهذا القلب الطاهر يتفاعل مع هذا النور ويستجيب (ابن أم مكتوم) لدعوة الحق ويُسلم ليكون من السابقين إلى هذا الدين العظيم.

وما علم (ابن أم مكتوم) أنه بذلك سيدخل التاريخ من أشرف وأعظم أبوابه وأن الكون كله سيردد قصته لتكون مثالاً يُحتذَى ونبراسًا يُقتدَى.

ومدَّ ابن أم مكتوم يده إلى رسول الله ﷺ معلنًا إسلامه، ومقررًا انضمامه إلى كتيبة الإيمان، معاهدًا الله ورسوله على بذل روحه في سبيل الله، ومنذ ذلك اليوم حرص على أن يتفقه في دينه، ويعرف عنه كل شيء.

كان يسأل الرسول ﷺ وحوله حلقة من الرجال الأُول يسمعون ويفهمون، ويسأله وهو في طريقه إلى الكعبة، ويسأله وهو يعترض طريق الرجال ليدعوهم إلى الإسلام.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يومًا يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه، إذ أقبل ابن أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديمًا ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه،

وود النبى ﷺ أن لو كفَّ ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة فى هدايته.

وعبس فى وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ـ تعالى ـ:
﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) فى صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدى سفرة (١٥) كرام بررة﴾ [عبس:١ ـ ١٦][1].

ست عشرة آية نزل بها جبريل الأمينُ على قلب النبى الكريم ﷺ فى شأن عبد الله بن أم مكتوم؛ لا تزال تُتلى منذ نزلت إلى اليوم، وستظل تتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومنذ ذلك اليوم ما فتئ الرسول صلوات الله عليه يُكرمُ منزل عبد الله بن أم مكتوم إذا نزل، ويُدنى مجلسه إذا أقبل، ويسأله عن شأنه، ويقضى حاجته.

ولا غرو[2]، أليس هو الذى عُوتب فيه من فوق سبع سماواتٍ أشدَّ عتابٍ وأعنفه؟![3].

فى رحاب الأنصار

ولما اشتد إيذاء كفار قريش لأصحاب النبى ﷺ أذن لهم الحبيب ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) فكان (ابن أم مكتوم) من السابقين إلى الهجرة والفرار بدينهم خوفًا من الفتنة التى تكاد تعصف بالقلوب.

قال البراء ـ رضى الله عنه ـ: أول من قَدِم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يُقرِئان الناس القرآن[4].

وهكذا عاش (ابن أم مكتوم) فى رحاب إخوانه الأنصار الذين وضعوا المهاجرين فى

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٤٧٠).
(٢) لا غرو: لا عجب.
(٣) صور من حياة الصحابة (ص ١٥٣).
(٤) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ١٥١) والحاكم (٣/ ٦٣٤) ورجاله ثقات.

أعينهم وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم حتى من نسيم الهواء.

وظل (ابن أم مكتوم) يؤدى تلك الرسالة العظيمة فى تعليم الناس القرآن وشرائع الدين ليهيئ القلوب لاستقبال الحبيب ﷺ.

واشتاق (ابن أم مكتوم) إلى حبيبه ﷺ إلى أن أذن الله للنبى ﷺ بالهجرة إلى يثرب (المدينة) فسعد (ابن أم مكتوم) سعادة ملأت قلبه فرحًا وسرورًا.

فلما دخل الحبيب ﷺ يثرب كان (ابن أم مكتوم) يلازمه ملازمة الرجل لظله ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه فلم يتخلف عن صلاة واحدة خلف النبى ﷺ ولم يغب عن حلقة واحدة من حلقات العلم.

وها هو يرفع شعار التوحيد

ولَمَّا قَدِمَ الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اتخذ عبد الله بن أم مكتوم، وبلال ابن رباح مؤذنين للمسلمين يصدعان بكلمة التوحيد كل يوم خمس مرات، ويدعُوان الناس إلى خيرِ العمل، ويحضانهم على الفلاح...

ولقد كان بلالٌ يؤذن فى رمضان فلا يمتنع الناس عن الطعام والشراب؛ لأن أذانه فقط لإيقاظ النائم وتنبيه الغافل، فإذا أذّن ابن أم مكتوم كان هذا إيذانًا بالامتناع عن الطعام والشرابِ وإمساك الصائمين، فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم» وكان أعمى لا ينادى حتى يقال له: أصبحتَ أصبحتَ[1].

إنما وليكم الله

وابن أم مكتوم هذا من أولئك الرجال الذين أُشربت قلوبهم حب النبى ﷺ فهو أحب إليه من الأهل والعشيرة، وأحَب إليه من الزوجة والولد، بل أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه.

وكل واحد من الصحابة الأبرار - وابن أم مكتوم منهم - قد يحتمل الإساءة تقدم إلى أهله وذويه، ويكظم غيظه. ويعفو ويصفح. ولكنه لا يقبل بأى حال من الأحوال أن

(١) أخرجه البخارى (٦١٧، ٢٦٠، ١٩١٨) ومسلم (١٠٩٢).

يمس شخص الرسول ﷺ بأذى، ولذلك لما نزل ابن أم مكتوم - رضى الله عنه - على يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتُحسن إليه وتساعده فى طعامه وشرابه، لكنها تؤذيه فى النبى ﷺ فتناولها، فضربها، فقتلها، فرُفع ذلك إلى النبى ﷺ، فقال هو: أما والله إن كانت لترفقني، ولكن آذتنى فى الله ورسوله. فقال النبى ﷺ: «أبعدها الله، قد أبطلتُ دمها»(١).

ولقد أحب النبىُ ﷺ (ابن أم مكتوم) حتى إنه كان يستخلفه على المدينة عند خروجه إلى غزواته ليصلى بالناس.

وكان (ابن أم مكتوم) قدوة فى العبادة والصيام والقيام وقراءة القرآن.

الله يستجيب دعاءه

ولما أنزل الله على نبيه ﷺ آيات من القرآن تحض المسلمين على الجهاد فى سبيل الله تعالى وترفع شأن المجاهدين على القاعدين.. وإذا بعبد الله بن أم مكتوم يحزن حُزنًا شديدًا ويرفع يديه إلى السماء ويقول: أى رب أنزل عُذرى.

فاستجاب الله دعاءه وأُنزلت (غير أولى الضرر).

فعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُملُّها علىَّ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى فثقلت علىَّ حتى خفت أن ترض فخذى ثم سُرى عنه فأنزل الله ﴿غير أولى الضرر﴾(٢).

وعن البراء قال: لما نزلت ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾ قال: النبى ﷺ: «ادعوا فلانًا» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: اكتب: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله﴾ وخلَّف النبى ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥](٣).

---

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه أبو داود (٤٣٦٢) الحدود - ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخارى (٤٥٩٢).

(٣) أخرجه البخارى (٤٥٩٤) كتاب التفسير.

جهاده في سبيل الله تعالى
(وحان وقت الرحيل)

وها هو (ابن أم مكتوم) صاحب الهمة العالية الذى أنزل الله عُذره من فوق سبع سماوات يأبى إلا أن يجاهد فى سبيل الله.. ولم يعجز أن يجد له دورًا يتناسب مع قدراته لينصر دين الله ـ جل وعلا ـ.

فكان يغزو ويقول: ادفعوا إلىَّ اللواء فإنى أعمى لا أستطيع أن أفرَّ وأقيمونى بين الصفين»[١].

وفى السنة الرابعة عشرة للهجرة عقد عمر بن الخطاب العزم على أن يخوض مع «الفرس» معركة فاصلة تُديل[٢] دولتهم، وتُزيل مُلكهم، وتفتح الطريق أمام جيوش المسلمين، فكتب إلى عُمَّاله يقول: لا تدعوا أحدًا له سلاحٌ، أو فرسٌ، أو نجدةٌ، أو رأىٌ؛ إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىَّ، والعَجَلَ العَجَلَ ـ السرعة ـ.

وطفقت جموع المسلمين تُلبِّى نداءَ الفاروق، وتنهال على المدينة من كل حدب وصوب[٣]، وكان فى جملة هؤلاء المجاهد المكفوف البصر عبد الله بن أم مكتوم.

فأمَّرَ الفاروق على الجيش الكبير سعد بن أبى وقاص، وأوصاه وودَّعه.

ولما بلغ الجيش «القادسية» برز عبد الله بن أم مكتوم لابسًا درعه، مُستكملاً عُدته، وندب نفسه لحمل راية المسلمين والحفاظ عليها، أو الموت دونها.

والتقى الجمعان فى أيام ثلاثة قاسية عابسة... واحترب الفريقان حربًا لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلاً حتى انجلى اليوم الثالث عن نصرٍ مُؤزرٍ للمسلمين، فدالت دولةٌ من أعظم الدول...

وزال عرش من أعرق عروش الدنيا... ورُفعت راية التوحيد فى أرض الوثنية. وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء... وكان بين هؤلاء الشهداء عبد الله بن أم مكتوم، فقد وُجِدَ صريعًا مُضرَّجًا بدمائه وهو يُعانق رايةَ المسلمين[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ١٥٤).

(٢) تديل دولتهم: تقلب دولتهم.

(٣) من كل حدب وصوب: من كل ناحية.

(٤) صور من حياة الصحابة (ص ١٥٦: ١٥٧) بتصرف.

وعن أنس أن عبد الله بن زائدة ـ وهو ابن أم مكتوم ـ كان يقاتل يوم القادسية وعليه درعٌ حصينة سابغة(١).

قال الواقدى: شهد القادسية معه الراية ثم رجع إلى المدينة فمات بها.

وقال الذهبى: قلت: ويقال استُشهد يوم القادسية(٢).

لله درُّك يا مؤذِّن رسول الله ﷺ ! حين تشهد الوغَى، وطَعْنَ الرماح ووقع الأسنة، وتُمسك بالراية وأنت أعمى.. من أىّ طينة طاهرة عطرة كنتم، وبأىّ أرحام حُملتم، ومن أىّ أصلاب خرجتم؟! لكأنكم أتيتم إلينا من عوالم علوية غير عالمنا هذا!!

فالقادسيةُ ما يزالُ حديثُها ... عِبَرٌ تُضِيءُ بأرْوَعِ الأمثالِ

تَحْكى مفاخرَنا وتَذْكُر مجدَنا ... فتجيبُها حطِّينُ بالمنْوالِ

صفَحَاتُ مجدٍ فى الخلودِ سطُورُها ... تاقَ الزمانُ لها بغيرِ جِدالِ(٣)

وبعد فلقد كان ابن أم مكتوم أعمى البصر ، ولكنه كان نافذ البصيرة، أنزل الله فيه قرآنًا فكان هذا إيذانًا من الله ـ تعالى ـ بقيام دولة الصالحين المؤمنين، دولة الموحدين القانتين، العاملين بشريعة الله فى الأرض. كان هذا إيذانًا من الله بتثبيت القيم الإيمانية التى على أساسها يتفاضل الناس بقيم الإيمان والتقوى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات:١٣].

ومن ذلك اليوم، أخذ الرسول ﷺ يستقبل المستضعفين، والذين دوى صوتهم فى جنبات الأرض، يحملون للبشرية كلِّها الأمن بعد الخوف، والنور بعد الظلام، والهدى بعد الضلال، فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال، وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين...

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم ... وبعدها ملأوا الآفاق تمدينًا

لو كبِّرت فى ربوع الصين مئذنة ... سمعت فى الغرب تهليل المصلينا(٤)

وهكذا رحل هذا الصحابى الجليل الذى وإن كان قد حُرم فى الدنيا من نعمة البصر إلا أن الله قد أنعم عليه بنعمة البصيرة، وقبل ذلك، بل وأعظم من ذلك فقد أنعم الله

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ١٥٤).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٦٥).

(٣) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٥٣).

(٤) رجال أنزل الله فيهم قرآنًا (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

عليه بنعمة الإسلام وبصحبة خير الأنام ﷺ.

وسيجبر الله كسره مع أول قدم يضعها في جنة الرحمن - جل وعلا - التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فهناك يجمع الله بينه وبين حبيبه ﷺ ويعوضه عن فقد البصر في الدنيا بأعظم وأجلّ نعمة في الجنة حين يُكشف الحجاب وينظر المؤمنون إلى وجه الكريم التواب - سبحانه وتعالى -.

فرضي الله عن (ابن أم مكتوم) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عاصم بن ثابت

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

إن العبد إذا تعلق قلبه بالله ـ جل وعلا ـ فإن الذى يتولى حفظه وحمايته والدفاع عنه هو الملك ـ جل جلاله ـ.

وها نحن مع صحابى جليل قد امتلأ قلبه حبًا لله وتحركت جوارحه لنُصرة دين الله فتولى الله ـ جل وعلا ـ الدفاع عنه وحمايته بصورة لا تخطر على قلب بشر.

ولنبدأ القصة من بدايتها.

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها،وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة[1]... فكانت غزوة أُحد.

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، فكن يتجولن فى الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

وَيْهًا بنى عبد الدَّار   وَيْهًا حُماةَ الأدبارْ

ضربًا بكلِّ بَتَّار

وتارة يأزرن قومهن على القتال وينشدن:

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٢).

إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ　　　ونَفْرِشِ النَّمَارِق
أو تُدْبِرُوا نُفَارِقْ　　　فِراقَ غيرِ وَامِقِ(١)

ودارت رحى الحرب بين الفريقين وارتفعت الصيحات وتطايرت الرؤوس، وسالت الدماء فى أرض الشرف والقتال.

وسكتت الأفواه والألسنة، وتكلمت السيوف بل وصرخت على رؤوس أعداء الله ـ جل وعلا ـ.

ووضعت الحرب أوزارها فقامت (سُلافة بنت سعد) ـ وهى مشركة من نساء قريش ـ تبحث عن زوجها وأولادها الثلاثة، فجعلت تطوى الأرض بحثًا عنهم، إلى أن وجدت زوجها صريعًا، فقامت فى فزع وخوف تبحث عن أولادها (مُسافع وكلاب والجلاس)، فما لبثت أن رأتهم صرعى علىٰ سُفُوح أُحد.

أما مسافع وكلاب، فكانا قد فارقا الحياة، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء.

أكبّت سلافة على ابنها الذى يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه فى حجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبس الدمع فى عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهى تقول: مَن صرعك يا بنى؟ فهمّ أن يجيبها، ولكن حشرجة الموت منعته، فألحت عليه بالسؤال، فقال: صرعنى عاصم بن ثابت، وصرع أخى مسافعًا، و... ثم لفظ آخر أنفاسه.

جُن جنون سلافة بنت سعد، وجعلت تعول وتنشج، وأقسمت باللات والعُزّى ألا تهدأ لها لوعة، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم بن ثابت، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر(٢).

قال أبو جعفر الطبرى: وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة، وشاع خبر نذرها فى قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة، حتى كان يوم الرجيع فى السنة الرابعة من الهجرة.

* * *

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٢) صور من حياة الصحابة (ص: ٣٩٨).

بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه

يا لها من كلمات تجعل القلوب الحية المؤمنة تبكى شوقًا للقاء الله ـ جل وعلا ـ.

فلقد كان (عاصم) يقاتل وقلبه يحترق شوقًا للشهادة فى سبيل الله.

فعن الحسين بن السائب، قال: لما كانت ليلة العقبة أو ليلة بدر قال النبى ﷺ لمن معه، كيف تقاتلون؟ فقام عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، فأخذ القوس والنبل، وقال: إذا كان القوم قريبًا من مائتى ذراع كان الرَّمى، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف، فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا بالسيوف وكانت المجالدة، فقال النبى ﷺ: «هكذا نزلت الحرب، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم»[1].

فلما كان يوم الرجيع «بعث رسول الله ﷺ عشرةً عينًا وأمَّر عليهم عاصم ابن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدة بين عُسفان ومكة ذُكروا لحىّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ فاقتصوا آثارَهم حتى وجدوا مأكلهم التمر فى منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما حس بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى موضع فأحاط بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا. فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر. ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر...»[2].

تذكر عاصم نذر سلافة الذى نذرته، وجرّد سفيه وهو يقول: اللهم، إنى أحمى لدينك وأدافع عنه، فاحم لحمى وعظمى، ولا تُظفر بهما أحدًا من أعداء الله[3].

اللهم إنى حميت دينك أول النهار فاحم جسدى آخره. قال ابن إسحق: فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه لسلافة بنت سعد، فمنعته الدَّبْر[4]، فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسى فيذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادى فاحتمل

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٦١).
(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة (٣٩٨٩).
(٣) صور من حياة الصحابة (ص: ٤٠٠).
(٤) جماعة النحل والزنابير.

عاصمًا فذهب به. وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يمسّه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا.

فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمسّ مشركًا أبدًا فى حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع فى حياته(١).

والجزاء عند الله من جنس العمل.

يقول ابن سيد الناس فى المقامات العلية فى الكرامات الجلية: أعطى الله عهدًا أن لا يمسّ مشركًا.

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا عَنْ أن يُنالَ براحةٍ أو أصبعِ
بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه فى مصرعٍ أكرِمْ به من مصرعِ(٢)

أخذه السيل بعيدًا بعيدًا، ومضى به إلى حيث لا يعلمون.

وصان الله رأس عاصم الكريمة من أن يُشرب فى قحفها الخمر.

حمى دينه، فحُمى جسده.

لم يمسّ مشركًا فى دنياه، فلم يمسه مشرك بعد موته.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحابُ بئر معونة ثلاثين غداة على رعلٍ وذكوان وعُصيَّة عَصَت الله ورسوله. قال أنس: أُنزل فى الذين قُتلوا ببئر معونة قرآنٌ قرأناه ثم نُسخَ بعد: بلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه(٣).

فرضى الله عن (عاصم) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) البداية والنهاية (٣/ ٦٧).
(٢) المقامات العلية (ص ٧٢) نقلاً من الجزاء من جنس العمل (٢/ ٤٤).
(٣) أخرجه البخارى (٢٨١٤) ومسلم (٦٧٧).



اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه
وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً

محمد رسول الله ﷺ

وها نحن على موعدٍ مع صاحب القلب الرقيق... الزاهد العابد.

إنه (عبد الله بن قيس) المكنّى بـ«أبى موسى الأشعرى».

ذلكم الإمام الكبير صاحب رسول الله ﷺ الفقيه المقرئ.

وتبدأ قصته المباركة من أرض اليمن، حيث كان يعيش بين أهلها الذين وصفهم الحبيب ﷺ برقّة القلوب، فقال ﷺ: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ أفئدة وألين قلوبًا الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانيةٌ...»(١).

وفى رواية: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبًا وأرقُّ أفئدة الفقه يمانٍ والحكمة يمانية»(٢).

وكان ـ رضى الله عنه ـ على الرغم من حداثة سِنّه إلا أنه كان يُنكر على قومه عبادتهم لتلك الأصنام التى لا تنفع ولا تضر.

وكان يتمنى من أعماق قلبه أن تحدث معجزة لإنقاذ البشرية كلها من أوحال الشرك والوثنية إلى أنوار التوحيد والطاعة.. وسرعان ما تحققت أمنيته الغالية وكانت المعجزة السامية ببعثة الحبيب ﷺ .

وما إن سمع أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ ببعثة الحبيب ﷺ حتى حمل متاعه وأطلق لقدميه العنان، وهى تسابق الريح من أجل أن يظفر برؤية الحبيب ﷺ ويؤمن برسالته التى جاء بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الرحيم الغفور.

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٥٣).
(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٥٤).

وما إن وصل إلى مكة المكرمة ورأى النبى ﷺ حتى أسلم لله جل وعلا.

وفى الليلة التالية التقى عبد الله بن قيس ومعه عمه أبو عامر برسول الله ﷺ ثانيةً، وأقبل النبى ﷺ على أبى عامر، وكلَّمه بنحوِ ما كلَّم به عبد الله، وتلا عليه آيات من القرآن، فآمن سريعًا، وشهد شهادة الحق. وسُر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإسلام هذين الشابين اليمانيين، وامتدحهما على سبقهما لقومهما بالإسلام، ثم حدثهما عن دعوته، وكيف ابتدأت، وعن أصحابه، وما أصابهم فى سبيل الدعوة، وعن موقف قريش من هذه الدعوة، وحكى لهما قصة أصحابه الذين هاجروا فراراً بدينهم إلى الحبشة، وكيف أن قريشًا امتد إيذاؤها لهم إلى هناك، لكن الله ـ تعالى ـ أبطل مكرها، وحمى أصحابه، وأخبرهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن دينه لابد أن يظهر وتعتنقه العرب والعجم، ويمكّن الله له فى الأرض.

وانبسطت أسارير الشابين فرحًا وسروراً بما سمعا، وقالا للنبى ﷺ:

مُرْنا بأمرك يا رسول الله، إن شئتَ بقينا عندك، وتحملنا كما تحمل إخواننا، وإن شئت رجعنا إلى قومنا فدعوناهم إلى دينك، وإن شئت لحقنا بإخواننا فى الحبشة فكنا معهم، فأثنى عليهما النبى ﷺ خيراً، ثم أمرهما بالرجوع إلى قومهما، والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ حتى إذا ظهر أمره هاجرا إليه. وقال الشابان: سمعًا وطاعة يا رسول الله. ثم مكثا فى مكة عدة ليال، أقرأهما فيها النبى ﷺ عدداً من سور القرآن، وعلمهما الصلاة وأداءَها، ثم انطلقا راجعَين إلى اليمن، وقد فازا بأعظم ما فى الوجود: فازا بالإيمان واليقين والإسلام لله رب العالمين[(١)].

عاد أبو موسى إلى بلاده ـ اليمن ـ داعية إلى الله ـ جل وعلا ـ ليأخذ بأيدى الناس من حوله إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ.

وبعد فترة قضاها أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ فى اليمن يعلّم الناس كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.. تاقت نفسه لملازمة رسول الله ﷺ فحمل متاعه مرة أخرى وسافر إلى الحبيب ﷺ إثر فراغه من فتح خيبر ووافق قدومه قدوم «جعفر بن أبى طالب» ـ رضى الله عنه ـ وهو عائد من الحبشة هو وأصحابه فأسهم النبى ﷺ لهم جميعًا، وكان فرحًا بقدومهم أشد الفرح.

فعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: بلغنا مخرجُ رسول الله ونحن باليمن فخرجنا

---

(١) «أبو موسى الأشعرى» بقلم محمد على دولة (ص ١٥).

مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهما أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رُهْم ـ إما قال: فى بضع، وإما قال: فى ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً ـ من قومى فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا. وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا. فأقمنا معه حتى قَدِمْنَا جميعًا، فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال أعطانا منها وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى لأهل السفينة ـ نحن سبقناكم بالهجرة ـ فذكر الحديث ـ وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بى منكم وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»(١).

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقدمُ عليكم غداً قومٌ هم أرقُّ قلوبًا للإسلام منكم» فقدم الأشعريون؛ فلما دنوا جعلوا يرتجزون:

غــدًا نلقى الأحبة   محمــــدًا وحزبه

فلما أن قدموا تصافحوا، فكانوا أول من أحدث المصافحة(٢).

وعن عياض الأشعرى، قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٧]. قال رسول الله ﷺ: «هم قومك يا أبا موسى، وأومأ إليه»(٣).

ولازموا الحبيب ﷺ الذى أحبَّهم من كل قلبه لما رأى عليهم من كريم الفعال ورقة القلوب وصدْق الأقوال وانشغالهم ليلاً ونهارًا بعبادة الكبير المتعال، فكان يقول عنهم ﷺ: «إنى لأعرفُ أصواتَ رُفقة الأشعريين بالقرآن، حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم، بالقرآن بالليل. وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار(٤).

بل كان الحبيب ﷺ يثنى عليهم بين أصحابه ثناءً عظيمًا، فيقول: «إنَّ الأشعريين، إذا أرملوا فى الغزو، أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحدٍ، ثم اقتسموه بينهم فى إناءٍ واحدٍ، بالسوية. فهم منى وأنا منهم»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢) واللفظ له.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥، ٢٢٣) وابن سعد (٤/ ١٠٦).

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٠٧) وصححه الحاكم (٢/ ٣١٣) ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم (١٦٧) كتاب فضائل الصحابة.

أوسمة الشرف التى وضعها الحبيب ﷺ على صدره

وعاد أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ مرة أخرى ينهل من هذا النبع الصافى ويتعلم القرآن والسُنة بين يدى الحبيب ﷺ .

وكان أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ إذا قرأ القرآن بصوته تشعر وكأن الدنيا كلها تتمايل طربًا بصوته العذب الرخيم؛ حتى إن النبى ﷺ قال له ذات مرة: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»(١).

وقال أبو عثمان النهدى: ما سمعت مزماراً ولا طُنبوراً ولا صنجًا أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى؛ إن كان ليصلى بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة، من حُسن صوته(٢).

قال أبو سلمة: وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لأبى موسى وهو جالس فى المجلس: يا أبا موسى ذكِّرنا ربنا فيقرأ عنده أبو موسى وهو جالس فى المجلس ويتلاحن(٣).

بل يشهد له النبى ﷺ بأنه مؤمنٌ منيب.

فعن ابن بُريدة عن أبيه، قال: خرجتُ ليلة من المسجد، فإذا النبى ﷺ عند باب المسجد قائم، وإذا رجلٌ يصلى، فقال لى: «يا بريدة، أتراه يُرائى»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «بل هو مؤمن منيب، لقد أُعطى مزماراً من مزامير آل داود». فأتيته، فإذا هو أبو موسى؛ فأخبرته(٤).

وها هن أزواج النبى ﷺ يستمعن لصوته ـ رضى الله عنه ـ.

فعن أنس: أنَّ أبا موسى كان حُلو الصوت، فقام ليلة يصلى، فسمع أزواجُ النبى ﷺ ، فقُمن يستمعن. فلما أصبح، قيل له: إن النساء سمعنك. قال: لو علمتُ لحبَّرتُكنَّ تحبيراً، ولشوَّقتُكن تشويقًا(٥).

---

(١) رواه الترمذى عن أبى موسى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٣١).
(٢) رواه ابن عساكر (٥٢٧) ـ نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٩٢).
(٣) أخرجه ابن حبان (موارد الظمآن ٢٢٦٤) وله شاهد عند ابن سعد (٤/ ١/ ٨١) قال الأرنؤوط: ورجاله ثقات.
(٤) أخرجه مسلم (٧٩٣) وابن عساكر (٤٦٩، ٤٧٠).
(٥) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: وهو فى الطبقات (٤/ ١٠٨) واقتبسه ابن عساكر (٤٨١).

وأبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ معدودٌ فيمن قرأ على النبى ﷺ ، ... ولقد استعمله النبى ﷺ ومُعاذًا على زبيد وعدن فأرسلهما إلى بلاد اليمن.

وكان أبو موسى يحب القرآن حبًا ملَكَ عليه لبَّه وفؤاده وجوارحه حتى إنه كان يقرأه فى كل وقت وحين.

عن أبى موسى أن النبى ﷺ لما بعثه ومعاذًا إلى اليمن، قال لهما: «يَسِّرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تُنفرا»، فقال له أبو موسى: إن لنا بأرضنا شرابًا، يُصنعُ من العسل يقال له: البتْعُ، ومن الشعير يقال له: المِزْرُ، قال: «كلُّ مسكر حرام»، فقال لى معاذ: كيف تقرأ القرآن؟ قلت: أقرأه فى صلاتى، وعلى راحلتى، وقائمًا وقاعدًا، أتفوقُه تفوقًا، يعنى شيئًا بعد شىء، قال: فقال معاذ: لكنى أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتى كما أحتسب قَومتى، قال: وكأن معاذًا فُضِّل عليه[١].

وعن أبى موسى الأشعرى، قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر، وكان القوم يصعدون ثنية أو عقبة، فإذا صعد الرجل قال: لا إله إلا الله، والله أكبر ـ أحسبه قال: بأعلى صوته ـ ورسول الله ﷺ على بغلته يعترضها فى الجبل، فقال: «أيها الناسُ، إنكم لا تُنادون أصمَّ ولا غائبًا». ثم قال: «يا عبد الله ابن قيس ـ أو يا أبا موسى ـ ألا أدلُّك على كلمة من كُنُوز الجنة»؟ قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «قل: لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

وكان أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ ممن زيّنهم الله بزينة الحياء.

فعن أبى مِجلز: أنَّ أبا موسى قال: إنى لأغتسلُ فى البيت المظلم، فأحنى ظهرى حياءً من ربى[٣]... بل لقد كان ـ رضى الله عنه ـ إذا نام لبس ثيابًا عند النوم مخافة أن تنكشف عورته.

وظل ملازمًا للحبيب ﷺ حتى كان ليظفر بالخير الكثير لقُربه من النبى ﷺ.

عن أبى موسى، قال: كنتُ عند رسول الله ﷺ بالجعرانة، فأتى أعرابى فقال: ألا تُنجزُ لى ما وعدتنى؟ قال: «أبشر». قال: قد أكثرت من البشرى، فأقبل رسول الله علىَّ وعلى بلال، فقال: «إنَّ هذا قد ردَّ البشرى فاقبلا أنتما: فقالا: قبلنا يا رسول الله. فدعا بقدح، فغسَّل يديه ووجهه فيه، ومَجَّ فيه ـ ردَّ الماء فيه ـ ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على

(١) أخرجه البخارى (٤٣٤٤) (٤٣٤٥) المغازى ـ ومسلم (١٧٣٣) الأشربة.

(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٣٦٣) المغازى (١١/ ١٥٩) الدعوات ـ ومسلم (٢٧٠٤) الذكر والدعاء.

(٣) ابن سعد (٤/ ١١٣، ١١٤) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٤٠١).

رؤوسكما ونُحُوركما» ففعلا! فنادت أمُّ سلمة من وراء الستر: أن فَضِّلا لأمكما. فأفضلا لها منه(١).

وظل أبو موسى موضع ثقة الرسول ﷺ وحُبه طوال فترة حياته إلى أن توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وحزن أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ على فقد الحبيب حُزنًا عظيمًا وعاش فترة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ.

وكانوا جميعًا يعرفون له قدره ومنزلته العالية التى يستحقها بشهادة الحبيب ﷺ له.

مكانته فى قلوب الصحابة (رضى الله عنهم) ومَنْ بعدهم

عن أبى البخترى، قال: أتينا عليًا، فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ . قال: عن أيِّهم تسألونى؟ قلنا: عن ابن مسعود. قال: عَلِم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى به علمًا. قلنا: أبو موسى؟ قال: صُبِغ فى العلم صبغة، ثم خرج منه....»(٢).

وعن الأسود بن يزيد قال: لم أرَ بالكوفة أعلم من عليٍّ وأبى موسى»(٣).

وكان أبو موسى فقيهًا ذكيًا يتألق روعة وجمالاً وبهاءً وعدلاً فى الإفتاء والقضاء.

قال مسروق: كان القضاء فى الصحابة إلى ستة: عمر، وعليّ، وابن مسعود، وأُبيٌّ، وزيد، وأبى موسى(٤).

وعن الشعبى قال: قُضاةُ الأمة: عمر، وعليّ، وزيدٌ، وأبو موسى(٥).

وعن صفوان بن سُليم، قال: لم يكن يُفتى فى المسجد زمن رسول الله ﷺ ، غيرُ هؤلاء: عمر، وعلى، ومعاذ، وأبى موسى(٦).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: بعثنى الأشعريُّ إلى عمر، فقال لى: كيف تركْتَ

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٣٧) ـ ومسلم (٢٤٩٧) وابن عساكر (٤٦٦، ٤٦٧).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الفسوى فى تاريخه (٢/ ٥٤٠).

(٣) ابن عساكر (٤٩٩) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٨٨).

(٤) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أبو زرعة فى تاريخ دمشق (١٩٢٢) وابن عساكر (٥٠٠).

(٥) ابن عساكر (٥٠١) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٨٩).

(٦) ابن عساكر (٥٠٢) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٨٩).

الأشعرى؟ قلتُ: تركته يُعَلِّم الناس القرآن. فقال: أما إنه كَيِّس! ولا تُسمعها إياه[١].

ولقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يعرف لأبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قدره ويثق به ثقة لا يعلمها إلا الله.

فعن الشعبى قال: كتب عمر فى وصيته: ألا يقرَّ عاملٌ أكثر من سنة، وأقروا الأشعرىَّ أربع سنين[٢].

فيا لها من ثقة غالية وضعها عمر ـ رضى الله عنه ـ عند من يستحقها.

فلقد ولاه عمر ـ رضى الله عنه ـ البصرة، وولاه عثمان ـ رضى الله عنه ـ الكوفة.

صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله تعالى

وعلى الرغم من تلك الرقة التى كانت فى قلبه والحياء الذى اكتسى به قلبًا وقالبًا، إلا أنه كان إذا حمى الوطيس وسكتت الألسنة، وصرخت السيوف فوق الرؤوس... كان هو الفارس المغوار الذى يبحث عن الشهادة فى مظانها، وكأنه يبحث عن نصفه الآخر.

يوم أوطاس وفوزه بدعاء النبى ﷺ له

عن أبى موسى قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من حُنين، بعث أبا عامر الأشعرى على جيش أوطاس، فلقى دُريدَ بن الصِّمَّة، فقُتل دُريدٌ، وهزم الله أصحابه؛ فرمى رجلٌ أبا عامر فى ركبته بسهم، فأثبته. فقلتُ: يا عم، من رماك؟ فأشار إليه. فقصدتُ له، فلحقته، فلما رآنى، ولَّى ذاهبًا. فجعلت أقول له: ألا تستحى؟ ألست عربيًا؟ ألا تثبت؟ قال: فكفَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين، فقتلته، ثم رجعتُ إلى أبى عامر، فقلتُ: قد قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم. فنزعتُه، فنزا منه الماءُ. فقال: يا ابن أخى، انطلق إلى رسول الله ﷺ، فأقره منى السلام، وقل له: يستغفر لى. واستخلفنى أبو عامر على الناس، فمكث يسيرًا، ثم مات. فلما قدمنا، وأخبرتُ النبى ﷺ، توضأ، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهمَّ اغفر لعبيدك أبى عامر»، حتى رأيت بياض إبطيه. ثم قال: «اللهم اجعلهُ يوم القيامة فوق كثير من خلقك»، فقلت: ولى يا رسول الله؟ ـ أى ادعو لى ـ فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريمًا»[٣].

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٤/ ١٠٨) ـ وتاريخ ابن عساكر (٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) ابن عساكر (٥٢٢) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٩١).

(٣) أخرجه البخارى (٨/ ٣٤) المغازى ـ ومسلم (٢٤٩٨) فضائل الصحابة.

فتح أصبهان

ولقد حدث والمسلمون يفتحون بلاد فارس أن هبط الأشعرى بجيشه على أهل أصبهان الذين صالحوه على الجزية فصالحهم..

بيد أنهم فى صُلحهم ذاك لم يكونوا صادقين.. إنما أرادوا أن يهيئوا لأنفسهم فرصة الإعداد لضربة غادرة..

ولكن فطنة «أبى موسى» التى لا تغيب فى مواطن الحاجة إليها كانت تستشفُّ أمرَ أولئك وما يُبيّتون.. فلما همُّوا بضربتهم لم يؤخذ القائد على غِرَّة، وهنالك بارزَهُم القتال فلم ينتصف النهار حتى كان قد انتصر انتصاراً باهراً..!![1]

وقال ابن إسحاق: سار أبو موسى من نهاوند، ففتح أصبهان سنة ثلاث وعشرين[2].

وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية: والصحيح أن الذى فتح أصبهان (عبد الله ابن عبد الله بن عتبان) الذى كان نائب الكوفة وفيها افتتح أبو موسى (قم وقاشان) وافتتح سهيل بن عدى (مدينة كرمان)[3].

فالله تعالى أعلم.

وفى المعارك التى خاضها المسلمون ضد إمبراطورية الفرس، كان «لأبى موسى الأشعرى» ـ رضى الله عنه ـ بلاؤه العظيم وجهاده الكريم.

موقعة «تستر»

وفى تلك الموقعة التى انسحب الهُرمزان بجيشه إليها وتحصَّن بها وحشد فيها خلقًا كثيراً، فأرسل «عمر ابن الخطاب» «أبى موسى الأشعرى» ـ رضى الله عنهما ـ وأمدَّه بأعداد هائلة من المسلمين، فحاصرهم أشهراً وكثر القتل من الفريقين، وقَتل البراء بن مالك أخو أنس بن مالك يومئذ مائةَ مبارز سوى من قتل غير ذلك، حتى إذا كان فى آخر زحف قال المسلمون للبراء بن مالك ـ وكان مجاب الدعوة ـ: يا براء أقسِم على ربك ليهزمنّهم لنا. فقال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدنى قال: فهزمهم المسلمون حتى

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٧٤٧).

(٢) ابن عساكر (٥١٧).

(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١١٤).

أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به، وقد ضاقت بهم البلد، وطلب رجل من أهل البلد الأمان من أبى موسى فأمَّنه، فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد، وهو من مدخل الماء إليها، فندب الأمراء الناس إلى ذلك فانتدب رجال من الشجعان والأبطال، وجاؤوا فدخلوا مع الماء - كالبط - إلى البلد، وذلك فى الليل، فيقال كان أول من دخلها عبد الله بن مغفل المزنى، وجاؤوا إلى البوابين فأناموهم وفتحوا الأبواب، وكبَّر المسلمون فدخلوا البلد[1].

اعتزاله الفتنة (رضى الله عنه)

وعلى الرغم من شجاعته وإقدامه حينما يقاتل أهل الشرك والكفر، إلا أنه عندما حدثت الفتنة بين (علىّ) و(معاوية) - رضى الله عنهما - اعتزل تلك الفتنة، ولم يقاتل مع هذا ولا ذاك.

عن أبى بُردة، عن أبى موسى: أن معاوية كتب إليه: أما بعد: فإن عمرو ابن العاص قد بايعنى على ما أُريد، وأُقسم بالله، لئن بايعتنى على الذى بايعنى، لأستعملنَّ أحد ابنيك على الكوفة، والآخر على البصرة؛ ولا يُغلقُ دونك باب، ولا تُقضى دونك حاجة. وقد كتبتُ إليك بخطى، فاكتبْ إلىَّ بخطِّ يدك.

فكتب إليه: أما بعد: فإنك كتبت إلىَّ فى جسيم أمر الأمة، فماذا أقولُ لربى إذا قَدِمْتُ عليه، ليس لى فيما عرضت من حاجة، والسلام عليك.

قال أبو بردة - ابن أبى موسى -: فلما ولى معاوية أتيته، فما أغلق دونى بابًا، ولا كانت لى حاجة إلا قُضيت[2]. وهذا من كرم أخلاق معاوية - رضى الله عنه - الذى أساء إليه كثير من المسلمين - فرضى الله عنه وأرضاه وعن سائر الصحابة أجمعين -.

قال الإمام الذهبى - رحمه الله - قلت: قد كان أبو موسى صوَّامًا قوَّامًا ربَّانيًا زاهدًا عابدًا، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر، لم تُغيِّره الإمارة، ولا اغتر بالدنيا[3].

ولقد أُسندت إليه وإلى عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قضية التحكيم بين

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ٨٨) بتصرف.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن عساكر (٥٤١، ٥٤٢) وابن سعد (٤/ ١١١، ١١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٢/ ٣٩٦).

(علىّ) و(معاوية) ـ رضى الله عنهما ـ.

فاللهم ارض عن أصحاب النبى ﷺ فإنهم ما أرادوا الدنيا، وإنما اجتهدوا فى الرأى، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ... ونحن والله نحبهم جميعًا، ونسأل الله بأسمائه الحُسنى وصفاته العليا أن يجمعنا بهم فى جنته ومستقر رحمته.

وحان وقت الرحيل

عن موسى الطلحى قال: اجتهد الأشعرى قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسك؟ قال: إنَّ الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها.. والذى بقى من أجلى أقلَّ من ذلك[1].

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهاد نام أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت،وهو يتذكر نشيده الخالد الذى لقى به النبى ﷺ حين قدم عليه مع إخوانه، وهم يقولون جميعًا على قلبِ رجلٍ واحدٍ:

غـــدًا نلقى الأحبة   محمـــــدًا وحِزبه

وفاضت روحه إلى بارئها ـ جل جلاله ـ.

حفظ الله لذريته

عن أبى بُردة ـ ابن أبى موسى ـ قال: دخلت على معاوية حين أصابته قرحتُه، فقال: هَلُمَّ يا ابن أخى، فنظرتُ، فإذا هو قد سُبِرَتْ ـ يعنى: قرحته ـ فقلتُ: ليس عليك بأس. إذ دخل ابنه يزيد، فقال له معاويةُ: إن ولِيتَ، فاستوص بهذا؛ فإنَّ أباه كان أخًا لى، أو خليلاً، غير أنى قد رأيتُ فى القتال ما لم ير[2].

وهكذا يحفظ اللهُ العبد المؤمن فى أبنائه، بل وفى أحفاده ـ إذا كان عمله صالحًا ولوجه الله خالصًا ـ.

فرضى الله عن أبى موسى وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) ابن عساكر (٥٣٤) نقلاً من السير للذهبى (٢/ ٣٩٣).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٤/ ١١٢).



عثمان بن مظعون

سالت دموع النبى ﷺ على خده بعد موته

وكان أول من دُفن بالبقيع

هنيئًا هنيئًا لهؤلاء الصحب الكرام الذين تمتعوا برؤية الحبيب ﷺ وصحبته.

تالله لو كان أحدنا رأى النبى ﷺ لحظة واحدة لما استطاع أن يتخيل أو يتصور كيف تكون الحياة بعيداً عنه.

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور صفحة من صفحات الصدق التى نقلّبها بين الحين والحين حتى لا يدبّ اليأس ويخيِّم على قلوبنا ونحن نعيش زمانًا أصبح الكذب فيه كأنه سماء لأرض حياتنا.

دعونا نفتح تلك الصفحة لينفتح معها القلب فيسعد وينشرح ويسكنه النور الذى لطالما تمنينا أن نقترب منه لنكون ممن قال الله فيهم: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

إنه الصحابى الجليل عثمان بن مظعون من سادة المهاجرين، ومن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم فى حياة نبيهم فصلّى عليهم، وكان أبو السائب ـ رضى الله عنه ـ أول من دُفن بالبقيع[١].

كان إلى الاستجابة لله سابقًا وبمعالى الأحوال لاحقًا وفى العبادة ناسكًا لم تنقصه الدنيا ولم تَحُل بينه وبين معالى الأمور.

أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وهاجر إلى الحبشة الهجرتين وحرم الخمر فى الجاهلية وقال: لا أشرب شيئًا يُذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى، ويحملنى على أن أُنكح كريمتى من لا أريد.

---

(١) الاستيعاب (٨/ ٦٣) والإصابة (٦/ ٣٩٥).

وشهد بدرًا وكان متعبدًا. توفى فى شعبان على رأس ثلاثين شهرًا من الهجرة وقبّل النبى ﷺ خده وسماه «السلف الصالح»(١).

الهجرة إلى الحبشة

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»(٢). فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

وكان أميرهم عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ وجلس عثمان يتذكر تلك الذكريات المؤلمة من الاضطهاد الذى عاشوه فى مكة، وبخاصة من ابن عمه «أمية بن خلف».

فقام عثمان بن مظعون يُعاتب أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح وهو ابن عمه، وكان يؤذيه فى إسلامه، وكان أميةُ شريفًا فى قومه فى زمانه ذلك:

أتيمَ بن عمرو للذى جـاء بغضةً ... ومن دونه الشرَّمـانِ والبركُ أكتعُ(٣)

أأخرجتنى مـن بطنِ مكـةَ آمنًا ... وأسكنتنى فى صرحِ بيضاءَ تقذَعُ(٤)

تريشُ نبالاً لا يُواتيـكَ ريشهَا ... وتبرى نبالاً ريشُهَا لكَ أجمعُ(٥)

وحـاربتَ أقـوامًا كِـرامًا أعـزَّةً ... وأهلكتَ أقوامًا بهم كُنتَ تفزَعُ(٦)

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٨٥).

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد، وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق ـ نقلاً من السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٦).

(٣) الشرم: لجة البحر. وقيل: موضع فيه. وقيل: هو أبعد قعره والشروم غمرات البحر وأحدها شرم. [لسان مادة/ شرم] البَرك: قيل: هو جماعة الإبل الباركة. وقيل: هو اسم موضع.

(٤) الصرح: العالى المرتفع من الأبنية. تقذع: تذم.

(٥) تريش: وهو مضارع راش وبالفتح هو مصدر من راشه يرشه ريشًا. إذا نفخه وجبره.

(٦) تفزع: تغيث وتنصره.

ستعلمُ إن نابتكَ يومًا مُلِمَّـةٌ ... وأسلمكَ الأوباشُ ما كُنتَ تصنعُ(١)

وعاش المهاجرون في بلاد الحبشة آمنين مطمئنين يعبدون الله ويحمدونه على نعمة العافية في جوار هذا الملك العادل.

حدث لم يكن في الحسبان

وفي يوم من الأيام يدخل الحبيب ﷺ بيت الله الحرام ويصلي ويقرأ سورة النجم، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٥٧:٦٢].

سجد النبي ﷺ وسجد خلفه أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وسجد المشركون خلف النبي وأصحابه فظن مَن رآهم أن قريشًا قد أسلمت لله ـ جل وعلا ـ فأرسلوا إلى مهاجري الحبشة ليعودوا مرة أخرى إلى مكة آمنين.

وبلغ أصحابَ رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلامُ أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مُستخفيًا(٢).

لا أرضى إلا بجوار الله

ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة.

لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهم في مكة، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوّي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء ما لا يصيبني، لنقصٌ كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفَّت ذمتك، قد رددتُ إليك جوارك. قال: لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله ـ عز وجل ـ ولا أريد أن أستجير بغيره.

(١) الأوباش: هم الضعفاء والداخلون في القوم وليسوا منهم والأوباش من الناس الأخلاط وقيل الضروب المتفرقون.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣٠٠).

قال: فانطلق إلى المسجد، (أى المسجد الحرام)، فاردُد علىَّ جوارى علانية كما أجرتُك علانيةً.

قال: فانطلقنا ثم خرجنا حتى أتينا المسجد، فقال لهم الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ علىّ جوارى. قال: قد صدق، وقد وجدتُه وفيًا كريم الجوار، ولكنى قد أحببتُ أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره. ثم انصرف عثمان، ولبيدُ بن ربيعة فى مجلس من مجالس قريش يُنشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد وهو ينشدهم:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت. فقال لبيد:

وكـلُّ نعيمٍ لا محـــالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذَى جليسكم، فمتى حدث فيكم هذا؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فى سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدنَّ فى نفسك من قوله.

فردَّ عليه عثمان حتى شرىَ أمرهما. فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضَّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ.

فقال: أما والله يا ابن أخى، إن كانت عينك عمَّا أصابها لغَنيَّة، لقد كنت فى ذمّة منيعة.

فقال عثمان: بلى والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله، وإنى فى جوار مَن هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلمّ يا ابن أخى إلى جوارك فعُد. قال: لا[1].

وهكذا تظهر العقيدة على أرض الواقع صافية نقية لا تزعزعها الأعاصير ولا تعصف بها الفتن والمحن فأصلها ثابت وفرعها فى السماء.

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٩٠).

الهجرة إلى المدينة المنورة

وبعدما لاقى عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - من الاضطهاد والعذاب ما لا يعلمه إلا الله (شأنه فى ذلك شأن باقى الصحابة - رضى الله عنهم -) هاجر إلى المدينة المنورة فى رحاب إخوانه من الأنصار الذين فتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم، بل ووضعوا المهاجرين فى عيونهم وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم حتى من نسيم الهواء، ورغبة فى رضى رب الأرض والسماء.

وما إن دخل المدينة المنورة حتى تفجّرت ينابيع الطاعة والعبادة والزهد حتى إنه كان يشق على نفسه وعلى أهله من كثرة التفرغ للعبادة.

فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: دخلت امرأة عثمان بن مظعون، واسمها خولة بنت حكيم، على عائشة وهى باذّة الهيئة، فسألتُها: ما شأنك؟ فقالت: زوجى يقوم الليل ويصوم النهار، فدخل النبى ﷺ فذكرت ذلك له عائشة، فلقى النبى ﷺ فقال: «يا عثمان! إن الرهبانية لم تُكتب علينا، أما لك فىَّ أسوة؟ فوالله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده»[1].

لقد ملأت العبادة عليه حياته حتى إنه لم يعد يفكر فى أى شىء من زينة الدنيا.

قال سعيد بن المسيب: سمعت سعدًا يقول: ردَّ رسولُ الله ﷺ على عثمان ابن مظعون التبتُّل، ولو أذِن له لاختصينا[2].

وحان وقت الرحيل

وبعد رحلة طويلة مملوءة بالعطاء والطاعة والعبادة نام هذا الصحابى الجليل على فراش الموت.

فعن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء - امرأة من نسائهم بايعت النبى ﷺ - أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم فى السكنى حيث اقترعت الأنصار على سُكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا فمرَّضته حتى تُوفى، وجعلناه فى أثوابه فدخل علينا النبى ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب (عثمان بن مظعون) شهادتى

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٢٨٧) وعبد الرزاق (١٠٣٧٥) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٧٣) ومسلم (١٤٠٢) النكاح.

عليك لقد أكرمك الله. فقال النبى ﷺ «وما يُدريك أن الله أكرمه؟» قالت: قلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى يا رسول الله فمن؟ قال: «أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إنى لأرجو له الخير، وما أدرى والله ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بى». قالت: فوالله لا أزكِّى أحدًا بعده قالت: فأحزننى ذلك فنمت فرأيت لعثمان عينًا تجرى فجئت رسول الله ﷺ وأخبرته فقال: «ذلك عمله»(١).

بل لقد فاز هذا الصحابى الجليل بمنقبة عظيمة ألا وهى أن النبى ﷺ قبَّله وسالت دموعه على خده.

فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت، ودموعه تسيل على خدِّ عثمان بن مظعون(٢).

وعن أبى النضر قال: لما مُرَّ بجنازة عثمان بن مظعون قال رسول الله: «ذهبت ولم تلبَّس منها بشىء»(٣) ـ أى من الدنيا ـ.

وعن المطلب بن عبد الله قال: لما دفن النبى ﷺ عثمان بن مظعون، قال لرجل: هلمَّ تلك الصخرة، فاجعلها عند قبر أخى، أعرفه بها، أدفن إليه مَن دفنت من أهلى، فقام الرجل فلم يُطقها، فقال ـ يعنى الذى حدثه ـ:فلكأنى أنظر إلى بياض ساعدىْ رسول الله ﷺ حين احتملها، حتى وضعها عند قبره(٤).

وظل الحبيب ﷺ يذكر عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ ولا ينساه أبدًا... وكيف ينساه وهو الذى جرت دموعه على خده يوم موته حزنًا عليه.

فلما ماتت بنتُ رسول الله ﷺ قال لها: «الحقى بسلفنا الخيِّر عثمان بن مظعون»(٥).

فرضى الله عن عثمان وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٢٩) وأحمد (٦/ ٤٣٦).

(٢) رواه الترمذى (٩٨٩) وقال: حديث صحيح. وأحمد (٦/ ٤٣). وهو حسن بشاهده عند البزار.

(٣) أخرجه مالك ص ١٦٦ فى الجنائز مرسلاً: باب جامع الجنائز، برقم (٥٦)، ومن طريقه ابن سعد (٣/ ١/ ٢٨٩). وقال الزرقانى: وصله ابن عبد البر من طريق: يحيى بن سعيد، عن القاسم عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود (٣٢٠٦) الجنائز ـ والبيهقى (٣/ ٤١٢) وسنده حسن لكنه مرسل ـ كما قال الذهبى ـ وأخرجه ابن ماجه (١٥٦١) وحسن إسناده البوصيرى فى الزوائد.

(٥) رواه أحمد (١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨) وابن سعد (٣/ ١/ ٢٩٠) والحاكم (٣/ ١٩٠) وسكت عنه، وقال الذهبى: سنده صالح.

أبو الدرداء

حكيم هذه الأمة

إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يسلم

محمد رسول الله ﷺ

إنه الإمام القدوة قاضي دمشق وصاحب رسول الله ﷺ .

أبو الدرداء حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشق.

وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ .

وتصدَّر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان، وقبل ذلك.

إسلامه

كان أبو الدرداء تربطه بعبد الله بن رواحة (في الجاهلية) صداقة ومحبة فقد كانا متآخيين في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اعتنقه عبد الله بن رواحة وأعرض عنه أبو الدرداء.

وتمر الأيام والليالي وما زال أبو الدرداء على الشرك.

وفي يومٍ من الأيام خرج أبو الدرداء كعادته إلى متجره وأخذ يبيع ويشتري ثم عاد إلى منزله وهو في غاية الاشتياق لرؤية إلهه (الصنم) الذي كان يعبده، وإذا به يجد مفاجأة لم تخطر بباله أبدًا.

فلقد دخل بيته - وهو غائب عنه - عبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة فكسرا صنمه، فرجع يجمعُ الصنم، ويقول: ويحك! هلا امتنعتَ! ألا دفعت عن نفسك. فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفعُ عن أحد، دفع عن نفسه، ونفعها!

فقال أبو الدرداء: أعدِّي لي ماء في المغتسل. فاغتسل، ولبس حُلته، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فنظر إليه ابن رواحة مُقبلاً، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا

جاء في طلبنا؟ فقال: «إنما جاء ليُسلمَ، إنَّ ربي وعدني بأبي الدرداء أن يُسلم»(١).

ومنذ أن أشرقت شمس الإسلام في قلب أبي الدرداء لم تغب عنه لحظة واحدة، فقد كان يعيش الإسلام قلبًا وقالبًا... لقد كان يترجم آيات القرآن إلى واقعٍ عملي منظور يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

قال سعيد بن عبد العزيز: أسلم أبو الدرداء يوم بدر، ثم شهد أُحدًا، وأمره رسول الله ﷺ يومئذ أن يرد مَن على الجبل، فردَّهم وحده.

وكان قد تأخر إسلامه قليلاً(٢).

زهده في الدنيا

قيل لأبي الدرداء: مالك لا تُشعر فإنه ليس رجل له بيت في الأنصار إلا وقد قال شعرًا؟ قال وأنا قد قلت فاسمعوا:

يريد المرء أن يُعطَى مُنَاه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

ولم يكن هذا مجرد كلام ليس له نصيب على أرض الواقع، بل كان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يتعايش مع تلك الكلمات قلبًا وقالبًا، فانصرف إلى عبادة الله وأقبل على العلم والعمل حتى إنه كان تاجرًا كبيرًا فأحس أن التجارة ستشغله عن طاعة ربه فتركها.

قال أبو الدرداء: كنتُ تاجرًا قبل المبعث، فلما جاء الإسلام، جمعتُ التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمتُ العبادة(٣).

قال الإمام الذهبي: قلت: الأفضل جمعُ الأمرين مع الجهاد، وهذا الذي قاله، هو طريقَ جماعة من السلف والصوفية، ولا ريب أن أمزجة الناس تختلف في ذلك، فبعضهم يقوى على الجمع، كالصدِّيق، وعبد الرحمن بن عوف، وكما كان ابن المبارك؛ وبعضهم يعجزُ، ويقتصرُ على العبادة، وبعضهم يقوى في بدايته، ثم يعجزُ، وبالعكس؛ وكلٌ سائغ.

(١) أخرجه ابن عساكر (١٣/ ٣٦٩/ ٢) وانظر المستدرك (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٢) ابن عساكر (١٣/ ٣٧٠/ ١).

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٦٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

ولكن لابد من النهضة بحقوق الزوجة والعيال[١].

بل لقد انشغل بالعبادة حتى نسى حظ نفسه من كل متاع الدنيا، ونسى حظ زوجه (أم الدرداء) فلقد كان النبي ﷺ آخى بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء؛ فجاءه سلمان يزوره، فإذا أم الدرداء مُتبذلة، فقال: ما شأنُك؟ قالت: إن أخاك لا حاجة له فى الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار. فجاء أبو الدرداءَ، فرحَّب به، وقرَّب إليه طعامًا. فقال له سلمان: كُل. قال: إنى صائم. قال: أقسمت عليك لتُفطرنَّ. فأكل معه. ثم بات عنده، فلما كان من الليل، أراد أبو الدرداء أن يقوم، فمنعه سلمانُ وقال: إنَّ لجسدك عليك حقًا. ولربك عليك حقًا. ولأهلك عليك حقًا؛ صُم وأفطر، وائت أهلك، وأعط كل ذى حقٍّ حقه.

فلما كان وجه الصبح، قال: قُم الآن إن شئت؛ فقاما فتوضآ، ثم ركعا، ثم خرجا إلى الصلاة، فدنا أبو الدرداء ليُخبر رسول الله بالذى أمره سلمان. فقال له: «يا أبا الدرداء، إنَّ لجسدك عليك حقًا، مثل ما قال لك سلمان»[٢].

وعن محمد بن كعب: أن ناسًا نزلوا على أبى الدرداء ليلة قرة ـ باردة ـ فأرسل إليهم بطعامٍ سخن ولم يرسل إليهم باللحف. فقال بعضهم: لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر لا أنتهى أو أبين له. قال الآخر: دعه. فأبى فجاء حتى وقف على الباب رآه جالسًا وامرأته معه. فرجع الرجل وقال: ما أراك بتَّ إلا بنحو ما بتنا به. قال: إن لنا دارًا ننتقل إليها قدَّمنا فرشنا ولحفنا إليها لو ألفيت عندنا منه شيئًا لأرسلنا إليك به، وإن بين أيدينا عقبة كؤودًا المُخفّ فيها خير من المثقل.. أفهمت ما أقول لك؟ قال: نعم[٣].

كلمات تتألق روعة وجمالاً

لقد كان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ حكيم هذه الأمة ـ ولذلك فإننى أُهدى لحضراتكم باقة عطرة من كلماته التى يجب أن تُنقش على صفحات القلوب بماء الذهب.

عن عون بن عبد الله قال: قلتُ لأم الدرداء: أىُّ عبادة أبى الدرداء كانت أكثر؟

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٣٣٨).
(٢) أخرجه البخارى (٤/ ١٨٢، ١٨٤) الصوم.
(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

قالت: التفكر والاعتبار.

وعن أبى الدرداء: تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة.

وقيل لأبى الدرداء ـ وكان لا يفترُ من الذِّكر ـ: كم تسبِّح فى كل يوم؟ قال: مئة ألف، إلا أن تُخطئ الأصابع.

وقال ـ رضى الله عنه ـ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدَّ مقتًا».

وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقًا لا شوك فيه فأصبحوا شوكًا لا ورقة فيه، إن نقدتهم نقدوك وإن تركتهم لا يتركوك. قالوا: فكيف نصنع؟ قال: تُقرضهم من عرضك ليوم فقرك.

وجاء رجل إلى أبى الدرداء فقال: أوصنى. قال: اذكر الله فى السراء يذكُرك فى الضراء؛ وإذا ذكرت الموتى، فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسك على شىء من الدنيا، فانظر إلى ما يصير.

وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مُخلد: سلامٌ عليك. أما بعد، فإنَّ العبد إذا عمل بمعصية الله، أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغَّضه إلى عباده.

وقال أبو وائل، عن أبى الدرداء: إنى لآمركم بالأمر وما أفعله، ولكن لعل الله يأجُرُنى فيه.

وقال أبو الدرداء: مالى أرى عُلماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلمون! تعلَّموا، فإن العالم والمتعلم شريكان فى الأجر.

وقال أبو الدرداء: لن تكون عالمًا حتى تكون متعلمًا، ولن تكونُ متعلمًا حتى تكون بما علمت عاملاً؛ إن أخوف ما أخاف إذا وُقفتُ للحساب أن يُقال لى: ما عملت فيما علمت؟

وقال أبو الدرداء: ويل للذى لا يعلمُ مرة، وويل للذى يعلمُ ولا يعمل سبع مرات.

قال أبو الدرداء: لو أُنسيتُ آيةً لم أجد أحدًا يُذكِّرنيها إلا رجلاً ببرك الغماد، رحلت إليه.

وعن شرحبيل، أن أبا الدرداء كان إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، وروحوا فإنا غادون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، كفى بالموت واعظًا، يذهب الأول فالأول

ويبقى الآخر لا حلم له.

وكان أبو الدرداء يقول: اللهم إنى أعوذ بك من تفرقة القلب، قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يوضع فى كل وادٍ مال.

وعن أبى الدرداء قال: استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

وعن أبى الدرداء، قال: لولا ثلاثٌ ما أحببتُ البقاء: ساعةُ ظمأ الهواجر، والسجودُ فى الليل، ومجالسةُ أقوام ينتقون جيد الكلام كما يُنتقى أطايبُ الثمر(١).

مكانته فى قلوب الصحابة (رضى الله عنهم)

ولقد احتل أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ مكانة سامية فى قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.

فعن مكحول: كان الصحابة يقولون: أرحمُنا بنا أبو بكر؛ وأنطقُنا بالحق عمر، وأمينُنا أبو عبيدة؛ وأعلمُنا بالحرام والحلال مُعاذ؛ وأقرأنا أُبىّ، ورجلٌ عنده علمٌ ابن مسعود، وتبعهم عُويمر أبو الدرداء بالعقل(٢).

وقال ابن إسحاق: كان الصحابة يقولون: أتبعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء(٣).

وعن يزيد بن عميرة، قال: لما حضرت مُعاذًا الوفاة، قالوا: أوصنا. فقال: العلم والإيمان مكانهما، مَن ابتغاهما وجدهما. ـ قالها ثلاثًا ـ فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عُويمر أبى الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله ابن سلام، الذى كان يهوديًا فأسلم(٤).

قال أبو ذر لأبى الدرداء: ما حملت ورقاءُ، ولا أظلّت خضراءُ، أعلم منك يا أبا الدرداء(٥).

وعن مسروق، قال: وجدتُ علم الصحابة انتهى إلى ستة: عمر، وعلى، وأُبىّ، وزيد،

(١) نقلت تلك الكلمات الناصعة من «صفة الصفوة» و«سير أعلام النبلاء».
(٢) ابن عساكر (١٣/ ٣٧١/ ١) نقلاً من السير (٢/ ٣٤١).
(٣) تاريخ البخارى (٧/ ٧٧) وابن عساكر (١٣/ ٣٧١/ ٢).
(٤) ابن عساكر (١٣/ ٣٧٣/ ١) نقلاً من السير (٢/ ٣٤٣).
(٥) ابن عساكر (١٣/ ٣٧٣/ ٢) والورقاء: الغبراء. أراد بها الأرض ـ والخضراء: السماء.

وأبي الدرداء ، وابن مسعود ؛ ثم انتهى علمهم إلى عليّ ، وعبد الله[١].

وقال خالد بن معدان: كان ابن عمر يقول: حدثونا عن العاقلين. فيقال: من العاقلان؟ فيقول: معاذ، وأبو الدرداء[٢].

وعن يزيد بن معاوية، قال: إن أبا الدرداء من العلماء الفقهاء، الذين يشفون من الداء[٣].

خوفه من المظالم

وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ (عندما تولى القضاء) يخشى من الظلم أيّما خشية. فعن يحيى بن سعيد، قال: كان أبو الدرداء، إذا قضى بين اثنين، ثم أدبرا عنه، نظر إليهما، فقال: ارجعا إليَّ، أعيدا عليَّ قضيتكما[٤].

حرصه على الأخوة الصادقة

عن أم الدرداء قالت: كان لأبي الدرداء ستون وثلاث مئة خليل في الله. يدعو لهم في الصلاة، فقلت له في ذلك، فقال: إنه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب، إلا وَكَّلَ الله به ملكين يقولان: ولك بمثل.

أفلا أرغبُ أن تدعو لي الملائكة[٥].

وكان إذا رأى مسلمًا قد أذنب ذنبًا يأخذ بيديه إلى الله ولا يُسلمه للشيطان فيجعله ييأس من رحمة الله ـ جل وعلا ـ.

فعن أبي قلابة، أن أبا الدرداء مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبُّونه. فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ـ بئر ـ ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله عز وجل الذي عافاكم. قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي[٦].

---

(١) ابن عساكر (١٣/ ٣٧٣/ ٢) وأخرجه ابن سعد (٢/ ٣٥١) وإسناده صحيح.
(٢) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٥٠) ورجاله ثقات.
(٣) ابن عساكر (١٣/ ٣٧٣/ ٢) نقلاً من السير (٢/ ٣٤٦).
(٤) ابن عساكر (١٣/ ٣٨٥/ ٢) نقلاً من السير (٢/ ٣٤٥).
(٥) ابن عساكر (١٣/ ٣٨٩/ ٢) نقلاً من السير (٢/ ٣٥١).
(٦) صفة الصفوة (١/ ٢٦٨).

صاحب القلب الرقيق

لقد كان أبو الدرداء صاحب قلب رقيق حتى إنه كان يبكى إذا رأى العذاب ينزل على أمة كافرة، فقد كان يتمنى من سويداء قلبه أن يُسلم الناس جميعًا لله ـ جل وعلا ـ لتشملهم رحمة الله التى وسعت كل شيء.

فعن ابن جُبير، عن أبيه، قال: لما فُتحت قُبرص، مُرَّ بالسبى على أبي الدرداء، فبكى، فقلت له: تبكى فى مثل هذا اليوم الذى أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: يا جُبير، بينا هذه الأمة قاهرة ظاهرة إذ عصوا الله، فلقوا ما ترى. ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه[1].

وهكذا كان يُعلل الهزائم التى تلحق بالأمم بأن السبب الأساسى فيها هو الوقوع فى معصية الخالق ـ جل وعلا ـ.

وكيف لا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس:١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[الطلاق:٨ـ٩].

وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[الحج:٤٥].

وصيته الخالدة لأهل دمشق

وفى خلافة الفاروق ـ رضوان الله عليه ـ أراد من أبي الدرداء أن يلى[2] له عملاً فى الشام فأبى، فأصرَّ عليه، فقال أبو الدرداء:

إذا رضيت منى أن أذهب إليهم لأُعلّمهم كتاب ربهم، وسُنة نبيهم وأُصلى بهم ذهبت، فرضى منه عمر بذلك، ومضى هو إلى «دمشق»، فلما بلغها وجد الناس قد أُولعوا بالترف، وانغمسوا فى النعيم، فهاله ذلك، ودعا الناس إلى المسجد، فاجتمعوا

(١) ابن عساكر (١٣/ ٣٨٩/ ١) نقلاً من السير (٢/ ٣٥١).
(٢) أن يلى له عملاً: أن يتولى له ولاية.

عليه فوقف فيهم وقال: يا أهل «دمشق» أنتم الإخوانُ فى الدين، والجيرانُ فى الدار، والأنصارُ على الأعداء... يا أهل «دمشق» ما الذى يمنعكم من مودتى والاستجابة لنصيحتى وأنا لا أبتغى منكم شيئًا، فنصيحتى لكم، ومؤنتى[١] على غيركم. مالى أرى علماءكم يذهبون[٢]، وجهّالكم لا يتعلمون؟!... وأراكم قد أقبلتم على ما تكفَّل لكم به الله ـ عز وجل ـ وتركتم ما أُمرتم به؟!... ما لى أراكم تجمعون ما لا تأكلون!!. وتبنون ما لا تسكنون!!... وتؤملون ما لا تبلغون!!... لقد جمعت الأقوام التى قبلكم وأمَّلت... فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بُوراً[٣] وأملهم غُروراً... وبيوتهم قبوراً...

هذه «عادٌ»[٤] ـ يا أهل «دمشق» ـ قد ملأت الأرض مالاً وولداً... فمن يشترى منى تركة «عاد» اليوم بدرهمين؟.

فجعل الناس يبكون حتى سُمع نشيجهم[٥] من خارج المسجد.

ومنذ ذلك اليوم طفق أبو الدرداء يؤُمُّ[٦] مجالس الناس فى «دمشق» ويطوف بأسواقهم، فيجيب السائل، ويُعلِّمُ الجاهل، ويُنبهُ الغافل، مُغتنمًا كل فُرصةٍ مُستفيداً من كل مُناسبة[٧].

حرصه على رعيته

ولقد علم أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أنه راعٍ وأنه مسئول أمام الله ـ جل وعلا ـ عن تلك الرعية.

فكان يحرص على أن يظفر لابنته بزوجٍ صالح يعينها على أمر دينها، وإن كان لا يملك شيئًا من حطام الدنيا.

وفى تلك الفترة التى قضاها فى دمشق بعث إليه معاوية بن أبى سفيان يخطبُ ابنته

---

(١) مؤنتى على غيركم: نفقتى على غيركم.
(٢) يذهبون: يأخذهم الموتُ.
(٣) بوراً: هالكًا خربًا.
(٤) عاد: قوم نبى الله هود، عصوا نبيهم فأهلكهم الله.
(٥) نشيجهم: صوت بكائهم.
(٦) يؤم مجالس الناس: يتردد على مجالس الناس ويغشاها.
(٧) صور من حياة الصحابة (ص: ٢١١ ـ ٢١٢).

«الدرداء» لابنه يزيد، فأبى أن يزوجها له، وأعطاها لشاب من عامة المسلمين رضى دينه وخُلُقه.

فسار ذلك في الناس، وجعلوا يقولون: خطب يزيد بن معاوية بنت أبي الدرداء فرده أبوها، وزوَّجها لرجل من عامة المسلمين.

فسأله سائلٌ عن سبب ذلك؟!.

فقال: إنما تحريت فيما صنعته صلاح أمر الدرداء.

فقال: وكيف؟.

فقال: ما ظنكم بالدرداء إذا قام بين يديها العبيد يخدمونها، ووجدت نفسها في قصور يخطف لألاؤها البصر...

أين يُصبحُ دينها يومئذٍ؟!(1).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مملوءة بالجهاد والطاعة والتضحية والفداء مضى أبو الدرداء إلى ربه تاركًا الدنيا بجسده كما تركها بقلبه من قبل... فقد كان يعيش بجسده في الدنيا وقلبه يطير في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

عن معاوية بن قرة أن أبا الدرداء اشتكى فدخل عليه أصحابه فقالوا: ما تشتكي؟ قال: أشتكي ذنوبي. قالوا: فما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة. قالوا: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: هو الذي أضجعني.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: أُحب الموت اشتياقًا إلى ربي وأُحب الفقر تواضعًا لربي وأُحب المرض تكفيرًا لخطيئتي.

وإذا بأم الدرداء تأخذ وصيتها الأخيرة من الزاهد الذي ترك الدنيا بكل زخارفها وزينتها.

قالت أم الدرداء لأبي الدرداء: إن احتجت بعدك آكل الصدقة؟ قال: لا. اعملي وكُلي. قالت: فإن ضعفت عن العمل. قال: التقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة.

(1) صور من حياة الصحابة (ص: ٢١٤).

واقتربت اللحظات الأخيرة من حياة هذا البطل الزاهد وإذا به يقول: من يعمل لمثل يومى هذا؟ من يعمل لمثل ساعتى هذه؟ من يعمل لمثل مضجعى هذا؟ ثم يقول: «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة».

أم الدرداء تخطب أبا الدرداء من ربها

وإذا بأم الدرداء التى أحبت زوجها من كل قلبها تخشى أن تدخل الجنة ولا تكون زوجة له فى الجنة، كما كانت زوجته فى الدنيا.

فقامت وتوجهت إلى ربها وقالت: اللهم إن أبا الدرداء خطبنى فتزوجنى فى الدنيا، اللهم فأنا أخطبه إليك، فأسألك أن تزوجنيه فى الجنة، فقال لها أبو الدرداء: فإن أردت ذلك وكنت أنا الأول فلا تزوجى بعدى. قال: فمات أبو الدرداء، وكان لها جمال وحُسن. فخطبها معاوية فقالت: لا والله لا أتزوج زوجًا فى الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله ـ عز وجل ـ فى الجنة[١].

وفاضت روحه الطاهرة على أرض دمشق سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ.

رؤيا تملأ القلب فرحًا وسرورًا

وعن عوف بن مالك الأشجعى قال: رأيت فى المنام كأنى أتيت مرجًا أخضر، فيه قبة من أدم، حولها غنم ربوض تجتر وتبعر العجوة، فقلت: لمن هذه؟ فقيل: لعبد الرحمن بن عوف. فانتظرته حتى خرج من القبة فقال: يا عوف بن مالك هذا ما أعطانا الله ـ عز وجل ـ بالقرآن، ولو أشرفت على هذه الثنية لرأيت ما لم تر عينك وسمعت ما لم تسمع أذنك ولم يخطر على قلبك، أعده الله ـ عز وجل ـ لأبى الدرداء لأنه كان يدفع الدنيا بالراحتين والنحر[٢].

فرضى الله عن أبى الدرداء وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٦٨) بتصرف.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٦٩).



البراء بن مالك

عاشق الموت ... لو أقسم على الله لأبرّه

إن السر فى عظمة المقاتل الذى يقاتل فى سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) أنه أحرص على الموت من حرص أعدائه على الحياة. وكان هذا هو السر فى عظمة ضيفنا وبطلنا الذى نعيش معه من خلال تلك السطور.

إنه البراء بن مالك البطل الكرّار صاحبُ رسول الله ﷺ وأخو خادم النبى ﷺ أنس ابن مالك. شهد أُحُدًا، وبايع تحت الشجرة(١).

إن من رأى البراء وهو يقاتل لا يستطيع أن يصدق نفسه من أول وهلة، فهو يرى رجلاً لا يقاتل من أجل الفوز والنصر فحسب!!! بل يقاتل من أجل الفوز بالشهادة فهو يبحث عن الجنة أينما كانت وكيفما كان الطريق إليها شاقًا وصعبًا وشعاره فى ذلك «الله والجنة».

ولذا كان عمر بن الخطاب يخشى أن يستعمله على جيشٍ خوفًا من حرصه الشديد على الموت.

فكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الجيش: لا تستعملوا البراء على جيش، فإنه مهلكة من المهالك يَقْدم بهم(٢).

من هو البراء

إنه فارس مغوار من فرسانِ الرَّسول ﷺ ، ومنٍ أعلام الفُرسان الأبرار الأخيار الأطهار، ومن جملةِ كبارِ صحابةِ رسول الله ﷺ فى الزُّهد الحقيقى.

* هذا الفارس أَحَدُ نبلاء الفُرسان الأبطال الذين سجَّلُوا أعظمَ الآثار، وأعمق البصمات فى ساحات المعارك فَى عَصْر النُّبوة الخالد.

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ١٩٥).
(٢) المستدرك (٣/ ٢٩١) وابن سعد (٧/ ١/ ١٠) والاستيعاب (١/ ٢٨٥).

* كانَ أَحَدَ الأبطالِ الأفرادِ الذين يُضربُ بهم المثل الحيّ في الفروسيّة وشدّة البأس، وكان من فُضَلاء الصحَابة الأنصار، وأحد السَّادة الأبرار. قَتَلَ منَ المشركين والكفّار مائة رجلٍ مبارزة، وكان يركب الفَرَسَ وهي تُسَاق فيستوي على ظهرها بيسرٍ وسهولة.

* وهو البطل الكرَّار، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، وأخو خادمِ رسول الله ﷺ أنس بن مالك ـ رضى الله عنهما ـ[1].

فارسٌ ليس له مثيل

* إنَّ المصادرَ التى تحدَّثَتْ عن البَراء بن مالك ـ رضى الله عنه ـ لتشير إلى السِّمَةَ البارزة فى شخصيّته، ألاَ وهى الجراْة والفَروسيّة والإقدام.

فأخبار البراء ـ رضوان الله عليه ـ تدورُ حول الفروسية والشَّجاعة والفدائية الحقّة، فهو مِنْ أكابرِ فرسانِ الأنصار الميامين المشهورين بالشِّدة والبَأس، فحياةُ البراءِ ـ رضى الله عنه ـ كِفاحٌ فى كفَاحٍ؛ وجهادٌ فى جهادٍ فى جهاد.

* كانت غزوةُ أُحد أوَّل مشاهد البَراء فى صُحبة رسول الله ﷺ وقد تابعَ حضور الغزوات، فحضر الخندقَ، وأبلى فيها بلاء حسنًا يشهد بشدّته وقوَّته.

* ولما سارَ رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية، سار البراء فى معيّته، وعندما أخذَ المسلمون يبايعون رسولَ الله ﷺ بيعة الرّضوان تحت الشجرة، التقت يمينهُ بيمين الرَّسول الكريم ﷺ وبايعه على الموت، ونزل قول الله عزَّ وجلَّ من فوق سبع سماوات مزكيًا هذه البيعة، وراضيًا عنِ المُبايعين فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ [الفتح:١٨].

* وبعد تلكم البيعة المباركة، الدالَّة على عمق الإيمان فى نفوس الصحابة، تابع البراء ـ رضوانُ الله عليه ـ مسيرةَ الجهاد، والذود عن حياض الدِّين، فحضر غزوة الفَتْح، وغزوة حنين، وغيرها منَ المشاهد فى معيّة رسول الله ﷺ إلى أنْ انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى، وهو يباركُ فروسيَّة البراء بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وبطولته الخارقة.

ولكنْ هل توقَّفَتْ مسيرة الفروسيّة فى حياة الفارس المِقْدام البراء بن مالك؟

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٤٨٠).

* لا، إنَّ الطريقَ لا يزالُ طويلاً أمام البراء، وهو ما يزال في ريعان الشَّباب، ومقتبل العمر، يتأجَّجُ حماسةً للقتال ولقاء الأعداء، فإذا ما اشتعل فتيلُ المعركة، يثور البراء ليدمّر أمامه كلّ ما يجده من قَوى الشرِّ والطغيان، فلا يأبَهُ للفرسانِ ولا للحصون، ولا للّرماح والسّيوف، وإنَّما يجرف كلَّ ما يلقاه في طريقه بقوة الإيمان، وعميق الإخلاص، والتفاني في الإقدام، وشدّة الساعد، ومَنْع قوى الشر أن تشرئبَّ أو تتطاول؛ وسنشهد موقفًا منْ مواقفه هذه، في معركة اليمامة(١).

لو أقسم على الله لأبرّ الله قسمه

قال ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طِمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك»(٢).

وعن أنس مرفوعًا قال: «كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه منهم البراء بن مالك»(٣).

فلم ينسَ أصحاب النبي ﷺ تلك المنقبة للبراء.

صفحات من نور تضيء عبر الزمان

بعد وفاة النبي ﷺ ورحيله عن دنيا الناس بدأت قبائل العرب ترتد عن الإسلام، وجاءت الفتن من كل حَدَبٍ وصوب، وكادت شمس الإسلام أن تغيب لولا أن الله قد تعهد بحفظ هذا الدين.

فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يتصدى لفتنة الردة.

وصدق من قال: «لقد حفظ الله الإسلام يوم الردة بأبي بكر، ويوم المحنة بأحمد بن حنبل».

فصمد أبو بكر صمود الجبال أمام تلك الفتنة التي كادت أن تقضي على الأخضر واليابس... وعقد الألوية لقادة الجيوش المسلمة ليقضوا على تلك الفتنة ويعيدوا الناس إلى دين الله ـ جل وعلا ـ.

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٤٨٢ ـ ٤٨٣).
(٢) رواه الترمذي والضياء عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٧٣).
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.

قال ابن إسحاق: ولما تُوفِّي رسول الله عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة، فيما بلغني، تقول: لما توفى رسولُ الله ﷺ ارتدَّت العرب، واشرأبَّت اليهودية والنصرانية، ونَجَم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبى بكر(١).

لقد كانت حروب الردة ـ التى استمرت ملتهبةً حوالى سنةً كاملة ـ أعنف ما شهد العرب والمسلمون فى تاريخهم العسكرى، وأبرزت هذه الحروب وكشفت معادن الرجال.... وخالد بن الوليد لم يقم أى محارب مقامه فى منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة «بزاخة» ببلاد بنى أسد، ومنطقة البطاح فى ديار بنى تميم، ومنطقة اليمامة موطن بنى حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد فى حياته.

وكان أول جيش بقيادة عكرمة بن أبى جهل فهزمه مسيلمة... وبعد أن فشل عكرمة ابن أبى جهل وشرحبيلُ بن حسنة فى القضاء على المرتدين فى اليمامة، سار إليها خالد، فلمّا كان على بُعد ليلة من معسكر مسيلمة، هجم على مفرزة من بنى حنيفة بإمرة «مجاعة بن مرارة الحنفىّ» قوتها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا، فأسرهم وقتل أصحاب «مجاعة»، واستحياه رهينةً لشرفه فى بنى حنيفة. والتقى الجمعان فى عقرباء، واشتد القتال، وتكسرت فى يد خالد تسعة سيوف، واشتد القتال بشكلٍ لم يسبق له مثيل، وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد، ولكنّ المسلمين عادوا فاستقتلوا، فقال خالد: «يا أيها الناس، امتازوا ـ تميزوا وانفصلوا ـ لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نُوتى». وكان النصر بعد جهد جهيد لأنصار دين الله، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالَى أربعين ألف مقاتل أو أكثر، وقُتل من بنى حنيفة فى معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا، وقُتل منهم فى الطلب سبعة آلاف، وقُتل عدو الله مسيلمة، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة، وثلاثمائة من التابعين، وقُتل من القُرّاء خمسمائة، فكان جملة من قتل من المسلمين ألفًا ومائتى شهيد، أى أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط، وهذا يعدُّ من أروع الانتصارات(٢).

---

(١) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٩١).

(٢) نقلاً من علو الهمة ـ د. سيد حسين (٣/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠) بتصرف.

ولكن ذلك كله كان يتضاءل أمام البطولات النادرة التى قام بها البراء ـ رضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين ـ.

عن أنس، قال: إن خالد بن الوليد قال للبراء ـ رضى الله عنهما ـ يوم اليمامة: قم يا براء، قال: فركب فرسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أهل المدينة، لا مدينة لكم اليوم، وإنما هو الله وحده والجنة»، ثم حمل وحمل الناس معه، فانهزم أهل اليمامة، فلقى البراء ـ رضى الله عنه ـ محكم اليمامة «قائد جيش مسيلمة» فضربه البراء وصرعه، فأخذ سيف محكم اليمامة، فضرب به حتى انقطع[1].

وعند البغوى عن البراء ـ رضى الله عنه ـ قال: لقيت يوم مسيلمة رجلاً يقال له: حمار اليمامة، رجلاً جسيمًا بيده سيف أبيض، فضربت رجليه فكأنما أخطأته وانقعر[2]، فوقع على قفاه، فأخذت سيفه وأغمدت سيفى، فما ضربت به ضربة حتى انقطع»[3].

حديقة الموت

عن ابن إسحاق، قال: زحف المسلمون إلى المشركين، حتى ألجئوهم إلى الحديقة، وفيها عدو الله مسيلمة، فقال (أى البراء): يا معشر المسلمين ألقونى عليهم، فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم، فقاتلهم على الحديقة حتى فتحها على المسلمين، ودخل عليهم المسلمون، فقتل الله مسيلمة[4].

وفى رواية: أن البراء يوم حرب مسيلمة الكذاب أمر أصحابه أن يحتملوه على تُرس، على أسِنَّة رماحهم، ويُلقوه فى الحديقة. فاقتحم إليهم، وشدَّ عليهم، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة. فجُرح يومئذ بضعة وثمانين جرحًا، ولذلك أقام خالدُ بن الوليد عليه شهرًا يُداوى جراحه[5].

وقد اشتهر أن البراء قَتل فى حروبه مئة نفس من الشجعان مبارزة.

وعلى الرغم من ذلك لم يظفر البراء بالشهادة التى يشتاق إليها مع كل نبضة من

(١) حياة الصحابة (٢/ ١٢٧) ـ الإصابة (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤).
(٢) انقعر: أى قُطع من أسفله.
(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر (١/ ٤١٤).
(٤) الإصابة (١/ ٤١٣) ـ الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ١٣٨).
(٥) الإصابة (١/ ٢٣٦) ـ الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٢٨٧).

نبضات قلبه.. فهو يريد أن يغمض عينيه فيجد نفسه فى حواصل طير خُضر تطير به إلى خيمة الشهداء تحت ظل عرش الرحمن، ثم يلحق بالنبى ﷺ وأصحابه فى جنات الخلود التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

لن أموت على فراشى

لقد كان البراء على يقين من أن الله ـ عز وجل ـ سيرزقه الشهادة.

بل لقد علم من نبيه ﷺ أنه مستجاب الدعوة، وأنه لو أقسم على الله لأبرَّ الله قسمه، ولذلك فهو مطمئن غاية الاطمئنان وكله ثقة فى رحمة الله.

عن أنس أنه دخل على أخيه البراء وهو يتغنَّى فقال: تتغنى؟ قال: أتخشى علىَّ أن أموتَ على فراشى وقد قتلتُ تسعة وتسعين نفسًا من المشركين مبارزةً، سوى ما شاركتُ فيه المسلمين؟(١).

وفى رواية: يا أخى! تتغنى بالشعر وقد أبدلك الله به القرآن؟

وعن أنس قال: دخلتُ على البراء وهو يتغنى، ويُرنم قوسه، فقلت: إلى متى هذا؟ قال: أترانى أموتُ على فراشى؟ والله لقد قتلتُ بضعًا وتسعين(٢).

البراء يتقذ أخاه (أنس بن مالك)

وظل بطلنا فى شوق وحنين لتلك الأمنية الغالية ـ ألا وهى الشهادة فى سبيل الله ـ إلى أن جاء يوم فتح «تُستر» من بلاد «فارس»، فقد تحصَّن «الفُرسُ» فى إحدى القلاع المردة، فحاصرهم المسلمون وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، فلما طال الحصار واشتد البلاء على «الفرس»، جعلوا يدلون من فوق أسوار القلعة سلاسل من حديد، عُلقت بها كلاليب من فُولاذ حُميت بالنار حتى غدت أشد توهجًا من الجمر، فكانت تنشبُ فى أجساد المسلمين وتعلقُ بها، فيرفعونهم إليهم إما موتى وإما على وشك الموت.

فعلق كُلابٌ منها بأنس بن مالك ـ أخى البراء بن مالك ـ فما إن رآهُ البراء حتى وثب على جدار الحصن، وأمسك بالسلسلة التى تحملُ أخاهُ، وجعل يُعالج الكُلاب ليخرجه

---
(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩١) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) الطبقات لابن سعد (٧/ ١/ ١٠) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

من جسده، فأخذت يدهُ تحترق وتُدخِّن، فلم يأبه لها حتى أنقذ أخاهُ، وهبط إلى الأرض بعد أن غدت يده عظامًا ليس عليها لحمٌ.

البراء يُقسم على ربه .. فيرزقه الشهادة

* لئن كانَ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فارسًا لا يُشقُّ له غبار، لقد كان تقيًا نقيَ القلب، صافي السَّريرة، لا تُردُّ له دعوة عند الله عزَّ وجلَّ.

* ولقد كانت أمنيته الكبرى أنْ يلقى الله عزَّ وجلَّ شهيدًا، وذلك لما يعلم ما أعدَّ الله تعالى للشُّهداء...، ويبدو أنَّه كان يردِّدُ كثيرًا قول الله عزَّ وجل عن الشُّهداء: ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] إذًا، فما أجمل الحياة عند المليك المقتدر؟! وما أعلاها من مرتبة لا تُقَدَّر![1].

ولما اشتد القتال، وجالد الأعداء، وبلغت القلوب الحناجر، قال بعض المسلمين للبراء: يا براء إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرَّك، فأقسِم على الله، فقال: أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم.

ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا: أقسِم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيي ﷺ»، فمُنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا[2].

فرضي الله عن البراء وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٤٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.





كانت الملائكة تستمع لقراءته

أحد النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة، أسلم قديمًا وكان أبوه شريفًا مطاعًا يُدعى حُضير الكتائب، وكان رئيس الأوس يوم بُعاث[1]، فقُتل يومئذ قبل عام الهجرة بست سنين، وكان أُسيد يُعَدُّ من عقلاء الأشراف وذوى الرأى[2].

بل لقد ورث عن أبيه شجاعته وجوده ورجاحة رأيه فكان من زعماء المدينة وأشراف العلم قبل أن يُسلم.

فلما أسلم أصبح واحدًا من أشراف الدنيا بأسرها... وكيف لا يصبح واحدًا من أشراف الدنيا كلها وأصحاب النبى ﷺ هم خير البشر بعد الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات ربى وسلامه ـ.

كانت ولادته فى المدينة المنورة.. تلك المدينة الخالدة التى دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، ومن فوق هضابها السمر، جُيشت الجيوش، وهُيئت الكتائب لنشر دين الله. وعرفت دروب المدينة أُسيد بن الحُضير، ذلك الفتى الشجاع، الذى يمتطى صهوات الخيل، ويحب مكارم الأخلاق.

وحين قُتل والده فى يوم بُعاث توَّجته القبيلة رئيسًا لها خلفًا عن والده، وتحمل تبعات الحياة، وعرك سياسة الأفراد مبكرًا.

---

(١) بضم الموحدة، والعين المهملة آخره ثاء مثلثة: موضع فى نواحى المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج. وكان على الأوس يومئذ حضير والد الصحابى الجليل (أسيد) وكان على الخزرج عمر بن النعمان البياضى فقتلا جميعًا، فقال خفاف بن ندبة يرثى حضير الكتائب:

فلو كان حىٌ ناجيًا من حِمامه ... لكان حُضيرُ يوم أُغلق واقما
أطاف به حتى إذا الليل جَنَّه ... تبوأ منه منزلاً متناعما

وانظر معجم البلدان (١/ ٤٥١) وابن سعد (٣/ ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦)..

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٤١).

وكان صديق طفولته وشبابه ومستشاره في همومه الكبار، وتبعاته الجسام، سعد بن معاذ، فتى الفتيان، وفارس الشجعان في الجاهلية.

وكان سعد وأُسيد لا يفترقان في ظعن أو إقامة، ولا يتباعدان إلا عندما يأوي كل منهما إلى فراشه، وكانت لهما جلستهما المفضلة تحت ظلال النخيل الذي يحيط «ببئر مرق» خارج المدينة.

يجلسان كل يوم يتسامران، ويتشاكيان، ويدبران شئون الأوس، ويستعدان لجولة جديدة مع قبيلة الخزرج، يثأران فيها (لحضير) قتيل موقعة بُعاث.

وفي يوم من الأيام وهما يجلسان في مجلسهما هذا، جاء إليهما كعب بن الحارث، وأخذ يحدثهما عن رجل يُدعى: مصعب بن عمير، جاء من مكة، ونزل ضيفًا على أسعد ابن زرارة، وهو يدعو إلى دين الإسلام، ويقول: إنه رسول من قِبل النبي ﷺ الذي ظهر بمكة[1].

شمس الهداية تشرق على قلب (أسيد)

لما أرسل الحبيب ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو الناس إلى الإسلام وليعلّم المسلمين أمور دينهم. فنزل (مصعب) على (أسعد بن زرارة) أحد أشراف الخزرج وجعل من منزله قاعدة ينطلق من خلالها للدعوة إلى الله ـ جل وعلا ـ

وكان مصعب ـ رضي الله عنه ـ جميل المنظر.. طيب السَمت.. عذب الحديث.. واضح الحُجة.. رقيق الشمائل.. ينبعث نور الإيمان من قلبه إلى وجهه مباشرة، فكأن الشمس تجري في جبينه.

وكان صوته عذبًا إذا قرأ القرآن... فاستطاع أن يستميل الناس إليه وأن يجعلهم يشعرون بنعمة الإسلام فكان لا يأتيه رجل مهما كان قدره ومهما كانت قسوته وشدته فيستمع إليه إلا رقّ قلبه ودمعت عينه ودخل في دين الله جل وعلا.

ودعونا نعيش تلك اللحظات الجميلة مع قصة إسلامه.

روى ابن إسحاق: أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطًا

(١) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد السحيباني (ص ٥٥٢: ٥٥٣).

من حوائط بنى ظفر.

على بئر يقال لها: بئر مَرَق[(١)]، فجلسا فى الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مُشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّى حيث [ما] قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشتما، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة؛ فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا، فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا [الكلام] وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، (سعد بن معاذ)، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلمّا وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت.

وفى تلك اللحظة رأى (أسيد) أن سعدًا إذا دخل الإسلام فسوف يُسلم بإسلامه خلقٌ كثير.. فسأل الله أن ييسر له حيلة يدخل بها على سعد ليذهب ويستمع إلى كلام الله من مصعب بن عمير.

فقال (أُسيد) فى نفسه: لو أننى قلت لسعد: إننى أسلمت فقد يظن أننى أريد أن

(١) بئر مرق: بفتح الميم وسكون الراء، وقاف، ويروى بفتح الراء: بئر بالمدينة ذكرها فى حديث الهجرة. [معجم البلدان (١/ ٣٠١)].

يُسلم رغم أنفه... أما إن استطعت أن أجعله يلتقى بمصعب بن عمير بطريقة غير مباشرة فسوف ينشرح صدره إذا استمع إليه، كما انشرح صدرى تمامًا.

وكان أسعد بن زرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ، فقال أُسيد لسعد بن معاذ ـ يريد أن يثير حميته ـ لقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم [قد] عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك(١). قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوفًا للذى ذُكر [له] من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، [أما والله] لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمت هذا منى(٢)، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ ـ وقد قال أسعد ابن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيِّدُ مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ـ قال: فقال له مصعب: أَوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أُسيد ابن حُضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا [وأوصلنا] وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة(٣)؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام،

---

(١) ليخفروك: وفى بعض النسخ «ليحفروك». وأخفره: نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر الذمة لم يف بها.

(٢) ما رُمتَ هذا منى: أى ما طمعت فيه ولا بلغته.

(٣) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل. وقال ابن بُزَرج: اللهم نقيبة أى نفاذ رأى، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. [لسان/ نقب].

حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[١].

وهكذا جعل الله (أُسيدًا) سببًا في إسلام سعد بن معاذ ـ ومن ثَم ـ سببًا في إسلام قومه.

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة كاد (أُسيد) أن يطير قلبه فرحًا بقدوم الحبيب ﷺ ليقبس من علمه وهديه وأخلاقه.. وقبل ذلك كله ليسعد برؤية الحبيب ﷺ ولينعم بمرافقته.

ومنذ تلك اللحظة الخالدة وأُسيد بن حضير ينهل من هذا المعين العذب وهو يصوم النهار ويقوم الليل ويعيش مع آيات القرآن ويقرؤه بكل حُب وإخلاص لدرجة جعلت أصحاب النبي ﷺ يترقبون تلك الساعات التي يقرأ فيها (أُسيد) القرآن، ويتسابقون إلى سماع تلاوته.

وليس هؤلاء فحسب... بل إن ملائكة الرحمن نزلت بأمر الله لتستمع إلى (أُسيد) وهو يقرأ القرآن.

فعن أبي سعيد الخدري:أن أُسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده[٢] إذ جالت[٣] فرسه فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضًا، قال أُسيد: فخشيت أن تطأ يحيى[٤]، فقمت إليها، فإذا مثل الظُلة[٥] فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ «اقرأ ابن حضير» قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ «اقرأ ابن حضير!» قال: فقرأت. ثم جالت أيضًا. فقال رسول الله ﷺ «اقرأ ابن حضير» قال: (فانصرفتُ) وكان يحيى قريبًا منها خشيتُ أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ «تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٢). وقال: رواه الطبراني مرسلاً وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث. وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ١٥٢) من طريق ابن إسحاق وإسناده صحيح.

(٢) هو الموضع الذي ييبس فيه التمر كالبيدر للحنطة ونحوها ـ قاله النووي.

(٣) جالت أي وثبت. قاله النووي (٢/ ٤٥٠).

(٤) يحيى هو ابن أُسيد.

(٥) هي ما بقي من الشمس كسحاب أو سقف بيت.

لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»[١].

ولقد بلغ «أسيد» درجة عالية في العبادة حتى كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعرفون له قدره ومنزلته.

بل ها هي أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: ثلاثة من الأنصار من بني عبد الأشهل لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً بعد رسول الله ﷺ: سعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضير، وعبَّاد بن بشر ـ رضي الله عنهم ـ[٢].

ومنذ أن امتلأ قلبه بهذا النور العظيم أحسَّ (أُسيد) أن الكون كله من حوله قد امتلأ بهذا النور حتى إن هذا النور خرج مرة من عصاه وهو يمشي في ضوئها.

فعن أنس أنَّ أُسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر كانا عند رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء حندس قال: فلما خرجا من عنده أضاءت عصا أحدهما فكانا يمشيان في ضوئها فلما تفرقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا[٣].

أمنية غالية

ولقد كان (أُسيد) شديد الحب لرسول الله ﷺ حتى إن أمنّا عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: «كان أُسيد بن حُضير من أفاضل الناس، وكان يقول: لو أني أكون كما أكون على أحوال ثلاث لكنت حين أسمع القرآن أو أقرؤه، وحين أسمع خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شَهِدت جنازة»[٤].

وكان النبي ﷺ يبادله هذا الحب ويُكن له كل محبة وتقدير في قلبه فكان إذا ذكره قال: «نِعم الرجل أُسيد بن الحضير»[٥].

ولكن أُسيد لم يكتفِ بمجرد ذكر الرسول ﷺ له بتلك المنقبة، بل كان يتمنى أن يمس جسدُه جسد النبي ﷺ لتحصل له البركة بملامسة جسد الحبيب ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٩٦) وأحمد (٣/ ٨١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٩٠) والحاكم (٣/ ٢٨٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) الإصابة للإمام ابن حجر العسقلاني (١/ ٢٣٥).

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٥٤) وصححه الحاكم (٣/ ٢٨٩) ووافقه الذهبي.

فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه قال: كان أُسيد بن حضير رجلاً صالحًا ضاحكًا مليحًا، فبينما هو عند رسول الله ﷺ يحدث القوم ويضحكهم فطعن رسول الله ﷺ في خاصرته فقال: أوجعتني.

قال: «اقتص» قال: يا رسول الله إن عليك قميصًا، ولم يكن عليَّ قميص قال: فرفع رسول الله ﷺ قميصه فاحتضنه ثم جعل يُقبل كشحه[١]، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أردت هذا[٢].

ولقد اختُلف في شهوده غزوة بدر ـ والراجح أنه لم يشهدها ـ ولكنه شهد أُحدًا وجُرح يومئذ سبع جراحات، وثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس وشهد الخندقَ والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ[٣].

موقفه (رضي الله عنه) في غزوة بني المصطلق

وفي تلك الغزوة تفجّرت ينابيع النفاق من قلب المنافق الخبيث ـ عبد الله ابن أُبيّ بن سلول ـ وأراد أن يؤلِّب الناس على رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على مَنْ حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبرَ، وعنده عمر ابن الخطاب، فقال: مُر به (عبَّاد بن بشر) فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيفَ يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»، لا ولكن أذِّن بالرَّحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس[٤].

وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان في قومه شريفًا عظيمًا ـ فقال مَن حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله،

---

(١) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) صفة الصفوة (١/ ٢١٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٧٥) وذكره ابن حجر في الفتح (٨/ ٥١٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وقال: وهو مرسل جيد.

عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدبًا على ابن أُبىّ بن سلول، ودفعًا عنه.

وهنا تتجلى حكمة (أُسيد) فى هذا الموقف.

فإنه لما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حُضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبىّ الله، والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكرة، ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بَلَغَكَ ما قال صاحبكم؟» قال: وأىّ صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أُبى، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعز منها الأذلّ.

قال: فأنت يا رسول الله والله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليلُ وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخَرَز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكًا[1].

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظل أُسيد على طريق الصادقين عابدًا خاشعًا مخبتًا لا يفتر أبدًا عن قراءة القرآن ولا عن ذكر الواحد الديّان.

موقفه يوم سقيفة بنى ساعدة

ولما توفى رسول الله ﷺ وكادت أن تشتعل نار الفتنة بين أصحاب الحبيب ﷺ حول اختيارهم لخليفة رسول الله ﷺ... وبعد مناقشات طويلة قام زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإنما الإمام من المهاجرين، فنحن أنصار الله، كما كنا أنصار رسول الله، فقال أبو بكر: جزاكم الله خيرًا.

وعند الإمام أحمد: فتكلم أبو بكر، فقال: والله لقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال، وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر».

فقال له سعد: صدقت[2].

قال ابن حجر: وفى رواية ابن عباس عن عمر:

قال: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) بتصرف.

(٢) فتح البارى (٧/ ٣٨).

بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم الأنصار.

وفى «مغازى موسى بن عقبة» عن ابن شهاب قال: فقام أُسيد بن الحضير، وبشير بن سعد وغيرهما من الأنصار فبايعوا أبا بكر، ثم وثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة.

وهكذا كان (أُسيد) - رضى الله عنه - من الأنصار المبادرين إلى مبايعة أبى بكر - رضى الله عنه - بل ومن الذين جعلهم الله سببًا فى وأد الفتنة فى مهدها قبل أن تصبح نارًا لا يُرى أولها من آخرها.

ولقد عرف أبو بكر قدر أُسيد، وكذلك (عمر) - رضى الله عنهم جميعًا - بعد أن صار أميرًا للمؤمنين.

وعاش أُسيد حتى خلافة الفاروق، واختاره الله إلى جواره فى عهد عمر، فمات وعليه أربعة آلاف درهم فهمَّ ورثته أن يبيعوا أرضه لسداد دَينه، فلما وصل الخبر إلى عمر قال: لا أترك بنى أخى أُسيد عالة على الناس.

ثم كلَّم الغُرماء فرضوا بأن يشتروا منه ثمر الأرض أربع سنين كل سنةٍ بألفٍ.

وهكذا حفظه الله بعد موته كما دافع عن نبيه ﷺ فى حياته.

فرضى الله عن أسيد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عمران بن حصين

كانت الملائكة تسلم عليه

تالله يا إخوانى ويا أخواتى: إننى من خلال تلك الحقبة من الزمان التى قضيتها فى كتابة هذا الكتاب عن أصحاب النبى ﷺ شعرت وكأنى أطير فوق السحاب، أو أننى فى دنيا أخرى غير دنيا الناس.

إنه لولا النقل الصحيح لظننت أن تلك الأخبار من نسج الخيال...

رجل تسلم عليه الملائكة!!! نعم.

إنه الصحابى الجليل (عمران بن حصين) ابن عبيد بن خلف. القدوةُ الإمامُ، صاحبُ رسول الله ﷺ . أبو نُجيد الخزاعى.

أسلم هو وأبوه وأبو هريرة فى وقت، سنة سبع(١).

وكان إسلامه عام خيبر وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خُزاعة يوم الفتح.

قال أبو نعيم: كان مُجاب الدعوة(٢).

الأدب مع رسول الله ﷺ

لقد ضرب أصحاب النبى ﷺ القدوة والأسوة فى الأدب مع رسول الله ﷺ .

فهذا عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ يقول: «ما مسست ذَكَرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ »(٣).

الله أكبر!!! إنه الأدب والتوقير لشخص رسول الله ﷺ فى حضرته وغيبته.. فيا ليت المسلمون يعرفون قدر النبى ﷺ وقدر سُنّته.

---

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٥٠٨).

(٢) الإصابة لابن حجر العسقلانى (٤/ ٥٨٦).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤٣٩) وصححه الحاكم (٣/ ٤٧٢) ووافقه الذهبى.

حرصه على الاتباع

أخرج الشيخان عن عمران بن حصين أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياءُ خير كله» فقال بشير بن كعب: إنا نجد في بعض الكتاب: أن منه سكينة ووقارًا، ومنه ضعفًا. فغضب عمران بن حصين حتى احمرت عيناه. وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه. وفي رواية: «وتحدثني عن صحفك».

ولفظ ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق: قال بشير بن كعب: إن فيه ضعفًا، وإن منه لعجزًا. فقال عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتجيء بالمعاريض، لا أحدثك بحديث ما عرفتك. فقالوا: يا أبا نُجيد: إنه طيب الهوى... وإنه.. وإنه، فلم يزالوا به حتى سكن.

الهمة العالية

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يسمعون الكلمة الواحدة من فم المصطفى ﷺ فيحولونها إلى منهج حياة في التو واللحظة.

وإليكم هذا المثال العملي الذي يوضح لكم إلى أي مدى بلغت عندهم تلك الهمة العالية.

عن حنظلة الأسيدي وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قال: قلت: نكونُ عند رسول الله ﷺ يُذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكةُ على فُرُشكم وفي طُرُقكم، ولكن يا حنظلة! ساعةً وساعة، ثلاثَ مرات»(١).

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي عن حنظلة الأسيدي ـ صحيح الجامع (٧٠٧٣) السلسلة الصحيحة (١٩٤٨).

وإذا بعمران بن حصين عندما يسمع هذا الحديث يحوّله إلى واقع عملي منظور فيحقق التوكل على الله ـ جل وعلا ـ ويصبر على شدة المرض الذى مكث فى جسده ثلاثين سنة.

بل كان يقول: إن أحب الأشياء إلى نفسى أحبها إلى الله.

قال ابنُ سيرين: سُقِى بطنُ عمران بن حُصين ثلاثين سنة، كل ذلك يُعرض عليه الكيُّ، فيأبى، حتى كان قبل موته بسنتين، فاكتوى[1].

«عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: «أتيت عمران بن حصين يومًا، فقلت له: إنى لأدع إتيانك لِمَا أراك فيه، ولما أراك تَلْقَى. قال: فلا تفعل، فوالله إن أحَبَّهُ إلىَّ أحبّه إلى الله»[2].

«كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنُه، فبقى مُلقى على ظهره ثلاثين سنةً، لا يقوم ولا يقعد، قد نُقب له فى سرير من جريد كان عليه ـ موضعٌ لقضاء حاجته ـ فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء، فجعل يبكى لما يَراه من حاله، فقال: لِمَ تبكى؟ قال: لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة.

قال: لا تبك، فإن أَحَبَّهُ إلى الله تعالى، أحبّه إلىَّ. ثم قال: أُحدِّثك حديثًا لعلَّ الله أن ينفعك به، واكتُم علىَّ حتى أموت، إن الملائكة تزورنى فآنسُ بها، وتُسلِّم علىَّ فأسمع تسليمها، فأعلمُ بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة، فمن يشاهد هذا فى بلائه، كيف لا يكون راضيًا به؟!»[3].

فجعل حياته كلها ساعة واحدة لله ـ جل وعلا ـ ممتثلاً أمره، حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ ـ ١٦٣].

فتأتى الملائكة وتسلم عليه، وكانت تلك المنقبة ثمرة من ثمرات التوكل على الله.

* * *

(١) ابن سعد (٤/ ٢٨٨) والسقى: ماء أصفر يقع فى البطن.

(٢) الرضا عن الله (ص ٩٢، ٩٣).

(٣) الإحياء للإمام الغزالى.

التوكل وسلام الملائكة

إن التوكل نعمة عظيمة لا يظفر بها إلا كل مؤمنٍ تقى قد لامس الإيمان شغاف قلبه.. وكان من بين هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بنعمة التوكل (عمران بن حصين).

عن مطرف قال: «بعث إليَّ عمران بن حصين فى مرضه الذى تُوفِّى فيه، فقال: إنى كنت محدثك بأحاديث، لعل الله أن ينفعك بها بعدى فإن عشت فاكتم عنى، وإن مت فحدِّث بها إن شئت... إنه قد سُلِّمَ علىَّ[(١)]، واعلم أن النبى ﷺ قد جمع بين حج وعمرة ثم لم ينزل فيها كتاب الله ولم ينه عنها نبى الله ﷺ قال رجل فيها برأيه ما شاء[(٢)].

وعن مطرف قال: قال لى عمران بن حصين أحدثك حديثًا عسى الله أن ينفعك به إن رسول الله ﷺ جمع بين حج وعمرة، ثم لم ينه عنه حتى مات، ولم ينزل فيه قرآن يحرمه، وقد كان يُسلِّم علىَّ حتى اكتويت فترِكت ثم تركت الكَّى فعاد[(٣)].[(٤)]

أخى الكريم.. أختى الفاضلة: إن الكون كله يشعر بطاعتنا لله، ويشعر أيضًا بمعصيتنا لله، فأطيعوا الله يسخِّر لكم الكون كله فى الدنيا ويُدخلكم جنته فى الآخرة.

وقفة مع العدل

عن عطاء مولى عمران، أنَّ عمران قضى على رجل بقضية، فقال: والله قضيت علىَّ بجور، وما ألوتَ. قال: وكيف؟ قال: شُهِدَ علىَّ بزور. قال: فهو فى مالى، ووالله لا أجلسُ مجلسى هذا أبدًا[(٥)].

❊ ❊ ❊

---

(١) يعنى أن الملائكة سلمت عليه، ومُراده بقوله: (إن عشت فاكتم عنى، وإن مت فحدث بها إن شئت) أى لا تخبر أحدًا فى حياتى أنى أخبرتك أن الملائكة تسلم على، وذلك والله أعلم خشية الفتنة بإشاعة هذا الأمر بين الناس.

(٢) أخرجه مسلم (ص ٨٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (ص ٨٩٩).

(٤) قال النووى ـ رحمه الله ـ (فى شرح مسلم): ومعنى الحديث أن عمران بن حصين رضى الله عنه كانت به بواسير فكان يصبر على المهمات وكانت الملائكة تسلم عليه فاكتوى فانقطع سلامهم عليه ثم ترك الكى فعاد سلامهم عليه.

(٥) الطبقات (٤/ ٢٨٧) وذكره الذهبى فى تاريخه (٢/ ٣٠٧) وقال الأرنؤوط: رجال ثقات.

اعتزاله للفتنة

وكان ممن اعتزل الفتنة، ولم يحارب مع عليّ.

فعن أبي قتادة: قال لي عمرانُ بن حُصين: الزم مسجدك. قلتُ: فإن دُخِلَ عليَّ؟ قال: الزم بيتك. قلتُ: فإن دُخِلَ عليَّ؟ قال: لو دخل عليَّ رجلٌ يُريدُ نفسي ومالي، لرأيتُ أن قد حلَّ لي أن أقتله»[1].

وفاضت روحه الطاهرة لتخرج من دنيا الوهم والغرور إلى دار النعيم والسرور... وتوفي سنة اثنتين وخمسين.

فرضي الله عنه وأرضاه

* * *

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: وهو في الطبقات لابن سعد (٤/ ٢٨٨).





إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً

وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن

عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه)

ربما يعيش الإنسان زمانًا طويلاً على هامش الحياة لا يدرى له هدفًا ولا يعلم لنفسه وجهة، مع أن الخير الذى بداخله تحتاج إليه أمة بأسرها ـ فى الوقت الذى لا يعلم فيه هذا الإنسان قدر نفسه ـ فإذا جاء الموعد الذى أراده الحق ـ جل جلاله ـ فإن هذا الإنسان تستيقظ فطرته من سُباتها العميق... وإذا به يعلم هدفه ويحدد وجهته وينفض غبار الغفلة ليحمل أمانة هذا الدين ويعز الله به الإسلام وأهله.

وها نحن نتعايش مع الصحابى الجليل (النعمان بن مقرن) ـ رضى الله عنه ـ الذى كان من قبيلة «مُزينة» وهى قريبة من يثرب (المدينة).

وكان الحبيب ﷺ بعد أن ضاقت (مكة) به وبأصحابه فأشار على أصحابه بالهجرة إلى يثرب (المدينة) ليكونوا فى رحاب إخوانهم من الأنصار الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه فقال:

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر:٩].

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها لعله يجد أرضًا خصبة تقبل هذا الغرسَ المبارك وتفتح قلبها لتلك الدعوة التى تحمل فى طياتها سعادة الدنيا والآخرة.

وما إن وصل الحبيب ﷺ حتى وجد قلوبًا طاهرة ووجوهًا مشرقة بالإيمان والتوحيد فأقام الحبيب بين هؤلاء الأطهار الذين بذلوا المال والنفس من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) بل واستعذبوا العذاب فى سبيل نُصرة هذا الدين.

وكانت أخبار الحبيب ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار تصل إلى أسماع قبيلة (مُزينة) التي كان ـ النعمان بن مقرن ـ سيداً من سادتهم.

فلما أراد الله ـ عز وجل ـ الخير لهذه القبيلة فتح قلب سيدهم (النعمان ابن مقرن) ليستقبل هذا النور وليكون هو وقبيلته أنصاراً لله ولرسوله ﷺ امتثالاً لأمر الله ـ جل وعلا ـ «كونوا أنصار الله».

فقام (النعمان) في تلك اللحظة التي أنعم الله عليه فيها بنعمة الهداية فجمع إخوانه وعشيرته وقال لهم: يا قوم، والله ما علمنا عن محمد إلا خيراً، ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمةً وإحسانًا وعدلاً، فما بالُنا نُبطئُ عنه، والناس إليه يُسرعون؟!.

ثم أتبع يقول: أما أنا فقد عزمت على أن أغدو عليه إذا أصبحتُ، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهزَّ.

وكأنما مسَّت كلماتُ النعمان وتراً مُرهفًا في نفوس القوم، فما إن طلع الصباح حتى وجد إخوته العَشرة، وأربعمائة فارس من فرسان «مُزينة» قد جهزّوا أنفسهم للمُضى معه إلى «يثرب» للقاء النبي صلوات الله وسلامه عليه، والدخول في دين الله[1].

موعد مع السعادة الأبدية

وإذا بهذا الوفد يخطو خطواته المباركة نحو السعادة الأبدية ليعلنوا إسلامهم بين يدى الحبيب ﷺ وليدخلوا جنة الدنيا التي سوف تُثمر لهم جنة الآخرة ـ إن شاء الله ـ.

وإذا بالنعمان يجمع بعض الهدايا ـ من الأغنام وغيرها ـ من بيته وبيوت إخوته ليقدم بها على الحبيب ﷺ وأقدامه تسابق الريح.

وما إن وصل النعمان وإخوته وعشيرته إلى يثرب (المدينة)، وإذا بهم يرون السعادة والبهجة والفرحة تكسو وجوه أصحاب الحبيب ﷺ فرحًا بقدومهم.

وإذا بهذا الوفد السعيد يعلن إسلامه بين يدى الحبيب ﷺ ويخالط الإيمان شغاف قلبه لأول مرة.

وسَعِد النبي ﷺ بإسلام (النعمان) سعادة يعجز القلم عن وصفها، فلقد كان بيت النعمانَ هو أول بيت يُسلم منه أحد عشر أخًا في وقتٍ واحدٍ.

---

(١) صور من حياة الصحابة (ص ١٩٠).

ولذا قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «إن للإيمان بيوتًا وللنفاق بيوتًا، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقِّرن».

ولما قدَّم (النعمان) الهدايا للحبيب ﷺ تقبلها منه وأنزل الله فى شأن النعمان ومن معه قرآنًا، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩٩].

وعاش النعمان فى رحاب الحبيب ﷺ ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه السامية العذبة الرقراقة.

ولقد أحب النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده وكان قلبه يحترق شوقًا لنُصرة هذا الدين لكى يستدرك كل ما فاته من الخير قبل أن يدخل الإسلام ويشعر بنعمة الإيمان.

وإذا بالنعمان يبذل نفسه وماله لله ـ جل وعلا ـ فقام ـ وقد باع نفسه لله ـ ليشهد المشاهد، فكان يقاتل كالأسد فى عرينه يشق صفوف المشركين ويصيب قلوبهم بالرعب من جرأته وشجاعته وإقدامه...

فشهد مع النبى ﷺ غزوة الخندق وأبلَى فيها بلاءً حسنًا.

وكان مع النعمان لواء «مُزينة» فى غزوة فتح مكة.

وبعد فترة ليست بالطويلة، وإذا بالحبيب ﷺ يرحل عن دنيا الناس وتفيض روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ فيحزن النعمان حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبه، وضاقت عليه الدنيا بما فيها وجلس يتذكر تلك اللحظة الخالدة يوم أن دخل المدينة وأسلم بين يدى الحبيب ﷺ .

وظل النعمان مستمسكًا بهدى الحبيب ﷺ وسُنته ومدافعًا عن دينه وشريعته.

ولما آلت الخلافة إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ كان للنعمان وإخوته وعشيرته من بنى «مُزينة» مواقف مشرقة فى القضاء على تلك الفتنة التى كادت أن تقضى على الأخضر واليابس ـ ألا وهى فتنة الردة ـ.

فإنه لما أغار المرتدون على المدينة المنورة ركب الصديِّق فى أهل المدينة وأمراء الأنقاب، إلى مَن حول المدينة من الأعراب الذين أغاروا عليها، فلما تواجه هو وأعداؤه من (بنى عبس، وبنى مُرة، وذبيان)، ومن ناصب معهم من بنى كنانة، وأمدهم طليحة

بابنه جبال، فلما تواجه القوم كان الأعراب قد صنعوا مكيدة، وهي أنهم عمدوا إلى أنحاء (مثل القِرَب) فنفخوها ثم أرسلوها من رؤوس الجبال، فلما رأتها إبل أصحاب (الصدِّيق) نفرت وذهبت كل مذهب، فلم يملكوا من أمرها شيئًا إلى الليل، وحتى رجعت إلى المدينة.

فلما وقع ما وقع ظن القوم بالمسلمين الوَهَن، وبعثوا إلى عشائرهم من نواحي أُخَر، فاجتمعوا، وبات أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قائمًا ليله يُعبئ الناس، ثم خرج على تعبئة من آخر الليل، وعلى ميمنته النعمان ابن مقرِّن، وعلى الميسرة أخوه عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، وما سمعوا للمسلمين حسًا ولا هَمْسًا، حتى وضعوا فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى ولَّوْهم الأدبار، وغَلبوهم واستولوا على أكثر ركائبهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة، وكان ذلك أولَ الفتح، وذلَّ به المشركون، وعزَّ به المسلمون، ووثب (بنو ذبيان وعبس) على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل مَن وراءهم كفعلهم فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة عدد من قُتلوا من المسلمين وزيادة.

فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله، وذلك أنه عَزَّ المسلمون في كل قبيلة، وذل الكفار في كل قبيلة، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيدًا منصورًا، سالمًا غانمًا[١].

ولما توفي الصدِّيق وآلت الخلافة للفاروق لم يتأخر النعمان ومن معه لحظة واحدة عن خدمة هذا الدين والذود عن حياضه. فإنه لما نشب القتال في القادسية أبلَى فيها النعمان بلاء الأبطال وقاتل فيها قتال الليوث.

صورة مشرقة من جهاده في (يوم تستر)

ولما حَضَّ يزدجرد أهل فارس للدفاع عن بلادهم، وأثمرت محاولاته توحيد جهود الفرس وأهل الأهواز في سبيل صدِّ عدوهم المشترك؛ فأخبر قادةُ المسلمين في الأهواز عمر بن الخطاب، فكتب عمر إلى سعد: «ابعثْ إلى الأهواز جُندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن وعجِّلْ ـ أسرِع ـ فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٨) بتصرف.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٣١١).

وتحرك النعمان بأهل الكوفة إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل، فلما وصلها بادر إلى مهاجمة جيش الهرمزان فى «رام هُرمز»، فهزم الفُرسَ، وفتح المدينة، ولجأ الهرمزان إلى مدينة «تُسْتَر»، فسار النعمان بقوات الكوفة إليه، وسارت قوات البصرة إلى «تستر» أيضًا، وأمدَّهم عمرُ بأبى موسى الأشعرى، وجعله على أهل البصرة، وجعل أبا سبرة بن أبى رَهْم قائدًا عامًا على الجميع، فاستولى عليها بعد حصار دامَ أكثر من شهر. أما الهرمزان، فالتجأ إلى قلعة المدينة وتحصَّن بها، لكنه سلَّم نفسه للمسلمين، على أن يقرر مصيره عمرُ بن الخطاب بنفسه.

وحاصر النعمان «السوس» حتى جاء أمرُ عمر بالحركة إلى «نهاوند».

وفى يوم (نهاوند)... وحان وقت الرحيل

وكان ما حدث للهرمزان حافزًا لأمراء الفرس أن يُوحِّدوا كلمتهم، فتكاتفوا وتجمعوا فى «نهاوند» حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفًا، اجتمعوا بإمرة الفيرزان، وقرر عمرُ أن يَسيرَ بنفسه لمعالجة هذا الخطر الداهم، ولكن أصحاب الشورى نصحوه بأن يبقى فى المدينة، ويرسل قائدًا يعتمد عليه؛ ليفرق شمل القوات الفارسية، فقال: «والله لأُولينَّ أمرهم رجلاً يكون أول الأسنَّة إذا لقيها غدًا.. هو النعمان بن مقرن»، فقالوا: هو لها[١].

وكتب عمر إلى النعمان: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن: سلامٌ عليك، فإنى أحْمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو، أمَّا بعد: فإنه قد بلغنى أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابى هذا فَسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غَيْضَة[٢]، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلىَّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك»[٣].

وهبَّ النعمان بجيشه للقاء العدو، وأرسل أمامه طلائع من فرسانه؛ لتكشف له الطريق، فوجدوا أن العجم قد نثروا فى الدروب المؤدية إلى «نهاوند» حَسَكَ الحديد؛ ليعوقوا الفرسان والمشاة عن الوصول إليها.

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٣).

(٢) مغيض: ماء يجتمع فيه الشجر.

(٣) تاريخ الطبرى (٣/ ٢٥٣) (٣/ ٢١٣).

وأخبر الفرسانُ النعمانَ بما رأوا، وطلبوا منه أن يمدهم برأيه، فأمرهم بأن يقفوا فى أماكنهم، وأن يوقدوا النيران فى الليل ليراهم العدو، وعند ذلك يتظاهرون بالخوف منه؛ ليغروه باللحاق بهم، وإزالة ما زرعه من حسك الحديد، وجازت الحيلة على الفرس، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضى منهزمة أمامهم، حتى أرسلوا عمالهم فكنسوا الطرق من الحسك، فكرَّ عليهم المسلمون، واحتلُّوا تلك الدروب.

وتحصَّن المشركون بحصونهم وخنادقهم ومدائنهم فى مائة وخمسين ألفًا، وأمامهم ثلاثون ألفًا من المسلمين.

وقال طليحةُ الأسدى للنعمان: أرى أن تبعث خيلاً مؤدية فيحدقوا بهم، ثم يرموهم لينشبوا القتال ويُحمِّسوهم، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج، أرزوا(1) إلينا استطرادًا(2)، فإنا لم نَستطردْ لهم فى طول ما قاتلناهم، وإنا إذا فعلنا ذلك، ورأوا ذلك منا؛ طمعوا فى هزيمتنا، ولم يشكوا فيها، فخرجوا فجادُّونا، وجاددناهم؛ حتى يقضى الله فيهم وفينا ما يحبّ.

وقالوا للنعمان: «انتقل من منزلك هذا، حتى يروا أنك هارب منهم فيخرجوا فى طلبك»(3).

ولقى هذا الرأىُ القبول، وفى حينها وكَّل النعمان تنفيذ دور الفرسان إلى القعقاع بن عمرو، وأنشب القعقاعُ القتالَ، وتحرَّش بهم، ورماهم بعد احتجاز من العجم فأخرجهم، فلما خرجوا واقتتلوا، جعل يتراجع ويتراجع ويتراجع، وكأنه انهزام... ورمى المجوس المسلمين بالنبل، والمسلمون يستترون بالحجف، لا يتحركون، حتى أكثروا فيهم الجراح، وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك، ثم قالوا للنعمان: «ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما لقى الناس، فما تنتظر بهم؟! ائذن للناس فى قتالهم»... فيجيبهم النعمان تلميذ سعد: «رويدًا رويدًا» وأعادوا عليه القول وهو يجيبهم: «رويدًا رويدًا».

قال المغيرة بن شعبة ـ وقد رأى كثرة جيوش العجم وما تفعل ـ: «لم أرَ كاليوم فشلاً، إن عدونا يُتركون يتأهبون ولا يُعجلون!! أما والله لو أن هذا الأمر إلىَّ، لكنت قد أعجلتهم وعلمت ما أصنع، ولو كنت بمنزلتك باكرتهم القتال».

---

(1) أى: لجئوا.
(2) مبارزة على الخيل بالكرِّ والفرِّ.
(3) الطبرى (٤/ ١١٥).

قال النعمان: «رويدًا ترى أمرك، وقد كنت تلى الأمر فتحسن، فلا يخذلنا الله ولا إياك، ونحن نرجو فى المكث مثل الذى ترجو فى الحثّ، ربما باكرت القتال ثم لم يسوّد الله وجهك، فالله عز وجل يشهدك أمثالها، فلا يحزنك ولا يعيبك موقفك، إنه والله ما منعنى من أن أناجزهم إلا شيءٌ شهدته من رسول الله ﷺ؛ إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أولَ النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاةُ، وتهب الأرواحُ، ويطيب القتالُ، فما منعنى إلا ذلك»(١).

ووقف النعمان وقال لجيشه:

«قد علمتم ما أعزَّكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور... والله مُنجزٌ وعده ـ إلى أن قال ـ: فإذا قضيت أمرى فاستعدوا فإنى مكبرٌ ثلاثًا، فإذا كبَّرتُ التكبيرة الأولى؛ فشدَّ رجلٌ شسعه، وأصلح من شأنه، وليتهيأ مَنْ لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية؛ فشدَّ رجلٌ إزاره، وليشدَّ عليه سلاحه، وليتأهب للنهوض، ويتهيأ لوجه حملته، فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معًا.

اللهم إنى أسألك أن تُقرَّ عينى اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام، وذُلٌّ يُذَلُّ به الكفار، ثم اقبضنى إليك بعد ذلك على الشهادة، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك... أمّنوا يرحمكم الله»(٢).

فأمّن المسلمون وبكوا.

وحمل النعمان مع التكبيرة الثالثة، وهو يحمل الراية وقد رآها المسلمون تنقضّ نحو الأعاجم انقضاض العقاب، وكان النعمان مميزًا بقباء أبيض، وقلنسوة بيضاء... يقول جبير: «فوالله ما علمت من المسلمين أحدًا يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد على الحديد حتى أُصيب المسلمون بمصائب عظيمة، فلما رأوا صبرنا وأنّا لا نبرح العرصة ـ الساحة ـ انهزموا، فجعل يقع الواحدُ فيقع عليه سبعةٌ، بعضهم على بعض فى قياد فيُقتلون جميعًا، وجعلوا يعقرهم حَسَكُ الحديد الذى وضعوه خلفهم».

واقتتلوا بالسيوف قتالاً شديدًا، يصفه الرواة بقولهم: «لم يسمع السامعون بوقعة قط كانت أشدّ منها» واستمرّ القتال من انتصاف النهار حتى هبوط الظلام، وكثر قتلى

(١) الطبرى (٤/ ١١٥) نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين.
(٢) تاريخ الطبرى (٤/ ١١٩).

الفرس حتى طبق أرض المعركة دمًا يزلق فيه الناس والدواب، فانزلق فيه من خيول المسلمين وأصيب فرسانهم، وزلق فرس النعمان فلقى النعمان مصرعه.

وفى رواية ابن إسحاق وجبير: أنه رُمى بنشابة فأصابت خاصرته فقتلته، وكان أخوه نعيم بن مقرن قريبًا منه، وأسرع نعيم - وفى رواية جبير: معقل بن مقرن - وسجّى النعمان بثوب، ثم أتى حُذيفة بن اليمان فى مَيْمَنَته فدفع إليه الراية باعتباره خليفة النعمان. وكتموا مصاب النعمان عن الجيش لكيلا يهنَ الناس.

واستمرَّ القتالُ حتى إذا أظلم الليل، انكشف العجم وتراجعوا، والمسلمون ملتحمون بهم ملتبسون فيهم لا يرفهون عنهم، فاختلط عليهم طريق التراجع وعمى عليهم قصدهم فخرجوا عنه، واتجهوا نحو اللهب[1] الذى كانوا دونه «بأسبيذهان» فوقعوا فيه، فكان لا يهوى منهم أحدٌ إلا صرخ بالفارسية: «وايَهْ خُرْد»، وبذلك سُمِّى المكان، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون، وفى رواية: أنه قُتل فى اللهب ثمانون ألفًا، وفى المعركة ثلاثون ألفًا، مقترنوّن فى السلاسل سوى من قُتل فى المطاردة[2].

واجتمع المسلمون بعد المعركة فتساءلوا: «أين أميرنا؟»، قال معقل بن مقرن المزنى: «هذا أميركم، قد أقرّ اللهُ عينه بالفتح، وختم له بالشهادة».

وفى رواية عن معقل بن يَسار قال: «فأتيت النعمان وبه رَمَقٌ، فغسلت وجهه من إداوَة ماء كانت معى. فقال: من أنت؟ قلت: معقل، قال: ما صنع المسلمون؟ قلت: أبشر بفتحَ اللهَ ونصره. قال: الحمد لله، اكتبوا إلى عمر... ولم يفلت إلا الشريد، فكان منهم (فيرزان)، ولما أُتى عمر بغنائم «نهاوند»، فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم بكى، فنشج حتى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده... ونشج كأنما أصيب بأعزِّ إنسانٍ لديه... وكاد الحزن على النعمان يُنْسى عمر فرحة الفتح بهذا النصر الكبير الذى سُمِّى فى التاريخ بفتح الفتوح. فقال: ومن ويحك؟! فقال: فلان وفلان، حتى عددت له ناسًا كثيرًا، يقول السائب: فلمَّا رأيت ما لقى، قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجلٍ يُعرف وجهه، فقال عمر وهو يبكى: المستضعفون من المسلمين [لا يضرّهم ألا يعرفهم عمر] لكن الذى أكرمهم

(١) جرف من خندق أو واد عميق.

(٢) تاريخ الطبرى (٤/ ١٣٦).

بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر بن أم عمر؟[١].

وهكذا رحل النعمان وسالت دماؤه الشريفة التي لطالما امتزجت بحب الله وحُب رسوله ﷺ والشوق إلى نُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ.

رحل ولكن سيرته لم ترحل وستبقى دائمًا يرويها الأجيال بعد الأجيال لتكون نوراً على الدرب.

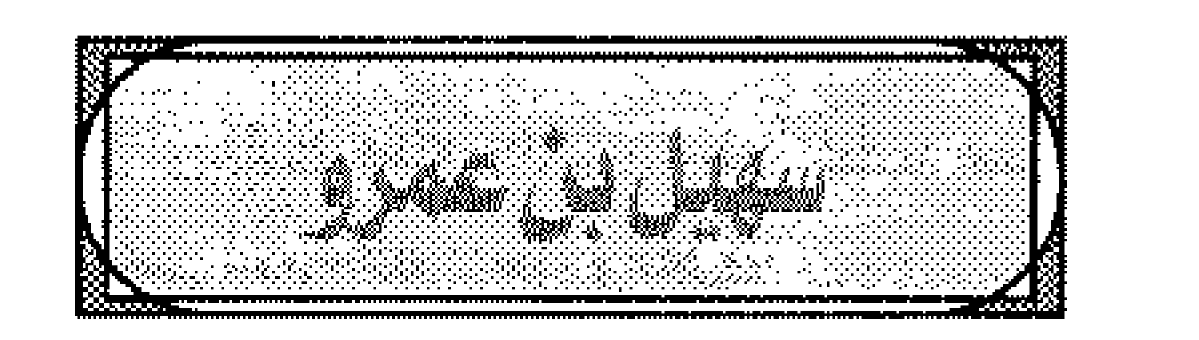
رحل ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه في جنات النعيم إخوانًا على سررٍ متقابلين.

فرضي الله عن (النعمان) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) الكامل لابن الأثير (٣/ ٦) ـ نقلاً من صلاح الأمة/ د. سيد حسين.





من العداوة إلى الشهادة

وها نحن نقلب صفحات الزمن لنعيش وقتًا يسيراً مع صحابي جليل ألا وهو: سهيل ابن عمرو ـ رضي الله عنه ـ.

إنه سيد من سادات قريش وخطيبهم وفصيحهم.. لقد كان في الجاهلية عدوًا للإسلام ولرسول الله ﷺ ، وكان يؤلِّب الناس على الدعوة وصاحبها الصادق الأمين ﷺ .

وعلى الرغم من ذلك يستجيب ابنه (أبو جندل بن سهيل بن عمرو) لنداء الإسلام ويُسلم لله ـ جل وعلا ـ فحبسه أبوه وأوثقه في الحديد.

ولما كان يوم بدر خرج سهيل بن عمرو لمقاتلة المسلمين، فلما كتب الله النصر للنبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ كان (سهيل بن عمرو) من بين الأسرى.

فلما أراد سهيل أن يفدي نفسه بالمال نظر إليه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال للنبي ﷺ: دعني أنزع ثَنِيَّتي سُهيل، فلا يقوم علينا خطيبًا، فقال: «دعها، فلعلها أن تسُرَّك يومًا».

فلما مات النبي ﷺ قام سُهيل بن عمر، فقال لهم: مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت[1].

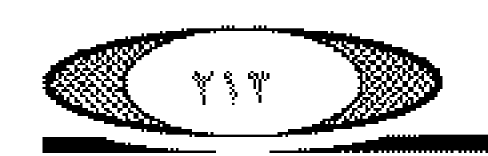
فكان موقف سهيل في مكة يعدل موقف أبي بكرٍ في المدينة يوم وفاة النبي ﷺ .

سَهُل لكم من أمركم

إنها الكلمة المشهورة التي قالها النبي ﷺ في صلح الحديبية عندما رأى سهيل بن عمرو قد أرسلته قريش لإبرام الصلح مع النبي ﷺ :

كما جاء في رواية البخاري أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ سَهُل لكم من

(١) رواه البيهقي في الدلائل ـ نقلاً من الإصابة لابن حجر (٣/ ١٧٨).



أمركم. (قال معمر قال الزهري في حديثه). فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل:أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هي، ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» فقال النبي ﷺ «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو (يرسُفُ في قُيوده)، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا. قال النبي ﷺ: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل[1].

يوم مولده من الشرك إلى الإسلام

وظل سهيل على موقفه تجاه الإسلام إلى أن امتن الله على رسوله ﷺ بالنصر من غير قتال ودخل مكة فاتحًا منتصرًا.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب، فقال: «ماذا تقولون؟» فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرًا، ونظنّ خيرًا، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، وقد قدرت. فقال: «أقولُ كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٨٨ ـ ٣٩٢) الشروط ـ وأبو داود (٢٧٤٨) الجهاد.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٥٨) وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٤) نقلاً من الإصابة لابن حجر (٣/ ١٧٧).

فذاب سهيل بن عمرو ومن معه خجلاً وحياءً من أخلاق النبى ﷺ ورحمته التى تجعل العقول تطيش من الحيرة وتجعل الألسنة لا تملك أن تقول كلمة واحدة.

إن النبى ﷺ كان يملك أن يقضى على أهل مكة قضاءً لا رجعة فيه ـ وهو غير ملوم ـ وعلى الرغم من ذلك يعفو ويصفح بعد كل ما فعله أهل مكة به وبأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ.

فامتلأ قلب سهيل بحب النبى ﷺ والرغبة فى الإسلام.فأرسل سهيل إلى ابنه عبد الله (أبو جندل) ليستأمن له رسول الله ﷺ فأمَّنه فخرج إلى حُنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة منصرف رسول الله ﷺ من حُنين فأعطاه رسول الله ﷺ يومئذٍ مائة من الإبل من غنائم حُنين[١].

استدراك ما فات

وها هو سهيل ـ رضى الله عنه ـ بعد أن أسلم ولامس الإيمان شغاف قلبه يحاول أن يعوّض ما فاته وقلبه يعتصر ألمًا على كل لحظة قضاها بعيدًا عن طاعة الله ـ جل وعلا ـ.

عن ابن قمادين قال: لم يكن أحد من كبراء قريش، الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة، أكثر صلاة ولا صومًا ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة، من سهيل بن عمرو، حتى إن كان لقد شَحُب لونه. وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن. لقد رُئى يختلف إلى معاذ بن جبل حتى يُقرئه القرآن وهو بمكة، حتى خرج معاذ من مكة، فقال له ضرار بن الخطاب: يا أبا يزيد، تختلف إلى هذا الخزرجى يقرئك القرآن؟ ألا يكون اختلافك إلى رجل من قومك من قريش؟ قال: يا ضرار، هذا الذى صنع بنا ما صنع حتى سُبقنا كل السبق، أى لعمرى أختلف إليه لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُذكرون فى الجاهلية فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا[٢].

* * *

(١) الطبقات لابن سعد (٧/ ٢٨٤).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣١٤).

ندم وأسف

وها هو سهيل ـ رضى الله عنه ـ يتفطّر قلبه أسفًا وندمًا على تأخره عن الاستجابة لدعوة الحق.

فعن الحسن قال: حضر باب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سهيل ابن عمرو، والحارث وبلال، وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً، فخرج آذن عمر فأذِن لهم، وترك هؤلاء. فقال أبو سفيان: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ونحن علىَ بابه لا يلتفت إلينا؟ فقال سهيل بن عمرو، وكان رجلاً عاقلاً: أيها القوم إنى والله لقد أرى الذى فى وجوهكم، إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دُعى القوم ودُعيتم فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم؟ أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل مما لا ترون أشد عليكم فوتًا من بابكم هذا الذى كنتم تنافسونهم عليه. قال: ونفض ثوبه وانطلق.

قال الحسن: وصدق والله سهيل، لا يجعل الله عبداً أسرع إليه كعبد أبطأ عنه[1].

العزم على قطع الطريق إلى الجنة

ومضى سهيل يشق طريقه إلى جنة الرحمن، وإلى تعويض ما فاته... وإذا به يقول قولته الشهيرة: والله لا أدعُ موقفًا وقفتُهُ مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقتُ على المسلمين مثلها، لعل أمرى أن يتلو بعضه بعضًا[2].

الشهادة فى سبيل الله

ويا لها من خاتمة السعادة أن يموت الإنسان شهيداً.

قال الزبير بن بكار: كان سهيل كثيرَ الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، ويُقال: إنه صام وتهجد حتى شَحُبَ لونه وتغيّر، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن. وكان أميراً على كُرْدُوسٍ[3] يوم اليرموك.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ١٧٨).

(٣) الكردوس: الطائفة العظيمة من الخيل والجيش. والجمع كراديس.

قال المدائنى وغيره: استشهد يوم اليرموك. وقال الشافعى، والواقدى: مات فى طاعون عمواس[١].

والراجح أنه مات فى طاعون عَمواس.

فعن أبى سعد بن أبى فضالة قال: اصطحبتُ أنا وسهيل بن عمرو إلى الشام فسمعته يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مقامُ أحدكم فى سبيل الله ساعة من عُمره خيرٌ من عمله عمره فى أهله». قال سهيل: فإنما أرابط حتى أموت، ولا أرجع إلى مكة، قال: فلم يزل مُقيمًا بالشام حتى مات فى طاعون عَمواس[٢].

وقد قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٣].

وقال ﷺ: «الطاعون كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، وإنَّ الله جعله رحمة للمؤمنين، فليس من أحد يقعُ الطاعونُ فيمكثُ فى بلده صابرًا محتسبًا، يعلمُ أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلّا كان له مثلُ أجر شهيد»[٤].

فرضى الله عن سهيل وحشرنا وإياه مع زمرة الشهداء فى جنات النعيم

* * *

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ١٩٥) بتصرف.

(٢) الإصابة لابن حجر (٣/ ١٧٨).

(٣) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٩٤٧).

(٤) أخرجه البخارى وأحمد عن عائشة ـ صحيح الجامع (٣٩٤٩).



أبو ذر الغفارى

من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى فلينظر إلى أبى ذر

محمد رسول الله ﷺ

قال ﷺ: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقُهوا»(١).

وها نحن نفتح صفحة نقية بيضاء لهذا الصحابى الجليل الذى ملأ الدنيا بزهده وورعه... الذى لم تستطع الدنيا أن تنال من قلبه شيئًا... إنه أبو ذرٍ الغفارى.

أحدُ السابقين الأولين، من نُجباء أصحاب محمد ﷺ.

قيل: كان خامسَ خمسة فى الإسلام. ثم إنه رُدَّ إلى بلاد قومه، فأقام بها بأمر النبى ﷺ له بذلك، فلما أن هاجر النبى ﷺ هاجر إليه أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ ولازمه، وجاهد معه.

وكان يُفتى فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان.

وكان رأسًا فى الزهد، والصدق، والعلم والعمل، قوالاً بالحق، لا تأخذه فى الله لومةُ لائم، على حِدَّة فيه.

وقد شهد فتح بيت المقدس مع عمر(٢).

قصة إسلامه

لقد كان أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ يعيش فى قبيلة تُسمى «غفار» وهى قبيلة مشهورة بقطع الطريق على القوافل فإن أعطتها القافلة ما تريد وإلا أغارَت عليها وأخذت كل ما فيها.

وكان أبو ذر يتعبد قبل مبعث رسول الله ﷺ ، بل كان يجلس وحده كثيرًا للتفكّر...

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٢٦٧).
(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ٤٦، ٤٧).

إنه يبحث عن عالمٍ آخر يجد فيه الأمان والأمانة والمحبة والإخاء.. يبحث عن فجرٍ قريب يضيء أركانَ الكون ويُبدد ظلمات الجاهلية فيحوّلها إلى عالمٍ مثالى يعيش الناسُ فيه على قلب رجلٍ واحدٍ...

وكانت تلك الأمنية لا يمكن أن تتحقق بحالٍ من الأحوال إلا فى ظل هذا الدين العظيم.

وما هى إلا فترة يسيرة حتى سمع أبو ذر بمبعث نبى آخر الزمان ﷺ فأراد أن يتثبت من هذا الخبر.. أقصد هذا الحلم الجميل الذى ملأ قلبه فرحة وسروراً وسعادة لو وُزعت على الكون كله لاكتفى الكون من تلك السعادة وتصدَّقوا بما تبقى منها على سائر الكواكب.

وهنا أدع المجال لهذا الصحابى الجليل ليروى لنا جميعًا قصة إسلامه.

وما أجملها من قصة.

قال أبو ذر: بلغنى أن رجلاً بمكة قد خرج، يزعمُ أنه نبى، فأرسلتُ أخى ليكلمه، فقلت: انطلق إلى هذا الرجل، فكلِّمه. فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ قال: والله، لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. قلت: لم تشفنى. فأخذت جرابًا وعصًا، ثم أقبلتُ إلى مكة، فجعلتُ لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشربُ من ماء زمزم، وأكونُ فى المسجد. فمرَّ (علىٌّ بن أبى طالب)، فقال: هذا رجلٌ غريب؟ قلت: نعم. قال: انطلق إلى المنزل. فانطلقت معه، لا أسأله عن شىء، ولا يُخبرنى!

فلما أصبح الغدُ، جئتُ إلى المسجد لا أسأل عنه، وليس أحد يخبرنى عنه بشىء. فمرَّ بى (علىٌّ)، فقال: أما آن للرجل أن يعود؟ قلت: لا. قال: ما أمرك، وما أقدمك؟ قلت: إن كتمت علىَّ أخبرتك؟ قال: أفعل. قلتُ: قد بلغنا أنه قد خرج نبى. قال: أما قد رشدت! هذا وجهى إليه، فاتبعنى وادخل حيث أدخل، فإنى إن رأيت أحدًا أخافه عليك، قمتُ إلى الحائط كأنى أُصلحُ نعلى! وامضِ أنت.

فمضى، ومضيتُ معه، فدخلنا على النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله، اعرض علىَّ الإسلام. فعرض علىَّ، فأسلمتُ مكانى. فقال لى: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى قومك! فإذا بلغك ظهورنا، فأقبل.

فقلتُ: والذى بعثك بالحق، لأصرُخنَّ بها بين أظهرهم.

فجاء إلى المسجد وقريشٌ فيه، فقال: يا معشر قريش، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا: فضُربتُ لأموت! فأدركني العباسُ، فأكبَّ عليَّ، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غفار! فأُطلقوا عنى. فلما أصبحتُ، رجعتُ، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ! فصُنع بى كذلك، وأدركنى العباس، فأكبَّ عليَّ[1].

وعن أبى ذر، قال: كنتُ رابعَ الإسلام، أسلم قبلى ثلاثةٌ، فأتيت نبى الله، فقلت: سلامٌ عليك يا نبى الله. وأسلمت، فرأيت الاستبشار فى وجهه، فقال: مَن أنت؟ قلتُ: جندب، رجل من غِفار.

قال: فرأيتها فى وجه رسول الله ﷺ. وكان فيهم من يسرق الحاج[2].

وفى رواية أنه قال لأخيه أُنيس: اكفنى حتى أذهب فأنظر. قال: فأتيت مكة فتضعفت رجلاً منهم فقلت: أين هذا الذى تدعونه الصابئ؟ فأشار إليَّ فقال: الصابئ.

فمال عليَّ أهل البوادى بكل مَدَرة وعظم حتى خررت مغشيًا عليَّ قال: فارتفعت حين ارتفعت كأنى نُصُبٌ أحمر. قال: فأتيت زمزم فغسلت عنى الدماء وشربت من مائها، ولقد لبثت يا ابن أخى ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عُكَن بطنى وما وجدت على كبدى سخفة جوع... إلى أن قال: وجاء رسول الله حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلى فلما قضى صلاته (قال أبو ذر): فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام. قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك ورحمة الله» ثم قال: «ممن أنت؟» قال: قلت: من غفار. قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، فقلت فى نفسى: كره أن انتميت إلى غفار، فذهبت آخذ بيده فقدعنى صاحبه، وكان أعلم به منى، ثم رفع رأسه ثم قال: «متى كنت هاهنا» قال: قلت: قد كنت ههنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: «فمن كان يطعمك؟» قال: قلت: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسَّرت عُكن بطنى، وما أجد على كبدى سخفة جوع. قال: «إنها مباركة، إنها طعام طُعم» فقال أبو بكر: يا رسول الله ائذن لى فى طعامه الليلة، فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقت معهما ففتح أبو

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٤٠٠) (٧/ ١٣٢، ١٣٤) المناقب ـ ومسلم (٢٤٧٤) فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه الطبرانى برقم (١٦١٧) ولفظه بعد قوله: رجل من غفار: فكأنه ﷺ ارتدع وود أنى كنت من قبيلة غير التى أنا منهم، وذاك أنى كنت من قبيلة يسرقون الحاج بمحاجن لهم. وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٤٢) إلى قوله: فرأيت الاستبشار فى وجهه، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

بكر بابًا فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، وكان ذلك أول طعام أكلته بها ثم غبّرت ما غبّرت، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد وُجهت لى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب فهل أنت مبلّغ عنى قومك؟ عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم» فأتيت أنيسًا فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت أنى قد أسلمت وصدقت. قال: ما بى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارًا فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم إيماءُ بن رخصة الغفارى، وكان سيدهم. وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقى، وجاءت أسلم ـ قبيلة أسلم ـ فقالوا: يا رسول الله! إخوتنا نُسلم على الذى أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ : «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»(١).

وهكذا حمل أبو ذر أمانة هذا الدين على أعناقه فمن أول لحظة لامس الإيمان شغاف قلبه وأحسَّ بنوره أراد أن يعيش الكون كله فى هذا النور.

وعاش أبو ذر فى قبيلته زاهدًا عابدًا حتى مضت غزوة بدر وأُحد والخندق، ثم جاء إلى الحبيب ﷺ فى المدينة ولازم النبى ﷺ واستأذنه فى أن يقوم بخدمته فأذن له.

رَحِمَ الله أبا ذر.. يمشى وحده ويموت وحده ويُبعث وحده

وفى الطريق إلى غزوة تبوك مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلَّفَ أبو ذر، وأبطأ به بعيره؛ فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»؛ وتلوَّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا. ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا لرجلٌ يمشى على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ : «كُن أبا ذر». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر؛ فقال رسول الله ﷺ : «رَحِمَ الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) وأحمد مطولاً (٥/ ١٧٤ ـ ١٧٥).
(٢) السيرة لابن هشام (٤/ ١٤٩).

محبة النبى ﷺ ووصاياه الغالية له (رضى الله عنه)

ولقد أحبه النبى ﷺ حبًا جمًا من أعماق قلبه حتى إنه قال ذات مرة عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ: «ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذى لهجةٍ أصدق ولا أوفَى من أبى ذرٍ شبهُ عيسى ابن مريم»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم، فلينظر إلى أبى ذر»(٢).

وها هو الحبيب ﷺ يوصيه بتلك الوصايا الغالية.

فعن أبى ذر، قال: أوصانى خليلى ﷺ بسبع: «أمرنى بحُبِّ المساكين والدنو منهم، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى، وأن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأن أصل الرحم وإن أدبرت، وأن أقول الحق وإن كان مُرًا، وألا أخاف فى الله لومة لائم، وأن أُكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهنَّ من كنزٍ تحت العرش»(٣).

وقد قال النبى ﷺ لأبى ذر ـ مع قوة أبى ذر فى بدنه وشجاعته ـ «يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفًا، وإنى أُحبُّ لك ما أُحبُّ لنفسى، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم»(٤).

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: فهذا محمول على ضعف الرأى، فإنه لو ولى مال يتيم، لأنفقه كله فى سبيل الخير، ولترك اليتيم فقيرًا. فقد ذكرنا أنه كان لا يستجيزُ ادخار النقدين، والذى يتأمَّرُ على الناس، يريد أن يكون فيه حلمٌ ومداراةٌ... وأبو ذر ـ رضى الله عنه ـ كانت فيه حدة ـ كما ذكرنا ـ فنصحه النبى ﷺ (٥).

بل كان النبى ﷺ يقرّبه إليه كثيرًا.

فعن أبى ذر، قال: كنتُ رِدفَ رسول الله ﷺ على حمارٍ وعليه برذعةٌ، أو قطيفة(٦).

وهذا دليل على عظيم تواضع النبى ﷺ وعلى شدة محبته لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ.

(١) رواه الترمذى وابن حبان والحاكم عن أبى ذر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٣٨).
(٢) رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٢).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩) وابن سعد (٤/ ٢٢٩) وسنده حسن.
(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٦) الإمارة ـ وأحمد (٥/ ١٨٠) وابن سعد (٤/ ٢٣١).
(٥) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ٧٥).
(٦) إسناده صحيح: وهو فى طبقات ابن سعد (٤/ ٢٢٨) ومسند أحمد (٥/ ١٦٤).

مكانته في قلوب الصحابة (رضى الله عنهم)

سُئل (عليٌّ) عن أبي ذر؛ فقال: وعى علمًا عجز عنه، وكان شحيحًا على دينه، حريصًا على العلم، يُكثرُ السؤال، وعجز عن كشف ما عنده من العلم(١).

وعن (عليّ) قال: لم يبق أحدٌ لا يُبالي في الله لومة لائم، غير أبي ذر، ولا نفسي. ثم ضرب بيده على صدره(٢).

ولما توفي رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى لم يستطع أبو ذر أن يعيش في المدينة بعد أن أظلمت بموت الحبيب ﷺ وخلت من صوته العذب ومجالسه المباركة فرحل إلى البادية وعاش فيها مُدة خلافة الصدّيق والفاروق ـ رضي الله عنهما ـ.

وفي خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ نزل في (دمشق) فلما رأى أن كثيراً من المسلمين قد أقبلوا على الدنيا وانغمسوا في الترف قام فيهم ناصحًا ومذكراً.

ولما استدعاه عثمان ـ رضي الله عنه ـ يومًا قام أبو ذرٍ ـ رضي الله عنه ـ وطلب منه أن يأذن له في أن ينزل (بالربذة) فأذِن له.

الردّ على من زعم أن عثمان أخرج أبا ذر إلى الربذة (رضى الله عنهما)

بكل أسف وجدت أن كثيراً ممن كتبوا عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يُثبتون في كتبهم أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قد أخرج أبا ذرٍ ـ رضي الله عنه ـ إلى الربذة على الرغم من أن أبا ذرٍ كان لا يريد ذلك.

وهذا ظلم عظيم، ومنكر أثيم... فعثمان ـ رضي الله عنه ـ أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون، أو ينالهم بمكروه؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبي ذر والدليل على ذلك ما رواه زيد بن وهب قال: «مررتُ بالربذة، فقلت لأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: ما أنزلك هذا المنزل؟ فقال: أُخبرك، إني كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

(١) ابن سعد (٤/ ٢٣٢) نقلاً من سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠).
(٢) ابن سعد (٤/ ٢٣١) نقلاً من سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٤).

فقال معاوية: هذه نزلت فى أهل الكتاب، وقلت أنا: هى فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك فكتب إلىّ: أن أقدم علىّ، فقدمتُ عليه فانثال علىَّ الناس كأنهم لم يعرفونى فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيّرنى فقال: انزل حيث شئت»[١].

وقال عبد الله بن الصامت: «دخلت مع أبى ذر فى رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذى لا يُدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، فانتهى إليه فسلّم عليه، قال: ثم ما بدأه بشىء إلا أن قال: أحسبتنى منهم يا أمير المؤمنين؟! والله ما أنا منهم ـ يعنى الخوارج ـ ولا أدركهم، ولو أمرتنى أن أعضّ على عرقوبى قتب لعضضت عليهما حتى يأتينى الموت وأنا عاض عليهما.

قال: صدقت يا أبا ذر، إنا إنما أرسلنا إليك لخير؛ لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لى فى ذلك، ثم استأذنه فى الربذة، فقال: ائذن لى فى الربذة.

قال: نعم نأذن لك، ونأمر لك بنَعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رَسلها ـ اللبن ـ.

قال: لا حاجة لنا فى ذلك، يكفى أبا ذر صرمته[٢] ثم خرج فنادى: دونكم معاشر قريش، دنياكم فاعذموها لا حاجة لنا فيها، ودعونا ودينا[٣].

قال غالب القطان: قلت للحسن البصرى: أعثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا معاذ الله[٤].

وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله ـ إذا ذُكر له أن عثمان بن عفان سيَّره أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من قِبَل نفسه، ولم يُسيِّره عثمان ـ رضى الله عنه ـ[٥].

* * *

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو نعيم (١٣٩) فى «تثبيت الإمامة».
(٢) الصرمة: القطعة من الإبل.
(٣) صحيح: أخرجه ابن سعد فى «طبقاته» (٤/ ٢٣٢)، وابن شبة فى «تاريخ المدينة» (٣/ ١٠٣٦، ١٠٤١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٦٠).
(٤) إسناده حسن: أورده الذهبى فى «تاريخ الإسلام» وابن شبة (٣/ ١٠٣٧).
(٥) إسناده حسن: أخرجه ابن شبة (٣/ ١٠٣٧).

صفحات مضيئة من زهده وعبادته

وعاش أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ حياة الزهد والتقشف فى (الربذة) وظل على تلك الحالة التى تركه عليها رسول الله ﷺ .

عن أبى بكر بن المنكدر، قال: بعث حبيب بن مسلمة، وهو أمير بالشام، إلى أبى ذر بثلاث مائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فقال أبو ذر: ارجع بها إليه أوَ ما وجد أحدًا أغرّ بالله ـ عز وجل ـ منا؟ ما لنا إلا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ثم إنى لأتخوف الفضل ـ الزيادة ـ.

وعن جعفر بن سليمان قال: دخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا. قال: إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا، قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

وعن عبد الله بن سيدان عن أبى ذر أنه قال: فى المال ثلاثة شركاء: القدر؛ لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت. والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم. وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن. إن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالى فأحببت أن أقدمه لنفسى[١]... وكان أبو ذر قد تصدَّق بهذا الجمل.

وقال ثابت البنانى: بنى أبو الدرداء مسكنًا، فمرَّ عليه أبو ذر، فقال: ما هذا! تعمرُ دارًا أذن الله بخرابها... لأن تكون رأيتُك تتمرَّغُ فى عذرة أحبُّ إلى من أن أكون رأيتُك فيما رأيتُك فيه[٢].

وعن أبى أسماء، أنه دخل على أبى ذر بالربذة، وعنده امرأة له سوداء مُشعثة، ليس عليها أثرُ المجاسد والخلوق. فقال: ألا تنظرون ما تأمرنى به؟ تأمرنى أن آتى العراق، فإذا أتيتُها مالوا علىَّ بدنياهم، وإن خليلى عهد إلىَّ: «إنَّ دون جسر جهنم طريقًا ذا دحض ومزلة» وإنا أن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدارٌ أحرى أن ننجو [من أن نأتى عليه ونحنُ مواقير][٣].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٤٦: ٢٤٨) بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٢/ ٧٤).

(٣) رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٤/ ٢٣٦) وأحمد (٥/ ١٩٥).

من وصاياه ونصائحه الغالية

عن سفيان الثوري قال: قام أبو ذر الغفاري عند الكعبة فقال: يا أيها الناس، أنا جندب الغفاري هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى. قال: فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حُجّوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يومًا شديدًا حره لطول النشور، وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور... كلمة خير تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يومٍ عظيم. تصدّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها. اجعل الدنيا مجلسين مجلسًا في طلب الحلال، ومجلسًا في طلب الآخرة. الثالث يضر ولا ينفعك لا تردهُ.

اجعل المال درهمين: درهمًا تنفقه على عيالك من حله، ودرهمًا تقدمه لآخرتك، الثالث يضرك ولا ينفعك لا تَردهُ. ثم نادَى بأعلى صوته: يا أيها الناس، قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدًا.

وعن نافع الطاحي قال : مررت بأبي ذر فقال لي : ممن أنت؟ قلت : من أهل العراق. قال : أتعرف عبد الله بن عامر؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان يتقرأ معي ويلزمني، ثم طلب الإمارة. فإذا قدمت البصرة فترايا له، فإنه سيقول لك حاجة فقل له: أخلني، فقل له: أنا رسول أبي ذر إليك وهو يقرئك السلام ويقول لك: إنا نأكل من التمر، ونشرب من الماء ونعيش كما تعيش.

فلما قدمت تراءيت له فقال: ألك حاجة؟ فقلت: أخلني أصلحك الله. فقلت: أنا رسول أبي ذر إليك ـ فلما قلتها خشع لها قلبه ـ وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنا نأكل من التمر ونشرب من الماء ونعيش كما تعيش. قال: فحلل إزاره ثم أدخل رأسه في جيبه ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء[1].

❊ ❊ ❊

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) بتصرف.

وحان وقت الرحيل

وبعد تلك الحياة المليئة بالزهد والعطاء والطاعة نام أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليُسلم الروح إلى بارئها وليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ واصفًا موت أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ: «ثم نزل بالربذة فأقام بها حتى مات فى ذى الحجة من هذه السنة[1]، وليس عنده سوى امرأته وأولاده ، فبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه إذ قدم عبد الله بن مسعود من العراق فى جماعة من أصحابه، فحضروا موته، وأوصاهم كيف يفعلون به، وقيل قدموا بعد وفاته، فتولوا غسله ودفنه.

وكان قد أمر أهله أن يطبخوا لهم شاة من غنمه ليأكلوه بعد الموت، وقد أرسل عثمان ابن عفان إلى أهله فضمهم مع أهله»[2].

وهكذا يحفظ الله المؤمن فى ذريته كما كان يحفظ الله فى السر والعلن ويمتثل أمره فى المنشَط والمكرَه.

فرضى الله عن (أبى ذر) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) سنة ٣٢.

(٢) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٧٢).

خالد بن سعيد

أول مَن كتب «بسم الله الرحمن الرحيم»
فلما استشهد سطع له نورٌ إلى السماء

إن الله ـ عز وجل ـ يُخرج الحى من الميت بقدرته وإرادته.

وها هو رجل ميت يلبس ثوب الحياة الزائف، وعلى الرغم من ذلك يُخرج الله من حناياه رجلاً مؤمنًا حيًا بإيمانه وعقيدته الراسخة السامية.

إنه سعيد بن العاص الذى عاش ومات كافرًا، ولكن الله أخرج من صُلبه (خالد بن سعيد) ذلك الصحابى الجليل الذى كان شامة فى جبين الزمن.

لقد نشأ خالد فى بيت قد امتلأ بكل أنواع النعيم الدنيوى والسيادة الزائفة، فقد كان أبوه (سعيد بن العاص) من السادة الذين تصدروا للزعامة والرئاسة فى قومه، فهو صاحب كلمة مسموعة.

وكان سعيد بن العاص يبغض الحبيب ﷺ ويسعى بكل ما أُوتى من قوة لوأد دعوته فى مهدها قبل أن تنتشر بين الناس فى كل مكان.

ولكن بطلنا الحبيب (خالد) ـ رضى الله عنه ـ كان يشعر برغبة شديدة فى رؤية النبى ﷺ ليسمع كلامه ويعلم عن دعوته ولو شيئًا يسيرًا ليعرف السبب الذى حمل أباه على عدائه بتلك الصورة البشعة... فلما سأل عن النبى ﷺ علم أنه لا ينبغى لإنسانٍ على وجه الأرض إلا أن يحبه من كل قلبه.

أسلم بسبب تلك الرؤيا !!!

كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص قديمًا وكان أول إخوته إسلامًا.

وكان بدء إسلامه أنه رأى فى المنام أنه وُقف به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به. ويرى فى النوم كأن آت أتاه يدفعه فيها ويرى رسول الله ﷺ آخذًا بحقويه ولا يقع، ففزع من نومه فقال: احلف بالله أن هذه لرؤيا حق، فلقى أبا بكر بن أبى قحافة

فذكر له، فقال: أُريد بك خير... هـذا رسـول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستتبعه وتدخل معه فى الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها (يعنى النار) وأبوك واقع فيها، فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد، فقال: يا رسول الله يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا يبصر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لا يعبده». قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل فى طلبه فأتى به. فأنَّبه وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه. وقال: والله لأمنعنك القوت: فقال خالد: إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه ويكون معه[1].

فكان خالد بن سعيد خامس خمسة أسلموا لله ـ جل وعلا ـ.

فعن أم خالد قالت: كان أبى خامسًا سبقه أبو بكر وعلىّ وزيد بن حارثة وسعد بن أبى وقاص[2].

وعن أم خالد قالت: أبى أول من كتب: بسم الله الرحمن الرحيم[3].

يستعذب العذاب فى سبيل الله

وبمجرد أن أسلم خالد بن سعيد ـ رضى الله عنه ـ تعرض للبلاء الشديد فلما علم أبوه بإسلامه أرسل إليه مولاه «رافعًا» وأخويه «أبان» و«عمرو» فرأوه يصلى فامتلأت قلوبهم نورًا لهذا المشهد المهيب الذى رأوه. وعاد معهم خالد إلى أبيه فلما علم بإسلامه أمره بأن يترك هذا الدين العظيم فأبى خالد بكل عزة..

فقال له أبوه: إذن أحرمك من رزقى.

فقال له خالد: الله خير الرازقين.

فطفق والده يضربه ضربًا شديدة حتى سالت الدماء الشريفة من هذا الجسد الطيب المبارك ثم أوثقه وزجَّ به فى غرفة مظلمة ومنع عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام.

ثم جاءهُ فى اليوم الرابع نفرٌ من أهله وقالوا:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٠٣).

(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٢٦٠).

كيف أنت يا خالد؟.

فقال: إنى أتقلب فى نعم الله ـ عز وجل ـ.

فقالوا: أما آنَ لك أنْ تثُوبَ إلى رُشدك[١]، وتُطيع أباك؟!.

فقال: أما رُشدى فما فارقنى وما فارقته...

وأما أبى فلا أُطيعه فيما يعصى به الله ـ عز وجل ـ...

فقالوا: قُل لأبيك كلمةً تُرضيه فى اللات والعُزّى يُفرِّجْ عنك.

فقال: إنَّ اللات والعُزى حجران أصمَّان أبكمان...

وإنى لا أقولُ فيهما إلا ما يُرضى الله ورسوله... وليفعل بى ما يشاء.

شدَّ «أبو أُحَيْحَةَ» وثاق خالد، وأمر أتباعه أن يخرجوا به كل يوم عند الهاجرة[٢] إلى بطحاء مكة... وأن يُلقُوهُ بين الحجارة حتى تصهره الشمس.

فكان كلما أخرجوه وألقوه فى الهاجرة يقول:

الحمد لله الذى أكرمنى بالإيمان، وأعزَّنى بالإسلام...

إن ذلك كله أهونُ علىَّ من لحظة عذابٍ فى جهنم التى أراد أن يُلقينى فيها «أبو أحيحة»...

وجزى الله نبيه وصفيهُ عنى وعن المسلمين أكرم الجزاء.

ثم حانت لخالد فرصة؛ فتفلَّت من سجن أبيه، ومضى إلى نبيه صلوات الله وسلامه عليه...

ثم ما لبث أن لحق به أخواه عمرو وأبان)، وانضما معه إلى موكب الخير والنور... عند ذلك أُسقط[٣] فى يدى «أبى أُحيحة» وقال:

واللات والعزى لأعزلن بمالى بعيداً عن مكة، فذلك خيرٌ لى...

ولأهجرن أولئك الصباة[٤] الذين يعيبون آلهتى وأربابى.

---

(١) تثوب إلى رشدك: أى تعود إلى عقلك.

(٢) الهاجرة: وقت الظهيرة.

(٣) أُسقط فى يدى فلان: تحير فما عاد يدرى ما يفعل.

(٤) الصباة: الذين تركوا دين آبائهم واتبعوا الإسلام.

ثم انتقل إلى قرية قريبة من «الطائف»، وظل فيها حتى مات كمداً وهو على الشرك.

ولما أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه بالهجرة إلى «الحبشة» نزح إليها خالد بن سعيد ابن العاص ومعه زوجته أمينة بنت خلف الخزاعية... وقد أقام فيها بضع عشرة سنة داعيًا إلى الله، ولم يُغادرها إلى المدينة إلا بعد أن فتح الله على المسلمين «خيبر».

فسُرَّ الرسول عليه الصلاة والسلام بمقدمه أبلغ السرور، وقسم له من غنائم «خيبر» كما قسم للمحاربين...

ثم ولاهُ «اليمن» فظل واليًا عليها إلى أن لحق الرسول الكريم ﷺ بجوار ربه[١].

استشهد فسطع له نور إلى السماء فكان سببًا في إسلام قاتله

وخاض خالد بعض المعارك ضد الروم، وكان من أشجع الفرسان، وكان معه أخواه «أبان وعمرو» فأما عمرو فلقد استشهد البطل في معركة فحل، «رُئي وهو مضروبٌ على حاجبه بالسيف، وقد ملأ الدم عينيه، وهو لا يستطيع أن يطرف ولا أن يفتح جفنه من الدم، وكان الروم قد حنقوا عليه لما رأوا من شدة قتاله، فجردوا له فريقًا، فمشى إليهم بسيفه فضاربهم ساعة، وثار بينهم الغبار؛ فشد عليهم المسلمون، وإذا الروم قد قطّعوه بسيوفهم، ووُجِد به أكثر من ثلاثين ضربة»[٢].

وما يضيره وقد مضى البطل إلى ربه، ومنح الله إخوانه من المسلمين أكتاف الروم، وقتلوا قائدهم سقلار (سكلاريوس)، وقتلوا منهم زهاءَ عشرة آلاف[٣].

وأما خالد وأبان فلقد استُشهدا يوم أجنادين (على الصحيح).

ويُروى أن خالداً ـ رضي الله عنه ـ استُشهد، فقال الذي قتله بعد أن أسلم: مَنْ هذا الرجلُ؟ فإني رأيتُ نوراً له ساطعًا إلى السماء.

وقيل: كان خالدُ بن سعيد وسيمًا جميلاً، قُتلَ يوم أجنادين[٤].

---

(١) نقلاً من صور من حياة الصحابة (ص: ٤٥٥ : ٤٥٧).

(٢) الطريق إلى دمشق (ص: ٣٤٤).

(٣) علو الهمة ـ د. سيد حسين (٣/ ٤١٣).

(٤) السير للإمام الذهبي (١/ ٢٦٠).



وهكذا رحل بطلنا الحبيب عن دنيا الناس بعد أن ضحَّى بثروة أبيه وآثر الإسلام على هذا المتاع الزائل من أجل أن يظفر بصحبة الحبيب ﷺ وبرضوان الله - جل وعلا - ومن ثَم بالنعيم المقيم في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عن خالد وأبان وعمرو وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

عبد الله بن حذافة

حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

يا تُرى من هذا الرجل الكريم الذى جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقوم ويُقبّل رأسه، بل ويحث الصحابة على تقبيل رأسه؟!!!.

إنه الصحابى الجليل عبد الله بن حذافة. أحدُ السابقين. هاجر إلى الحبشة، ونفَّذه النبى ﷺ رسولاً إلى كسرى.

الذى خرج إلى الشام مُجاهداً، فأُسِرَ على قيسارية، وحملوه إلى طاغيتهم، فراوده عن دينه، فلم يُفتتن[١].

وأجْمَع كتَّاب الطَّبقات والسِّيرة والتَّأريخ وغيرهم أنَّ عبد الله بن حذافة السَّهمىَّ قد صَحِبَ رسول الله ﷺ ، وأسلم قديمًا. ولمّا اشتدَّت أذيَّة الكفَرة للمؤمنين، هاجرَ إلى الحبَشة الهجرة الثَّانية، حيثُ كانَ رسولُ الله ﷺ قد أشارَ على أصحابه بقوله: «لو خرجتم إلى أرضِ الحبشة، فإنَّ بها ملكًا لا يُظلمُ عنده أحَد، وهى أرضُ صدقٍ، حتى يجعلَ الله لكم مخرجًا ممّا أنتم فيه».

* وتدلُّ أخبارُ عبد الله بن حذافة السَّهمىّ إلى أنَّه عادَ إلى مكةَ، ومنْ هناك هاجرَ ثانيةً إلى المدينة المنوَّرة؛ لينطلقَ منها إلى دُنيا الجهاد والفروسيّة، وليكونَ أحد فرسان مدرسة النّبوة الأبرار، الأخيار، الأطهار[٢].

وقال ابن منده: شهد بدراً.

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ١١ ـ ١٢).

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص:٣٨٥).

إنه رجل العقيدة

وإن (عبد الله بن حذافة) رجلٌ تتجسد فيه عزة المؤمن وصلابته وثباته بصورة لا تخطر على قلب بشر.. فهو رجل عقيدة فى المقام الأول يحمل عقيدة لا تؤثر فيها الأعاصير ولا تزعزعها الفتن والبلايا فهو يعلم من أعماق قلبه أن كل عذاب دون النار عافية، وأن كل نعيم دون الجنة سراب.

ولقد كان النبى ﷺ يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب؛ لأنه ﷺ كان خبيراً بقدرات ومواهب الرجال من حوله.

فكان يختبئ لعبد الله بن حذافة مهمتين من أخطر المهام، ولذلك تراه ﷺ يحثه على شدة الإخلاص فى كل شيء بدءاً من تلاوته لكتاب الله وانتهاءً بالجهاد فى سبيل الله.

عن أبى سلمة: أن عبد الله بن حذافة قام يصلى، فجهر، فقال النبى ﷺ: «يا ابن حذافة، لا تُسمّعْنى وسمّع الله»[1].

خفة ظله

وكان ـ رضى الله عنه ـ خفيف الظل فتراه يعطى أصحابه الدروس العملية من خلال مواقف طريفة يعلمهم من خلالها أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ـ جل وعلا ـ.

فعن أبى سعيد قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، عليهم علقمة بن مُجزِّز، وأنا فيهم، فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق، استأذنه طائفة، فأذن لهم، وأمَّر عليهم عبد الله بن حُذافة، وكان من أهل بدر، وكانت فيه دُعابة. فبينا نحنُ فى الطريق، فأوقد القومُ ناراً يصطلون بها، ويصنعون عليها صنيعًا لهم، إذ قال: أليس لى عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فإنى أعزمُ عليكم بحقى وطاعتى إلا تواثبتم فى هذه النار، فقام ناسٌ، فتحجزوا[2]، حتى إذا ظن أنهم واقعون فيها قال: أمسكوا، إنما كُنت أضحكُ معكم. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ، ذكروا ذلك له. فقال: «من أمركم بمعصية فلا تُطيعوه»[3].

---

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ١٩٠) ورجاله ثقات.

(٢) أى : شدّوا أوساطهم فعل من يتهيأ... أى ليلقوا أنفسهم فى النار.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٦٧) وابن ماجه (٢٨٦٣) الجهاد ـ وصححه ابن حبان (١٥٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (١٨٣): إسناده صحيح.

طاعة الرسول ﷺ والتضحية بالنفس

لما عزم النبي ﷺ أن يبعث عبد الله بن حذافة ـ رضي الله عنه ـ برسالته إلى «كسرى» ملك «الفرس» فقد كان يعلم (عبد الله) أنه ربما لا يعود مرة أخرى، ولكن لابد من الامتثال لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ ولو كان الثمن هو التضحية بالنفس والوقت والمال والدنيا بأسرها.

فعن عبد الرحمن بن عبد القاري أن رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال: «أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم فلا تختلفوا عليَّ كما اختلفت بنو إسرائيل على عيسى بن مريم» فقال المهاجرون: يا رسول الله إنا لا نختلف عليك في شيء أبدًا فمرنا وابعثنا.

فبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى ابن هرمز (ملك فارس) وكتب معه؛ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين. فإن تُسلم تَسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك. قال: فلما قرأه شقَّه ـ أي قطع رسالة النبي ﷺ ـ وقال: يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي؟! قال: ثم كتب كسرى إلى باذان وهو نائبه على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث (باذان) قهرمانة ـ وكان كاتبًا حاسبًا ـ بكتاب فارس وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له خرخرة، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لأباذويه: إيت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف فسألوه عنه فقال: هو بالمدينة، واستبشر أهل الطائف ـ يعني وقريش بهما ـ وفرحوا. وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كُفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه أباذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو مَن قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما وقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟» قالا أمرنا ربنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله ﷺ: «ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي» ثم قال: «ارجعا حتى تأتياني غدًا» قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله. قال: فدعاهما فأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا فنكتب عنك بهذا ونخبر الملك باذان؟ قال: «نعم أخبراه ذاك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخُف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء» ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيًا كما يقول وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيًا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه أما بعد؛ فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن[١].

وظل عبد الله بن حذافة ملازمًا للحبيب ﷺ يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة وكانت محبته للحبيب ﷺ تزداد يومًا بعد يوم حتى كان يتمنى أن يفديه بنفسه وماله وبكل ما يملك.. فلما تُوفي الحبيب ﷺ أظلمت الدنيا كلها في عين (عبد الله بن حذافة) وحزن لموته حزنًا كاد أن يمزق فؤاده.

وبعد وفاة النبي ﷺ ظل (ابن حذافة) ثابتًا على دينه ثبات الجبال متأسيًا بالحبيب ﷺ في كل شيء.

* * *

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) بتصرف.

الثبات على الحق وصدق الانتماء

إن من أعظم عوامل الثبات على هذا الدين العظيم أن يعلم المؤمن أنه على الحق، وأنه على الصراط المستقيم.

كل ذلك يجعل المؤمن يستعذب العذاب في سبيل الله ويصبر ويتحمل الأذى والمشقة من أجل أن يظفر بنعمة الإسلام، وأن يموت على تلك النعمة.

إن البلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ـ يقول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١ ـ ٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥ ـ ١٥٧].

وقال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ـ إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»(١).

إن الحياة لا تخلو من الشدائد، وإن الأمل والأمن، والرضا والحب، والسكينة النفسية، ثمارٌ شهية لغراس العقيدة في نفس المؤمن، وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة، وإنها لمعركة طويلة الأمد، كثيرة التكاليف، محفوفة بالأخطار والمشقات.

ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال.. أو.. أو.. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة.. حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جُبلت على كَدَر وأنت تريدها   صفوًا من الآلام والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب ـ باب المؤمن أمره خير كله ـ كتاب الزهد والرقائق.

وإذا كان هذا سُنة الله في الحياة عامة، وفي الناس كافة، فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضًا لنكبات الدنيا وويلاتها، إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دُعاة الطاغوت، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل، ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر. وبهذا يحيون في دوامة من المحن، وسلسلة من المؤامرات والفتن.

سُنة الله الذي خلق آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمدًا وأبا جهل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

هذا شأن الأنبياء. وشأن ورثتهم، والسائرين على دربهم، والداعين بدعوتهم، مع الطغاة الصادّين عن سبيل الله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

وقد أثبت الاستقراء والمشاهدة أن أشد الناس جزعًا، وأسرعهم انهيارًا أمام شدائد الحياة هو الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان.

وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود:٩]. ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء:٨٣]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

إنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به، ولا بإله فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه، ولا بأنبياء فيجدوا في حياتهم القاسية قدوة وعبرة، ولا بحياة أخرى فتهبّ عليهم نسماتها منعشة للنفس، وطاردة للكآبة، باعثة للأمل.

إنهم كسفينة فقدت الدفة والشراع، وكل عوامل الثبات أمام الأمواج والعواصف، فهي لأدنى حركة من الريح يشتد اهتزازها وتمايلها، ويحيط بها الموج من كل مكان، وسرعان ما تغوص إلى الأعماق!

ولا غرو أن نجد الانتحار أكثر ما يكون في البيئات التي ضعف دينها أو فقدته، فإن لم

يكن الانتحار فهو الألم القاتل، والجزع الهالع، والكآبة الحزينة، والحزن الكئيب، والحياة التي خلت من معنى الحياة[١].

ليس مَن مات فاستراح بميت … إنما الميتُ ميّت الأحياء

إنما الميتُ مَن يعيش كئيبًا … كاسفًا باله قليل الرجاء

وها هو عبد الله بن حذافة يسطِّر على جبين التاريخ صفحة مضيئة لا ينساها المؤمنون ما دامت أرواحهم فى أجسادهم.

فعن أبى رافع، قال: وجَّه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إنَّ هذا من أصحاب محمد. فقال: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكى؟ قال: لو أعطيتنى جميع ما تملك، وجميع ما تملكُ العجم وجميع مُلك العرب، ما رجعتُ عن دين محمد طرفة عين. قال: إذًا أقتلك. قال: أنت وذاك. فأمر به، فصُلِب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرضُ عليه، ويأبى، فأنزله. ودعا بقدْر، فصبَّ فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما، فأُلقى فيها، وهو يعرضُ عليه النصرانية، وهو يأبى. ثم بكى. فقيل للملك: إنه بكى. فظن أنه قد جزع، فقال: ردُّوه. ما أبكاك؟ قال: قلتُ: هى نفسٌ واحدةٌ تُلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهى أن يكون بعدد شعرى أنفسٌ تُلقى فى النار فى الله - أى فى سبيل الله -.

فقال له الطاغية: هل لك أن تُقبِّل رأسى وأُخلِّى عنك؟

فقال له عبد الله: وعن جميع الأُسارى؟ قال: نعم. فقبَّل رأسه.

وقَدِم بالأُسارى على عُمر، فأخبره خبره. فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يُقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ. فقبَّل رأسه[٢].

وفى رواية: أنَّ أهل قيسارية أسروا ابن حُذافة، فأمر به ملكهم، فجُرِّب بأشياء صبر عليها. ثم جعلوا له فى بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثًا لا يأكل، فاطَّلعوا عليه، فقالوا للملك: قد انثنى عنقُه، فإن أخرجته وإلا مات. فأخرجه، وقال: ما منعك أن تأكل وتشرب؟

---

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوي (ص: ١٨٤ : ١٨٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه من طريق البيهقي، وكذا الحافظ فى الإصابة، وله شاهد من حديث ابن عباس، موصولاً عند ابن عساكر، وابن الأثير فى أسد الغابة (٣/ ٢١٢).

قال: أما إنَّ الضرورة كانت قد أحلَّتها لى، ولكن كرهتُ أن أُشمتك بالإسلام. قال: فقبِّل رأسى، وأُخلِّى لك مئة أسير. قال: أمَّا هذا، فنعم.

فقبَّل رأسه، فخلَّى له مئة، وخلَّى سبيله.

وقد روى ابنُ عائذ قصة ابن حُذافة فقال: حدثنا الوليدُ بن محمد: أنَّ ابن حذافة أُسر. (فذكر القصة مطولة) وفيها: أطلق له ثلاث مئة أسير، وأجازه بثلاثين ألف دينار، وثلاثين وصيفة، وثلاثين وصيفًا.

قال الإمام الذهبى: ولعلَّ هذا الملك قد أسلم سرًا. ويدلُّ على [ذلك] مبالغته فى إكرام ابن حُذافة.

وكذا القولُ فى هرقل إذ عرض على قومه الدخول فى الدين، فلما خافهم قال: إنما كنتُ أختبرُ شدتكم فى دينكم.

فمن أسلم فى باطنه هكذا، فيُرجى له الخلاصُ من خلود النار؛ إذ قد حصَّل فى باطنه إيمانًا ما، وإنما يُخاف أن يكون قد خضعَ للإسلام وللرسول، واعتقد أنهما حق، مع كون أنه على دين صحيحٍ، فتُراه يُعظِّمُ للدينين، كما قد فعله كثير من المسلمانية الدواوين، فهذا لا ينفعه الإسلامُ حتى يتبرأ من الشرك.

مع الجهاد حتى الممات

* بعد أن أدّى عبد الله بن حذافة ـ رضى الله عنه ـ واجبَه فى الجهادِ ببلاد الشَّام، توجَّه إلى مصرَ، وشهدَ هنالك مع عمرو بن العَاص فَتْح مصر،ولما فَتَحَ عمرو حصن الفسطاط ـ بابليون ـ وجّه عبد الله بن حُذافة إلى عينِ شَمْس، فغلب على أرضها، وصالح أهل قُراها على مثل صلْح الفسطاط.

* ويُحدِّثنا البلاذرىَ ـ رحمه الله ـ بأنّه بعد فَتْح مدينة الإسكندرية استخلف عمرو ابن العاص عليها عبد الله بن حذافة فى جماعة من المسلمين، وانصرفَ عمرو إلى الفسطاط، فكتبَ الرُّوم إلى قسطنطينَ بن هرقل الَّذى كان مَلك الرُّوم حينذاك يخبرونه بقلّة عدد المسلمين فى الإسكندرية، فبعثَ ملك الرُّوم أحد قادَته على رأس قوة مشحونة فى ثلاثمئةِ مَركَب فدخَل الإسكندرية، ولكنَّ المسلمين أعادوا فَتْح الإسكَندرية مرة ثانية(١).

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (ص: ٢٦٠).

وظل (عبد الله بن حذافة) عابداً قانتًا زاهداً مجاهداً في سبيل الله تعالى إلى أن نام على فراش الموت، وأسلم روحه لبارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في جنات النعيم إخوانًا على سُرر متقابلين.

ومات ابن حذافة في خلافة عُثمان ـ رضي الله عنه ـ[1].

فنسأل الله أن يرزقنا الثبات على هذا الدين، وأن يحشرنا في زمرة المتقين.

ورضي الله عن (عبد الله بن حذافة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) السير للإمام الذهبي (٢/ ١٥ ـ ١٦).



عباد بن بشر

(شهيد يوم اليمامة .. تضيء عصاه في الظلام)

(كان يؤثر الموت على أن يقطع قراءة القرآن)

كان هناك رجل من بنى إسرائيل يحب أن يفعل الخير فى كل وقت وحين.. وذات مرة كان على سفرٍ فأراد أن يستثمر الوقت فى فعل الخيرات فأخذ مجمّوعة من البذور وأخذ يلقيها عن يمينه وعن شماله ـ فى الصحراء ـ حتى وصل إلى البلد التى يريدها.

ومكث فى تلك البلدة عشر سنوات، ثم أراد أن يرجع إلى وطنه، فعاد من نفس الطريق فوجد أن الصحراء الموحشة التى كان يسير فيها منذ عشر سنوات أصبحت مليئة بالأشجار والثمار والورود فتعجب الرجل وسأل عن ذلك فقالوا له: إن رجلاً مباركًا ألقى بذورها منذ عشر سنوات، فكانت تلك الأشجار ـ بإذن الله ـ (فكان هو الذى ألقاها).

فهذا درسٌ عملى لكل مسلمٍ حتى لا يفتر عن الدعوة إلى الله.

فقد قال الله لحبيبه ﷺ: «إن عليك إلا البلاغ»، فعليك بالدعوة إلى الله، واعلم بأن النتائج كلها بيد الخالق ـ جل وعلا ـ.

وها نحن نعيش مع ثمرة من ثمرات الدعوة التى قام بها مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ فى المدينة المنورة.

إنه (عبَّاد بن بشر) الذى يأتى يوم القيامة فى ميزان حسنات مصعب ـ رضى الله عنهما ـ.

فعندما بعث النبى ﷺ مصعبًا إلى المدينة يدعو أهلها إلى الإسلام ويُعلّم إخوانه أمور دينهم كان من بين مَن أكرمهم الله بالإسلام على يديه ـ عبّاد بن بشر ـ.

ومنذ تلك اللحظة التى بزغ فيها فجر الإسلام فى قلبه وهو لا يفتر أبدًا عن العمل لدين الله وعن التقرب إلى الله بسائر أنواع العبادات والطاعات.

حتى قالت أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بنى عبد الأشهل: سعدُ بن معاذ، وعبَّاد ابن بِشر، وأُسيد بن حضير»(١).

امتلأ قلبه بالتوحيد فسخر الله له عصاه

إن القلب إذا امتلأ بالتوحيد ونور الإيمان واليقين فإن الله يسخِّر الكون كله من أجل هذا الإنسان.

كما قال تعالى عن داود ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠].

وكما قال تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦١ ـ ٦٣].

وكما قال تعالى عن مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

وها هو الصحابى الجليل (عبّاد بن بشر) ـ رضى الله عنه ـ يكرمه الله بكرامة يحلو ذكرها فى هذا الموضع.

عن أنس أن أُسيد بن حضير وعبّاد بن بشر كانا عند رسول الله ﷺ فى ليلة ظلماء حنْدس قال: فلما خرجا من عنده أضاءت عصا أحدهما فكانا يمشيان فى ضوئها فلما تفَرقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٩) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٠) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٤١) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٨٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

فوزه بدعاء النبي ﷺ له

عن عائشة قالت: تهجد رسول الله ﷺ في بيتي، فسمع صوت عبَّاد بن بشر، فقال: «يا عائشة! هذا صوت عبَّاد بن بشر» قلت: نعم. قال: «اللهم اغفر له»(١).

* وظل (عبَّاد) في كل لحظة من حياته يتعايش مع آيات القرآن حتى عُرِف بين الصحابة بالإمام وصديق القرآن.. فقد ملأ القرآن عليه حياته وأدخل عليه السعادة بكل معانيها. كيف لا... وهو كلام الرحمن ـ جل جلاله ـ الذي قال في حقه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء: ٨٢].

جهاده في سبيل الله

* ومع تلك الرقة التي اكتسبها من آيات القرآن كان أسدًا ضاريًا في ميدان القتال والشرف والرجولة.

فها هو يشهد المشاهد كلها وكان مقاتلاً بارعًا له من المواقف المشرِّفة ما يتناسب مع مكانة وقدر رجلٍ يحمل كتاب الله ـ جل وعلا ـ.

وكان من الذين شاركوا في قتل اليهودي الخبيث (كعب بن الأشرف) واستعمله النبي ﷺ على صدقات مُزينة وبني سُليم وجعله على حرسه في غزوة تبوك، وكان كبير القدر، وكان أحد الشجعان الموصوفين.

وكان دائمًا وأبدًا لا ينسى قول الحبيب ﷺ: «يا معشر الأنصار أنتم الشِّعار والناس الدِّثار فلا أُوتيَّن من قِبلكم»(٢).

فمنذ أن سمع تلك المقالة من النبي ﷺ وهو يبذل نفسه وماله في سبيل الله وفي سبيل الدفاع عن رسوله ﷺ.

* * *

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٢٦٥٥) وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٦٥) وصله أبو يعلى من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في (الاستيعاب) (٣/ ٣١٦) وأخرجه البخاري (٤٣٣٠) في المغازي ـ ومسلم (١٠٦١) في الزكاة.

موقف يعجز القلم عن وصفه !!!

وها هو ـ رضى الله عنه ـ يقف موقفًا يعجز القلم عن وصفه ولو اجتمع جميع الأدباء والشعراء ما استطاعوا أن يصفوا مدى عظمة هذا الموقف الذى يندر تكراره عبر العصور والأزمان.

فعن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصابَ (رجلٌ) امرأة رجل من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً ـ راجعًا ـ أتى زوجُها وكان غائبًا، فلما أُخبر الخبر حلَف لا ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد ﷺ [1]، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسولُ الله ﷺ منزلاً، فقال: «مَن رجل يكلؤنا[2] ليلتنا [هذه]؟» قال: فانتدبَ رجلٌ من المهاجرين، ورجل [آخر] من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بِفَم الشِّعب، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابُه قد نزلوا إلى شعب من الوادى، (وهما عمار بن ياسر وعباد بن بشر)، فلما خرج الرجلان إلى فَم الشِّعب، قال الأنصاريُّ للمهاجرىّ: أىَّ الليل تحبّ أن أكفيكه: أوله أم آخره؟ قال: بل اكفنى أوله، قال: ونام (عمار بن ياسر) وقام (عبَّاد) ينظر إلى الكون من حوله، فإذا به يرى الليل هادئًا وكأن الكون كله يسبِّح بصوت خافت فتاقت نفسه إلى أن يقرأ وهو يصلى ـ ليجمع بين الحُسنيين ـ قال ابن إسحاق: فاضطجعَ المهاجرى (عمار) فنام وقام الأنصارى (عبَّاد) يصلى. قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة[3] القوم، قال: فرمى بسهم، فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه، فثبت قائمًا، قال: ثم رماه سهمًا آخر، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أهبّ[4] صاحبه فقال: اجلس فقد أُثبتُّ[5]، قال: فوثب، فلما رآهما الرجلُ عرف أن قد نذرا به، فهرب، قال: ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء، قال: سبحان الله! أفلا أهببتنى ـ أيقظتنى ـ أول ما رماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أُحبَّ أن أقطعها حتى أُنفدها،

---

(١) أى يصيب دمًا.

(٢) يكلؤنا: يحفظنا.

(٣) الربيئة: الطليعة الذى يحرس القوم.

(٤) أهب: أيقظ.

(٥) أثبت: أى جُرحت جرحًا لا يمكن التحرك منه.

فلما تابع عليَّ الرمي ركعتُ فآذنتك، وايمُ الله لولا أن أُضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفدها(١).

وحان وقت الرحيل

وظل عبَّاد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ عابدًا زاهدًا مجاهدًا في سبيل الله وملازمًا لرسول الله ﷺ يتعلم على يديه ويقبس من هديه وأخلاقه إلى أن مات الحبيب ﷺ.. فحزن (عبَّاد) على موت الحبيب ﷺ حُزنًا كاد أن يمزق قلبه.

وما كاد نبأ موت رسول الله ﷺ ينتشر في البلدان إلا وأطلت فتنة خطيرة برأسها كادت أن تحرق الأخضر واليابس، لولا أن مَنَّ الله على الإسلام يومها بأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

فما كاد نبأ موت رسول الله ﷺ ينتشر في البلدان حتى تصور المرجفون والموتورون، والذين في قلوبهم مرض ـ ممن كان إسلامهم مداهنة وتقيَّة ـ أن الرسول ﷺ لم يمت وحده وإنما مات معه الإسلام فارتدوا عن الإسلام ورفضوا دفع الزكاة لخليفة رسول الله ﷺ (٢).

وأرسل أبو بكر جيوشه للقضاء على فتنة المرتدين ولإعادتهم مرة أخرى إلى حظيرة الإسلام.

وذهب الجيش الإسلامي للقضاء على تلك الفتنة التي قادها ذلكم الرجل الخبيث ـ مسيلمة الكذاب ـ وكان في طليعة الجيش المسلم (عبّاد بن بشر) ـ رضي الله عنه ـ.

فأبلى في تلك المعركة بلاءً حسنًا حتى استشهد وفاضت روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت عباد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ يقول: يا أبا سعيد! رأيت الليلة كأن السماء قد فُرجت لي، ثم أُطبقت عليَّ؛ فهي ـ إن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الطهارة» باب «الوضوء من الدم» (١/ ١٩٨). وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٤٣، ٣٥٩) وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٣٦) وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ح ١٠٩٣) والحاكم في «مستدركه» (١/ ١٥٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٤٠، ٥٩) الكل من طريق محمد بن إسحاق.

(٢) أئمة الهدى ومصابيح الدجى/ الشيخ محمد حسان وعوض الجزار ـ ط. دار ابن رجب.

شاء الله ـ الشهادة. قال: قلت: خيراً والله رأيت. قال: فأنظر إليه يوم اليمامة وإنه يصيح بالأنصار: احطموا جفون السيف، وتميزوا من الناس، وجعل يقول: أخلصونا! أخلصونا! فأخلصوا أربع مائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد، يقدمهم عبّاد بن بشر، وأبو دجانة، والبراء بن مالك ـ رضى الله عنهم ـ حتى انتهوا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أشدّ القتال، وقُتل عبّاد بن بشر؛ فرأيت بوجهه ضربًا كثيراً ما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده(١).

وهكذا نزفت دماءٌ لطالما امتزجتْ بحُب القرآن وتعطّرت بمحبتها لله ولرسول الله ﷺ ليلحق صاحبها بحبيبه ﷺ الذى كان لا يغيب عنه لحظة واحدة.

فقد كان قلبه يردد دائماً تلك الأنشودة الخالدة.

غـــداً نلقى الأحبة　　　محمـــداً وحـزبه

فرضى الله عن (عبّاد) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٤٤١).



طليحة بن خويلد

كان طليحة يعد بألف فارس لشجاعته وشدته

إننا ونحن نفتح تلك الصفحة لنعيش مع ضيف جديد كريم، فإننا فى الحقيقة نعيش قصة التوبة بكل معانيها. تلك القصة التى تتكرر مئات المرات فى كل يوم وفى كل زمان ومكان.

وقصة هذا الضيف الكريم تحدو النفوس إلى التوبة.

فالله يحب التوابين، بل إنه ـ جل وعلا ـ يدعو الكون كله للتوبة.

قال ﷺ : «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئو النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئو الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

وقال ﷺ : «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[2].

وقال ﷺ : «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[3].

ولقد دعا الحق ـ جل جلاله ـ الناس جميعًا إلى التوبة الصادقة.

فلقد دعا المشركين إلى التوبة فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:11].

ودعا إليها أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:181]. والذين قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:64]، فقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:74]. ودعا المنافقين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:146].

---

(1) أخرجه مسلم (17/ 76) التوبة.

(2) أخرجه مسلم (17/ 25) الذكر والدعاء.

(3) رواه الترمذى وأحمد والحاكم (4/ 257) وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى.

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم بالمعاصي من أمة الحبيب ﷺ. فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، كما دعا إليها المؤمنين الصادقين. فأمر الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وصبرهم، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

بل فتح الله باب التوبة لأصحاب الكبائر ليتوبوا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

وعلى الرغم من تلك الجرائم والكبائر إلا أن الله جل وعلا فتح لهم باب التوبة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤].

وها هم أصحاب الأخدود الذين حرّقوا المؤمنين والمؤمنات، وظلموهم بلا ذنب اقترفوه سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد،... هؤلاء الذين فرقوا بين الأم وولدها، وقذفوا ولدها أمام عينيها في النار، وجلسوا يتلذذون بمشاهدة المؤمنين، وهم يموتون في النيران، وعلى الرغم من ذلك يفتح الله لهم باب التوبة ليتوبوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، فقوله تعالى ثم لم يتوبوا يفيد أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم.

وها هم أهل الشرك والقتل والزنا يفتح الله أمامهم باب التوبة، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، ثم بعد ذلك يفتح الله لهم باب التوبة، ويقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧١].

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يفتح الله أمامهم باب التوبة لكي يتوبوا ويقيموا الصلاة ويتركوا الشهوات ويقبلوا على فعل الطاعات، قال تعالى:

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾ [مريم:٥٩ ـ ٦٠][1].

وتوبة العبد إلى الله عز وجل محفوفة بتوبتين من الله عز وجل: توبة قبلها، وتوبة بعدها. الأولى: إذن وتوفيق، والثانية: قبولٌ وإثابةٌ. قال تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ [التوبة:١١٨]، فأخبر الله عز وجل أن توبته عليهم سبقت توبتهم. وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، وهذا القدر من سرّ اسميه «الأول والآخر» فهو المُعدّ والمُمدّ، ومنه السبب والمسبَب، والعبد توّابٌ والرب تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله عز وجل، بسلوك صراطه المستقيم الذي أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣] ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد، وسلوك صراطه الذي نَصَبَه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة، رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله عز وجل: ﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا﴾ [الفرقان:٧١].

وبعد تلك المقدمة الطويلة ـ التي تعمدت أن أُطيل فيها الكلام لتكون حاديًا لنا جميعًا على التوبة ـ نعيش مع ضيفنا المبارك طليحة بن خويلد ـ رضي الله عنه ـ.

إنه البطل الكرَّار صاحب رسول الله ﷺ ، ومن يُضرب بشجاعته المثل، من بني أسد، إحدى القبائل التي تسكن ما بين نجد إلى الفرات.

وفي العام «التاسع» للهجرة جاء وفد أسد إلى المدينة ومعهم «طليحة بن خويلد» ليعلنوا إسلامهم بين يدي رسول الله ﷺ .

أسلم طليحة، ثم ارتدّ وظلم نفسه، وتنبأ بنجد ـ ادَّعى النبوة ـ وتمت له حروب مع المسلمين، ثم انهزم، وخُذِل ولحق بآل جفنة الغسانيين بالشام[2].

---

(١) «أختاه التوبة قبل الندم» للمصنف (ص ٤١: ٤٣). ط. قرطبة.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣١٧).

قال الحافظ ابن كثير عن طليحة ـ رضى الله عنه ـ: كان ممن شهد الخندق، من ناحية المشركين، ثم أسلم سنة تسعٍ، ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ فى أيام الصدِّيق، وادعى النبوة... وروى ابن عساكر أنه ادعى النبوة فى حياة رسول الله ﷺ وأنّ ابنه (خيّال) قدم على رسول الله ﷺ فسأله: ما اسم الذى يأتى إلى أبيك؟ فقال: ذو النون الذى لا يكذب ولا يخون، ولا يكون كما يكون. فقال: لقد سمّى ملكًا عظيم الشأن، ثم قال لابنه: قتلك الله وحرمك الشهادة.

وردَّه كما جاء. فقُتل (خيّال) فى الردة فى بعض الوقائع قتله عكاشة بن محصن ثم قتل طليحةُ (عكاشةَ) وله مع المسلمين وقائع[1].

فلما ازدادت شوكته وازداد خطره على المسلمين عقد أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ألوية الحرب، وأرسل إليه خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ.

مع طليحة فى بزاخة

التقى خالد مع طليحة الأسدى فى بزاخة، فتقاتل الطرفان قتالاً شديداً، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: «يا معشر فزارة، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته، فليفعل». وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة. ولقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبنى عامر وسليم وهوازن، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام، ولم يقبل منهم إلا أن يأتوه أولاً بالذين حرّقوا ومثّلوا وعَدَوا على الإسلام، فأتوا بهم، فمثّل بهم وحرّقهم، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكَّسهم فى الآبار[2].

فلما انهزم (طليحة) أمام خالدٍ وتفرّق جُنده هرب حتى دخل الشام فنزل على آل جفنة الغسانيين..

ثم أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصديق، واستحيى أن يواجهه مدة حياته، وقد رجع فشهد القتال مع خالد، وكتب الصدِّيق إلى خالد، أن استشره فى الحرب ولا تؤمّره ـ يعنى معاملته له بنقيض ما كان قصده من الرياسة فى

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٧/ ١٢١).
(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ١٣٣).

الباطن ـ وهذا من فقه الصديق ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ وقد قال خالد بن الوليد لبعض أصحاب طليحة ممن أسلم وحسن إسلامه: أخبرنا عما كان يقول لكم طليحة من الوحى، فقال: إنه كان يقول: الحمام واليمام والصُرَّد والصوَّام، قد صُمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام[١].

ولما جاء يسلِّم على عمر فقال له: اغرُب عنى فإنك قاتل الرجلين الصالحين، عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم، فقال: يا أمير المؤمنين هما رجلان أكرمهما الله على يدىَّ ولم يُهنِّى بأيديهما. فأعجب عمر كلامه ورضى عنه. وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يُشاوَر ولا يُولَّى شيئًا من الأمر ثم عاد إلى الشام مجاهدًا فشهد اليرموك وبعض الحروب كالقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله. وذكره محمد بن سعد فى الطبقة الرابعة من الصحابة وقال: كان يُعد بألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب[٢].

رجل يُعدّ بألف فارس

شهد القادسية ونهاوند، وكتب عمر إلى سعد بن أبى وقّاص: أن شاوِرْ طليحة فى أمر الحرب ولا تُولِّهِ شيئًا.

قال محمد بن سعد: كان طليحة يُعدّ بألفِ فارسٍ لشجاعته وشدَّته.

أبلى يوم نهاوند ثم استشهِد ـ رضى الله عنه»[٣].

«فى يوم أرماث أول أيام معركة القادسية ألقت فارس بثقلها على «بجيلة» أقوى جانب فى مصافّ المسلمين، وكان قوام الهجوم الفارسى اثنين وخمسين ألف مقاتل تساندهم تسعة أفيال، وألقى الفُرسُ حَسَكَ الحديد تحت سنابك خيلِ بجيلة لتتعطل عن الحركة، وقصفوهم بوابل من نشاباتهم، وأدرك سعدٌ ما تعانيه بجيلة وكندة فأصدر أمره إلى أقوى وأشجع قبيلة تقع على ميمنة بجيلة، وهى قبيلة بنى أسد: ذبُّوا عن بجيلة ومن لافّها من الناس. فاستجابت أسد لأمر سعد، وقام فيها فارسها المعلم ـ الذى يُعدُّ بألف فارسٍ ـ طليحة خطيبًا وقال: يا عشيرتاه، إنّ المُنوّه باسمه الموثوق به، وأن هذا ـ يعنى

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٣).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

سعدًا ـ لو علم أن أحدًا أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم..ابتدئوا الشدة، وأقدموا عليهم إقدام اللّيوث الحربة.. فإنما سُمّيتم أُسدًا لتفعلوا فعلة الأُسد، شدّوا ولا تصدّوا[١]، وكرّوا ولا تفرّوا، لله درُّ ربيعة! أي فريّ يفرون، وأيّ قرنٍ يغنون! هل يُوصل إلى مواقفهم؟! فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله، شدوا عليهم باسم الله»[٢].

قال المعرور بن سويد ـ وكان ممن شهد القادسية ـ: شدَّ بنو أسد على الفُرس، والله فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم فأخرت، وخرج إلى طليحة عظيمٌ منهم فبارز، فما لبّثه طليحة حتى قتله. وخرج الجالينوس فاعترضه طليحة وجهًا لوجه، وضربه ضربةً على رأسه، ولكنّ مغفره كان سميكًا فشقه السيف ولم ينفذ إلى رأسه، فنجا من القتل، فقال طليحة شعرًا:

أنا ضربتُ الجالينوسَ ضربهْ　　　حينَ جيادُ الخيلِ وسْطَ الكُبّهْ

وكان يوم أرماث هو يوم بني أسد بحقٍّ؛ لأنهم لم يَبل في ذلك اليوم أحدٌ مثل بلائهم.. بقيادة طُليحة ابن خُويلد فارسها الذي يعدل ألفَ فارسٍ، وأظهروا بطولات كانت مثارَ إعجابِ كل المسلمين...

يقول الأشعث بن قيس الكندي ـ لما قام خطيبًا في قومه (كندة) ـ: يا معشر كندة، لله درّ بني أسد، أيّ فريّ يُفرون، وأيّ هدّ يهدّون عن موقفهم؟!

رجل لا يهاب الموت

وفي يوم «عماس» من أيام القادسية: غامر طليحة ـ وكان مقدامًا لا يهاب الموتَ، ويعدل ألفَ فارس ـ وعبر بمفرده نحو الفرس فجاءهم من وراء العتيق، حيث الجسر المردوم، حتى صار خلف صفوفهم، ومن هناك كبّر ثلاثَ تكبيرات ارتاع لها الفرس، فظنّوا أن جيش الإسلام جاءهم من ورائهم. وتعجّب المسلمون وكفّ بعضُهم عن بعض...

فلله درُّ رجلٍ يُرعب تكبيرُه الفُرسَ... يخاطب طليحةُ الفُرس بعدهم قائلاً: لا تُعدموا أمرًا يضعضعكم.

(١) أي: لا تقفوا مدافعين.
(٢) القادسية ومعارك العراق (ص٦١٨ ـ ٦١٩) لمحمد أحمد بشاميل، وتاريخ الطبري (٥٣٨، ٥٣٩).

شجاعة نادرة.. وقصة أغرب من الخيال

وانظرْ ـ بربك ـ ما فعل هذا المغوار الذي يعدلُ جيشًا بأسرِه قبل معركة القادسية:

«بعث (سعدٌ) طليحةَ بن خويلد وعمرو بنَ معدى كربَ الزبيدى فى غير قوة من خيلٍ، كالطليعة فى «دورية» استكشافية، فكان طليحة وحده مكلفًا بعسكر رُستم، وكان عمرو فى خمسة من أصحابه مكلفًا بعسكر جالينوس، وأمرهم أن يصيبوا له رجلاً منهم ليستخبره، فلما تجاوز طليحة وعمرو قنطرة القادسية لم يسيروا إلا فرسخًا وبعض فرسخ ـ حوالى سبعة كيلو مترات ـ حتى رأوا خيلاً عظيمةً، وقواتُ المجوس تتحرك بسلاحها قد ملئوا الطفوف[1]. قال بعضهم: ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم، وهو يرى أن القوم بالنجف، فأخبروه بالخبر. وقال بعضهم: ارجعوا، لا ينذر[2] بكم عدوكم. فقال عمرو: صدقتم. وقال طليحة: كذبتم، ما بعثتم لتخبروا عن السرح، وما بعثتم إلا للخبر. قالوا: فما تريد؟ قال: أريد أن أخاطر القومَ أو أهلك. فقالوا: أنت رجلٌ فى نفسك غَدرٌ، ولن تفلح بعد قتل عكّاشة بن محصن؛ فارجع بنا. فأبَى، ثم فارقهم يريد معسكر رُستم فى مغامرة خطيرة[3].

«ومنذ فارق طليحة عَمراً وهو يعمل للدخول إلى قلب معسكر رستم بمفرده، مع العلم أنَّ معسكر رستم يضمُّ ثمانين ألف مقاتل، ومثلهم من الخدم والحرس الخاص، ولكنها شجاعة وجرأةُ بطل الأبطال طليحة، فقد مضى يعارض المياه المنبثقة من الأنهار حتى دخل عسكر رستم، دخله فى ليلة مقمرة، وبات ليلة يتخبّر، وكان يحبُّ الخيل كعاشق للفروسية فرأى فرسًا لم يرَ مثلها فى خيل رستم، ورأى فُسطاطًا أبيض لم يرَ مثله، فامتشق حسامه. فقطع به مقود ذلك الفرس ثم ربطه إلى مقود فرسه، ثم مشى بفرسه وخرج يعدو به، وأحسَّ الفُرس بما حدث فتنادوا، وركبوا الصعبة والذّلول، وتعجّل بعضهم فلم يسرجْ فرسه، وخرجوا يجدّون فى أثره. ولحقه فارسٌ منهم مع الصباح، فلما أدركه وصوّب إليه رُمحَه ليطعنه عَدَل طليحة فرسَه ومال به عن تصويب الفارسى، فانصب الفارسى بين يديه وصار أمامه، فكرّ عليه طليحة وطعنَه برمحه فقصم ظهره، وانطلق يعدو بفرسه، فلحق به أعجمىٌّ آخرُ ففعل به مثلَ ما فعل بالأول وانطلق

---

(١) ما أشرف على الأرض على ريف العراق.

(٢) نذر به: علمَه فحذره واستعدّ له.

(٣) تاريخ الطبرى (٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

يعدو، فلحق به ثالثٌ وقد رأى مصرع صاحبيه، وهما ابنا عمِّه فازداد حنقًا، فلما لحقَ بطليحة وبوآ له الرمح ليطعنه عدل طليحةُ فرسه فانصب المجوسي أمامه، وكرّ عليه طليحةُ وقد شرع رمحه ودعاه إلى الأسر، وأدرك المجوسى أنه مقتولٌ فاستسلم، وكانا قد اقتربا من معسكر المسلمين، فأمره طليحة أن يركُض بين يديه، وهو يسوقه من خلفه برمحه، وهو على فرسه فامتثل للأمر. وأقبل جمعٌ آخر من العجم يجدّون فى آثارهما فرأوا فارسيهم وقد قُتلا، وشاهدوا الثالث يركض مُستسلمًا أمام طليحة، وقد أوشكا على دخول معسكر المَسلمين فأحجموا ونكصوا، ثم عادوا من حيث أتوا. وجاء طليحة على فرسه يسحب وراءه الفرس التى غنم، وأسيره يعدو بين يديه، ودخل عسكر المسلمين ففزعوا منه، ثم أجازوه حين عرفوه، فدخل على سعد. قال له سعد: ويحك، ما وراءك؟ قال طليحة: دخلتُ عساكرهم وجُستُها منذ الليلة، وقد أخذتُ أفضلهم توسُّمًا، وما أدرى: أصبتُ أم أخطأتُ، وها هو ذا فاستخبره.

لم أرَ ولم أسمع بمثل هذا!

«استدعى سعدٌ المترجم ليقوم بالترجمة بين الاثنين، فقال الأسيرُ الفارسى: أتؤمِّننى على دمى إن صدقتك؟ قال سعد: نعم، الصدق فى الحرب أحبُّ إلينا من الكذب. قال الأسير الفارسي: أخبركم عن صاحبكم هذا ـ يعنى طليحة ـ قبل أن أخبركم عمّن قبلى.. باشرتُ الحروبَ وغشيتُها، وسمعت بالأبطال ولقيتُها ومنذ أنا غلامٌ إلى أن بلغت ما ترى، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا أنّ رجلاً قطع عسكرين، لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا، يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة، إلى ما هو دون، فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجُند، وهتك أطنابَ بيته، فأنذره فأنذرنا به، فطلبناه فأدركه الأول وهو فارسُ الناس، يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثانى وهو نظيره فقتله، ثم أدركته ولا أظنُّ أننى خلّفتُ بعدى من يعدلنى، وأنا الثائر بالقتيلين وهما أبناءُ عمى، فرأيتُ الموت فاستأسرتُ. ثم أخبر سعدًا عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خُدامٌ لهم؛ ورغب الأعجمى فى الإسلام فأسلم بمحض إرادته، فسمّاه سعدٌ مسلمًا، فكان يوم القادسية وغيرها من أهل البلاء، فقد استفاد منه المسلمون لخبرته بأرض فارس؛ ولأنه فارسيٌّ يعدل بألف»[1].

---

(١) القادسية لبشاميل (ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣) والقادسية لأحمد عادل كمال (ص ٩٥ ـ ٩٧) نقلاً من صلاح الأمة (ص ٤٢٣ : ٤٢٧) بتصرف.



وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالتوبة الصادقة والعمل لهذا الدين ومليئة بالبطولات النادرة فى أرض الشرف والجهاد ظل البطل يبحث عن الشهادة فى مظانها إلى أن رزقه الله الشهادة فى سبيله.

قال الإمام الذهبى: قلت: أبلَى يوم نهاوند ـ يعنى طليحة ـ ثم استشهد ـ رضى الله عنه وسامحه ـ.

أقول: وهذا درس لا ننساه أبدًا، فالإنسان إذا أذنب فعليه أن يتوب ويرجع إلى ربه ـ عز وجل ـ ويستدرك ما فاته عسى الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين فى وقت يعز فيه النصير.

فرضى الله عن (طليحة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

زيد بن الخطاب

سبقنى إلى الحسنيين .. أسلم قبلى واستشهد قبلى

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

إنه زيد بن الخطاب ذلكم السيدُ الشهيد المجاهدُ التقىُّ، أبو عبد الرحمن القرشىُّ العدوىُّ، أخو أمير المؤمنين عمر. وكان أسنَّ من عمر، وأسلم قبله.

* أسلمَ فارسًا منذ أنْ كانَ الإسلام غضًا طريًا، وقبل أنْ يفوحَ بأريجهِ العَطِر فيعمَّ الدُّنيا بأسْرها.

* عرفَ الإسلامُ قَلْبَه من قبل أنْ يسلمَ أخوه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ـ رضى الله عنه ـ وكان أسَنَّ منْ عمر، فهو منَ الطّليعة التى تألّقتْ فى سماءِ الأوَّلين، وما أدراك ما ثوابُ الأولين السّابقين إلى الحق والهداية؟!

* وهذا الفارسُ التّقىُّ حَبَاه الله عزَّ وجلَّ بَسْطَةً فى الجسمِ، فكان رجلاً طويلاً بائن الطُّول، أسمرَ اللون، ذا هيبة وجلال، تعلو وجهه الأسمر علائمُ الحزمِ والعزيمة، والإخلاص، بينما تتوضَّعُ فى أعماقهِ علائم الصِّدق والوفاء[1].

صحبة مباركة

ولما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة كان زيد فى صحبة أخيه عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما).. وقد صحبه فى تلك الهجرة بعض أهله وقومه كما صحبه بعض المستضعفين ليحتموا به وبأخيه.

ولما وصل إلى المدينة المنورة آخى النبى ﷺ بينه وبين مَعْن بن عدى الأنصارى.

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:١٤٨).

فارس فى ميادين الشرف

* لما أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين بالقتال، كان زيد منْ أوائل الفُرسان الذين استجابوا لداعى الجهاد، وسارعوا إلى مرضاة اللهَ عزَّ وجلَّ يبتغون منْهُ مغفرةً وأجراً عظيمًا، مدفوعين بحبِّ العقيدة، وجميل التوكلَ على الله تعالى.

* ولما كانت غزوةُ بَدْر، كان زيد بن الخطّاب ـ رضوان الله عليه ـ من جُنُود المدرسة النَّبويَّة؛ الذين خرجوا لتكون كلمةُ الله هى العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى، وانتهت المعركة بنصرِ المسلمين الموحِّدين، وكُتبَ زيد بن الخطاب فى قائمة السُّعداء؛ الذين وَجَبَتْ لهم الجَنَّة كما فى الصَّحيح من الأحاديث.

* وتدقُّ غزوة أُحُد أبوابها، فيخرج زيد فى معيَّة رسول الله ﷺ وكان فى طليعة الفُرسان الذين نظروا إلى الدنيا نظرة احتقارٍ، فما عند الله خَيرٌ وأبقى، وهل هناك وسامٌ أعظم وأجلّ منْ وسام الشهادة؟!

* وهنالك قربَ سَفْحِ جبل أُحُد، ذلك الجبل الذى يحبُّ رسولَ الله ﷺ ويحبُّهُ رسول الله ﷺ ، وقَفَ زيد ليعطى مثلاً شرودًا فى فدائية التَّضحية، وكمال الشَّجاعة، وجمال الإيثار...، بل وقف ليحقِّقَ مرضاة الله تعالى قولاً وعَمَلاً، فقد تقدَّم منه أخوه عمر ـ رضى الله عنه ـ وهَمَسَ فى أذنه همسةٌ دافئة فيها معانى الأخوَّة، وقال له: يا زيد! خُذْ درعى كيما تقى بها جسمك من ألسنة الرِّماح، وأسنّة البِيْض(١).

* وفى همسة مشحونة برحيق الإيمان، قال زيدٌ ـ وقد علتْ وجهه الأسمر ابتسامة لطيفة ـ: يا عمر! إنّى أريدُ منَ الشَّهادة ما تريد.

وتابع (زيد) حضور المشاهد

* وتابعَ زيد ـ رضى الله عنه ـ حضورَ المشاهد، فشهد غزوة الخندق، كما شهد بيعة الرِّضوان بالحديبية، وبايع رسولَ الله ﷺ يومها علىَ الموت، وحظى بمرضاة الله مع الذين بايعوا تحت الشَّجرة، وشهد بعد ذلك المشاهد كلّها مع رسولِ الله ﷺ ، وفى كلِّ موقعة كان له مقامٌ محمودٌ، وغناء مشكور، وبلاء مبارك، وحظٌ وافر من الجرأة والإقدام(٢).

---

(١) البيض: جمع الأبيض وهو السيف.

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص: ١٥٠ ـ ١٥١).

وقفة خالدة

وبعد موت الحبيب ﷺ ارتد كثير من قبائل العرب ونَجَم النفاق وتطاول أعداء الإسلام وأصبح المسلمون كالغنم الشاردة فى الليلة المطيرة الشاتية.

* وفى بقاعٍ مختلفة ظهر مدَّعُو النُّبوَّة، وزعموا أنَّهم يُوحى إليهم كما كان يُوحى لمحمد رسول الله ﷺ ، فظهر منهم الأسود العنسى ومُسيلمة بن حبيب الكذَّاب وغيرهما، واستغلظَ أَمْرُ مُسيلمة، وعَتَا عتواً كبيراً، هنالك وقفَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ وقفته المشهورة الحازمة، وقرَّر القضاءَ على جرثومة الرِّدة فى مهدها، فلقد استغلظَ أمْر مُسيلمة الكذَّاب باليمامة، ولابُدَّ منَ التهيؤ والتَّضحية للقضاء عليه.

* وسارت الجيوشُ المسلمةُ بقيادة خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ إلى اليمامة، وكان معه فى هذ الجيش فارسُ حلقتنا زيدُ بنُ الخطاب، حيث كان على رأسِ المهاجرين يحمل رايتهم بيده(١).

وعن ابن عمر قال: قال عمر بن الخطاب لأخيه زيد يوم أُحُد: أقسمت عليك إلا لبست درعى. فلبسها ثم نزعها. فقال له عمر: مالك؟ فقال: إنى أريد بنفسى ما تريد بنفسك. (أى الشهادة).

وعنه قال: قال عمر لأخيه زيد يوم أحد: خذ درعى. قال: إنى أريد الشهادة كما تريد فتركاها جميعًا(٢).

أسدٌ وشهيدٌ فى يوم اليمامة

كان هناك رجل اسمه (الرَّجال بن عنفوة) وكان قد أسلم وتعلَّم شيئًا من القرآن وصحب رسول الله ﷺ مدة، وقد مر عليه رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبى هريرة وفرات بن حيان فقال لهم: «أحدكم ضرسه فى النار مثل أُحد» فلم يزالا خائفين حتى ارتد الرَّجال مع مسيلمة وشهد له زوراً أن رسول الله ﷺ أشركه فى الأمر معه، وألقى إليه شيئًا مما كان يحفظه من القرآن فادعاه مسيلمة لنفسه فحصل بذلك فتنة عظيمة لبنى حنيفة.

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:١٥٢).
(٢) صفة الصفوة (١/ ١٨٤).

وقد كان مسيلمة بن حبيب كتب إلى رسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ ؛ سلام عليك أما بعد؛ فإنى قد أُشركت فى الأمر معك فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشًا قوم لا يعتدون. فقدِم عليه رسولان بهذا الكتاب فكتب إليه رسول الله ﷺ ؛ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلامٌ على مَن اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[1].

وكان أصحاب النبى ﷺ يحترقون شوقًا لقتل هذا الخبيث (الرَّجال بن عنفوة) الذى استطاع أن يضل عددًا كبيرًا من الناس، وأن يحشد الحشود لنُصرة مسيلمة الكذاب.

ولكنه كان هناك أسدٌ رابض فى عرينه (زيد بن الخطاب) يتطلع لهذا الشرف العظيم ويريد أن يستأثر لنفسه بتلك المنقبة العظيمة ـ ألا وهى قتل الرَّجال بن عنفوة ـ.

وكان زيد بن الخطاب من الذين يبحثون عن الشهادة أينما كانت، فلما كان يوم اليمامة وجاء خالد بن الوليد ودفع اللواء لزيد بن الخطاب واصطدم المسلمون والكفار، فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهمّوا بقتل (أم تميم) ـ زوجة خالد بن الوليد ـ حتى أجارها (مجاعة) ـ جعلها فى حمايته ـ وقال: نعمت الحرة هذه، وقد قُتل الرَّجال بن عنفوة لعنه الله فى هذه الجولة، قتله زيد بن الخطاب، ثم تذامر الصحابة بينهم وقال ثابت بن قيس بن شماس: بئس ما عوّدتم أقرانكم، ونادوا من كل جانب: اخلصنا يا خالد، فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار. وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يُعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم.

وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة: أتخشى أن نؤتَى من قبِلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحُجتى[2].

وبمقتل (الرَّجال بن عنفوة) خارت عزائم مسيلمة الكذاب ومن معه، ونيقن كثير من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٥/ ٤٧) بتصرف.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٢٩).



الناس أن نبوة مسيلمة كانت وهمًا وخداعًا وكذبًا.

وانهال المسلمون على المرتدين حتى كتب الله لهم النصر.

وتاقت نفس زيد بن الخطاب إلى الشهادة بعد أن هبَّت رياح الجنة، فاستنشق عبيرها، وفاح عطرها، فملأ أرض الشرف والبطولة.

كان زيد بن الخطاب يحمل راية المسلمين يوم اليمامة وقد انكشف المسلمون حتى غُلبت بنو حنيفة عن الرحال، فجعل زيد يقول أما الرحال فلا رحال، وأما الفرار فلا فرار، ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللهم إنى أعتذر إليك من فرار أصحابى، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة. وجعل يشتد بالراية ينفذ بها فى نحر العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قُتل ووقعت الراية(١).

وسقط زيد شهيدًا فى أرض الشرف والبطولة، وعاد الناس إلى المدينة فرآهم عمر بن الخطاب، ولم يرَ معهم زيدًا فتقدم إليه من يبشره بأن الله رزقه الشهادة. فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: سبقنى إلى الحسنيين. أسلم قبلى واستشهد قبلى.

نعم أيها الأخ الحبيب.. إنه التسابق إلى كل طاعة توصل إلى رحمة الله ـ جل وعلا ـ.. إنها التجارة الرابحة مع الله ـ عز وجل ـ.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠، ١١].

وقال عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وقال ﷺ: «كلُّ النَّاس يَغْدو فبائعٌ نفسهُ فمُعْتِقُها أو موبِقُهَا»(٢).

ويقول القائل:

أخِى إنَّما الدُّنيا كسوقٍ قد تزيَّنتْ ... أُقيمَ لنا وانْفَضَّ عُمْرُ الفوَانيَا

وكلُّ امرئٍ لابد يدخُل سُوقَها ... سواء بهــذا كارِهًا أمْ رَاضيَا

(١) صفة الصفوة (١/ ١٨٤).

(٢) رواه مسلم (٣/ ٩٩، ١٠٠) الطهارة: باب فضل الوضوء، والترمذى فى الدعوات، والنسائى فى الزكاة وأوله «الطهور شطر الإيمان» وموبقها: أى مهلكها.

ولابدَّ مـن بيـع ولابُدَّ من شرا ولابد يمشى رايحًا أو غـاديًا
وسلعتـــه الكبرى التى يبيعُهَا هى النَّفْسُ لكن من يكون الشَاريَا
فإنْ باعهـا للـــه أعتقهـا إذن وكـانَ له من جَمْرة النار واقيا
وجنةُ ربى كـانت الثمنَ الذى سَيَقْبضُهُ الإنسانُ فَرْحَـانَ راضيا
وقدْ ربحَ البيعُ الذى تمَّ عقدهُ وجَلَّ الإلهُ المُشْترى جـلَّ ربّى

فالدنيا سوق عباد الله، والتجارة إما مع الله عز وجل وربحها الحياة الطيبة فى الدنيا، والسعادة الأبدية فى جنة الله عز وجل فى الآخرة، وإما مع الشيطان، وربح هذه التجارة الشقاء والضنك والهم والغم والحزن فى الدنيا، والشقاء الأبدى والجحيم السرمدى فى الآخرة، كما قال ﷺ: «فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وليس هناك ثالث يساوم على نفس العبد وماله.

قال بعض السلف: رأيت العبد مُلَقى بين الله عز وجل وبين الشيطان، فإن تولاه الله عز وجل لم يقدر عليه الشيطان، وإن تركه الله عز وجل أخذه الشيطان.

وأعلى تجارة وأغلاها هى التجارة مع الله عز وجل، ببذل النفس والمال لله عز وجل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة:١١١].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «لغدوةٌ فى سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها»(١).

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل»(٢).

وروى الذهبى أن ابن المبارك لما كان مرابطًا بطرطوس سنة سبع وسبعين ومائة، أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات:

يا عـابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمـت أنك فى العبادة تَلْعَبُ

---

(١) رواه البخارى (٦/ ١٣) الجهاد: باب الغدوة والروحة فى سبيل الله وقاب قوس أحدكم فى الجنة. ومسلم (٣/ ٢٦) الإمارة فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله ورواه الترمذى فى فضائل الجهاد.
(٢) البخارى (١٣/ ٢١٧) التمنى: باب ما جاء فى التمنى ومن تمنى الشهادة وفى الجهاد: باب تمنى الشهادة، ومسلم (١٣/ ٢٣) الإمارة باب فضل الشهادة فى سبيل الله.

مَنْ كان يخضبُ خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أوْ كان يُتعبُ خيله في باطلٍ	فخيولنا يومَ الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحن عبيرنا	وَهَجُ السَّنابِك والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبيِّنا	قول صحيح صادق لا يُكذبُ
لا يستوى غبارُ خيلِ الله فى	أنف امرئٍ وغبار نار تلهبُ
هذا كتابُ اللهِ ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يُكذبُ

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه، وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصح[1].

وهكذا أيها الأخ الحبيب... فبعد أن استشهد زيد بن الخطاب كان عمر يقول دائمًا: ما هبَّت الصبا إلا ذكّرتني زيد بن الخطاب[2].

فرضى الله عن زيد وعن عمر وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) تحفة الواعظ فى الخطب والمواعظ/ أحمد فريد (ص ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٠).

خالد بن الوليد

خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين

محمد رسول الله ﷺ

قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يومًا: «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

وها هى الأيام تمر والسنوات تمضى، وما رأينا واحدًا مثله أبدًا، مع أن الأمة فى أشد الحاجة إلى (خالد) يولد فى كل يوم ليحمل لواء الإسلام الذى انتكس منذ عشرات السنين ولم يجد مَن يحمله.

إن (خالدًا) واحدًا فتح الله به البلدان، ودكَّ به الحصون ودمَّر به الكُفران فماذا لو كانت الأمة كلها (خالدًا)؟!!!

إنى تذكَّرت والذكرى مؤرقةٌ ... مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه

أنَّى اتجهت إلى الإسلام فى بلد ... تجده كالطير مقصوصًا جَناحاه

كم صرَّفتنا يدٌ كنا نصرِّفها ... وبات يملكنا شعبٌ ملكناه

استرشد الغرب بالماضى فأرشده ... ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه

إنا مشينا وراء الغرب نقبس ... من ضيائه فأصابتنا شظاياه

بالله سل خلف بحر الروم عن عربٍ ... بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا

وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها ... عمَّن بناه لعل الصخر ينعاه

هذى معالم خرسٌ كل واحدة ... منهن قامت خطيبًا فاغرًا فاه

الله يعلم ما قلَّبت سيرتهم ... يومًا وأخطأ دمع العين مجراه

يا من يرى عُمَرًا تكسوه بُردته ... والزيت أُدْمٌ له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فَرَقًا ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

يا رب فابعث لنا من مثلهم نفرًا ... يشيدون لنا مجدًا أضعناه(١)

---

(١) صدقوا ما عاهدوا/ للمصنف (ص ١١٨).

وها نحن على موعد طال والله انتظاره مع مشهد الإسلام فى عزته وقوته... مع الرجل الذى رفع الله به هامات المسلمين ورايات الإسلام خفّاقة عالية تناطح كواكب الجوزاء.

إنه خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ سيفُ الله تعالى، وفارسُ الإسلام، وليثُ المشاهد، السيدُ الإمام الأميرُ الكبير، قائدُ المجاهدين، أبو سُليمان القرشىُّ المخزومىُّ المكىُّ، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

هاجر مسلمًا فى صفر سنة ثمان، ثم سار غازيًا، فشهد غزوة مؤتة، واستُشهد أمراءُ رسول الله ﷺ الثلاثة: مولاه زيدٌ، وابنُ عمه جعفر ذو الجناحين، وابنُ رواحة، وبقى الجيش بلا أمير، فتأمَّر عليهم فى الحال خالدٌ، وأخذ الراية، وحمل على العدو، فكان النصر. وسماه النبىُّ ﷺ: سيف الله، فقال: «إنَّ خالدًا سيفٌ سلَّه الله على المشركين». وشهد الفتح وحُنينًا، وتأمَّر فى أيام النبى ﷺ ، واحتبس أدراعه ولأمته فى سبيل الله، وحارب أهل الردة، ومسيلمة، وغزا العراق، واستظهر، ثم اخترق البرية السماوية بحيث أنه قطع المفازة من حدِّ العراق إلى أول الشام فى خمس ليال فى عسكر معه، وشهد حروبَ الشام، ولم يبق فى جسده قيدُ شبر إلا وعليه طابعُ الشهداء.

ومناقبه غزيرة، أمَّره الصدِّيق على سائر أمراء الأجناد، وحاصر دمشق فافتتحها هو، وأبو عبيدة.

عاش ستين سنة وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه.

فلا قرَّت أعينُ الجبناء.

توفى بحمص سنة إحدى وعشرين[1].

إسلامه ـ رضى الله عنه ـ

من هنا نبدأ

أنا لا أستطيع أن أكتب كلمة واحدة عن ماضيه قبل أن يُسلم، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله... ويكفيه شرفًا والله أن يقدم تلك التضحيات والبطولات للإسلام.

ولذلك فأنا أعتبر ميلاده منذ تلك اللحظة التى خشع فيها قلبه لله، وامتلأت جوارحه بالرغبة الشديدة والشوق لنُصرة دين الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

أما عن قصة إسلامه:

فإن الله لما ألقى الإسلام فى قلب عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ فخرج عامداً إلى رسول الله ﷺ ليُسلم بين يديه.

قال عمرو ـ رضى الله عنه ـ: فلقيتُ خالد بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مُقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسم[١]، وإن الرجل لنبيّ، أذهبُ والله فأُسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يُغفر لى ما تقدّم من ذنبى، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايعْ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته ثم انصرفت[٢].

ولَمَّا أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ: «ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها». وقال النبى ﷺ: «اللهمّ اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك».

قال خالد: فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بى أحداً من أصحابه فيما يُجزئه.

وفى رواية: فيما كان حَزَبَه. وفى رواية عمرو: فى أمرٍ حَزَبه[٣].

خالد (سيف الله) يحمى انسحاب المسلمين من مؤتة

وفى معركة مؤتة بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال: «عليكم زيد ابن حارثة، فإن أُصيب زيد فجعفر، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصارى» فوثب جعفر فقال: بأبى أنت يا نبى الله وأمى ما كنت أرهب أن تستعمل علىّ زيداً! قال: «امضوا فإنك لا تدرى أى ذلك خير» قال: فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الله. ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر وأمر أن ينادي الصلاة جامعة فقال رسول الله ﷺ: «ناب خير أو ثاب

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٨، ١٩٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٢٣)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٥٤) وحسّن إسناده الألبانى فى الإرواء (٥/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٢)، (٧/ ٣٩٤).

خير ـ ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازى؟ إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو فأُصيب زيد شهيداً فاستغفروا له» فاستغفر له الناس «ثم أخذ اللواء جعفر بن أبى طالب فشد على القوم حتى قُتل شهيداً أشهد له بالشهادة فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى أُصيب شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، وهو أمَّر نفسه» فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال: «اللهم هو سيف من سيوفك فانصره» أو قال: «فانتصر به» فيومئذ سُمّى خالد سيف الله، ثم قال النبى ﷺ: «انفروا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد» فنفر الناس فى حرٍ شديد مشاة وركبانًا[(١)].

وفى رواية عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبىَّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم فقال: «أخذ الرايةَ زيدٌ فأُصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذَ الرايةَ سيفٌ من سيوفِ الله حتى فتح الله عليهم»[(٢)].

وفى هذه المعركة العظيمة يخلع رسول الله ﷺ أرفع وسام على صدر خالد وهو ينسحب بجيش المسلمين، فكيف يسمى رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سيف الله وهو ينسحب ـ لهذا ـ سببٌ أرقّ من نسيم الفجر وأحلى من الشهد.

فقد كانت معركة «مؤتة» أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه، وبعد قتل قادة الجيش الثلاثة وانكشاف صف المسلمين، كما قال أبو عامر: انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعًا.

ودفع ثابت بن أقرم اللواء إلى أبى سليمان خالد بن الوليد قائلا: «خذ اللواء يا أبا سليمان، فأنت أدرى بالقتال منى، والله ما أخذته إلا لك».

وتلقى خالد اللواء، وأصبح قائداً عامًا لقوات المسلمين فى أصعب ظروف... جيش أنهكه القتال الشديد الضارى طيلة الأيام الستة... ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه، موقف جعل هذا الجيش مُهيأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملاً، أو يقع بكامله أسيرًا فى قبضة الرومان وأحلافهم من العرب.

واعتلى العبقرى جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح، على طريق طويل سيقطعه البطل وثبًا وثبًا فى حياة الرسول ﷺ وبعد مماته،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٩٩) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧٧) وقال العدوى: وإسناده صحيح.
(٢) أخرجه البخارى (٤٢٦٢) وأحمد (٣/ ١١٣) والنسائى (٤/ ٢٦).

حتى تبلغ المقادير به أمراً كان مقدوراً.

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة.. فقد قام بتبديل كُلِّىٍّ فى الميمنة والميسرة والقلب من جيشه، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين، كل هذا فى ظلام الليل، وجعل مقدمة الجيش ساقة وساقته مقدمة.. أى أنه سحب جيشه من ساحة المعركة وأبقَى ساقة تحمى الانسحاب، نشر هذه الساقة ليحتل فرسانها مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة فى دوائر ضيقة، كل هذا ليدخل فى نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيراً قد جاء لجيش المسلمين.

هذه هى الخطة التى وضعها القائد المحنّك الفذّ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فَناءٍ مُحقَّق.

فقد وجد الرومان أنفسهم ـ أثناء تقابل الصفوف فى اليوم السابع ـ أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير التى كانوا يواجهونها فى الصفوف الأولى أثناء القتال فى الأيام الستة الماضية.

ووجد الرومان غباراً يسدّ الأفق من بعيد ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامى، ودوّت أصوات التهليل والتكبير، منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذى حجب الأفق، ثم انشقّ هذا الغبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداهما الأخرى فى تنسيق وإحكام راكضة نحو المسلمين فى مؤتة، قد رجفت الأرض رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير، واهتز معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير، ودبّ الفزع فى نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج، ولسان حالهم يقول: إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة، فما عساهم فاعلين بعد مجىء هذا المدد؟!.

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة، فاغتنمها فرصة فأمر فى الحال بالهجوم على خطوط الرومان، وبأسلوب عام صاعق كاسح فتمّ له ما أراد.

وتضعضعت خطوط الروم الأمامية، وركبهم المسلمون، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، كانت بكل معانى الكلمة «مذبحة» وصفها الواقدى فى كتابه «المغازى» بقوله: «فرُعبوا

فانكشفوا منهزمين، فقُتلوا مقتلة لم يُقتلها قوم قط»[1].

وقال ابن سعد فى «طبقاته»: ثم أخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها[2] قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا»[3].

كان القتال ضاريًا، خاضه المسلمون بحنق وغيظ، وكان الرومان فى تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسة، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالد نفسه: «لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية»[4].

ولما كان هدف القائد خالد من كل الأعمال والخدع الحربية التى لجأ إليها هو أن يؤمِّن لجيش الإسلام انسحابًا منظمًا من مؤتة اغتنم فرصة ارتباك الرومان واضطرابهم واعتقادهم أن المسلمين قد تلقوا نجدة من المدينة، فأصدر أوامره إلى قادة الفرق والكتائب فى جيش الإسلام بالارتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام كما هو متفق عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الانسحاب فى الليل.

فأخذ الجيش الإسلامى يغادر ميدان المعركة فى مؤتة منسحبًا بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة.

وأشرف خالد نفسه على عملية الانسحاب، فكان يجول بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام سائدًا أثناء الانسحاب ولتظل روح الجند والقادة ومعنوياتهم عالية، فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى.

وتمت عملية الانسحاب من مؤتة كما قدّر وأراد القائد البطل خالد.

تمّت على أدقّ نظام ودونما أية خسارة ـ وذُهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة ـ وما استطاعوا أن يتعقبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل، وخافوا أن يكون الانسحاب مكيدة حربية جديدة يدبرها القائد خالد لإيقاع الجيش الرومانى ـ إذا ما تبع المنسحبين المسلمين ـ فى كمائن قد أعدّها مقدمًا، فأحجمت القيادة الرومانية لذلك عن تعقب المسلمين.

---

(١) مغازى الواقدى (٢/ ٧٦٤).

(٢) الراوى هنا أبو عامر الصحابى.

(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ١٣٠)، و«مؤتة» لمحمد أحمد بشاميل (ص ٢٠٧) من كتاب «سلسلة معارك الإسلام الفاصلة».

(٤) رواه البخارى وأحمد فى فضائل الصحابة، وابن سعد، والطبرانى فى الكبير، والحاكم فى المستدرك.

ووصل الجيش سالمًا إلى ضواحى المدينة «الجرف».

وجعل أهل المدينة يصيحون بالجيش «يا فُرّار... فررتم» ويحثون فى وجوه الجند والقادة التراب، وأتت كلمة الوحى ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه، فقد قال الرسول ﷺ: «ليسوا بفرّار، ولكنهم الكرّار فى سبيل الله» وتكفى شهادة الرسول ﷺ شهادة.

ولقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمّة فى المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد لقب «سيف الله» فى الوقت الذى تلقى فيه جمهور المدينة خالداً وجيشه بالحجارة يقذفونهم بالحجارة ويحثون التراب فى وجوههم ساعة عودتهم من المعركة.

وما فعله خالد فى انسحابه يمثل أعلى درجات النصر، هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية فى كل زمان ومكان.

وعلم المسلمون بَعْدُ قدر تضحية خالد وبذله، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان، ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع... ومَن أشجع من أبى سليمان قلبًا، وأروع عبقرية وأنفذ بصيرة؟!

إيه يا بطل كل نصر، ويا فجر كل ليل، إيه يا خالد.

إنّ روح أبى سليمان وريحانه ليُوجدان دائمًا وأبدًا حيث تصهل الخيل، وتلتمع الأسنّة، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لقد كان يعلو بروح جيشه على أهوال الزحف بقوله لجنده: «عند الصباح يحمد القوم السرى» حتى ذهبت عنه مثلاً، وها هو ذا قد أتمّ مسراه فلصباحه الحمد، ولذكراه المجد والعطر، والخلد وظلال العرش[1].

موقفه - رضى الله عنه - فى فتح مكة

وها هو مشهد النور الزاحف على مكة... مشهد المستضعفين الذين لا تزال جسومهم تحمل آثار العذاب والهول، يعودون إلى البلد الذى أُخرجوا منه بَغيًا وعَدْواً - يعودون إليه على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام الخفاقة.. وقد تحوَّل همسهم الذى كانوا يتناجون به فى دار الأرقم بالأمس - إلى تكبيرات صادعة رائعة ترجُّ مكة

(١) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (٢/ ٢٣٢: ٢٣٦) بتصرف.

رَجًا، وتهليلات باهرة ظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كله في عيد..!![1]

وقبل دخول مكة قال النبي ﷺ للزبير وخالد: «لا تقاتلا إلا من قاتلكما». وكان خالد على ميمنة قوات المسلمين وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها من «اللِّيط»، إلا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة، وكما قال خالد: «بدءونا بالقتال، ورمونا بالنَّبل ووضعوا فينا السلاح، وقد كففتُ ما استطعتُ، ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا، حتى إذا لم أجد بُدًا من أن أقاتلهم، فظفَّرنا الله بهم، فهربوا من كل وجه»[2].

وقُتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلاً ثم انهزموا.

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام الخفاقة، وتكبيراتهم الصادعة الرائعة، ترجّ مكة رجًا، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كله في عيد.

خالد يقتل العزى ويهدمها

ولما فتح النبي ﷺ مكة في عام «الفتح» أرسل خالدًا إلى اللات والعُزّى فأتى خالد عليها فقال:

يا عُزُّ كُفْرَانَكِ لا سُبحانكِ ... إني رأيتُ اللهَ قَدْ أهانَكِ[3]

وعن قتادة أن النبي ﷺ بعث خالدًا إلى العُزّى، وكانت بهوازن، وسدنتها بنو سليم، فقال: انطلق، فإنه تخرج عليك امرأة، شديدةُ السواد، طويلة الشعر، عظيمة الثديين، قصيرة، فقالوا يحرضونها:

يا عُزُّ شُدّي شـدةً لا سواكها ... على خالد ألقي الخمار وشمِّري
فإنّك إنْ لا تقتلي المَرْءَ خالدًا ... تبُوئي بذنبٍ عـاجلٍ وتُقَصّري

فشدّ عليها خالد، فقتلها، وقال: ذهبت العُزّى فلا عُزّى بعد اليوم[4].

---

(١) رجال حول الرسول (ص ٣٦٤).
(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٢٠٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٩).
(٤) شرح المواهب اللدنية (٢/ ٣٤٨) ـ ابن هشام (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧).

وفي يوم حنين

عن عبد الرحمن بن أزهر قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم حُنين يتخلَّلُ الناس، يسألُ عن رحل خالد، فدُلَّ عليه، فنظر إلى جرحه، وحسبت أنه نفث فيه(١).

موقف الخالد في حروب الردة

لله دَرُّ خالد.. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات، بينما قَاتل شمالاً على حدود أرض الشام، وجنوبًا في اليمن، وشهد أحد عشر مشهدًا، قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلاً، ولم يُقاتل في خمسة مشاهد منها، بل أنجز واجبه سِلمًا، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال!!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ، وكانت له قابليات نادرة في القيادة العسكرية خاصة لا يجود بها الزمان إلا نادرًا، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه: «نعم عبد الله وأخو العشرة، وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين»(٢).

ولما خرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى أهل الرِّدة كان خالد بن الوليد يحمل لواءه، فلما تلاحق الناس به استعمل خالدًا ورجع إلى المدينة، وكان خالد يقول: ما أدرى من أي يوميّ أفرُّ؟ من يوم أراد الله ـ عز وجل ـ أن يهدي لي فيه شهادة أو من يوم أراد الله ـ عز وجل ـ أن يهدي لي فيه كرامة؟(٣).

ولقد كانت حروب الردة ـ التي استمرت ملتهبةً حوالي سنةً كاملة ـ أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال، وخالد بن الوليد لم يقم أي محاربٍ مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة «بزاخة» ببلاد بني أسد، ومنطقة البطاح في ديار بني تميم، ومنطقة اليمامة موطن بني حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد في حياته(٤).

---

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه أحمد (٤/ ٨٨، ٣٥١) وإسناده صحيح.
(٢) الاستيعاب (٢/ ٤٢٩) وقادة فتح العراق والجزيرة (ص ٩٤، ٩٥).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٧٥).
(٤) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٣/ ٥٤٩).

مع طليحة فى بزاخة

التقى خالد مع طليحة الأسدى فى بزاخة، فتقاتل الطرفان قتالاً شديداً، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال:«يا معشر فزارة، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته، فليفعل»، وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة. ولقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبنى عامر وسُليم وهوازن، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام، ولم يقبل منهم إلا أن يأتوه أولاً بالذين حرّقوا ومثّلوا وعدوا على الإسلام، فأتوا بهم، فمثّل بهم وحرّقهم، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكّسهم فى الآبار[1].

موقفه التاريخى فى اليمامة مع مسيلمة الكذاب

وبعد أن فشل عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة فى القضاء على المرتدين فى اليمامة، سار إليها خالد، فلمّا كان على بُعد ليلة من معسكر مسيلمة، هجم على مفرزة من بنى حنيفة بإمرة «مجاعة بن مرارة الحنفى» قوتُها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا، فأسرهم وقتل أصحاب «مجاعة»، واستحياه رهينةً لشرفه فى بنى حنيفة. والتقى الجمعان فى عقرباء، واشتدّ القتال، وتكسّرت فى يد خالد تسعة سيوف، واشتدّ القتال بشكل لم يسبق له مثيل، وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد ـ خيمته ـ ولكنّ المسلمين عادوا فاستقتلوا، فقال خالد: «يا أيها الناس، امتازوا ـ تميزوا وانفصلوا ـ لنعلم بلاء كلّ حىٍّ ولنعلم من أين نُؤتَى». وكان النصر بعد جهد جهيد لأنصار دين الله، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالى أربعين ألف مقاتل أو أكثر، وقُتل من بنى حنيفة فى معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا، وقُتل منهم فى الطلب سبعة آلاف، وقُتل عدو الله مسيلمة، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة، وثلاثمائة من التابعين، وقُتل من القُرّاء خمسمائة، فكان جملة من قُتل من المسلمين ألفًا ومائتى شهيد، أى أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط، وهذا يعدّ من أروع الانتصارات.

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ١٣٢).

فلله درُّك يا خالد وأنت تريد قتل مسيلمة، وما تطلب من الفرسان حين تشدُّ عليه إلا حماية ظهرك فقط، وتقول: «لا أُوتينّ من خلفى». فلا يثبت لك الكافر.

لقد أبلى خالد فى قتال أهل الردة بلاءً عظيمًا.. ولله دَرُّ أبى بكر حين قال فيك: «ما كنتُ لأشيمَ سيفًا سلَّه الله على الكافرين»(١).

صفحات مشرقة من البطولات فى العراق (مع الفرس)

ولقد سطَّر (خالد) على جبين التاريخ سطوراً من النور فى تلك المعارك التى خاضها ضد الفُرس فى أرض العراق.

ولقد كان خالد قائدًا لا يُجارَى ولا يُبارى فى خططه وشجاعته، فلقد كانت معاركه أغرب من الخيال وله فى كل معركة ذِكر ونبأ تطير بذكره الرّكبان.

وليت هذه الصفحات كانت تتسع لكى نتتبّع مواكب نصره، ولكن حسبنا أن نلقى الضوء على بعضها.

معركة (كاظمة)

وفيها كان قائد الفرس «هرمز»، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه «ازاذبة» وكان نص رسالة خالد: «أما بعد، فأسلِمْ تَسْلَمْ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».... ورفض «هرمز» الإسلام، واستعد للحرب.

وكان خالد قمة فى سياسته العسكرية، وقدرته على المناورة وخداع، العدو، لإنزال الهزيمة به بأقل خسارة ممكنة فى جيش الإسلام، فتوقع «هرمز» أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى «كاظمة» فى أول الأمر، فوجّه كافة قواته إلى «كاظمة» واستعدَّ جُندُه وحفروا الخنادق، ولكن خالد الذى قسم جيشه وفرّقه إلى ثلاث فرق، لم يحملهم على طريق ليُعَمِّى وجهته عن عدوه، فيظل فى حيرة من أمره حتى آخر لحظة، وأربك خالد القائد الفارسى وفَتَّت أعصابه، فتخطىّ «كاظمة» واتجه نحو الحفير الواقعة شمال كاظمة وغربى «الأبلَّة».

وعندما لم يجد «هرمز» أى أثر لخالد فى «كاظمة»، وأنه تخطّاها نحو «الحفير»،

(١) الطبرى (٢/ ٥٠٣) وابن الأثير (٢/ ١٣٧) نقلاً من صلاح الأمة.

اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد، وأمر «هرمز» قواته بأن تُجهد نفسها في التحرّك، ليسبق خالدًا إلى «الحفير»، وهذا هو الذي هدف إليه خالد ـ رضي الله عنه ـ أن يُرهق عدوه نفسيًا وجسديًا قبل نشوب المعركة، وعن عمد تباطأ خالد بجيشه في السير نحو «الحفير» ليسبق إليها القائد «هرمز»، وفعلاً وصل «هرمز» «الحفير» على عجل ليسبق إليها خالدًا، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في «الحفير» استعدادًا لمواجهة خالد، ولمّا تلقىّ خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال، عطف بجيشه راجعًا إلى «كاظمة»، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس ـ بعد حفر الخنادق في «الحفير» ـ قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل؛ توطينًا لأنفسهم على الموت، أو إحراز النصر، ولمّا أبلغت «هرمز» استخباراته أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو «الكاظمة» راجعًا، استشاط غضبًا وتوتر أعصابه، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو «كاظمة» وهناك وجد خالدًا في انتظاره، قد عبأ جيشه للقتال، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات، ومنعوهم الماء، فقال خالد كلمته الخالدة: «ألا انزلوا وحطّوا رحالكم، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجُندين»[1].

ودعا «هرمز» خالدًا للبراز ـ المبارزة ـ وسرعان ما أجابه خالد، ولكن هرمز الخبيث ـ الذي ضرب به المثل فيه فقيل: «أخبث من هرمز» قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد، فلما نزل خالد نزل هرمز، ومشى إليه خالد، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ، فاستلحموا[2] خالدًا، فما شغله ذلك عن الهرمزان، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز، فأبادها جميعًا، أمّا خالد فقد تمكنّ في الحال من ذبحْ (هرمز) ذبح النَّعاج، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل، ولم ينج من الفرس إلا من استطاع ركوب السُّفن، وجمع خالد الرثاث[3] وفيها السلاسل، فكانت وقر بعير؛ ألف رطل، فَسُمِّيَتْ «ذات السلاسل» ونَفَّل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خالدًا قُلنسوة هرمز، وكانت قيمتها مائة ألف[4].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٩).

(٢) أي: تبعوه.

(٣) المتاع.

(٤) صلاح الأمة (٣/ ٥٥٢، ٥٥٣).

إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين

نعم، الإسلام رفع من شأن العرب، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً، لا شأن لهم فى الأرض، ولا ذكر لهم فى السماء، أذلّهم الفرس، حتى إنَّ سابور الثانى والملقّب بذى الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب، فيقتلهم عن طريق نزع أكتافهم، فنزع أكتاف خمسين ألف عربى من تميم وبكر ابن وائل، حتى قالت له عجوز عربية: «إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين». الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس، يُذلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم... حتى صار ذكره يُقضّ مضاجع الفرس.. ويبدو هذا فى معركة (الأُبُلّة).

(الفرس) يفرون من اسم (خالد) فى معركة (الأبلة)

سار خالد بجيشه إلى الأُبلَّة، وفيها جيوش كثيفة للفرس، وسبق «سويد ابن قطبة الذهلى» ـ وكان من جيش خالد ـ فى جماعة من قومه خالدًا فى اتجاه الأُبلَّة، وعسكر حولها، ولما وصل خالد بقواته مكان «البصرة» اليوم، وجد سويدًا يتعقب أهل «الأبلَّة» فى انتظار أن يهاجموه، فيقاتلهم خارج مدينتهم، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه، وأنهم سيظلُّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا فى المعسكر، فقال سويد لخالد:

إن أهل الأُبلة قد جمعوا لى ولا أحسبهم امتنعوا منى إلا لمكانك؛ أى خوفًا منك.

وهناك رسم خالد بالاتفاق مع «سويد» خُطة يخدعون بها الفرس، حتى يأمنوا فيخرجوا لمقاتلة «سويد»، وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذى بث فى قلوبهم الرعب بعد قتله «هرمز»، قد ترك معسكر «سويد»، وأنه لم يبق قائد للمسلمين فى المعسكر سوى «سويد» فقط؛ فقال خالد لسويد:

فالرأى أخرجُ من المعسكر نهارًا، ثم أعود إليه ليلاً، فأدخل بأصحابى، فإن صبّحوك حاربهم... ونفّذ خالد خطته لتضليل حامية الأُبُلّة الفارسية، واستدراجهم لمهاجمة سويد، فتوجّه خالد بمعظم قواته فى وضح النهار فى اتجاه (الحيرة)، فاطمأن الفرس إلى تَرْك خالد للمكان، وعاد ـ رضى الله عنه ـ بقواته إلى المعسكر ليلاً، فلما خرجت جيوش الفرس من «الأُبُلَّة» قاصدين مهاجمة «سويد»، وما كادوا يصلون مدخل معسكر

سويد، حتى رأوا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد، فأُسقط فى أيديهم لمَّا علموا بوجود خالد فى المعسكر، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا فى وجه خالد، وما كان همّهم إلا الفرار للعودة إلى الأُبلة المحصَّنة، فولّوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة، ولكن خالدًا حال بينهم وبين ذلك، وانفرط عقد جيش الأُبلَّة، وتمزّق شملهم، وكثُر القَتل فيهم، وقذف كثير منهم نفسه فى نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالد «معقل ابن مقرن المزنىّ» إلى الأبلَّة التى كانت خالية من المحاربين، فسيطر عليها بدون قتال، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة(١).

معركة المذار.. وقتل قواد الفرس الثلاثة

وبعد أن سيطر (خالد) على نقطة حربية مهمة يُقال لها: الحزيبة ـ وكانت من مسالح العجم ـ.

جهّز شيرويه ملك الفرس جيشًا جرّارًا، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قوّاده وهو «قارن بن قرباس» يسانده قائدان كبيران وهما: «الأنوشجان» و«قباذ»، وكان هذا الجيش يضم أيضًا فلول الأُبلَّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل، وتعاهدوا بعدم الفرار.

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا، بينما خالد فى جيش لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا. وبدأت المعركة اللاهية بدعوة قارن إلى البراز، فاستبق إليه اثنان من المسلمين: خالد بن الوليد، وأبيض الركبان (معقل بن الأعشى النباشى) فسبق (معقل) على فرسه خالدًا، وبارز (قارنًا) فقتله فى الحال، وهجم (عاصم بن عمرو) على الأنوشجان فقتله فى الحال، وبادر البطل الميمون عدى بن حاتم إلى القائد (قباذ) فقتله، وقاتل الفرس على حنق وحفيظة، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن، وكان شرف قارن قد انتهى؛ أى أنه وَصل إلى أعلى رتبة عسكرية فى فارس. وقُتل من الفرس فى الميدان ثلاثون ألفًا، سوى من غرق فى دجلة بحديده «ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة»(٢).

* * *

(١) نقلاً من صلاح الأمة (٣/ ٥٥٣: ٥٥٥).
(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٥٢).

مواكب النصرة تحمل رياح البشرى

وظل خالد ينتقل بالمسلمين من نصر إلى نصر - بإذن الله وتوفيقه - وراح يقذف بجنوده على الباطل فيدمغه وطُويت له الأرض طيًا.

فها هو ينتصر في معركة (الولجة) بخطة رائعة.

معركة أليس أو «نهر الدم»
نذر خالد لله أن يجري نهرًا من دمائهم!!!

حَقَدَ نصارى العرب وهم من (تغلُب وبكر بن وائل) على المسلمين بعدما أصابهم في الولجة، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدّهم بجيش فارسي؛ ليشتركوا سويًا في القضاء على خالد وجيشه، وكان على العرب في (أُلَّيس) عبد الأسود العجلي، ووصل «جابان» على رأس جيش كثيف من الفرس، وتولّى جابان القيادة العامة، وكان عبد الأسود قائد خليط نصارى العرب، وهم من بكر بن وائل وبني عجل، وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية.

وصل خالد بجيشه، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء، وقد وُضع الطعام الفاخر على البُسط، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب، وخالد في جيش لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا، فلم يحفلوا بخالد وأقبلوا على طعامهم، فقال لهم قائدهم جابان: «اتركوا الطعام، واستعدُّوا للصدام». فلمّا عصوه قال: «إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطعَمُوا الطعام، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلاً منكم». فعصوه، وبسطوا البُسُط، ووضعوا الأطعمة، ودعا بعضهم إلى بعض، وتوافوا إلى البُسُط، وزحف خالد والمسلمون، فأجبروا الفرس على القيام عنه، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه. ودعا خالد للبراز ونادى «أين أبجر بن عبد الأسود، أين مالك بن قيس؟». فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلا مالك بن قيس، فإنه خرج إلى خالد، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتقرًا: «يا ابن الخبيثة، ما جرَّأك؟! لستَ لي عليّ من بينهم، وليس فيك وفاء». أي أنك لست لي بكُفْء. ثم ضربه ضربةً قتلته في الجال. ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالاً شديدًا كان أشدَّ من أيّ قتال سبق؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالد؛ لقتله

ابنى زعيميهم فى الولجة، وصبر الفرس صبرًا شديدًا، ولقى المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى شقَّ عليهم الأمر.

قال خالد: «ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيس». ونذر خالد لله أن يُجرى نهرًا من دمائهم إنْ مَنَحَهُ الله النصر عليهم، فقال: «اللهم إنّ لك علىّ إن منحتَنَا أكتافهم، ألا أستبقى منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرى نهرهم بدمائهم».

وانتاب الفرس والنصارى الذعرُ والخوفُ عندما رأوا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم، وركنوا إلى الفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، ونادى منادى خالد حتى يفىَ بنذره: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلا مَنْ امتنع. فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر، فوكَّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم فى النهر يومًا وليلةً، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم، وهنا قال القعقاع وغيره لخالد: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تُجرِ دماءهم، ولكنْ أرسلْ على الدماء الماءَ، فيجرى النهر دمًا لتبرّ بيمينك. فعمل خالد بمشورة القعقاع، وأُعيد الماء إلى النهر، فجرى أحمر قانيًا، فسُمِّى لذلك: نهر الدم، وعُرِف بذلك إلى قرون طويلة. قالوا: وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا ـ أو يزيدون ـ ثلاثة أيام، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذى وضعوه على البُسُط، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا، أكثرهم من أهل «أمغيشيا»، وزُفَّ خبر النصر إلى الصدِّيق، فتوَّج خالدًا بشهادة من أرقى الشهادات، وحَسْبُك بها من شهادةٍ، فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا فى عبقريته وشجاعته، ولا نظير له فى عسكريته.

أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد

قال الصدِّيق فى خالد ـ وهو يخطب فى الناس بعد نصر أُلَّيس ـ: «يا معشر قريش، عدا أسَدُكم على الأسدِ، فغَلَبَهُ على خراذيله(١)، أعجزتِ النساء أن ينشئن مثل خالد!!».

* * *

(١) أطايب اللحم المقطّع الوافر، وخردل وخرذل بمعنى واحد.

الله ينصر خالدا بالرعب (يوم أمغيشيا)

كانت أمغيشيا أعظم وأهمّ من أُلّيس، وكانت على بُعد أربعين كيلو مترًا من أُلّيس، فتملّكهم الرعب، وفرّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد، وتركوا وراءهم كل شيء.

وجاءت بعدها معركة (المقر) واستسلام الحيرة، فلقد استطاع خالد ـ بإذن الله ـ أن يفتتح تلك المدينة بعد أن استسلموا وفاوضوا خالدًا وأقروا بدفع الجزية مائة وتسعين ألف درهم تُقبل كل سنة، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصمة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

سيف الله (خالد) يشرب السمّ فلا يضره

عن قيس أنه قال: أُتى خالدٌ بسُمٍّ فقال: ما هذا؟ قال: سُمٌّ. فَشَرِبَهُ[1].

وفى أمهات كتب التاريخ: أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب، ومعمّرهم وأرجح قومه عقلاً، لمّا دخل على خالد، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا فى وسطه، فتناوله خالدٌ وقال: ما فى هذا الكيس؟ ونشر ما فيه فى راحته، ثم قال: ما هذا يا عمرو؟ فقال عمرو: هذا والله سُمُّ ساعة. فقال خالد: ولِمَ تحتقبُ السُّمَّ؟ ـ وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا منّ أهل الحيرة ـ قال عمرو: خشيتُ أن تكون على غير ما رأيتُ من العَدْل، وقد أتيتُ على أجلى، والموت أحبُّ إلىَّ من مكروه أُدخله على أهل قريتى. فأخذ خالد السُّمّ المذكور، وتلا هذا الدعاء: «إنها لن تموت نَفس حتى تأتى على أجلها، بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذى لا يضرّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم». ثم وضع السم فى فمه، وبادروه ليمنعوه، ولكنّه قد سبقهم فابتلعه، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا، فمضت ولم يضرّ السم خالدًا.

كيف لا وهو من أكابر أولياء الله المتقين، وسيد المجاهدين فى الشام والعراق، فقال عندها ابنُ بقيلة: «والله يا معشر العرب لتملكُنَّ ما أردتم».

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ قلت: هذه والله الكرامة وهذه الشجاعة[2].

وما زال (خالد) يسير فى ظل تلك الكوكبة الرائعة من الفتوحات والانتصارات إلى

(١) رواه أحمد فى فضائل الصحابة، والطبرانى فى الكبير (٣٨٠٩) وقال العدوى: إسناده صحيح.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٧٦).

أن جاءه الأمر من (الصدِّيق) بأن ينتقل إلى جبهة أخرى لقتال الروم فى أرض الشام، وهنا قام خالد بانتقاء مجموعة من قواته وترك على العراق «المُثَنَّى بن حارثة» واستطاع ـ بفضل الله تعالى ـ أن يقطع البرية السماوية من العراق إلى الشام فى خمس ليالٍ فقط!!!.

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها (الصدِّيق) عن خالد، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام، وذلك لكثرة الروم وحُلفائهم الهائلة، التى بلغت ربع مليون مقاتل، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا، وأرسل أبو عبيدة إلى أبى بكر الصدِّيق: «وبعد، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب، قد أجمعوا على حرب المسلمين، ونحن نرجو النصر، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك».

فقال الصدِّيق: «خالدٌ لها، والله لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»[١].

فتوحات الشام

وعبأ (خالد) جيشه وقسمه إلى فيالق ووضع للهجوم والدفاع خطة جديدة تتناسب مع طريقة الروم.

وها هو يفتح المدن ويدكّ الحصون ـ بإذن الله ـ وبينما هو فى تلك الفرحة الغامرة من تلك الانتصارات التى أكرم الله بها المسلمين.. وإذا برسالة عاجلة تأتى وفيها خبر موت خليفة رسول الله ﷺ (أبى بكر).

وفاة الصدِّيق (رضى الله عنه) وتولية عمر (رضى الله عنه) وعزل عمر لخالد (رضى الله عنه) من قيادة الجيش

توفى الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ وتولّى عمر الخلافة، فعزل خالدًا أثناء حصار المسلمين لدمشق، وهو الحصار الذى لم يتمّ فتح دمشق فيه. وعند الطبرى (٢/ ٥٩٥)، وابن الأثير (٢/ ٨٥):أنّ عَزْل خالد كان أثناء معركة اليرموك.

(١) الطبرى (٢/ ٦٠٢) نقلاً من علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٥٧٤).

خالد (رضى الله عنه) يشرب من دم الروم فى (اليرموك)

لقد أقبل الروم فى تلك المعركة وكان عددهم مائتى ألف (٢٠٠,٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم (باهان ـ أو ـ ماهان) وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦,٠٠٠) منهم ألف رجل من الصحابة فيهم مائة بدرى.

البطل يؤمر نفسه

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية، قال خالد: «أرى والله إن كنّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة، هم أكثر منّا وأقوى، وما لنا بهم إذن طاقة. وإن كنّا نُقاتلهم بالله ولله، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا، أنهم تُغنى عنهم شيئًا». ثم غضب وقال لأبى عُبيدة: أتُطيعنى أنت فيما آمرك به؟ قال له أبو عبيدة: نعم. قال خالد: «فولّنى ما وراء بابك، وخلّنى والقوم، فإنى لأرجو أن ينصرنى الله عليهم». قال: قد فعلت. وهكذا تولّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين فى يوم اليرموك.

وجمع باهان جنده وقال لهم: «أنتم عدد الحصى والثّرى والذّرّ، فلا يهولنّكم أمرُ هؤلاء القوم؛ فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس، وجلّهم حاسر جائع، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوة، والسلاح والكراع، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطرف حتى تُهلكوهم أو تَهلكوا أنتم».

وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان]: «إنّا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع، فهلُمّوا إلى أن أُعطى كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها». فقال خالد: «إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنّا قومٌ نشرب الدماء، وأنه بَلَغَنَا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك». فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كُنّا نتحدّث به عن العرب[1].

ولما جاءت جموع الروم كالسّيل والليل، وهم يجرّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعات، ومعهم صلُبهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة. وعبّأ خالد جيشه

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩ ـ ١٠).

فى تعبية لم تُعبِّها العرب من قبل، إذ نظم جيشه فى ستة وثلاثين كردوسًا[1] إلى الأربعين، وقال: «إن عدوكم قد كثُر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس».

ولَوَى البطل زمام جواده عائدًا إلى صفوف جيشه. ورفع اللواء عاليًا مُؤذنًا بالقتال..

[الله أكبر]..

[هبِّى رياح الجنة]..

كان جيشه يندفع كالقذيفة المصبوبة.

ودار قتال ليس لضراوته نظير..

وأقبل الروم فى فيالق كالجبال..

وبدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون..

ورسم المسلمون صُورًا تبهر الألباب من فدائيتهم وثباتهم..

فهذا أحدهم يقترب من أبى عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ والقتال دائر، ويقول: [إنى قد عزمتُ على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ أُبلغها له حين ألقاهُ؟؟

فيجيب أبو عبيدة: [نعم... قل له: يا رسول الله إنا قد وَجَدنا ما وَعَدنا ربنا حقًا]..

ويندفع الرجل كالسهم المقذوف... يندفع وسط الهول مشتاقًا إلى مصرعه ومضجعه.. يَضرب بسيفه، ويُضرب بآلاف السيوف حتى يرتفع شهيدًا..!

وهذا «عكرمة بن أبى جهل»..

أجل.. ابن أبى جهل..

ينادى فى المسلمين حين ثَقُلَتْ وطأة الروم عليهم قائلاً: [لطالما قاتلتُ رسول الله ﷺ قبل أن يهدينى الله إلى الإسلام، أفأفِرُّ من أعداء الله اليوم]؟

ثم يصيح: [من يُبايعُ على الموت]...

(١) الكردوس: مفرد كراديس؛ وهو كتلة من الجنود يتألف من ألف مقاتل. وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية، العريف يقود عشرة رجال، وآمر الأعشار يقود مائة رجل، ولكل كردوس قائد له راية.

فبايعه على الموت كوكبة من المسلمين ـ ثم ينطلقون معًا إلى قلب المعركة لا باحثين عن النصر فحسب... بل عن الشهادة... ويتقبل الله بَيْعَهم وبَيْعَتهم، فيستشهدون..!![1]

وبعث الروم رجلاً من خيارهم وعظمائهم اسمه (جرجة) فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم، وكان له نجدة ونكاية فى المشركين.

خالد! هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه؟!

كلمات عطرة تُحفر من نور فى التاريخ قالها (جرجة) عند إسلامه لخالد: «يا خالد، اصدُقنى ولا تكذبنى؛ فإن الحُرَّ لا يكذب، ولا تُخادعنى؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تسلُّه على قوم إلا هزمتهم؟». قال: «لا». قال: «فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول؟». فقال له خالد فيما قال: «إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه، ونأينا منه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذّبه، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه، فقال: «أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين» ودعا لى بالنصر، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين». قال: «صدقتَنى»[2].

ثم أسلم جرجة. وخرج باهان فى جيشه وعلى ميسرته الدرنجار، وزحف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا، قد رفعوا الصُّلبان. فقال رجل: ما أكثرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين[3]. فقال خالد: «ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال. أبالروم تُخوِّفنى! والله لوددتُ أن الأشقر براء من توجيه[4] وأنهم ـ يعنى الروم ـ أضعفوا فى العدد».

وعندما اشتد هجوم الروم، نادى خالد: «يا أهل الإسلام، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدة الشدة، فوالذى نفسى بيده ليعطينّكم الله الظفر عليهم الساعة، إنى لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم». كان خالد فى نصف فرسان

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٣٧٦: ٣٧٧).
(٢) الطبرى (٣/ ٣٩٨) وتهذيب ابن عساكر (١/ ٥٤٧).
(٣) الطبرى (٣/ ٣٩٧) وابن عساكر (١/ ٥٥٠).
(٤) الأشقر هو فرس خالد، والتَّوَجِّى أن يشتكى الفرس بطن حافره.

المسلمين خلف جناحهم الأيمن، فى حين كان قيس ابن هبيرة المرادى فى نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر، وفى اللحظة الحاسمة التى تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم، زحف خالد فى فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا فى نحو ألف فارسٍ، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمّعهم ذلك.

وانتهت قصة الروم فى أرض الشام، أتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديدًا، ما قُوتل المسلمون مثله فى موطن قطُّ، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله فى كل قرية وشعْبٍ وواد وجبل وسهل.

وعن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، أن خالد بن الوليد فقد قلنسوةً له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها. فلم يجدوها. ثم وُجدت فإذا هي قلنسوة خلقة ـ قديمة ـ فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ ، فحلق رأسه، فابتدر الناسُ شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتُها فى هذه القلنسُوة، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا رُزِقت النصر[1].

إخلاصٌ يندر وجوده فى هذا الزمان

وفى غمرة هذا النصر العظيم يأتى قرار أمير المؤمنين عمر بعزل خالد من قيادة الجيوش.

ولله دَرُّه حين عُزل وهو فى المعركة، وفى أوج انتصاره فما ترك العزلُ فى نفسه أثرًا، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًا، أو قائدًا مرؤوسًا، أو رجلاً من المسلمين. هذه والله العظمة الإنسانية فى أبهى مشاهدها، خالد يستلّ النصر من بين أنياب الروم، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغى عند الروم، وسيف الله المسلول على قوى التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة!! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال[2].

وتالله إننى أتعجب من هذا القدر العظيم من الإخلاص الذى لا يخطر على قلب بشر... فهو يجاهد لله ـ جل وعلا ـ لا من أجل منصبٍ ولا جاه ولا رئاسة ولا زعامة.

فسواء عليه أن يكون أميرًا، أو جنديًا..

إن الإمارة كالجندية، كلاهما سبب يؤدى به واجبه نحو الله الذى آمن به، ونحو

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٤٩) ونسبه إلى الطبرانى وأبى يعلى وقال: ورجالهما رجال الصحيح.
(٢) صلاح الأمة فى علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٥٩٤: ٥٩٧) بتصرف.

الرسول الذى بايعه، ونحو الدين الذى اعتنقه وسار تحت رايته..

وجهده المبذول وهو أمير مُطَاع... كجهده المبذول وهو جندى مُطيع..!!

ولقد هيأ له هذا الانتصار العظيم على النفس، كما هيأه لغيره، طراز الخلفاء الذين كانوا على رأس الأمة المسلمة والدولة المسلمة يومذاك.. أبو بكر وعمر(١).

ولقد بيَّن الفاروق ـ رضى الله عنه ـ السبب الذى من أجله عزل (خالدًا) ـ رضى الله عنه ـ فقال:

«إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به فخفت أن يُوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة»(٢).

ليلة زفاف على طراز خالد

عن مولى لآل خالد بن الوليد، أن خالدًا قال: ما من ليلة يُهدى إلىَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبّ أحبّ إلىَّ من ليلة شديدةِ البرد، كثيرةِ الجليد فى سرِّيةٍ أُصبِّحُ فيها العدو(٣).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد فى سبيل الله... نام (سيف الله) على فراش الموت حزينًا على أنه بعد تلك المعارك التى خاضها لم يمت شهيداً.

وأقول لك يا (خالد) الاسم والذكر: إن كان رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(٤).

فكيف بك يا (خالد) وقد فتح الله على يديك البلاد وقلوب العباد.. وكان المسلمون معك ينتقلون دومًا من نصرٍ إلى نصرٍ ـ بإذن الله ـ.

تالله إنى لأرجو الله أن يرزقك أجر شهداء المسلمين فى كل زمان.. فلقد كان لسيرتك الأثر العظيم فى نفس كل شهيدٍ بذل ماله ودمه ونفسه فى سبيل الله.

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ/ خالد محمد خالد (ص ٣٨٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩٢).

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٥٠) ونسبه إلى أبى يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه مسلم عن سهل بن حنيف ـ صحيح الجامع (٦٢٧٦).

لما حضرت خالداً الوفاة، قال: لقد طلبتُ القتل في مظانَّهُ فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيءٌ أرجَى عندي بعد التوحيد من ليلة بتُّها وأنا متترس، والسماء تهلّني ننتظر الصبح حتى نُغيرَ على الكفار.

ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله. فلما تُوفي، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يسفحنَ على خالد من دمُوعهن ما لم يكن نَقعًا أو لَقْلَقَةً(١).

وفي رواية: وما عليهن أن يبكين أبا سليمان.

وعن نافع قال: لما ماتَ خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغُلامه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به(٢).

وقال عمر لخالد في حياته: يا خالد، والله إنك لكريم عليَّ، وإنك لحبيبٌ إليَّ. وبعد موته قال عمر: قد ثلم في الإسلام ثلمةٌ لا تُرتق.

وقال فيه أيضًا: كان والله سداًّداً لنحور العدو ميمون النقيبة.

وعن أبي العجماء السلمي قال: قيل لعمر: لو عهدتَ يا أمير المؤمنين. قال: لو أدركتُ أبا عبيدة ثم ولَّيته ثم قدمتُ على ربي، فقال لي: لِمَ استخلفته؟ لقلتُ: سمعتُ عبدك وخليلك يقول: «لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة». ولو أدركت خالداً ثم ولّيته فقدمتُ على ربي، لقلتُ: سمعت عبدك وخليلك يقول: «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين»(٣).

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ في الثناء على خالد من عمر وكفى.

«لقد خُلق خالد ليكون قائداً، فعاش قائداً ومات قائداً، فغاب جسده، ولكن بقي حيًا في النفوس، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان»(٤).

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: ذكره الحافظ في الإصابة (٣/ ٧٤).

(٢) أخرجه ابن سعد (٧/ ١/ ١٢١).

(٣) رواه ابن عساكر عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٧).

(٤) قادة فتح العراق والجزيرة (ص ٢٣١).



أجَوَادٌ فأنت أجْـوَدُ مـن سَيْـ   ـلٍ غَـامِرٍ يسيل بين الجبـال

عن أبى الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضر بكى، وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفًا، وما فى جسدى شبْرٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رَميةٌ بسهم، وها أنا أموت حتف أنفى كما يموت العير، فلا نامت أعْيُنُ الجبناء.

إن رَوْح أبى سليمان وريحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا، حيث تصهل الخيل، وتلتمع الأسنَّة، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لكأنى بفرسك جاءت، لها صهيلٌ يصدح.. يقودُها عبيرُك وأريجك، هذه التى وقفتها فى سبيل الله.. لكأنى بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا.

«هل سيقدر فارسٌ أن يمتطى صهوتها بعد خالد؟! وهل ستُذلّل ظهرها لأحد سواه؟! إيه يا بطل كلِّ نَصْر.. ويا فَجْرَ كلِّ ليل.. لقد كنت تعلو بروح جيشك علىَ أهوال الزَّحف بقولك لجندك: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى» حتى ذهبت عنك مثلاً... وها أنت ذا قد أتممتَ مسراك.. فلصباحك الحمد، ولذكراك المجد، والعطر، والخلد، يا خالد»[1].

رضى الله عن خالد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٣٣٢) بتصرف.

سراقة بن مالك

« كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ »

محمد رسول الله ﷺ

لقد كانت الهجرة المباركة حدثًا عظيمًا لا يتكرر أبدًا على مدى التاريخ والأزمان.

ولقد بلغت العناية الإلهية مبلغًا عظيمًا فى إنفاذ تلك الهجرة المباركة، وفى حفظ النبى ﷺ وصاحبه من المشركين الذين لما بلغهم أن النبى ﷺ قد خرج من مكة مستترًا بظلام الليل أصابهم الجنون وذهبوا يبحثون عنه يمنةً ويسرةً فلم يجدوه... فجندوا كل من لديهم من قُفاة الأثر ـ متتبعوا الأثر ـ ليعرفوا الطريق الذي سلكه النبى ﷺ وصاحبه.

وفى نفس الوقت أعلنت قريش عن مكافأة قدرها مائة ناقة لمن يأتيها بمحمدٍ ﷺ حيًا أو ميتًا.

وها أنا أترك المجال للصحابى الجليل ـ سراقة بن مالك ليحكى قصة مطاردته للنبى ﷺ وصاحبه ـ وذلك قبل إسلام سراقة ـ رضى الله عنه ـ.

قال سراقة بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم. قال: فبينا أنا جالس فى نادي قومى إذ أقبل رجلٌ منّا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكَبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفًا، إنى لأراهم محمدًا وأصحابه. قال: فأومأت إليه بعينى: أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله، ثم سكت. قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتى ثم أمرت بفرسى، فقيدَ [لى] إلى بطن الوادى، وأمرت بسلاحى، فأُخرجَ [لى] من دبُر حجرتى، ثم أخذتَ قُداحى التى أستقسم بها ثم انطلقت فلبست لامّتى ثم أخرجت قُداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره «لا يضره» قال: وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة الناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فَرسى يشتدّ بى عَثَر بى فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره «لا يضره» قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت فى أثره، فبينا فرسى يشتدّ بى عَثَر

بى فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها، فخرج السهم الذى أكره «لا يضره». قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى أثره. فلما بدا لى القوم ورأيتهم، عثر بى فرسى، فذهبت يداه فى الأرض، وسقطتُ عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار قال: فعرفت ـ حين رأيت ذلك ـ أنه قد مُنع منى، وأنه ظاهر ـ أى أن الله حماه من أن يصل إليه مكروه وأنه سينصره وينصر دينه ـ قال: فناديت القوم فقلت: أنا سُراقة بن جُعْشُم، أنظرونى أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «قل له: وما تبتغى منا؟» قال: فقال [لى] ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لى كتابًا يكون آية بينى وبينك. قال: «اكتُبْ له يا أبا بكر»(١).

[قال]: فكتب لى كتابًا فى عَظْم أو فى رقعة أو فى خرقة، ثم ألقاها إلىَّ فأخذته فجعلته فى كِنانتى ثم رجعت، فسكتّ فلم أذكر شيئًا مما كان.

عاد سراقة أدراجهُ، فوجد الناس قد أقبلوا ينشدون رسول الله صلوات الله عليه فقال لهم: ارجعوا، فقد نفضتُ الأرض نفضًا بحثًا عنه.

وأنتم لا تجهلون مبلغ بصرى بالأثر،... فرجعوا.

ثم كتم خبرهُ مع محمد وصاحبه حتى أيقن أنهما بلغا المدينة وأصبحا فى مأمن من عدوان قريش، عند ذلك أذاعهُ... فلما سمع أبو جهل بخبر سراقة مع النبى عليه الصّلاة والسلام وموقفه منه؛ لامهُ على تخاذله وجبنه وتفويته الفرصة... فقال سراقة يُجيبهُ على ملامته:

أبا حكمٍ، والله لو كُنتَ شاهدًا ... لأمرِ جوادى إذ تسُوخُ قوائمُهْ

علمتَ ولَمْ تَشْكُكْ بأنّ مُحمدًا ... رسولٌ ببرهانٍ، فمن ذا يُقاومُهْ؟!

دارتِ الأيامُ دورتها...

فإذا بمحمد ﷺ الذى خرج من مكة طريدًا شريدًا مستترًا بجُنحِ الظلام يعودُ إليها سيدًا فاتحًا تَحفُّ به الألوفُ المؤلفة من بيض السيوف وسُمرِ الرماح.

وإذا بزعماء قريش الذين ملأوا الأرض عُنجهية وغطرسة يُقبلون عليه خائفين

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «مناقب الأنصار» باب «هجرة النبى ﷺ هو وأصحابه إلى المدينة» (٧/ ح ٣٩٠٦/ فتح) وفيه أن الذى كتب له الكتاب عامر بن فهيرة فى رقعة من أدم ـ جلد ـ.

واجفين؛ يسألونه الرأفة، ويقولون: ماذا عساك تصنعُ بنا؟!.

فيقولُ لهم في سماحةِ الأنبياء: (اذهبوا فأنتمُ الطلقاء)...

عند ذلك أعد سراقة بن مالك راحلته، ومضى إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه بين يديه، ومعه العهد الذي كتبه له قبل عشرِ سنوات(١).

قال سراقة بن مالك: حتى إذا كان فتحُ مكةَ على رسول الله ﷺ ، وفرغ من حُنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرَّانة. قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار. قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح، ويقولون: إليك [إليك]، ماذا تريد؟ قال: فدنوتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأني أنظر إلى ساقه في غَرْزه كأنها جُمَّارة. قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابك [لي]، أنا سُراقة ابن جُعشم قال: فقال رسول الله ﷺ: «يوم وفاء وبرّ، ادنُه(٢)» قال:فدنوت منه فأسلمت. ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: «نعم، في كل ذات كبد حرَّى أجر»(٣)، قال: ثم رجعت إلى قومي فسقتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي.

وبعد ذلك بشهور معدودة توفي رسول الله ﷺ وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ـ جل وعلا ـ وحزن سراقة حزنًا شديدًا وجلس يتذكر يوم أن خرج خلف النبي ﷺ يريد قتله من أجل مائة ناقة.

وتوالت الأيام حتى أصبح عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أميرًا للمؤمنين وقامت جيوشه تهدم عروش الكفر وتدك الحصون وتحرز الغنائم حتى سقطت في عهده الفرس والروم وجاء رُسلٍ سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يحملون البشرى بالنصر لأمير المؤمنين ومعهم خُمس الغنائم التي غنمها الغزاة في سبيل الله فنظر إليها عمر متعجبًا فإن فيها تاج كسرى المرصع بالدر ووشاحه المنظوم بالجوهر، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب، وسواراه اللذان وعد النبي ﷺ سراقة بأن يلبسهما.

---

(١) صور من حياة الصحابة ـ د. عبد الرحمن الباشا (ص: ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٥٤) بطوله، وقال: رواه الطبراني وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد عن سراقة بن مالك، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٦٣).

سراقة يلبس سوارى كسرى

عن الحسن ـ أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟» قال: فلما أُتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سُراقة فألبسه، وكان رجلاً أزبَّ كثير شعر الساعدين، فقال له: ارفع يديك، وقل: الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هُرمز وألبسهما سُراقة الأعرابى"»(١).

وعن الحسن أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أتى بفروة كِسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك بن جعشم ـ رضى الله عنه ـ قال: فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يده فبلغا منكبيه، فلما رآهما فى يدى سراقة قال: الحمد لله! سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك ابن جعشم أعرابى من بنى مدلج! ثم قال: اللهم إنى قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك، وزويت ذلك عنه نظرًا منك له وخيارًا، ثم قال: اللهم إنى قد علمت أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك، فزويت ذلك عنه نظرًا منك له وخيارًا، اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكرًا منك بعمر ثم تلا: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦](٢).

وهكذا أعزَّ اللهُ (سراقة) بنعمة الإسلام التى لا توازيها نعمة فى الوجود.

وبعد أن عاش سراقة عابدًا لله ـ جل وعلا ـ زاهدًا فى الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل.. نام على فراشِ الموت ليلقى الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة النعيم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن سراقة وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) رواه البيهقى (٦/ ٣٥٨) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر.

عبد الله بن عمر

ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر

عائشة (رضي الله عنها)

لقد توقفت كثيراً قبل أن أكتب كلمة واحدة عن هذا الصحابى الجليل وسألت نفسى قائلاً: ما الذى تستطيع أن تكتبه عن رجل كان النبى ﷺ أستاذه ومعلمه وقدوته، وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أباه؟!!!.

ولذلك فإننى أعتذر مقدمًا عن التقصير فى حق هذا العَلَم الذى سطَّر على جبين التاريخ صفحات وصفحات من النور والعلم والاستقامة والتواضع والورع والجود والعبادة والاتباع.

إنه عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو عبد الرحمن القرشى.

أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه ولم يحتلم، واستُصْغِر يوم أُحُد، فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة[1].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: عُرِضت على رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنةً فلم يُجزنى وعُرِضت يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنةً فأجازنى[2].

استجاب ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ لأمر الله، وعرف عظيم أجر المجاهدين، فأوتى القوة فى الجهاد. وحُق لمن كان أبوه بطلاً من أبطال الإسلام، وأستاذه قائد الأبطال، أن يتقدم راغبًا فى الجهاد وهو لا يزال غض الشباب، لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

وكان النبى ﷺ يحقق لابن عمر وأقرانه من الصغار بعض رغبتهم فى الجهاد،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٢٠٤).
(٢) أخرجه البخارى (٧/ ٣٠٢) المغازى ـ باب غزوة الخندق.

فيكلفهم بحراسة الذرية فى المدينة كتدريب أولى على تحمل المسئولية وحمل السلاح. وبعد أن أتم الخامسة عشرة شهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد فى عهد الخلافة الراشدة اليرموك، وفتح مصر، وفتح أفريقية(١).

وسجل لنا المؤرخون وأصحاب السير أن ابن عمر قدم الشام والعراق والبصرة وفارس غازيًا(٢).

حرصه على اتباع الحبيب ﷺ

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ من أشد الناس حرصًا على اتِّباع النبى ﷺ فى سكناته وحركاته وكلماته، بل فى كل شىء.

عن نافع: أن ابن عمر كان يُصفِّر لحيته(٣).

وعن زيد بن أسلم: أن ابن عمر كان يُصفِّر حتى يملأ ثيابه منها، فقيل له: تصبغُ بالصفرة؟ فقال: إنى رأيت رسول الله ﷺ يصبغُ بها(٤).

وعن مالك، عمن حدَّثه، أن ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ ، وآثاره وحاله، ويهتم به، حتى كان قد خيفَ على عقله من اهتمامه بذلك.

وعن نافع، قال: لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله ﷺ لقلت: هذا مجنون(٥).

وعن نافع: أنَّ ابن عمر كان يتبع آثار رسول الله ﷺ فى كل مكانٍ صلى فيه، حتى إن النبى ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصبُّ فى أصلها الماء لكيلا تيبس(٦).

وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ : «لو تركنا هذا الباب للنساء» قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات(٧).

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووى (١/ ٢٧٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٨).

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، أخرجه ابن سعد (٤/ ١٧٩) عن عبد الله بن نمير بهذا الإسناد.

(٤) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٤/ ١٧٩)، وسنده صحيح.

(٥) حلية الأولياء (١/ ٣١٠).

(٦) أسد الغابة (٣/ ٣٤١).

(٧) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٤/ ١٦٢) من طريق أبى الوليد الطيالسى عن أبى عوانة، عن أبى بشر، عن يوسف ابن ماهك... ورجاله ثقات.

وروى عاصم بن محمد العمرى، عن أبيه، قال: ما سمعت ابن عمر ذكر النبى ﷺ إلا بكى.

بل كان ـ رضى الله عنه ـ يحرص كل الحرص على أن لا يزيد كلمة أو ينقص كلمة من حديث رسول الله ﷺ .

قال أبو جعفر الباقر: كان ابن عمر إذا سمع من رسول الله ﷺ حديثًا لا يزيد ولا ينقصُ، ولم يكن أحد فى ذلك مثله[1].

وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر[2].

ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ وحبّه لله ـ جل وعلا ـ

قال خُليد العصرى: يا إخوتاه! هل منكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه؟ ألا فأحبوا ربكم عز وجل وسيروا إليه سيراً جميلاً، لا مصعداً ولا مميلاً[3].

ولله در القائل:

أروحُ وقد ختمتُ على فؤادى ... بحبك أن يحل به سواكا
فلو أنى استطعتُ غضضتُ طرفى ... فلم أنظر به حتى أراكا
أحبُّك لا ببعضى بل بكلى ... وإن لم يُبقِ حبُّك لى حراكا
وفى الأحباب مختصٌ بوجدٍ ... وآخرُ يدَّعى معه اشتراكا
وكلٌ يَدّعى حبًا لربى ... وربى لا يُقرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكت دموعٌ فى خُدودٍ ... تبيَّن مَن بكى ممن تباكا
فأما من بكى فيذوب وجداً ... وينطق بالهوى من قد تباكا

قال نعيم بن صبيح السعدى: همم الأبرار متصلة بمحبة الرحمن، وقلوبهم تنظر إلى موضع العزّ من الآخرة بنور أبصارهم.

كان ابن عمر يدعو على الصفا والمروة وفى مناسكه: «اللهم اجعلنى ممن يحبك،

---

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ١٧٦) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٢١٣).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٢١١).
(٣) استنشاق نسيم الأُنس (ص ١٢٧) ـ حلية الأولياء (٢/ ٢٣٢).

ويحب ملائكتك، ويحب رسلك، ويحب عبادك الصالحين، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك، وإلى رسلك وإلى عبادك الصالحين»(١).

رؤيا تجعل النبى ﷺ يشهد بصلاحه ـ رضى الله عنه ـ

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على النبى ﷺ ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقُصَّها على النبى ﷺ ، وكنت غلامًا أعزب، وكنت أنام فى المسجد على عهد النبى ﷺ ، فرأيتُ فى المنام كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار، فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا لها قرنان كقرنى البئر، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار فلقيهما ملك آخر فقال لى: لن تُراع ـ لا تخف ـ فقصصتها على حفصة فقصَّتها حفصةُ على النبى ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» قال سالم فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وفى رواية قال ﷺ : «إن عبد الله رجلٌ صالح»(٢).

عبادته ـ رضى الله عنه ـ

ولعلنا إن أردنا أن نرى صفحة من عبادته ـ رضى الله عنه ـ فلن نستطيع وصفها، ولكن ما علينا إلا أن نترك المجال لمن يخبرنا عن ذلك.

قيل لنافع: ما كان يصنعُ ابن عمر فى منزله؟ قال: لا تطيقونه:

الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما(٣).

بل لقد كان له مهراسٌ فيه ماءٌ، فيُصلى فيه ما قُدِّر له، ثم يصيرُ إلى الفراش، فيُغفى إغفاءة الطائر، ثم يقومُ، فيتوضأ ويصلى، يفعلُ ذلك فى الليل أربع مرات أو خمسة(٤).

وقال نافع: كان ابن عمر لا يصوم فى السفر، ولا يكاد يفطر فى الحضر.

وعن نافع، أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاءُ فى جماعة، أحيى ليلته(٥).

(١) استنشاق نسيم الأنس/ ابن رجب الحنبلى (ص١٣) ـ المكتب الإسلامى.
(٢) أخرجه البخارى (٣٧٣٨) (٣٧٤٠) (٣٧٤١) ـ ومسلم (٢٤٧٩).
(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٤/ ١٧٠).
(٤) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات. والمهراس: صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء، وقد يعمل منها حياض للماء.
(٥) أخرجه أبو نعيم (١/ ٣٠٣).

وعن نافع، عن ابن عمر، أنه كان يحيى الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع، أسحرنا؟ فأقول: لا. فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم. فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يُصبح(١).

قلت: وهذه الصفحة الناصعة نتعلم منها درسًا عظيمًا ألا وهو: أن الإنسان لابد أن يقدِّم بين يديه عملاً صالحًا ينجيه من عذاب الله.

فهذا هو ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ لم يعتمد على عمل أبيه، بل كان يجتهد ويسابق من حوله إلى طاعة الله لأنه يعلم أن الله ـ جل وعلا ـ.

قال فى مُحكم آياته: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٣:١٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١ ـ ١٠٣].

ومع ذلك فنحن نجد أناسًا فى زماننا هذا يتشدق الواحد منهم بأنه من نسل الحسين ـ رضى الله عنه ـ أو أنه من سلالة ولى من الأولياء، ومع ذلك تجده لا يصلى ولا يتقرب إلى الله بأى عمل صالح، فضلاً عن أنه يبارز الله بالذنوب والمعاصى، بل قد يكون ممن يحاربون شرعه وأولياءه!!!!

فإلى هؤلاء جميعًا أُهدى قول النبى ﷺ لثمرة فؤاده وقرة عينه (فاطمة) ـ رضى الله عنها ـ عندما قال لها: «يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإننى لا أملك لكم من الله شيئًا...»(٢).

وأُهدى إليهم قول الحق ـ جل جلاله ـ لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

---

(١) هو فى الحلية (١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ كتاب الإيمان ـ باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٩].

ومن ثَم: فواجب علينا جميعًا أن نُسرع الخُطا فى طاعة الله، وأن نقدِّم بين أيدينا ما ينجينا من عذاب الله ويجلب لنا رحمة الله وجنته التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

خوفه ـ رضى الله عنه ـ وبكاؤه من خشية الله ـ جل وعلا ـ

لقد كان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ إذا دخل صومعته، وقام بين يدى الله ـ جل وعلا ـ صار من كثرة البكاء كالعصفور المبلَّل بماء المطر. فلقد كان كأبيه عظيم الخشية من الله.. شديد المراقبة له فى السر والعلن.

وها هى نبذة من خوفه وخشيته من الله ـ جل وعلا ـ.

عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] **بكى حتى يغلبه البكاء**(١).

وعن سمير الرياحى عن أبيه، قال: شرب عبد الله بن عمر ماءً مبردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية فى كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]**، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء، وقد قال الله ـ عز وجل ـ:** ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠](٢).

وقال أبو الوازع لابن عمر: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم. فغضب، وقال: إنى لأحسبك عراقيًا، وما يدريك ما يغلق عليه ابن أمك بابه؟!(٣) ـ يقصد نفسه ـ.

وقال رجل لابن عمر يومًا: يا خير الناس، أو يا ابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكنى عبد من عباد الله، أرجو الله، وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه(٤).

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٠٥).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٤١).
(٣) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه ابن سعد (٤/ ١٦١).
(٤) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٠٧).

وعن نافع قال: دخل ابن عمر الكعبة فسمعته وهو ساجد يقول: قد تعلم ما يمنعنى من مزاحمة قريش على هذه الدنيا إلا خوفك.

وعن طاوس قال: ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر، ولا رأيت رجلاً أعلم من ابن عباس.

وقال سعيد بن المسيب: لو كنت شاهداً لرجل من أهل العلم أنه من أهل الجنة لشهدت لعبد الله بن عمر[1].

أمنية غالية

عن أبى الزناد قال: اجتمع فى الحِجر مصعب، وعروة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله ابن عمر فقالوا: تمنوا. فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة. وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عنى العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. قال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة.

قال: فنالوا ما تمنوا، ولعل ابن عمر غُفر له[2].

حرصه الشديد على معرفة كل عملٍ يدخل الجنة

وها هو تراه يحرص على معرفة كل سبب أو كل عملٍ يُدخل الجنة.. فما إن يسمع أن فلانًا من أهل الجنة حتى يبادر فيراقب أعمالَه ليعمل مثلها أو يزيد عليها.

ولعل هذه القصة توضح لنا مدى حرصه على ذلك.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف[3] لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه فى يده الشمال، فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وفى رواية

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٣٦).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٣٦).
(٣) نطف الماء ينطف إذا قطر قليلاً.

البيهقى أنه عبد الله بن عمر ـ فقال: إنى لاحيت[١] أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت؟ قال: نعم، قال أنس:وكان عبد الله يُحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعارّ[٢] وتقلب على فراشه ذكر الله ـ عز وجل ـ وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً،فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ثَّم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسدُ أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التى بلَغت بك وهى التى لا نطيق»[٣].

إنفاقه (رضى الله عنه) فى سبيل الله تعالى

وإذا أردنا أن نتكلم عن إنفاقه فى سبيل الله فحسبُنا والله أن نعلم أنه ـ رضى الله عنه ـ كان إذا سمع أو قرأ آية من كتاب الله تدعوه إلى الإنفاق، فإنه كان يسارع إلى تنفيذها ولا يُحجم ولا يتردد... مُقدمًا فى سبيل ذلك النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله.

قال نافع: ما مات ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ حتى أعتق ألف إنسانٍ أو زاد.

وكيف لا يفعل ذلك بعدما سمع النبى ﷺ وهو يحث الأمة على هذا العمل الجليل:

* عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله له بكل عضو منها عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»[٤].

* وعن أبى نُجيح السلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلمًا، فإن الله تعالى جاعلٌ وقاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام محرره من النار، وأيما امرأة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظمًا

---

(١) لاحيت أى خاصمت.
(٢) تعارّ: أى استيقظ.
(٣) رواه أحمد فى مسنده، وقال المنذرى: إسناده على شرط البخارى ومسلم.
(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٠٥١).

من عظام محررتها من النار يوم القيامة»(١).

* وعن محمد بن زيد أن ابن عمر كاتَب(٢) غلامًا له بأربعين ألفًا، فخرج إلى الكوفة، فكان يعمل على حُمُر له، حتى أدى خمسة عشر ألفًا، فجاءه إنسان، فقال: أمجنون أنت؟ أنت ها هنا تُعذِّب نفسك، وابن عمر يشتري الرقيق يمينًا وشمالاً، ثم يعتقهم؛ ارجع إليه، فقل: عجزتُ. فجاء إليه بصحيفة، فقال: يا أبا عبد الرحمن! قد عجزتُ، وهذه صحيفتي، فامحُها. فقال: لا، ولكن امحُها أنت إن شئت. فمحاها، ففاضت عينا عبد الله، وقال: اذهب فأنت حُر. قال: أصلحك الله، أحسن إلى ابنيَّ. قال: هما حُرَّان. قال: أصلحك الله، أحسن إلى أُمَّي وَلَدَيَّ. قال: هما حُرَّتان(٣).

وعن عاصم بن محمد العمري: عن أبيه، قال: أعطى عبد الله بن جعفر ابن عمر بنافعٍ عشرة آلاف، فدخل على صفية امرأته، فحدَّثها، قالت: فما تنتظرُ؟ قال: فهلا ما هو خيرٌ من ذلك، هو حرٌ لوجه الله. فكان يُخيَّلُ إليَّ أنه كان ينوي قول الله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢](٤).

وعن نافع قال: كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرَّبه لربه ـ عز وجل ـ قال نافع: كان رقيقه قد عرفوا ذلك منه فربما شمَّر أحدهم فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال الحسنة أعتقه فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك. فيقول ابن عمر: فمن خدعنا بالله انخدعنا به(٥).

وعن سالم قال: ما لعن ابن عمر قط إلا خادمًا واحدًا فأعتقه(٦).

وعن نافع، قال: مرض ابن عمر، فاشتهى عنبًا أول ما جاء، فأرسلت امرأته بدرهم، فاشترت به عنقودًا، فاتبع الرسول سائلٌ، فلما دخل، قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. ثم بعثت بدرهم آخر، قال: فاتبعه السائل. فلما دخل، قال: السائل،

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان، عن أبي نجيح السلمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٢٦).

(٢) المكاتبة: أن يكتب السيد لمولاه وثيقة يتعهد له فيها بالعتق إذا أعطاه مبلغًا يسميه من المال، فإذا جمعه العبد، ودفعه لسيده، أصبح حرًا.

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢١٧).

(٤) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٩٦).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٢٣٧).

(٦) قال الأرنؤوط: رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٧) وإسناده صحيح.



السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه، وأرسلت صفية إلى السائل تقول: والله لئن عُدت لا تُصيبُ منى خيرًا، ثم أرسلت بدرهمٍ آخر، فاشترت به(١).

وعن نافع قال: أُتى ابن عمر ببضعة وعشرين ألفًا، فما قام حتى أعطاها(٢).

وعن نافع قال: إن كان ابن عمر ليُفرِّقُ فى المجلس ثلاثين ألفًا، ثم يأتى عليه شهرٌ ما يأكل مزعة لحم(٣).

وعن نافع، قال: بعث معاويةُ إلى ابن عمر بمئة ألف، فما حال عليه الحولُ وعنده منها شىء(٤).

ولقد كان الفقراء يعرفون ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ بجوده وكرمه وعطفه وحنانه فكانوا يجلسون فى طريقه كى يصحبهم معه إلى داره فيطعمهم ويعطيهم ما يريدون... فكانوا يحفُّون به كما تحف أفواج النحل بالزهور والرياحين لتأخذ منها رحيقها.

وعن حمزة بن عبد الله، قال: لو أنَّ طعامًا كثيرًا كان عند أبى ما شبع منه بعد أن يجد له آكلاً، فعاده ابنُ مطيع، فرآه قد نحل جسمه، فكلَّمه، فقال: إنه ليأتى علىَّ ثمانُ سنين، ما أشبعُ فيها شبعةً واحدة. أو قال: إلا شبعة. فالآن تُريد أن أشبع حين لم يبق من عمرى إلا ظِمءُ حمار(٥).

وعن هشام بن يحيى الغسانى عن أبيه قال: جاء سائل إلى ابن عمر، فقال لابنه: أعطه دينارًا. فلما انصرف قال له ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمت أن الله يقبل منى سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إلىَّ من الموت، أتدرى ممن يتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين(٦).

بل يحدثنا «أيوب بن وائل الراسبى» عن واحدة من مكرماته، فيخبرنا أن ابن عمر

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه بنحوه ابن سعد (٤/ ١٥٨) وأبو نعيم (١/ ٢٩٧).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٩٦).

(٣) هو فى الحلية (١/ ٢٩٥، ٢٩٦)، وأورده الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٤٧)، ونسبه للطبرانى، وقال: رجاله رجال الصحيح غير برد بن سنان وهو ثقة، والمُزعة، بضم الميم: القطعة اليسيرة من اللحم.

(٤) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٩٦).

(٥) أى: شىء يسير، وخص الحمار بذلك؛ لأنه أقل الدواب صبرًا عن الماء، والخبر فى المصنف (٢٠٦٣٠)، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم (١/ ٢٩٨) عن معمر ، عن الزهرى، عن حمزة بن عبد الله بن عمر. قال الأرنؤوط: وسنده صحيح.

(٦) صفة الصفوة (١/ ٢٤٠).

جاءه يومًا أربعة آلاف درهم، وقطيفة.. وفى اليوم التالى، رآه «أيوب ابن وائل» فى السوق يشترى لراحلته علفًا نسيئة ـ أى دَينًا ـ..

فذهب «ابن وائل» إلى أهل بيته وسألهم: أليس قد أتى لأبى عبد الرحمن ـ يعنى ابن عمر ـ بالأمس أربعة آلاف، وقطيفة..؟

قالوا: بلى..

قال: فإنى رأيته اليوم بالسوق يشترى علفًا لراحلته ولا يجد معه ثمنه..

قالوا: إنه لم يبت بالأمس حتى فرقها جميعًا، ثم أخذ القطيفة وألقاها على ظهره، وخرج.. ثم عاد وليست معه، فسألناه عنها، فقال: إنه وهبها لفقير..!!

فخرج «ابن وائل» يضرب كفًا بكفٍ، حتى أتى السوق فتوقَّلَ مكانًا عاليًا، وصاح فى الناس:

[يا معشر التُّجار...

ما تصنعون بالدنيا، وهذا ابنُ عمر تأتيه آلافُ الدراهم فيوزعها، ثم يُصبح فيستدين علفًا لراحلته]...؟؟!!

زهده (رضى الله عنه) وورعه

ولعل أبلغ كلمة تصف زهده ـ رضى الله عنه ـ هى تلكم الكلمة التى قالها جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ حيث قال: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا وقد مال بها أو مالت به إلا عبد الله بن عمر[1].

وعن ابن سيرين، أن رجلاً قال لابن عمر: أعملُ لك جوارش؟ قال: وما هو؟ قال: شىءٌ إذا كظَّك الطعامُ، فأصبت منه، سهَّل.

فقال: ما شبعتُ منذ أربعة أشهر، وما ذاك أن لا أكون له واجدًا، ولكنى عهدتُ قومًا يشبعون مرةً، ويجوعون مرة[2].

---

(١) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٢/ ١٤٨) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٦٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى. فهو موقوفٌ صحيح.

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٠٠) من طريق الإمام أحمد.

وذات مرة قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: ما غرست غرسًا منذ تُوفِّى رسول الله ﷺ[(١)].

وقال ابن مسعود: إنَّ من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبد الله بن عمر[(٢)].

كلمات من ذهبٍ تملأ القلب نورًا

قال الليث بن سعد وغيره: كتب رجلٌ إلى ابن عمر أن اكتُب إلىَّ بالعلم كله. فكتب إليه: إنَّ العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم،لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل[(٣)].

وعن عبد الله بن سبرة قال: كان ابن عمر إذا أصبح قال: «اللهم اجعلنى من أعظم عبادك نصيبًا فى كل خير تقسمه الغداة، ونور تهدى به، ورحمة تنشرها، ورزق تبسطه، وضر تكشفه وبلاء ترفعه، وفتنة تصرفها».

وعن مجاهد، عن ابن عمر، قال: «لا يصيب عبد شيئًا من الدنيا إلا نقص من درجاته عند الله عز وجل وإن كان عليه كريمًا».

وعن عمر بن ميمون، عن أبيه قال: قيل لعبد الله بن عمر: توفى فلان الأنصارى. قال: رحمه الله. فقال: ترك مائة ألف: قال: لكن هى لم تتركه[(٤)].

حبُّه للناس وحرصه عليهم

ولقد كان ـ رضى الله عنه ـ مُحبًا للناس ـ وبخاصة أهل التقوى ـ.

عن حصين، قال ابن عمر: إنى لأخرجُ ومالى حاجةٌ إلا أن أُسلم على الناس، ويُسلِّمون علىَّ[(٥)].

وعن أبى عمرو الندبى، قال: خرجت مع ابن عمر، فما لقى صغيرًا ولا كبيرًا إلا سلَّم عليه[(٦)].

(١) رواه ابن سعد (٤/ ١٧٠) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٢١٢).
(٢) رواه ابن سعد (٤/ ١٤٤) وهو فى الحلية (١/ ٢٩٤).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٢٢٢).
(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٤١).
(٥) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٥٥) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٢٢١).
(٦) هو فى المصنف (١٩٤٤٢) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٢٢١).



بل كان أحيانًا يمزح مع الناس يريد أن يختبر إيمانهم ومراقبتهم لله حتى إذا وجد بهم خَللاً بذل لهم النصائح الغالية، وإن كانوا فى حاجة إلى المال أعانهم وساعدهم.

عن عبد الله بن دينار، قال: خرجتُ مع ابن عمر إلى مكة، فعرَّسنا، فانحدر علينا راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: أراعٍ؟ قال: نعم، قال: بعنى شاةً من الغنم. قال: إنى مملوكٌ، قال: قُل لسيِّدك: أكلها الذئب ـ يريد أن يختبره ـ قال: فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله!! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه!

وفى رواية ابن أبى روّاد، عن نافع: فأعتقه، واشترى له الغنم(١).

اعتزاله للإمارة والفتنة

لقد كان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ زاهدًا فى كل شىء حتى الإمارة، فقد عرضوا عليه الإمارة أكثر من مرة، وهو يرفضها مع أنه جديرٌ بها، ولكنه كان عازفًا عنها.

فعن عاصم، أن مروان قال لابن عمر ـ يعنى بعد موت يزيد ـ: هلمَّ يدك نُبايعك، فإنك سيد العرب وابن سيدها. قال: كيف أصنعُ بأهل المشرق؟ قال: نضربهم حتى يبايعوا. قال: والله ما أُحبُّ أنها دانت لى سبعين سنة، وأنه قُتل فى سيفى رجلٌ واحد.

قال: يقول مروان:

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها   والملك بعد أبى ليلى لمن غَلبَا

أبو ليلى: معاوية بن يزيد، بايع له أبوه الناس، فعاش أيامًا(٢).

بل لقد اعتزل الفتنة التى حدثت بين (علىّ) و(معاوية) ـ رضى الله عنهما ـ فلم يقاتل مع هذا ولا ذاك.

وكان ـ رضى الله عنه ـ يُسلِّم على الخشبة والخوارج، وهم يقتتلون، ويقول: من قال: «حىّ على الصلاة» أجبته، ومن قال: «حى على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله» فلا(٣).

بل كان ـ رضى الله عنه ـ حريصًا على جمع كلمة المسلمين، وكان يخشى على

---

(١) أورده الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٤٧) ونسبه للطبرانى وقال: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن الحارث الحاطبى وهو ثقة.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ١٦٩).

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه ابن سعد (٤/ ١٦٩، ١٧٠).

المسلمين من الفُرقة والشتات والتنازع.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: دخلت على حفصة ونُوساتها تنطُفُ فقلت: قد كان من الناس ما ترين، ولم يجعل لى من الأمر شىء. قالت: فالحق بهم، فإنهم ينتظرونك، وإنى أخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فُرقة، فلم يرعه حتى ذهب. قال: فلما تفرَّق الحكمان، خطب معاوية، فقال: من كان يُريد أن يتكلَّم فى هذا الأمر، فليُطلع إلىَّ قرنه، فنحن أحقُّ بذلك منه ومن أبيه؛... يُعرِّض بابن عمر.

قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته فداك أبى وأمى؟ فقال ابن عمر: حللتُ حبوتى، فهممتُ أن أقول: أحقُّ بذلك منك من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيتُ أن أقول كلمةً تُفرِّق الجمع، ويُسفك فيها الدم، فذكرتُ ما أعدَّ الله فى الجنان[١].

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: قلت: كاد أن تنعقد البيعة له يومئذ، مع وجود مثل الإمام علىّ وسعد ابن أبى وقاص، ولو بويع، لما اختلف عليه اثنان، ولكن الله حماه وخار له ـ أى اختار له ـ[٢].

فرضى الله عن ابن عمر وأبيه. وأين مثل ابن عمر فى دينه، وورعه وعلمه، وتألُّهه وخوفه، من رجل تُعرضُ عليه الخلافة، فيأباها، والقضاءُ من مثل (عثمان) فيرده، ونيابةُ الشام (لعلىّ) فيهرب منه. فالله يجتبى إليه من يشاء، ويهدى إليه من ينيب[٣].

وحان وقت الرحيل

عن ابن عمر، أنه قام إلى الحجَّاج وهو يخطب فقال: يا عدو الله!! استحل حرم الله، وخرب بيت الله.

فقال الحجَّاج: يا شيخًا قد خرف. فلما صدر الناس[٤]، أمر الحجاج بعض مسودته،

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٣٠٩، ٣١١) فى المغازى: باب غزوة الخندق، وعبد الرزاق فى المصنف (٥/ ٤٦٥) وقوله: «ونوساتها تنطف» أى: ذوائبها تقطر كأنها قد اغتسلت، فسمى الذوائب نوسات لأنها تتحرك كثيراً. وقوله: «فلما تفرق الحكمان» هى رواية عبد الرزاق، وفى البخارى «فلما تفرق الناس»، قال الحافظ: أى بعد أن اختلف الحكمان، وهما أبو موسى الأشعرى وكان من قبل على، وعمرو بن العاص وكان من قبل معاوية، وجملة «يُعرض بابن عمر» هى فى المصنف، ولم ترد عند البخارى.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٢٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٢٣٥).

(٤) أى انصرفوا.

فأخذ حربة مسمومةً وضرب بها رجل ابن عمر، فمرض منها أيامًا ومات بمكة ودُفن بها.

ودخل عليه الحجاج عائدًا، فسلم، فلم يرد عليه، وكلمه، فلم يجبه(١).

وعن إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه قال: دخل الحجَّاج على ابن عمر، وأنا عنده، فقال: كيف هو؟ فقال (أى ابن عمر): صالح، قال: من أصابك؟

قال: أصابنى من أمر بحمل السلاح فى يومٍ لا يحل فيه حمله، يعنى الحجَّاج(٢).

وعن سعيد بن جبير، قال: لما احتُضر ابن عمر، قال: ما آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث؛ ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأنى لم أقاتل الفئة الباغية التى نزلت بنا، يعنى الحجاج(٣).

وبعد تلك الحياة الطويلة التى ملأها (هذا العابد الزاهد) بطاعة الله والبذل والتضحية ابتغاء وجه الله تعالى.

بعد تلك الحياة الكريمة رحل الكريم ابن الكريم عن دنيا الناس ليلقى الأحبّة فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن ابن عمر وعن أبيه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: السير للذهبى (٣/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخارى (٢/ ٣٧٩) فى العيدين ـ باب ما يُكره من حمل السلاح فى العيد والحرم.

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد (٤/ ١٨٥).



نعيم بن مسعود

نصر الله به جيشا بأكمله

إن الله يغرس لهذا الدين غرسًا يُعز الله به الإسلام فى كل زمان ومكان.

ومن بين هؤلاء الذين نفع الله بهم الإسلام بطلنا اليقظ الذكى الذى حباه الله بسرعة البديهة وشدة الذكاء.

إنه نعيم بن مسعود الذى كان فى الجاهلية على صلة وثيقة بيهود بنى قريظة وغيرهم. وكان يجلس فى مجالسهم يسمر ويشرب معهم وكانوا يحبونه ويثقون فيه تمام الثقة.

وفى الوقت المناسب الذى قدَّره الله ـ جل وعلا ـ فتح الله قلب (نعيمٍ) للهدى ودين الحق فبدأ نعيم صفحة جديدة فى يوم غزوة الأحزاب، واستطاع أن يسطِّر على جبين التاريخ صفحة لا تُنسى أبدًا مع مرور الأيام والليالى.

إنها صفحة ناصعة بيضاء... فقد جعله الله سببًا لإنقاذ الأمة المسلمة بأسرها وعلى رأسها رسول الله ﷺ.

ماذا قدمت لدين الله ؟

تدبر معى أيها الأخ الكريم كيف استطاع نعيم بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن يكون سببًا فى إجلاء تلك الحشود التى تجمعت للقضاء على الإسلام (فى غزوة الأحزاب).

وسل نفسك هذا السؤال: «ماذا قدمت لدين الله؟!!!».

فهذا هو نعيم بن مسعود ذلكم الفدائى البطل الذى جاء للمصطفى فى وقتٍ عصيبٍ رهيب كادت القلوب أن تخرج من الصدور فى غزوة الأحزاب.

أحاط المشركون بالمدينة من كل ناحية من حول الخندق وفى لحظات حرجة قاسية. نقض يهود بنى قريظة العهد مع رسول الله ﷺ وشكلوا تهديدًا داخليًا خطيرًا على النساء والأطفال، وتعاهدوا مع المشركين أن يحاربوا معهم محمدًا، وهذا هو فعل اليهود وهذه هى صفة اليهود. فاليهود لا يجيدون إلا الغدر ونقض العهود.

نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ في وقت حرج.. ولك أن تتصور الحالة النفسية التى مر بها المصطفى ﷺ مع أصحابه وقد وصفها الله وصفًا بليغًا دقيقًا. فقال تعالى:

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١٢].

تصور هذه الحالة.. فلقد كان هناك مع رسول الله ﷺ من يقول: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا! المشركون يحيطون بنا واليهود نقضوا العهد وسيدمروننا من الداخل ويقتلون نساءنا وأطفالنا!!

حالة قاسية حتى قام المصطفى يتضرع إلى الله: «اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[١].

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله ـ عز وجل ـ من الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

أتى نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمُرنى بما شئت؛ فقال رسول الله ﷺ «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة».

فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية، فقال: يا بنِي قُريظة، قد عرفتم وُدّى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقتَ، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إنَّ قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزة[٢] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تُقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهُنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تُناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ١٠٩ ـ ١١٠) المغازى ـ ومسلم (١٧٤٢) الجهاد.

(٢) النهزة: انتهاز الشيء واختلاسه.

ثم خرج حتى أتى قُريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّى لكم وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيت علىَّ حقًا أن أبلغكموه، نُصحًا لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنُعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أنْ نعم. فإن بَعَثَت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلى وعشيرتى، وأحبّ الناس إلىّ، ولا أُراكم تتهمونى، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش وحذَّرهم ما حذَّرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صُنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل، فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفّ والحافر[1]، فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو [يوم] لا نعمل فيه شيئًا. وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثًا، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمد، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب[2]، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا[3] إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم (نعيم بن مسعود) لحقٌ، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجُوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة، حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم

(١) أراد بالخف: الإبل... وأراد بالحافر: الخيل.

(٢) ضرستكم الحرب: نالت منكم. كما يصيب ذو الأضراس بأضراسه.

(٣) أن تنشمروا: أن تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم.

وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم... وخذَّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم[1].

ظل نعيم بن مسعود بعد ذلك اليوم موضع ثقة رسول الله ﷺ .

فولى له الأعمال، ونهض له بالأعباء، وحمل بين يديه الرايات.

فلما كان يوم فتح مكة، وقف أبو سفيان بن حرب يستعرضُ جيوش المسلمين، فرأى رجلاً يحمل راية «غطفان» فقال لمن معه:

من هذا؟!.

فقالوا: نعيم بن مسعود...

فقال: بئس ما صنع بنا يوم «الخندق»...

والله لقد كان من أشدِّ الناس عداوةً لمحمدٍ...

وها هو ذا يحمل راية قومه بين يديه...

ويمضى لحربنا تحت لوائه[2]...

وكان نعيم ـ رضى الله عنه ـ حريصًا كل الحرص على استدراك كل لحظة مضت من عمره في الشرك ليجعل مكانها أيامًا وشهوراً، بل وسنوات في طاعة الله ـ جل وعلا ـ والعمل لنُصرة دينه وإعلاء كلمته.

وظل على عهده إلى أن توفى رسول الله ﷺ فحزن عليه (نعيم) حزنًا شديداً فقد كان يتمنى أن يفدى النبي ﷺ بنفسه وماله وبكل ما يملك.

وبعد وفاة الحبيب ﷺ لم يبخل (نعيم) بجهده وماله ونفسه في خدمة الإسلام، بل استمر في رحلة العطاء والعمل لخدمة هذا الدين العظيم طوال فترة الخلافة الرشيدة لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ وكذلك خلال فترة الإمارة لعمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ إلى أن جاءت الساعة الحاسمة التي سيلقى فيها ربه ـ عز وجل ـ ليكافئه على كل ما فعله

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٦٩) والطبرى (٣/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩) في تاريخه، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١١١) وابن حجر في الفتح (٧/ ٤٠٢).

(٢) صور من حياة الصحابة ـ د. عبد الرحمن رأفت الباشا (ص: ٤٢٣).

لخدمة الإسلام وليجبر كَسره فى جنته ومستقرّ رحمته حيث النعيم المقيم ومجاورة الحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين وحيث تكتمل النعمة بالنظر إلى وجه الكريم ـ جل جلاله ـ.

قُتل نعيم فى أول خلافة (علىّ) قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل. وقيل: مات فى خلافة عثمان. فالله أعلم[1].

فرضى الله عن نعيم وعن سائر الصحابة وجمعنا وإياهم فى جنته

وأسأل الله أن يستعملنا لنصرة دينه

* * *

---

(١) الإصابة لابن حجر (٦/ ٣٦٣).

العباس بن عبد المطلب

اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا

محمد رسول الله ﷺ

إنه العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ عم رسول الله ﷺ .

قيل: إنه أسلم قبل الهجرة، وكتم إسلامه، وخرج مع قومه إلى بدر، فأُسر يومئذ، فادَّعى أنه مُسلم. فالله أعلم.

وليس هو فى عداد الطُلَقاء؛ فإنه كان قد قَدِم إلى النبى ﷺ قبل الفتح؛ ألا تراه أجار أبا سُفيان بن حرب.

كان من أطول الرجال وأحسنهم صورة وأبهاهم وأجهرهم صوتًا مع الحلم الوافر والسؤدد.

فعن أسلم مولى عمر: أنَّ عمر لما دنا من الشام تنحَّى ومعه غلامه، فعمد إلى مركب غلامه فركبه، وعليه فروٌ مقلوب، وحولَّ غلامه على رحل نفسه.

وإن العباس لبين يديه على [فرس] عتيق، وكان رجلاً جميلاً، فجعلت البطارقة يُسلِّمون عليه، فيشيرُ: لستُ به، وإنه ذاك[1].

أى ظن البطارقة أن العباس هو أمير المؤمنين من جماله وطوله ومركبه وملبسه.

وكان العباس يمنع الجار ويبذل المال ويعطى فى النوائب.

موقفه الخالد يوم بيعة العقبة الثانية

عن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فى قصة العقبة الثانية قال: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القَطا مستخفين ـ طائر معروف ـ حتى اجتمعنا فى الشِعب عند العقبة

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٧٨: ٨٠) بتصرف.

ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومنا امرأتان من نسائنا (نسيبة بنت كعب)، أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار، (وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى) إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع، قال فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلّم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها: إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزٍّ من قومه ومَنَعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عزٍّ ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم. والذى بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزرنا[1] فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ (أبو الهيثم ابن التيِّهان) فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله - يعنى نَصَرك الله - أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[2].

موقفه يوم بدر

قال بعض المؤرخين: إن العباس - رضى الله عنه - كان قد أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وقيل: إنه أسلم قبل الفتح. وكانت قريش تجد فى قلبها شيئًا من ناحية العباس (كانت تشك فى إسلامه) ولكنها لم تجد ما يؤيد ظنها، وبخاصة أنه كان فى ظاهر أمره موافقًا لهم، فلما كانت غزوة بدر أرادت قريش أن تقطع الشك باليقين فجعلته يخرج

---

(١) كناية عن المرأة أو عن النفس.. أى لنمنعنك كما نمنع نساءنا وأنفسنا.

(٢) قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم - سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٣/ ١٨٩).

معها فى تلك الغزوة.

ولذلك نهى النبى ﷺ أصحابه عن قتل العباس ـ رضى الله عنه ـ.

عن ابن عباس: أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله؛ ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهًا»، فقال أبو حذيفة ابن عتبة: أنقتل آباءنا، وأبناءنا، وإخواننا، وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألحمنه ـ أو لألجمنَّه ـ بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر ابن الخطاب: «يا أبا حفص، أيُضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟!» فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيدًا(١).

وقوعه فى الأسر يوم بدر

لم يقاتل العباس ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة بدر فإنه خرج مستكرهًا ونهى النبى ﷺ عن قتله... ثم وقع العباس فى الأسر، فعن أبى اليسر أنه قال: نظرتُ إلى العباس يوم بدر، وهو واقف كأنه صنم، وعيناه تذرفان.

فقلتُ: جزاك الله من ذى رحم شرًا! أتقاتل ابن أخيك مع عدوه؟

قال: ما فعل، أقُتل؟ قلت: الله أعزُّ له وأنصرُ من ذلك. قال: ما تُريد إلىَّ؟ قلت: الأسر؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك. قال: ليست بأول صلته. فأسرته، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ (٢).

---

(١) سيرة ابن هشام [٢/ ٤٥٨، ٤٥٩]، وأخرجه ابن سعد فى الطبقات [٤/ ٨٠٧] من طريق ابن إسحاق قال: حدثنى العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس، فذكر الحديث، وأخرجه الحاكم [٣/ ٢٢٣] مزيلاً لهذه الجهالة فقال: «عن أبيه عن ابن عباس»، ولذلك صححه على شرط مسلم، وحذفه الحافظ من تلخيصه، والعباس بن عبد الله وأبوه ثقتان، لكن يخشى أن يكون ذلك محرف فى نسخة الحاكم، فقد أخرجه البيهقى فى الدلائل [٣/ ١٤٠] من طريقه، وقال: «عن بعض أهله»، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢).

وعن البراء، أو غيره، قال: جاء رجل من الأنصار بالعباس، قد أسره، فقال: ليس هذا أسرني، فقال النبي ﷺ: «لقد آزرك الله بملَك كريم»(١).

وعن ابن عباس، قال: أسر العباس (أبو اليسر) فقال النبي ﷺ: كيف أسرته؟ قال:لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبلُ ولا بعدُ، هيئته كذا. قال:«لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم»(٢).

حزن النبي ﷺ على عمه

عن ابن العباس، قال: أمسى رسول الله ﷺ والأُسارى في الوثاق، فبات ساهرًا أول الليل، فقيل: يا رسول الله، مالك لا تنام؟ قال: سمعت أنين عمي في وثاقه. فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ (٣).

وعن مجاهد ، قال: أسر العباس رجلٌ، ووعدوه أن يقتلوه. فقال رسول الله: «إني لم أنم الليلة من أجل العباس؛ زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال عمر: أآتيهم يا رسول الله؟ فأتى الأنصار فقال: أرسِلوا العباس. قالوا: إن كان لرسول الله رضىً فخذه(٤).

الله يعوضه عما دفعه يوم بدر

عن حميد بن هلال، قال: بعث ابنُ الحضرمي إلى رسول الله ﷺ بمال ثمانين ألفًا من البحرين، فنُشرت على حصير، فجاء النبي ﷺ ، فوقف، وجاء الناسُ؛ فما كان يومئذ عددٌ ولا وزن، [ما كان إلا قبضًا]. فجاء العباس بخميصة عليه، فأخذ، فذهب يقوم، فلم يستطع، فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: ارفع عليَّ. فتبسم رسول الله حتى خرج ضاحكه ـ أو نابه ـ فقال: أعد في المال طائفة، وقُم بما تُطيق. ففعل.

قال: فجعل العباس يقول ـ وهو منطلق ـ أما إحدى اللتين وعدنا الله، فقد أنجزها [يعني قوله]: ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧٠].

فهذا خير مما أُخذ مني. ولا أدري ما يُصنعُ في الآخرة(٥).

---

(١) (٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٢) ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٢ ـ ١٣).

(٤) السير للإمام الذهبي (٢/ ٨٣).

(٥) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٥، ١٦) والزيادة منه، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا، وأخرجه بنحوه الحاكم =

موقفه يوم حُنين

قال العباس ـ رضي الله عنه ـ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له (فروة بن نفاثة الجذامى) فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفّها إرادة أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس ناد أصحاب الشجرة»[1]: فقال عباس ـ وكان رجلاً صيّتًا ـ «أي صوته مرتفع» ـ فقلت بأعلى صوتى: أين أصحاب الشجرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك.. يا لبيك.. قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة فى الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار. قال: ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث ابن الخزرج، فقالوا: يا بنى الحارث ابن الخزرج يا بنى الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمى الوطيس. قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حَصَيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد». قال: فذهبت أنظر، فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً[2].

وكانت غزوة حنين مع قبيلة هوازن ومن معها، وكانت بعد فتح مكة وكانوا رماة، وكان بالمسلمين كثرة، فقال بعضهم: لن نُهزَم اليوم من قِلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة وقد خرج ناس منهم حُسَّرٌ، وكانت هوازن رماة فرموهم برشق من نبل، فولى الصحابة مدبرين، فأمر النبى ﷺ العباس أن ينادي على أصحاب الشجرة. فقالوا: يا لبيك يا لبيك.

= (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠) من طريق سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى... وصححه، ووافقه الذهبى، وفيه «ما يصنع بالمغفرة» بدل «فى الآخرة» وعند ابن سعد «فى المغفرة».

(١) أى أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة بالحديبية وكانوا أربع عشرة ومائة، وبايعوا على الموت، وعلم الله فى قلوبهم من الإيمان والصدق فرضى عنهم، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة».

(٢) أخرجه مسلم (١٢/ ١١٣ ـ ١١٧) الجهاد والسير.

ثم نادى على الأنصار ثم على بنى الحارث بن الخزرج من الأنصار، وهم يسرعون تلبية نداء منادي رسول الله ﷺ ، فساق الله ـ عز وجل ـ لهم النصر، وفازوا بغنائم القوم، وانهزمت هوازن وفرَّ بعضهم إلى الطائف، وبعضهم إلى نخلة وإلى أوطاس،فرضى الله عن الصحابة الكرام ونفعنا بهذه المواقف الإيمانية فى الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ [١].

الصحابة يستسقون بالعباس (رضى الله عنهم جميعاً)

عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسلُ إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيُسقون[٢].

قال الحافظ فى «الفتح»: وقد بيَّن الزبير بن بكار فى «الأنساب» صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة، والوقت الذى وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر، قال: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث»، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. وكان ذلك عام الرمادة سنة ثمان عشرة.

مكانته عند النبى ﷺ

ولقد كان للعباس ـ رضى الله عنه ـ مكانة عظيمة عند النبى ﷺ .

ولكنى أسوق إلى حضراتكم أولاً كلمة توضح مكانة النبى ﷺ فى قلب عمه العباس.

فعن أبى رزين قال: قيل للعباس: أنت أكبر أو النبى ﷺ ؟ قال: هو أكبر وأنا وُلدت قبله»[٣].

ـ أما عن مكانة العباس فى قلب النبى ﷺ فأسوق لحضراتكم باقة من الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدر عمه العباس.

---

(١) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص: ٥٢).

(٢) أخرجه البخارى (٣٧١٠) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.

(٣) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧٠): رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، أن رجلاً من الأنصار وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية، فلطمه العباس، فجاء قومه، فقالوا: والله لنلطمنّه [كما لطَمه]، فلبسوا السلاح.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ؛ فصعد المنبر، فقال: «أيها الناس، أىُّ أهل الأرض أكرمُ على الله؟» قالوا: أنت. قال: «فإنَّ العباس منى وأنا منه، لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا».

فجاء القوم فقالوا: نعوذ بالله من غضبك يا رسول الله[(١)].

وعن ابن عباس، أن النبى ﷺ جعل على العباس وولده كساءً، ثم قال: «اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة، لا تُغادر ذنبًا. اللهم اخلفه فى ولده»[(٢)].

وعن عبد المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا لنخرج فنرى قريشًا تحدث فإذا رأونا سكتوا ، فغضب رسول الله ﷺ ، ودرَّ عرق بين عينيه ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[(٣)].

وعن سعيد بن المُسيِّب، عن سعد قال: كنا مع النبى ﷺ فى نقيع الخيل، فأقبل العباس، فقال النبى ﷺ : «هذا العباس عمُّ نبيكم، أجودُ قريش كفًا، وأوصلها»[(٤)].

وعن المطلب بن ربيعة، قال: قال رسول الله ﷺ : «ما بال رجال يُؤذوننى فى العباس، وإن عم الرجل صِنو أبيه، من آذى العباس فقد آذانى»[(٥)].

وعن أبى هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدراعه وأعتاده فى سبيل الله[(٦)]، وأما العباس فهى علىَّ ومثلها معها» ثم قال: يا عمر أما شعرت أن عم

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٠) بسند حسن ـ ورواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ٢٤) وصححه الحاكم (٣/ ٣٢٩) ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده. وقال الأرنؤوط: إسناده جيد [السير (٢/ ٨٩)].

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٠٧) والترمذى (٣٧٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٥) أخرجه الترمذى (٣٧٥٨) فى المناقب وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) قال النووى رحمه الله (٣/ ١٠) قال أهل اللغة: الأعتاد آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها، =

الرجل صنو أبيه[١].

ولقد رزق اللهُ (العباس) بالذرية الطيبة المباركة وعلى رأسهم حَبر الأمة عبد الله بن عباس الذى ملأ الدنيا علمًا.

وحان وقت الرحيل

ولابد لكل بداية من نهاية.

فها هو العملاق يخرج من هذه الدنيا راغبًا فيما عند الله فأعتق سبعين مملوكًا عند موته.

ولما مات ـ رضى الله عنه ـ قالت عائشة بنت سعد: جاءنا رسول عثمان، ونحن بقصرنا على عشرة أميال من المدينة، أن العباس قد توفى، فنزل أبى وسعيد بن زيد، ونزل أبو هريرة من السمرة، فجاءنا أبى بعد يوم فقال: ما قدرنا أن ندنو من سريره من كثرة الناس، غلبنا عليه، وكنت أُحبِ حمله[٢].

فرضى الله عن العباس وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

= والواحد عتاد ويجمع أعتاد وأعتدة، وقيل: إن أعتاد جمع عتد، وأما عتاد فجمعه أعتدة، ومعنى الحديث أنهم طلبوا من خالد زكاة أعتاده ظنًا منهم أنها للتجارة وأن الزكاة فيها واجبة فقال لهم: لا زكاة لكم علىّ فقالوا للنبى ﷺ: إن خالدًا منع الزكاة فقال لهم: إنكم تظلمونه لأنه حبسها ووقفها فى سبيل الله قبل الحول عليها فلا زكاة فيها، ويحتمل أن يكون المراد لو وجبت عليه زكاة لأعطاها ولم يشح بها؛ لأنه قد وقف أمواله لله تعالى متبرعًا فكيف يشح بواجب عليه.

(١) أخرجه البخارى (١٤٦٨) ومسلم (٩٨٣) الزكاة.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ٣٢).



أبو جندل وأبو بصير

ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون

إن الثبات على هذا الدين غاية من أعظم الغايات.

وها نحن من خلال تلك السطور نعيش مع قصة صلح الحديبية التى ظهر فيها من آيات النُصرة ما يجعل المؤمنين يعلمون أن النصر مع الصبر، وأن المؤمن عليه أن يثبت على إيمانه ودينه ولو دفع نفسه ثمنًا لذلك، فإن نعمة الإسلام لا توازيها الدنيا بمتاعها وزينتها.

وها هو أبو جندل وأبو بصير ـ رضى الله عنهما ـ يبذلان الغالى والنفيس من أجل أن يظفرا بنعمة الإسلام.

فيا من امتن الله عليكم بنعمة الإسلام: احمدوا الله على تلك النعمة واعرفوا قدرها... ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

ثبات على المبدأ

خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حل حل. فألحت فقالوا: خلأت القصواء. ـ اسم دابة النبى ﷺ ـ فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ـ يقصد قريشًا ـ ثم زجرها فوثبت قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكى الناس إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء (بديل بن ورقاء الخزاعى) فى نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إنى تركتُ كعب بن لؤى وعامر ابن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويُخلّوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول قال: فانطلق حتى أتى قريشًا قال: إنا جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبى ﷺ .

فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: ألستُ بالولد؟ قالوا: بلى قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علىَّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعونى آته... ـ إلى أن جاء سهيل بن عمرو ـ فقال النبى ﷺ : «قد سَهُلَ لكم من أمركم» قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبى ﷺ الكاتب فقال النبى ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل أما (الرحمن) فوالله لا أدرى ما هى. ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال النبى ﷺ : «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب (محمد بن عبد الله) فقال النبى ﷺ : «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى، اكتب: محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبى ﷺ : «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم

كذلك إذ دخل (أبو جندل بن سهيل بن عمرو) يرسف فى قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىَّ فقال النبى ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شىء أبدًا قال النبى ﷺ: «فأجزه لى» قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قدَ أجزناه لك؟ قال أبو جندل: أى معشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا فى الله. قال فقال عمر ابن الخطاب: فأتيت نبى الله ﷺ فقلت: ألست نبى الله حقًا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فَلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا إذًا؟

قال: «إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى» قلت: أوَ ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: «بلى فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟» قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به» قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطى الدنية فى ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنَّا سنأتى البيت نطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به..

قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً - اى عملت أعمالاً صالحة تكفيرًا عن مجادلتى للنبى ﷺ - ... - ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا (ذا الحليفة) فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت به، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برَدَ - مات - وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا» فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم. قال النبى ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى (سيف البحر) قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم - حتى بلغ - الحمية حمية الجاهلية﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت[1].

وهكذا يتعرض المؤمنون للبلاء، ولكن العاقبة تكون لهم. مصداقًا لقول الحق جل وعلا: ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم:٤٧].

وتدبر معي أيها الأخ الحبيب كيف ثبت (أبو جندل وأبو بصير وغيرهما) على هذا الدين رغم العوائق والمتاعب التي كابدوها من أجل أن يظفروا بنعمة الإسلام التي لا توازيها نعمة في الوجود.

وكان السر في هذا الثبات أن الطريق واضح والغاية جليلة، فإن من أسباب الثبات على دين الله: وضوح الغاية والطريق وجعل الهموم همًا واحدًا (هَم الآخرة) فالإنسان عدو ما يجهل، أما إذا اتضح الطريق أمامه فمن السهل اليسير أن يسلكه وما إن يخطو فيه خطوات يسيرة حتى يشعر بقيمة السير فيه؛ لأن فيه النجاة كل النجاة، وهذا يكون حاديًا لثباته على الطريق، وهنا يبدأ المؤمن في توحيد الهموم فيجعل همه همًا واحدًا، ألا وهو هَم الآخرة فلا شيء أمامه سوى أن يكمل هذا الطريق بجدارة واقتدار؛ لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى الله جل وعلا ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أما غير المؤمن فهو يعيش في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة، وتتنازعه غاياتٌ شتى، هذه تميل به إلى اليمين، وتلك تجذبه إلى الشمال، فهو في صراع دائم داخل نفسه وهو في حيرة بين غرائزه الكثيرة، أيها يُرضي. غريزة البقاء، أم غريزة النوع، أم المقاتلة، أم... أم.... إلخ.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) - وأبو داود (٢٧٦٥).



وهو حائرٌ مرة أخرى بين إرضاء غرائزه وبين إرضاء المجتمع الذى يحيا فيه، وهو حائرٌ مرة ثالثة فى إرضاء المجتمع، أى الأصناف يرضيهم، ويسارع فى هواهم، فإن رضا الناس غاية لا تُدرك.

قال ﷺ: «مَن أرضَى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومَن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس»(١). وقد استراح المؤمن من هذا كله، وحصر الغايات كلها فى غاية واحدة عليها يحرص وإليها يسعى، وهى رضوان الله تعالى، لا يبالى معه برضا الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ ... وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكل هينٌ ... وكل الذى فوق الترابِ ترابُ

وهنا يذكرون الحكاية المشهورة.. حكاية الشيخ وولده وحماره:

ركب الشيخ ومشى الولد وراءه، فتعرض الشيخ للوم الناس، وركب الولد ومشى الشيخ، فتعرض الولد للوم الرجال، وركبا معًا فتعرضا للوم دعاة الرفق بالحيوان، ومشيا معًا والحمار أمامهما، فتعرضا لنُكت أولاد البلد، واقترح الولد أن يحملا الحمار ليستريحا من لوم اللائمين، فقال له الأب الشيخ: لو فعلنا لأتعبنا أنفسنا، ولرمانا الناس بالجنون حيث جعلنا المركوب راكبًا.

يا بنى لا سبيل إلى إرضاء الناس.

ولقد أيقن أصحاب النبى ﷺ بأن الغاية الكبرى التى يجب أن يبذلوا من أجلها النفس والنفيس هى مرضاة الله جل وعلا فسلكوا الطريق واستعذبوا العذاب فى سبيل الله واسترخصوا المال والولد وقدموا كل شىء وهم فى قمة الرضا والاستبشار بما عند الله.

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها، وعرف الطريق فاطمأن به.

إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إنه (الصراط المستقيم).. الذى يهدى إليه محمد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢ ـ ٥٣].

(١) رواه الترمذى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٠).

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان كيف كان يخوض عباب المعركة، والموت يبرق ويرعد، وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

ألا تسمع لأحدهم وقد نفذ الرمح فى صدره حتى وصل إلى ظهره، فما كان منه إلا أن قال: فُزت ورب الكعبة ـ فهؤلاء عندما جعلوا الهموم همًا واحدًا قاموا فأخرجوا من قلوبهم كل شىء إلا محبة الله ورسوله ﷺ والشوق إلى لقاء الله فعرفوا لهذه العبودية حقها فجعلوا وجهتهم لفاطر السماوات والأرض وانقادوا لحكم الله لعلمهم أن الله أرحم بهم من رحمة الأم بطفلها الرضيع فانزاح الستار من أمامهم فكان الواحد منهم يستشعر قول النبى ﷺ لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

وكانوا فى تلك العبودية وكأنهم يرون الجنة والنار أمام أعينهم فكان لسان حال ومقال كل واحد منهم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤]. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ ـ ١٦٣][٢].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ واصفًا شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكنّا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظُّنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة[٣].

وبعد حياة مليئة بالبذل والتضحية فى سبيل الله ـ جل وعلا ـ رحل أبو جندل ورحل أبو بصير ـ رضى الله عنهما ـ من عذاب الدنيا إلى النعيم المقيم.

فرضى الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين

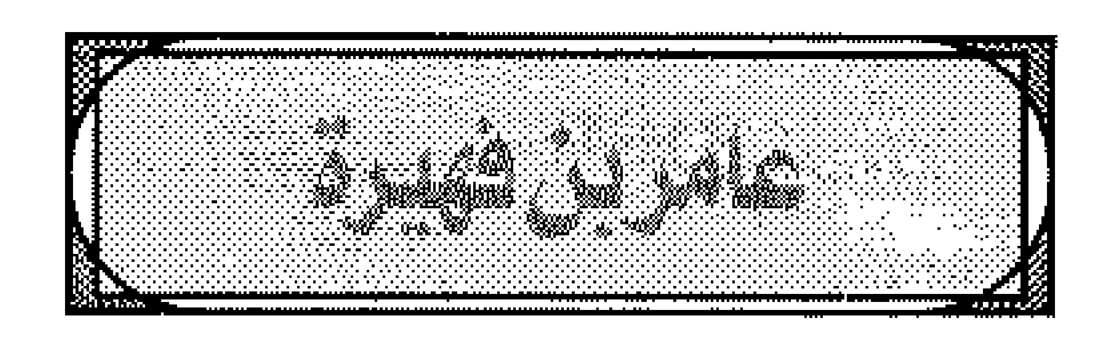
* * *

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة/ كتاب الإيمان ـ باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله.

(٢) ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون/ للمصنف (ص ١٦٤ : ١٦٦) بتصرف.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم بتحقيق مصطفى العدوى (٧٦) ط. دار الصحابة.





استشهد فرفع إلى السماء ودفنته الملائكة

إن العمل للدين مسئولية كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر. وكلٌّ على قدر طاقته ـ ونهاية الألف ميل تبدأ بخطوة ـ فلو قام كل مسلم وحمل أمانة هذا الدين على عاتقه وتحرك لنُصرة هذا الدين لرأينا النُصرة تتنزل من السماء تحقيقًا لوعد الخالق ـ جل وعلا ـ حيث يقول: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد:٧].

وها نحن على موعد مع صحابى جليل قدَّم الكثير والكثير لنُصرة هذا الدين... إنه مولى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ من المهاجرين الأولين، اشتراه أبو بكر وأعتقه قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم.

* إنَّه واحد منَ المعذّبين فى الله عزَّ وجلَّ... عامر بن فُهيرة، مولى أبى بكر الصدِّيق ـ رضى الله عنهما ـ.

* كان رقم عامر بن فُهيرة يلمع فى قائمةِ الأوائل من سجلِّ المؤمنين السابقين، حيثُ أسلمَ مبكّرًا قبل أنْ يدخل رسولُ الله ﷺ دارَ الأرقم بن أبى الأرقم المخزومىّ، وقبل أنْ يدعوَ فيها.

* كانَ عامر بنُ فهيرة مولدًا منَ الأزْد، وكان مملوكًا للطُّفيل بن عبد الله ابن سخبرة، وكان الطُّفيل أخا عائشة بنت أبى بكر لأمّها أمّ رومان؛ ذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشة هذا فقالت: كان عامر بن فُهيرة للطُّفيل (أخى لأمّى) فأسلم فاشتراه أبو بكرٍ وأعتقه، وكان يرعى عليه منيحة غنم له[1].

* كان هذا الفارسُ العَلَمُ على هامشِ التَّاريخ، لا يأبَه له أحدٌ ممَّنْ حوله، فلا تتعدى مكانته مكانةَ الأرقَّاء والعبيد، ولما أضاء الإيمانُ جوانبَ نفسَه، وملأ حنايا قلبه، أضحى فى مصافِّ السَّادة الأعلام، سادتنا الكرام من أصحابِ رسول الله ﷺ ، وممن حظوا

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٣٠).

بالشَّهادة، وأُسكنوا عليّين، وما أدراك ما عليُّونَ؟! إنه مقام كريم، فى جنّات ونهر، عند مليك مقتدر(١).

فصبرٌ جميل

إذا استحكمت الأزمات، وتعقّدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطال ليلُها، فالصبرُ وحده هو الذى يشعْ للمسلم النورَ العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط.

والصبر فضيلة يحتاجُ إليها المسلم فى دينه ودنياه، ولابد أن يبنى عليها أعماله وآماله، وإلا كان هازلاً.

يجب أن يوطن نفسَه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة.. يجب أن يظلَّ موفور الثقة، بادى الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر فى الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقنًا بأن بوادر الصفو لابد آتيةً، وأن من الحكمة ارتقابها فى سكون ويقين(٢).

* لقد كان عامر (رضى الله عنه) من الذين ضربوا المثل فى الصبر والمصابرة..فلقد كان من المستضعفين فى الأرض وكان من الذين صبَّ عليهم كفار قريش ألوانًا من العذاب وعلى الرغم من ذلك كان ثابتًا بإيمانه ويقينه ثبات الجبال الرواسى إلى أن اشتراه أبو بكر (رضى الله عنه) وأعتقه لوجه الله تعالى خوفًا عليه من أن يُفتن فى دينه.

نعمة جليلة

وكان عامر (رضى الله عنه) يغدو إلى مجالس رسول الله ﷺ دائمًا ومعه ثُلة مباركة من المستضعفين وعلى رأسهم بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب ابن سنان فكانوا يتعلمون من هدى النبى ﷺ وأخلاقه العذبة الفياضة ومن سُنته المطهرة ما تزكو به أنفسهم وتسعد به قلوبهم وأرواحهم فى الدنيا والآخرة.

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٣٧٣).
(٢) خُلق المسلم/ محمد الغزالى (ص:١٣٧).

دوره الخالد في الهجرة المباركة

لقد سطَّر عامر بن فهيرة (في قصة الهجرة المباركة) على جبين التاريخ سطوراً من النور لا تبلى أبداً.

لقد وقف موقفًا لا يُنسى أبداً مع تعاقب الجديدين ـ الليل والنهار ـ إنه موقفه يوم هجرة الحبيب ﷺ فقد كان بمثابة وزارة التموين للنبي ﷺ وصاحبه، حيث كان يأتي إليهما بالغنم ليشربا اللبن، بل كان يمحو آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر حتى لا يهتدي المشركون إلى مكان النبي ﷺ وأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل ـ وهو لبن منحتهما ورضيفهما ـ حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه[1].

* وبذلك كان عامرُ بنُ فُهيرة ـ رضي الله عنه ـ يعفِّي[2] على آثار عبد الله ابن أبي بكر، فلا يتفطن إليه أحدٌ، ولا يستدلُّ بآثاره على المهاجرَيْن الكريمَيْن.

* وهكذا حظيَ عامر بنُ فُهيرة ـ رضي الله عنه ـ بخدمة هذَيْنِ المهاجريْن العظيمَيْن، فنال شرفَ المشاركة في أعظم رحلة عرفتها الإنسانية، واتخذتْها تاريخًا لها[3].

جهاده في سبيل الله تعالى

* عامرُ بنُ فُهيرة واحدٌ من فرسان الرَّسول ﷺ ؛ الذين كُتبَ لهم شرف الجهاد في معيَّته ﷺ ، فقد شهد عامر غَزَاة بدر، وأبلى فيها بلاء حسنًا، وكُتبَ منْ أهل بَدْر، عند مليك مقتدر، وشهد كذلك غزاة أحد، وكان له فيها البلاء المحمودَ المشكور.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٥) ـ ابن هشام (١/ ٤٨٦).
(٢) يعفِّي: يخفي الآثار، وهو ما يشبه عمليات التمويه في عصرنا الحالي.
(٣) فرسان من عصر النبوة (ص:٣٧٨).

الشهادة في سبيل الله

وأما عن قصة الشهادة في سبيل الله فالقصة باختصار أن عامر بن مالك الذي يُدعى مُلاعب الأسنّة قدم على رسول الله ﷺ وهو مشرك، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وقال رسول الله ﷺ إني لا أقبل هدية مشرك، فقال عامر بن مالك: ابعث يا رسول الله من رسلك من شئت فأنا له جار، فبعث رسول الله ﷺ رهطًا فيهم المنذر بن عمرو الساعدي، وهو الذي يقال له أُعتق ليموت، عينًا في أهل نجد، فسمع بهم عامر بن الطفيل، فاستنفر لهم من بني سليم فنفروا معه، فقتلهم ببئر معونة غير عمرو بن أمية الضمري، أخذه عامر بن الطفيل فأرسله، فلما قدم على رسول الله ﷺ من بينهم، وكان فيهم عامر بن فهيرة، فزعم لي عروة (أحد الرواة) أنه قُتل يومئذ فلم يوجد جسده حين دفنوه كانوا يرون الملائكة هي دفنته فقال حسان يعرض على عامر بن الطفيل:

بني أم البنين ألم يعركم　　　وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء　　　ليخفره وما خطأً كعمد

فطعَن ربيعة بن عامر بن ربيعة بن مالك عامر بن الطفيل في فخذه طعنة فقدَّه»[1].

وفي الصحيح عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي، قال: لما قُتل الذين ببئر معونة وأُسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: مَن هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة فقال: لقد رأيته بعد ما قُتل رُفع إلى السماء حتى إني لأنظر إليه بين السماء والأرض، ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم فنعاهم، فقال: إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم، وأصيب فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسمي عروة به، ومنذر بن عمرو سمي به منذرًا»[2].

وفي القصة كرامة ظاهرة لعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، والكرامة هي الخارقة الرحمانية التي يسوقها الله ـ عز وجل ـ على يد ولي من أوليائه، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام الذين كانت آيات صدقهم ظاهرة وعلامات إيمانهم وجهادهم باهرة.

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٧) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد عن أنس (٣/ ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٥٠) المغازي.

وهكذا فالجزاء من جنس العمل فلقد كان (عامر) يرفع الطعام إلى النبي ﷺ فرُفع إلى السماء، ولقد كان (عامر) يدفن سر النبي ويُخفي آثاره فتولت الملائكة دفنه. والجزء من جنس العمل.

وهكذا يكون العمل لدين الله.

فمهما كان العمل صغيراً أو كبيراً فما عليك إلا أن تجتهد لخدمة هذا الدين فهذا (عامر) ـ رضي الله عنه ـ كان يذهب بالغنم إلى الحبيب ﷺ وأبي بكر ليشربا اللبن، ومع ذلك لم يقل: إن هذا العمل صغير أو ضئيل؛ لأنه يعلم، بل ويوقن أن الجدار العظيم لهذا الدين يحتاج إلى كل السواعد.. فهذا يأتي بالماء وذاك يحمل اللبنة على كتفه وآخر يبني ويشيد، وبذلك تتكامل سواعد الأمة.

وعلى قدر النية والإخلاص يكون الأجر من الله والنجاح في القيام بهذا العمل.

ومن هنا فعلى كل مسلمٍ أن يقدم من خلال عمله ومكانته كل ما يستطيع من خلاله أن يبني به (لبنة) في جدار الإسلام.

قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعملهُ» قيل: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت ثم يقبضه عليّه»[1].

فنسأل الله ـ عز وجل ـ أن يستعملنا ويستخدمنا لنُصرة دينه والذود عن حياضه.

فرضي الله عن (عامر) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥).





أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص

محمد رسول الله ﷺ

إن من سعادة الإنسان أن يصبح رأسًا فى الخير يقتدى به الناس.. ومن سعادته أن يصبح رأسًا فى الدعوة إلى الله وإيصال الخير للناس فى كل زمانٍ ومكان.

وضيفنا على تلك الصفحات كان رأسًا فى إيصال الخير إلى الناس والدعوة إلى الله على بصيرة.

ولذا فإنه ما من مسلمٍ على أرض مصر يؤمن بالله واليوم الآخر إلا ويأتى يوم القيامة فى ميزان حسنات ضيفنا المبارك.

فيا تُرى من هو هذا الضيف الكريم؟

إنه عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ

داهيةُ قريش ورجلُ العالم، ومن يُضرب به المثلُ فى الفطنة، والدهاء، والحزم.

الذى هاجر إلى رسول الله ﷺ مُسلمًا فى أوائل سنة ثمان، مرافقًا لخالد ابن الوليد، وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة، ففرح النبى ﷺ بقدومهم وإسلامهم، وأمَّر عمرًا على بعض الجيش، وجهَّزه للغزو[1].

وسيظل الذين يرون فى الإسلام دينًا قيمًا مجيدًا.. ويرون فى رسوله رحمة مهداة، ونعمة مُزجاة، ورسول صِدق عظيم، دعا إلى الله على بصيرة، وألهم الحياة كثيرًا من رُشدها وتُقاها..

سيظل الذين يحملون هذا الإيمان مشحوذى الولاء للرجل الذى جعلته الأقدار سببًا ـ وأىَّ سبب ـ لإهداء الإسلام إلى مصر، وإهداء مصر إلى الإسلام.. فَنِعمت الهديّة، ونِعمَ مُهديها.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٥٥).

ذلكم هو: «عمرو بن العاص» ـ رضى الله عنه ـ[1].

كان أبوه (العاص بن وائل) أحد حُكام العرب فى الجاهلية وسيدٌ من ساداتهم المرموقين.

وأما أمه فهى (النابغة بنت عبد الله) أصابتها رماح العرب فى الجاهلية، فبيعت بسوق «عُكاظ» فاشتراها «عبد الله بن جدعان» ثم وهبها للعاص بن وائل فولدت له.

رحلته إلى الحبشة خلف المهاجرين

لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهى أرضُ صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[2]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنُوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشى، فيردهم عليهم، ليفتنوهم فى دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته.

عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار «النجاشى»، أمنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وأن يُهدوا للنجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم[3]، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم،

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٧٦٩).

(٢) ذكره ابن إسحاق كما ترى من غير إسناد وابن كثير فى البداية (٣/ ٦٦) من بلاغات ابن إسحاق.

(٣) الأدم: الجلود وهو اسم جمع.

وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يُسلِّمهم إليكما قبل أن يُكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق، إلا دفعا إليه هديته قبل أن يُكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى[1] إلى بلد الملك منَّا غلمانٌ، سُفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نَعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلَّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا[2]، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منَّا غلمان سُفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أُسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته[3]، فنشروا مصاحفهم حوله.

---

(١) ضوى: لجأ ولسق وأتى ليلاً.

(٢) أعلى بهم عينًا: أي أبصر بهم وقيل أي عينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم.

(٣) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.



سألهم فقال لهم: ما هذا الدينُ الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذى كلَّمه جعفرُ بن أبى طالب (رضوان الله عليه).

فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبهُ وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشيُ: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشى: فاقرأه علىَّ.

قالت: فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ [مريم:١].

قالت: فبكى والله النجاشىُّ حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال [لهم] النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[١] واحدة، انطلقا، فلا والله لا أُسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصلُ به خضراءهم[٢].

---

(١) المشكاة: الثقب الذى يوضع فيه الفتيل والمصباح وهى الكوة غير النافذة.

(٢) استأصل به خضراءهم: أى جماعتهم وقوتهم ومعظمهم. وقيل: شجرتهم التى تفرعوا منهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ.

قالت: ثم غدا عليه [من] الغد، فقال [له]: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القومُ، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟:

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ [يقول]: هو عبد الله ورسوله ورُوحُه وكلمتهُ ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضي - والشيوم: الآمنون - مَنْ سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحبّ أن لي دبرًا من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام: ويقال دِبرًا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر (بلسان الحبشة): الجبل -.

ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[2].

---

(١) تناخرت: أي تكلمت وكأنه كلام من غضب ونفور.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥: ٢٧٨) بتصرف.

قصة إسلامه (رضى الله عنه)

عن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلَّمُوا والله إنى أرى أمرَ محمد يعلو الأمور علواً منكرًا، وإنى قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده، فإن ظهر محمدٌ على قومنا كنا عند النجاشى، فإنا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدى محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا لرأى، قلت: فاجمعوا لنا ما نُهديه له، وكان أحب ما يُهدى من أرضنا الأدم[1]. فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية الضمرى، لو قد دخلتُ على النجاشى وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع. فقال: مرحبًا بصديقى، أهديت إلىّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدمًا كثيرًا، قال: ثم قرَّبته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقًا منه ـ خوفًا منه ـ ثم قلت له: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألنى أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر[2] الذى كان يأتى موسى لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتُبايعنى له على الإسلام، قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمتُ أصحابى إسلامى.

---

(١) الأدم : الجلد.

(٢) الناموس الأكبر: المقصود به جبريل عليه السلام كما يسمونه أهل الكتاب، وكما جاء قبل ذلك من قول ورقة بن نوفل للنبى ﷺ.

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم فلقيتُ خالد بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسِم[١]، وإن الرجل لنبيّ، أذهبُ والله فأُسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأُسلِم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يُغفر لى ما تقدم من ذنبى، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته ثم انصرفت[٢].

وفى رواية قال: فوالله إنى لأشدُّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ، فما ملأت عينى منه ولا راجعته»[٣].

النبى ﷺ يعرف قدر الرجال

ولقد كان الحبيب ﷺ يعرف طاقات أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ ويوظفها توظيفًا لا مثيل له.

فأحسَّ النبى ﷺ أن (عمرو بن العاص) ـ رضى الله عنه ـ يتمتع بقدرة عالية من الذكاء والدهاء ورجاحة العقل، فأمَّره على جيش المسلمين فى غزوة (ذات السلاسل).

موقف فى تلك الغزوة يدل على فقهه (رضى الله عنه)

عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص، أن عمرًا كان على سرية، فأصابهم بردٌ شديد لم يروا مثله، فخرج لصلاة الصبح، فقال: احتلمت [البارحة]، ولكنى والله ما رأيت بردًا مثل هذا، فغسل مغابنه، وتوضأ للصلاة، ثم صلى بهم. فلما قدم على رسول الله ﷺ سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «كيف وجدتم عمرًا وصحابته»؟ فأثنوا عليه خيرًا، وقالوا: يا رسول الله، صلى بنا وهو جُنب، فأرسل إلى عمرو، فسأله، فأخبره بذلك

---

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح. وأصل المنسم خف البعير ومن رواه الميسم فهو الحديدة التى توسم بها الإبل وغيرها والمنسم بالنون هو الصواب.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ١٩٨، ١٩٩) والبيهقى فى السنن (٩/ ١٢٣) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٥٤) وحسَّن إسناده الألبانى فى (الإرواء) (٥/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٢٠٤) وله شاهد فى صحيح مسلم (١٢١) الإيمان ـ باب كون الإسلام يهدم ما قبله.

وبالذى لقى من البرد، وقال: إنَّ الله قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء:٢٩] ولو اغتسلتُ متُّ. فضحك رسول الله ﷺ (١).

وفى رواية: قال ـ رضى الله عنه ـ : «احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صليت بأصحابى الصبح، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جُنُب؟» فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال، وقلت: إنى سمعت الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء:٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا»(٢).

وعن قيس، قال: بعث رسول الله ﷺ عمراً فى غزوة ذات السلاسل، فأصابهم بردٌ، فقال لهم عمرو: لا يوقدنَّ أحدٌ ناراً. فلما قَدِمَ شكوهُ، قال: يا نبى الله! كان فيهم قلة، فخشيتُ أن يرى العدو قلتهم، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين. فأعجب ذلك رسول الله ﷺ (٣).

وظل عمرو ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ الذى لم يستطع أن يملأ عينيه منه توقيراً له وتعظيمًا.

ولقد أحبَّه النبى ﷺ حبًا جمًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده حتى وضع باقة عطرة من المناقب على صدر عمرو ـ رضى الله عنه ـ.

مناقبه وفضائله (رضى الله عنه)

قال ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»(٤).

وعن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «ابنا العاصِ مؤمنان، عمرو وهشام»(٥).

وقال ﷺ: «عمرو بن العاص من صالحى قريش»(٦).

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، والمغابن: الأرفاغ وهى بواطن الأفخاذ عند الحوالب جمع مغبن من غبن الثوب: إذا ثناه وعطفه، وأخرجه أبو داود (٣٣٥) فى الطهارة: باب إذا خاف الجنب البرد تيمم.

(٢) رواه الحاكم (١/ ١٧٧) وصححه ووافقه الذهبى وحسَّنه المنذرى.

(٣) ابن عساكر (١٣/ ٢٥٤) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٦٦).

(٤) رواه أحمد والترمذى عن عقبة بن عامر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧١).

(٥) رواه أحمد وابن سعد والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥)..

(٦) رواه الترمذى عن طلحة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٥).

وعن عمرو بن العاص قال: كان فَزَعٌ بالمدينة، فأتيتُ سالمًا مولى أبى حذيفة، وهو مُحتبٍ بحمائل سيفه، فأخذت سيفًا، فاحتبيتُ بحمائله، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناسُ، ألا كان مفزعكُم إلى الله ورسوله، ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان»؟[١].

وعن الشعبى قال: دُهاةُ العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزيادٌ. فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمُعضلات؛ والمغيرةُ للمُبادهة؛ وأما زياد فللصغير والكبير.

وقال أبو عمر بن عبد البر[٢]: كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية، مذكورًا بذلك فيهم. وكان شاعرًا حسن الشعر، حُفظ عنه منه الكثير فى مشاهد شتّى.

وقال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: وكان من أجلّ رجال قريش رأيًا، ودهاءً، وحزمًا، وكفاءةً، وبصرًا بالحروب، ومن أشراف ملوك العرب، ومن أعيان المهاجرين، والله يغفرُ له ويعفو عنه، ولولا حُبه للدنيا ودخوله فى أمور، لصلح للخلافة، فإن له سابقة ليست لمعاوية. وقد تأمَّر على مثل أبى بكر وعمر، لبصره بالأمور ودهائه[٣].

صفحة من إخلاصه (رضى الله عنه)

قال عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ: بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: «خُذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتنى» فأتيته وهو يتوضأ، فصعَّد فى البصر، وصوَّبه، فقال: «إنى أُريدُ أن أبعثك على جيش، فيُسلمك الله ويُغنمك، وأرغبُ لك رغبةً صالحةً من المال» قلت: يا رسول الله! ما أَسلمتُ من أجل المال، ولكنى أسلمت رغبةً فى الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ. قال يا عمرو: «نعمًا بالمالِ الصالحِ للرجل الصالحِ»[٤].

عبادته (رضى الله عنه)

عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص؛ أن عمرًا كان يسرد الصوم، وقلَّما كان يُصيب من العشاء أول الليل. وسمعتُه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «إن فصلاً بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلةُ السَّحرِ»[٥].

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: رواه أحمد (٤/ ٢٠٣) وتاريخ ابن عساكر (١٣/ ٢٥٢).
(٢) الاستيعاب (ص ١١٨٨) لابن عبد البر.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٥٩).
(٤) رواه الحاكم (٢/ ٢) وصححه ووافقه الذهبى ـ ورواه أحمد (٤/ ١٩٧، ٢٠٢).
(٥) أخرجه مسلم (١٠٩٦) والترمذى (٧٠٨) وأبو داود (٢٣٤٣).

زهده وأخلاقه

روى موسى بن عُلَى، عن أبيه؛ سمع عمرًا يقول: لا أملُّ ثوبى ما وسعنى، ولا أملُّ زوجتى ما أحسنت عشرتى، ولا أملُّ دابتى ما حملتنى، إنَّ الملال من سيء الأخلاق(١).

ولما تُوفى رسول الله ﷺ كان عمرو ـ رضى الله عنه ـ على عُمان فأتاه كتاب أبى بكرٍ بوفاة رسول الله ﷺ (٢).

وتأثر عمرو ـ رضى الله عنه ـ بوفاة النبى ﷺ تأثرًا كبيرًا.

ولما آلت الخلافة إلى أبى بكر الصدِّيق ـ رضى الله عنه ـ أبلَى عمرو بن العاص فى حروب الردة أعظم البلاء.

جهاده فى سبيل الله تعالى

ولما لبَّى الصديق نداء ربه، وأسلم الزمام إلى يد الفاروق ـ خير يد تُلْقى إليها الأزّمة ـ استعان الفاروق بقدرات عمرو بن العاص وخبراته، ووضعها فى خدمة الإسلام والمسلمين... ففتح الله على يديه سواحل «فلسطين» بلدًا بعد بلد... وهزم جيوش الروم جيشًا بعد جيش، ثم اتجه إلى حصار «بيت المقدس».

وقد شدد عمرو الحصار على أُولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين حتى زرع اليأس فى نفس «أرطبون» قائد جيش «الروم».

وحمله على التخلى عن المدينة المقدسة، واللواذ بالفرار فاستسلمت «القدس» للمسلمين.

عند ذلك رغب (بطريقها) أن يتم التسليم بحضور الخليفة نفسه. فكتب عمرو بن العاص للفاروق ـ رضوان الله عليه ـ يستدعيه لاستلام «بيت المقدس»... فحضر ووقَّع وثيقة الاستلام.

وآلت «القدس» إلى المسلمين فى السنة الخامسة عشرة للهجرة على يدى عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٥٧).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٦٩).



وكان الفاروق إذا ذُكر أمامه حصار «بيت المقدس»، وما أبدى فيه عمرو ابن العاص من براعة يقول: لقد رمينا «أرطبون» الروم «بأرطبون» العرب.

ثم توّج عمرو بن العاص انتصاراته الكبرى بفتح «مصر» وضم هذه الدُّرة الثمينة إلى عقد الإسلام.

وبذلك فتح أمام جيوش المسلمين أبواب إفريقية، وبلاد «المغرب»، ثم «إسبانيا» بعد ذلك.

وقد تم لهم هذا كله في نحو نصف قرن من الزمان[١].

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: وشهد عمرو يوم اليرموك، وأبلى يومئذ بلاءً حسنًا. وقيل: بعثه أبو عبيدة، فصالح أهل حلب وأنطاكية، وافتتح سائر قنسرين عنوةً[٢].

وقال خليفة: ولّى (عمر) عمرًا فلسطين والأردن، ثم كتب إليه عمر، فسار إلى مصر، وافتتحها، وبعث (عمر) الزبير مددًا له[٣].

وقال ابن لهيعة: فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سنة إحدى وعشرين، ثم انتقضوا في سنة خمس وعشرين[٤].

وقال الفسوي: كان فتح ليون[٥] سنة عشرين، وأميرها عمرو.

وقال خليفة: افتتح عمرو طرابلس الغرب سنة أربع وعشرين. وقيل: سنة ثلاث وعشرين[٦].

* * *

(١) صور من حياة الصحابة (ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٧٠).
(٣) تاريخ خليفة: (١٤٢ و١٥٥).
(٤) ابن عساكر: (١٣/ ٢٥٨/ ب).
(٥) ليون: كصبور، ويقال: أليون، وباب أليون: (قرية بمصر) انظر تاريخ الطبري (٤/ ١٠٤)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٩).
(٦) تاريخ خليفة: (١٥٢).

دهاؤه وذكاؤه في موقعة أجنادين

وفي موقعة أجنادين سار بجيشه وعلى ميمنته ابنه (عبد الله بن عمرو) وعلى ميسرته (جنادة بن تميم المالكي)، من بني مالك بن كنانة، ومعه (شرحبيل بن حسنة)، واستخلف على الأردن (أبا الأعور السلمي)، فلما وصل إلى الرملة وجد عندها جمعًا من الروم عليهم الأرطبون، وكان أدهى الروم وأبعدها غورًا، وأنكأها فعلاً، وقد كان وضع بالرملة جندًا عظيمًا وبإيلياء جندًا عظيمًا، فكتب عمرو إلى عمر بالخبر. فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج. وبعث عمرو بن العاص علقمة بن حكيم الفراسي، ومسروق بن بلال العكي على قتال أهل إيليا. وأبا أيوب المالكي إلى الرملة، وعليها التذارق، فكانوا بإزائهم ليشغلوهم عن عمرو بن العاص وجيشه، وجعل عمرو كلما قدم عليه إمداد من جهة عمر يبعث منهم طائفة إلى هؤلاء وطائفة إلى هؤلاء. وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حضرته حتى عرف ما أراد، وقال الأرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله. فدعا حرسيًا فسارّه فأمره بفتكه فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد من عشرة بعثَنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره، وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فأتني بهم ـ ظنًا منه أنه بذلك سيظفر بقتلهم جميعًا بدلاً من قتل واحد ـ ودعا رجلاً فسارّه ـ كلّمه سرًا ـ فقال: اذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو فذهب إلى جيشه ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص، فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب، وبلغت عمر بن الخطاب فقال: لله در عمرو[1].

وفي الصباح عاد «عمرو» على رأس جيشه إلى الحصن ممتطيًا صهوة فرسه التي راحت مُقهقهة في صهيلٍ شامتٍ وساخرٍ، وكأنها كانت تعرف من دهاء صاحبها الشيء الكثير..!!!

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٥٥ ـ ٥٦) بتصرف.

* وأما عن موقفه فى يوم «صفِّين» فلا ينبغى أبدًا بحال من الأحوال أن نُطلق العنان لألسنتنا للخوض فى أصحاب الحَبيب ﷺ فإنهم ما أرادوا الدنيا بحالٍ من الأحوال، وإنما اجتهدوا فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ.

فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجرٌ واحد... فرضى الله عن الصحابة أجمعين.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالكفاح والبذل والتضحية نام عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ على فراش الموت ليلقى ربه ـ عز وجل ـ وليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه.

عن عوانة بن الحكم، قال: قال عمرو بن العاص: عجبًا لمن نزل به الموت وعقلُه معه، كيف لا يصفُه؟ فلما نزل به الموت، ذكَّره ابنه بقوله، وقال: صفهُ. قال: يا بُنيَّ! الموتُ أجلُّ من أن يُوصف، ولكنى سأصف لك؛ أجدنى كأن جبال رضوى على عُنقى، وكأنَّ فى جوفى الشوك، وأجدنى كأنَّ نفسى يخرجُ من إبرة(١).

وعن عبد الله بن عمرو؛ أن أباه قال حين احتُضر: اللهم [إنك] أمرت بأمور، ونهيت عن أمور، تركنا كثيرًا مما أمرت، ورتعنا فى كثير مما نهيت اللهم لا إله إلا أنت. ثم أخذ بإبهامه، فلم يزل يهللُ ـ يقول: لا إله إلا الله ـ حتى فاض ـ رضى الله عنه ـ(٢).

وعن أبى نوفل بن أبى عقرب قال: جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعًا شديدًا، فقال ابنه عبد الله: ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله يدنيك ويستعملك! قال: أى بُنى! قد كان ذلك، وسأخبرك، إى والله ما أدرى أحبًا كان أم تألُفًا، ولكن أشهد على رجلين أنه فارق الدنيا وهو يحبهما، ابن سمية (عمار) وابن أم عبد (عبد الله بن مسعود) فلما جدَّ به، وضع يده موضع الأغلال من ذقنه، وقال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك. فكانت تلك هجيراه حتى مات(٣).

وعن عبد الله بن عمرو، أن أباه أوصاه: إذا متُّ، فاغسلنى غسلةً بالماء، ثم جففنى فى ثوب، ثم اغسلنى الثانية بماء قراح، ثم جففنى، ثم اغسلنى الثالثة بماء فيه كافور، ثم

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ٢٦٠).

(٢) ابن عساكر (١٣/ ٢٦٨) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٧٥).

(٣) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: وهو فى المسند (٤/ ١٩٩، ٢٠٠) ابن عساكر (١٣/ ٢٦٩).

جففنى وألبسنى الثياب وزرَّ علىَّ، فإنى مُخاصم. ثم إذا أنت حملتنى على السرير، فامش بى مشيًا بين المشيتين، وكن خلف الجنازة، فإن مقدَّمها للملائكة. وخلفها لبنى آدم، فإذا أنت وضعتنى فى القبر، فسُنَّ[1] علىَّ التراب سنًا.

ثم قال: «اللهم إنك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فركبنا، فلا برىء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا أنت، وما زال يقولها حتى مات[2].

وهكذا رحل عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ عن الدنيا وترك خلفه خيراً كثيراً... فما من مسلم يعيش على أرض مصر إلا وكان إسلامه فى ميزان حسناته يوم القيامة... ويا لها من كرامة لا توازيها الدنيا بمتاعها الزائل.

فرضى الله عن (عمرو) وعن سائر الصحابة أجمعين

***

(١) سُنَّ علىَّ: أى صُب علىَّ.

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده قوى: الطبقات لابن سعد (٤/ ٢٦٠) ـ ابن عساكر (١٣/ ٢٦٩).



حنظلة

الرجل الذى غسلته ملائكة الرحمن

إننى والله لأجد نفسى عاجزاً عن وصف هذا المشهد المهيب.

إنه رجل استُشهد فى أرض الشرف والجهاد فتولت الملائكة تغسيله بأمرٍ من الله ـ جل وعلا ـ.

يا له من شرف .. ويا له من فخرٍ.

إنه حنظلة بن أبى عامر الراهب.

كان أبوه (أبو عامر) يسأل قبل بعثة النبى ﷺ عن ظهور الرسول ﷺ ويسأل الأحبار عن صفته لكى يعرفه إذا ظهر.

وكان يُخبر الناس بأنه سيؤمن مع هذا النبى المنتظَر ويتبعه.

فلما بزغ نور الفجر وظهرت شمس الإسلام على أرض الجزيرة لتضىء الكون كله بنور الإيمان والتوحيد.. وبُعث الحبيب ﷺ .

وإذا بأبى عامر يحسد النبى ﷺ ويأبى أن يؤمن برسالته، فكان يضمر للنبى ﷺ فى قلبه الحسد والحقد والكراهية.

وشاء الحق ـ جل جلاله ـ الذى يملك مفاتيح قلوب العباد أن يفتح قلب ابنه (حنظلة) لنور الإيمان لكى يسكن فى قلبه.

فأسلم حنظلة ولامس الإيمان شغاف قلبه وأحسَّ بأن حياته لم تبدأ إلا فى تلك اللحظة.

إنما وليكم الله ورسوله

ولما رأى (حنظلة) ـ رضى الله عنه ـ تلك الكراهية التى يكنها أبوه فى قلبه تجاه النبى ﷺ قام ليُعلن ولاءه لله ولرسول الله ﷺ واستأذن من النبى ﷺ أن يقتل أباه فنهاه الحبيب ﷺ عن قتله.

ويا له من موقف عظيم لهذا الصحابى الجليل يدل على عُمق إيمانه وتجرده وإخلاصه لله ـ جل وعلا ـ فهو يريد أن يبذل نفسه وماله لله، بل إنه يعلن ولاءه كاملاً لله ولرسول الله ﷺ ويعلن عداءه لكل من يعادي الله ورسوله، ولو كان هذا العدو هو والده.

وكيف لا يقف حنظلة هذا الموقف العظيم وهو الذى قرأ قوله تعالى:

﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة:٢٤].

ليلة صباحها الجنة

وظل حنظلة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، فكانت محبته للنبي ﷺ تزداد يومًا بعد يوم حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بماله ونفسه بل وبكل ما يملك.. وكان يتمنى من أعماق قلبه أن يأمره الرسول ﷺ بأمرٍ ليقوم بتنفيذ أمره فى التو واللحظة.

ولما أحسَّ حنظلة بحاجته إلى زوجة صالحة تعينه على أمر دينه ودنياه.

ذهب وتزوج (حنظلة) جميلة بنت عبد الله بن أُبى بن سلول. فأُدخلت فى الليلة التى فى صبيحتها كان قتال أُحد وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له . فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ بأُحد ثم مال إلى جميلة فأجنب منها ـ جامعها ـ وكانت قد أرسلت إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه دخل بها. فقيل لها فى ذلك فقالت: رأيت كأن السماء قد فُرجت له فدخل فيها ثم أُطبقت، فقلت هذه الشهادة. وعلقت بعبد الله بن حنظلة.

وأخذ حنظلة سلاحه فلحق بالنبى ﷺ وهو يسوى الصفوف فلما انكشف المسلمون

اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فوقع أبو سفيان. فحمل رجل منهم على حنظلة فأنفذه بالرمح فقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة»(١).

قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا فنظرنا إليه فإذا رأسه يقطر ماء. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته أنه خرج وهو جُنب. فولده يقال لهم «بنو غسيل الملائكة»(٢).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فسألوا صاحبته عنه ـ زوجته ـ فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة»(٣).

هكذا تكون الاستجابة لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ

هكذا يكون المؤمن صاحب القلب الحي الذي لا يتأخر لحظة واحدة عن الاستجابة لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى:٤٧].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

إن المؤمن يعلم الغاية التي خلقه الله من أجلها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٠٤) معرفة الصحابة مختصراً.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وسكت عليه الذهبي ـ وقال الشيخ مصطفى العدوي في فضائل الصحابة: إسناده حسن.

ولذا فهو يخشى إن لم يستجب لأمر الله أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ **[الأعراف:١٤٦].**

أو يكون ممن قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ **[الأعراف:١٧٩].**

ولذلك وصف الله أكثر الناس ـ إلا من رحم الله ـ بهذا الوصف، فقال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ **[الأنبياء:١ ـ ٣].**

مع أن الكون كله عرف مهمته وأذعن وخضع لجلال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلقد قال الله تعالى للسماوات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ **[فصلت:١١].**

وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ **[الإسراء:٤٤].**

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ **[النور:٤١].**

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ **[الحج:١٨].**

فالكون كله يسير في قافلة تهتف، بل وتصرخ في أذن كل جاحد وتقول له بلسان الحال: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ **[لقمان:١١].**

بل إن الكون يهتف ويصرخ فى أذن كل كافرٍ ويقول بلسان الحال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النحل:٦٠].

أيها الأخ الحبيب وأيتها الأخت الطاهرة: إن الأيام تمر والأشهر تجرى وراءها تسحب معها السنين وتجرّ خلفها الأعمار وتُطوى حياةُ جيلٍ بعد جيل.

وبين يدى الجليل سيعلم الخاسرون ـ الذى ضيعوا أعمارهم فى اللهو واللعب والشهوات والشبهات ـ قيمة العمر الذى مضى حتى يتمنى أحدهم العودة مرة أخرى ليكون من أشد الناس حرصًا على كل دقيقة من عمره، ولكن الندم يأتى حين لا ينفع الندم.

قال تعالى مصوراً حال هؤلاء: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٢ ـ ١١٦].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:٩٩ ـ ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥].

قال الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ: ما من يومٍ ينشقّ فجره إلا وينادى بلسان الحال

ويقول: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإني إلى يوم القيامة لا أعود[١].

فما أحوجنا إلى أن نغتنم كل لحظة في طاعة الله وأن نستجيب لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ عسى الله أن يُخرج من بيننا رجلاً على شاكلة حنظلة وغيره من أصحاب الحبيب ﷺ .

ولنذكر جميعًا تلك العقوبة التي يجنيها كل من غفل عن الغاية ولم يستجب لأمر الله، ولأمر رسول الله ﷺ . قال تعالى:

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٥٦:٦١].

هذا هو الفخر لمن أراد

عن أنس قال: افتخر الحيان من الأنصار: الأوس والخزرج فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة (حنظلة ابن الراهب)، ومنا من اهتز له عرش الرحمن (سعد ابن معاذ)، ومنا من حمته الدَّبر (عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح)، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين (خزيمة بن ثابت). وقال الخزرجيون: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم زيد بن ثابت وأبو زيد وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل[٢].

رضي الله عن (حنظلة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أختاه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص٢٣: ٢٥).

(٢) قال العدوي: رواه الطبراني في الكبير (٤/ ١٠) وأبو يعلى (٥/ ٣٢٩) بإسناد صحيح.

عبد الله بن عمرو بن العاص

كاتب السنة الذي رد عليه (جبريل) السلام

وها هو نسيم العبادة والزهد يهبّ علينا مع أول كلمة نكتبها عن الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ.

فلقد كان مثالاً عظيمًا للقوة فى العبادة، وكثرة الاجتهاد فى الطاعة.

فهو لا يملّ أبدًا من الصيام أو القيام أو تلاوة القرآن. لم تستطع الدنيا أن تنال من قلبه شيئًا، فلقد وهب عمره كله للعبادة واستشعر حلاوة الإيمان فلم تعد الأوقات والساعات تكفى لكثرة عبادته وقراءته وصيامه وقيامه.

فإذا نادى منادى الجهاد وجدته فى مقدمة الصفوف مقاتلاً شجاعًا يبحث عن الشهادة ويتمناها فى كل يومٍ بل فى كل لحظة من عمره.

فإذا وضعت الحرب أوزارها تراه مرة أخرى عابدًا ذاكرًا لله فى كل وقتٍ وحين.

إنه الإمام الحَبر العابد صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه.

وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلمَّا أسلم، غيَّره النبى ﷺ بعبد الله[1].

وله مناقب وفضائل ومقام راسخ فى العلم والعمل، حمل عن النبى ﷺ علمًا جمًا.

ولقد أحب القرآن حبًا ملك عليه لُبَّه وفؤاده حتى أكمل حفظه وفهمه وأخذ يحوّل هذا القرآن إلى واقعٍ عملىٍ منظور يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

كتابة السنة والرد على منكرى الشفاعة

لقد ظهر فى عصرنا هذا من ينكر شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة، بل وينكر السُنة كلها جملة واحدة بحُجة أن النبى ﷺ نهى أصحابه عن كتابة وتدوين السُنة.

وفى الحقيقة إننى أتعجب كل العجب من هذا الذى ينكر أحاديث النبى ﷺ كلها

(١) ابن عساكر (٢٠٥، ٢١٨) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٨٠).

وهو فى الوقت ذاته يستدل على ذلك بحديث من أحاديث النبى ﷺ !!!!.

وليس إنكار الشفاعة أو إنكار السُنة كلها وليد عصرنا هذا، بل هى دندنة قديمة حديثة... ولقد استطاع علماؤنا من السلف الصالح أن يجعلوا تلك الفئران ـ التى تحارب سُنة الحبيب ﷺ وتنكر شفاعته ـ تدخل جحورها ولا تخرج أبدًا.

ولقد كانت أدلتهم تنحصر فى أن أحاديث الشفاعة لا تثبت؛ لأن النبى ﷺ قد نهى عن تدوين السُنة، ولذا فهى لم تدوَّن إلا فى عصر الملوك وبعد وفاة الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فكان العلماء يجاملون الملوك على حساب دينهم فينقلون لهم ما شاءوا من السُّنة ويطمسون ما تبقَّى منها.

وهذا كلامٌ ليس له نصيبٌ من الصحة، بل هو غير ثابت لأن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ وغيره من الصحابة كانوا يكتبون أحاديث النبى ﷺ بين يديه.

فعبد الله بن عمرو كتب الكثير بإذن النبى ﷺ وترخيصه له فى الكتابة بعد كراهيته للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن[1] وسوَّغ ذلك ﷺ .

ثم انعقد الإجماع بعد اختلاف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على الجواز والاستحباب لتقييد العلم بالكتابة.

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: والظاهر أنَّ النهى كان أولاً لتتوفر هممهم على القرآن وحده، وليمتاز القرآن بالكتابة عما سواه من السنن النبوية، فيؤمَنُ اللبسُ، فلما زال المحذورُ واللبسُ، ووضح أن القرآن لا يشتبه بكلام الناس أُذنَ فى كتابة العلمِ، والله أعلم.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى «تهذيب السنن» (٥/ ٢٤٥): قد صحَّ عن النبى ﷺ النهى عن الكتابة والإذن فيها متأخر، فيكون ناسخًا لحديث النهى، فإن النبى ﷺ قال فى غزاة الفتح «اكتبوا لأبى شاه» يعنى خطبته التى سأل أبو شاه كتابتها، وأذن لعبد الله بن عمرو فى الكتابة، وحديثه متأخر عن النهى؛ لأنه لم يزل يكتب، ومات وعنده كتابته،

(١) وذلك فيما أخرجه أحمد (١/ ١٧١) ومسلم فى «صحيحه» (٣٠٠٤) فى الزهد والرقائق: باب التثبت فى الحديث، وحكم كتابة العلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن، فليمحه» وقد أعلَّه البخارى وغيره، وقالوا: الصواب وقفه على أبى سعيد، انظر «الفتح» (١/ ١٨٥).

من كلامه النفيس

عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: لأن أكون عاشر عشرة مساكين يوم القيامة، أحبُّ إلىَّ من أن أكون عاشر عشرة أغنياء، فإنَّ الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا مَنْ قال هكذا وهكذا، يقول: يتصدَّقُ يمينًا وشمالاً[1].

وعن عبد الله بن أبى مليكة عن عبد الله بن عمرو قال: لو تعلمون حق العلم لسجدتم حتى تنقصف ظهوركم، ولصرختم حتى تنقطع أصواتكم، فابكوا فإن لم تجدوا البكاء فتباكوا.

وعن عبد الله بن هبيرة عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لأن أدمع دمعة من خشية الله ـ عز وجل ـ أحب إلىَّ من أن أتصدق بألف دينار[2].

تواضعه وزهده وخشيته

وعن سلمان بن ربيعة أنه حج فى عصابة من قُراء أهل البصرة فقال: والله لا نرجع حتى نلقى رجلاً من أصحاب محمد ﷺ مرضيًا يحدثنا بحديث. فلم نزل نسأل حتى حُدثنا أن عبد الله بن عمرو نازل فى أسفل مكة. فعمدنا إليه فإذا نحن بثقل عظيم ويرتحلون ثلثمائة راحلة، منها مائة راحلة ومائتا زاملة.. فقلنا: لمن هذا الثقل فقالوا: لعبد الله بن عمرو. فقلنا: أكلّ هذا له؟ وكنا نحدث أنه من أشد الناس تواضعًا. فقالوا لنا: أما هذه المائة راحلة فلإخوانه يحملهم عليها، وأما المائتان فلمن نزل عليه من أهل الأمصار ولأضيافه. فعجبنا من ذلك. فقالوا: لا تعجبوا من هذا فإن عبد الله رجل غنى وإنه يرى حقًا عليه أن يكثر من الزاد لمن نزل عليه من الناس. فقلنا: دلونا عليه. فقالوا: إنه فى المسجد الحرام. قال: فانطلقنا نطلبه حتى وجدناه فى دبر الكعبة جالسًا بين بردتين وعمامة ليس عليه قميص، قد علق نعليه فى شماله[3].

وعن يعلى بن عطاء، عن أبيه، قال: كنتُ أصنع الكُحل لعبد الله بن عمرو، وكان يُطفئ السراج بالليل، ثم يبكى حتى رسِعَت عيناه[4].

---

(١) رجاله ثقات: وهو فى الحلية (١/ ٢٨٨) وابن عساكر (٢٤١ ـ ٢٤٢).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٧٧) ـ ورواه البيهقى فى الشُعب وإسناده حسن.

(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٧٧).

(٤) رسعت عيناه: أى تغيَّرت وفسدت والتصقت أجفانها، وانظر «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٠) وابن عساكر: (٢٤٣).

من فضائله

وفضائله ـ رضى الله عنه ـ لا تُعد ولا تُحصى ولكن حسبُنا أن نعلم أنه كان يكتب سُنة الحبيب ﷺ فكل من يقرؤها ويعمل بها من بعده، فهى فى ميزان حسناته... وكفى بها والله.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: كنت يومًا مع رسول الله ﷺ فى بيته فقال: «هل تدرى مَنْ معنا فى البيت؟». قلت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «جبريل عليه السلام». قلت: السلام عليك يا جبريل ورحمة الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنه قَدْ ردَّ عليك السلام»(١).

كنتم خير أمة أخرجت للناس

وها هو موقف يتفاعل معه ابن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ وتسيل دموعه حزنًا لما حدث... كيف لا؟ وهو رجل من أمة زكّاها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

عن عبيد بن سعيد: أنه دخل مع عبد الله بن عمرو المسجد الحرام، والكعبة محترقة حين أدبر جيش «حصين بن نمير»، والكعبة تتناثر حجارتها. فوقف وبكى حتى إنى لأنظر إلى دموعه تسيل على وجنتيه. فقال: «أيها الناس! والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم، ومحرقوا بيت ربكم، لقلتم: ما أحد أكذب من أبى هريرة. فقد فعلتم، فانتظروا نقمة الله فليلبسنكم شيعًا، ويذيق بعضكم بأس بعض»(٢).

وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

وها هو ابن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ يحوِّل تلك الآية إلى واقعٍ عمليٍ فيتعايش معها قلبًا وقالبًا فلا تراه إلا عابدًا لله ذاكرًا له فى كل وقتٍ وحين.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الناس منذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطّ عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار. والعاقل يعلم أن السفر مبنىٌ على المشقة وركوب

(١) إسناده حسن: رواه الطبرانى. وانظر المجمع (١٥٩٠٤).

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٣/ ٩٤).

الأخطار. ومن المحال عادةً أن يُطلب فيه نعيمٌ ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كل وطأة قدمٍ أو كل آن من آنات السفر غيرُ واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير(١).

فانشغل ابن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ بالعبادة حتى إنه لم يجد متسعًا ليستمتع بشىء من لذائذ الدنيا التى أحلها الله لنا.

عن عبد الله بن عمرو، قال: زوَّجنى أبى امرأةً من قريشٍ، فلما دَخلَت علىَّ، جعلتُ لا أنحاشُ لها مما بى من القوة على العبادة، فجاء أبى إلى كنَّته ـ زوجة ابنه ـ فقال: كيف وجدت بعلك؟ ـ زوجك ـ قالت: خير رجل من رجل لم يُفتش لها كنفًا، ولم يقرب لها فراشًا، قال: فأقبل علىَّ، وعضَّنى بلسانه، ثم قال: أنكحتك امرأة ذات حسب، فعضلتها وفعلت، ثم انطلق، فشكانى إلى النبى ﷺ ، فطلبنى، فأتيته، فقال لى: «أتصوم النهار وتقوم الليلِ»؟ قلت: نعم. قال: «لكنى أصومُ وأُفطرُ، وأُصلى وأنام، وأمسُّ النساء. فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وقال: «اقرأ القرآن فى كل شهر». قلت: إنى أجدنى أقوى من ذلك. قال: «فاقرأه فى كلِ عشرة أيام». قلت: إنى أجدنى أقوى من ذلك. قال: «فاقرأه فى كل ثلاث». ثم قال: «صم فى كل شهر ثلاثة أيام». قلت: إنى أقوى من ذلك. قال: فلم يزل يرفقنى حتى قال: «صم يومًا وأفطر يومًا فإنه أفضل الصيام، وهو صيام أخى داود»(٢).

قال حصين فى حديثه: ثم قال ﷺ: «فإن لكل عابد شِرَّةً، ولكل شِرَّة فترةٌ، فإما إلى سُنَّة وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدَى، ومن كانَت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»(٣).

قال الإمام الذهبى ـ رحمه الله ـ: وصحَّ أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاهُ أن يقرأهُ فى أقل من ثلاث(٤) وهذا كان فى الذى نزل من القرآن، ثم بعد هذا القول نزل ما بقى من القرآن. فأقلُّ مراتب النهى أن تُكرَه تلاوةُ القرآن كله فى أقل من ثلاث،

(١) الفوائد للإمام ابن القيم (ص: ٢٧٠) ط. دار الخانى.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ١٥٨) ورجاله ثقات ـ وأصله فى البخارى (٥٠٥٢) فضائل القرآن.
(٣) رواه ابن أبى عاصم وابن حبان فى صحيحه وإسناده صحيح ـ انظر ظلال الجنة (٥١).
(٤) أخرجه أبو داود (١٣٩٤) الصلاة ـ والترمذى (٢٩٥٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.



فما فقه ولا تدبَّر من تلى فى أقل من ذلك. ولو تلا ورتَّل فى أسبوع، ولازم ذلك، لكان عملاً فاضلاً، فالدين يُسرٌ، فوالله إن ترتيل سُبع القرآن فى تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودُبُرَ المكتوبة والسحر، مع النظر فى العلم النافع والاشتغال به مُخلصًا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض فى جماعة بخشوعٍ وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة وصِلة الرحم، والتواضع، والإخلاص فى جميع ذلك، لَشُغلٌ عظيمٌ جسيم، ولَمَقامُ أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب. فمتى تشاغل العابدُ بختمة فى كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه ولا تدبر ما يتلوه(١).

قال مجاهد: فكان عبد الله بن عمرو حين ضعف وكبر يصوم الأيام يصل بعضها إلى بعض ليتقوى بذلك، ثم يفطر بعدد تلك الأيام. قال: وكان يقرأ من حزبه كذلك يزيد أحيانًا وينقص أحيانًا، غير أنه يوفى العدد إما فى سبع وإما فى ثلاث. قال: ثم كان يقول بعد ذلك: لأن أكون قبلت رخصة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ مما عدل به، لكنى فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره(٢).

ندمه وأسفه على يوم صفين

وتمر الأيام على هذا العابد الزاهد الذى وهب حياته كلها لله ولم يترك ساعة من عمره لحظوظ نفسه وشهواتها. ويطول عمره حتى يدرك خلافة (علىّ) ـ رضى الله عنه ـ ويرفض معاوية ـ رضى الله عنه ـ أن يبايع عليًا إلا أن يأتى بقاتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ وحدثت الفتنة بينهما.

وعقيدتنا نحو هذه الفتنة التى حدثت بين الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أننا نعتقد أنهم مجتهدون جميعًا ومتأولون ونحن نُحسن الظن بهم جميعًا ونُمسك عما شجر بينهم فهم لم يقصدوا معصية وما أرادوا الدنيا بحالٍ من الأحوال.

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ فى شرح مسلم: واعلم أن الدماء التى جرت بين

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (٣/ ٨٤).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ليست بداخلة فى هذا الوعيد (يقصد قول النبى ﷺ إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار) ومذهب أهل السنة والحق: إحسان الظن بهم، والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم، وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق، ومخالفه باغٍ، فوجب عليه قتاله، ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهم مصيبًا، وبعضهم مخطئًا معذوراً فى الخطأ لأنهم مجتهدون، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان ـ علىّ ـ رضى الله عنه ـ هو المحق المصيب فى تلك الحروب، هذا مذهب أهل السُنة، وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها، فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدة أى منهم. ا.هـ.

وقامت الحرب بين الطائفتين.. ومضت (موقعة الجمل) وجاءت (موقعة صفّين) وكان عمرو بن العاص فى فريق معاوية وكان يعلم أن الصحابة يثقون فى ابنه (عبد الله) فعزم عليه أن يخرج معه فخرج معه (عبد الله) وهو لا يريد قتالاً، ولكنه أراد أن يمتثل أمر النبى ﷺ حين قال له فى يومٍ من الأيام: «أطعِ أباك ما دام حيًا».

ونشب القتال بينهم ودخل (عبد الله) فى بداية المعركة ولم يضرب أحدًا بسيفٍ ولم يلبث إلا قليلاً حتى ترك أرض المعركة وذلك عندما علم أن عمار بن ياسر ـ رضىَ الله عنه ـ كان فى فريق علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وأنه قد قُتل فتذكَّر (عبد الله) قول النبى ﷺ حينما قال عن عمار: «ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية» فانطلق (عبد الله) يشق الصفوف ويزأر كالليث يذكِّر الصحابة الذين فى جيش معاوية ـ رضى الله عنه ـ بقول النبى ﷺ ليعرفوا أنهم قد اجتهدوا فأخطأوا والدليل على ذلك أنهم قتلوا عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ وقد شهد النبى لمن قتلوه بأنهم بُغاة. ووصلت مقالته إلى معاوية فدعاه ودعا أباه فدخلا عليه... وعبد الله قد امتلأ قلبه حُزنًا على قتل عمّار.

عن حنظلة بن خويلد العنبرى، قال: بينما أنا عند معاوية، إذ جاءه رجلان يختصمان فى رأس عمار ـ رضى الله عنه ـ فقال كلٌ واحد منهما: أنا قتلته. فقال عبد الله بن عمرو: ليطب به أحدكما نفسًا لصاحبه، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية: يا عمرو! ألا تُغنى عنا مجنونك، فما بالُك معنا؟ قال: إن أبى شكانى إلى رسول الله ﷺ ، فقال: «أطع أباك ما دام حيًا» فأنا معكم، ولست أُقاتل[1].

(١) رواه أحمد فى المسند (٢/ ١٦٤) وابن عساكر (٢٤٨) وإسناده صحيح.

ولما عاد (عبد الله بن عمرو) ـ رضى الله عنهما ـ ظل يوم (صفّين) وكأنه صفحة سوداء فى حياته عكّرت عليه صفوه، وكدّرت عليه عيشه فكان قلبه يمتلئ حُزنًا وأسفًا كلما ذكر هذا اليوم مع أنه لم يقاتل... وكان يقول: «مالي ولصفِّين، مالى ولقتال المسلمين، لوددتُ أني متُّ قبلها بعشرين سنة ـ أو قال بعشر سنين ـ أما والله على ذلك ما ضربت بسيف، ولا رميت بسهم»(١).

أين الوفاء بالوعد ؟!!!

إننا نعيش زمانًا لا تكاد تجد فيه رجلاً ـ إلا من رحم الله ـ وفيًا بالوعد صادقًا فى أقواله وأعماله.

وها هو عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ يضرب لنا المثل والقدوة فى الوفاء بالوعد حتى عند موته.

فعن هارون بن رئاب، قال: «لما حضرت عبد الله بن عمرو الوفاة قال: إنه خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان منى إليه شبيه بالوعد، فوالله لا ألقى الله ـ عز وجل ـ بثلث النفاق، اشهدوا أني قد زوجتها إياه»(٢).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مملوءة بالطاعة والزهد والعطاء والجهاد فى سبيل الله نام ابن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ على فراش الموت يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ويتلهف شوقًا لصُحبة النبى ﷺ فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال يحيى بن بُكير: تُوفى عبد الله بن عمرو (بمصر) ودُفن بداره الصغيرة سنة خمس وستين.

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وهو الصحيح، فقد روى الكندى فى كتاب «الولاة»: (٦٤٥) قصة قتل الأكدر بن حمام الذى قتله مروان بن الحكم حين قدم مصر سنة (٦٥)، قال: حدثنا يحيى بن أبي معاوية التجيبي، قال: حدثني خلف بن ربيعة

(١) رجاله ثقات: أخرجه ابن سعد (٤/ ٢٦٦) وابن عساكر (٢٥٧).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٧٨).

الحضرمي، قال: حدثني أبي ربيعة بن الوليد، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، قال: كنت واقفًا بباب مروان حين أُتي بالأكدر... وكان قتل الأكدر للنصف من جمادى الآخرة سنة خمس وستين، ويومئذ توفي عبد الله بن عمرو بن العاص، فلم يستطع أن يخرج بجنازته إلى المقبرة لتشغيب الجند على مروان، فدُفن في داره[1].

وهكذا رحل الزاهد العابد الورع التقي.. كاتب سُنة الحبيب ﷺ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وليجبر الله كسره في جنته ودار كرامته ورضوانه.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (مع الهامش) (٣/ ٩٤).



حرام بن ملحان

الله أكبر.. فزت ورب الكعبة

يا له من مشهد لا يتكرر عبر الزمان إلا نادراً.

إنها كلمات خرجت من فم الصحابى الجليل: حرام بن ملحان عندما فاز بالشهادة فى سبيل الله ورأى دماءه التى امتزجت بآيات القرآن وحروفه، وتفاعلت مع الإسلام...

رآها وهى تنزف من جسده الشريف على إثر طعنة جاءته من خلفه فلم يجد ما يعبِّر به عن سعادته إلا أن قال: الله أكبر... فُزت ورب الكعبة.

وكيف لا يقول تلك الكلمة وهو الذى تربَّى بين يدى الحبيب المصطفى ﷺ الذى كان يتلو على مسامعه آيات القرآن التى تحث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله وتخبر عن عظيم أجر الشهداء ومنزلتهم فى جنات الرحيم الرحمن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الصف:١٠-١٣].**

فأمر الله بالإيمان قبل الجهاد؛ لأن الجهاد لا يسعى إليه ولا يثبت أمامه إلا المؤمن الصادق المحتسب ـ فالإسلام دين عقيدة فى المقام الأول ولا يثبت فى تلك المواقف إلا رجل العقيدة ـ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾.

تأمل يا أخى لتلك الصفقة الرابحة التى أوضح الله شروطها وبنودها فى سورة التوبة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[التوبة:١١١].**

يقول أحد السلف الصالح: يا لها من تجارة رابحة ـ أنفسٌ هو خلقها وأموالٌ هو رزقها، ثم بعد ذلك نردها إليه ويعطينا الجنة!!!

فيا له من فوز عظيم!!!.

ولقد أودع الله هذا العقد في أشرف كتبه (في التوراة والإنجيل والقرآن) وبيّن شروط هذا العقد.. فالمشترى هو الله والثمن هو الجنة والسلعة هي الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال ـ ثم قال تعالى: أما وقد بعتم أنفسكم إلينا ورددتموها علينا فنحن نرد عليكم الأنفس والأموال أوفر ما كانت.. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩ ـ ١٧٠].

بل وتأمل معى تلك البوتقة العطرة من أحاديث رسول الله ﷺ عن الجهاد ـ قال ﷺ: «للشهيد عند الله سبع خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويُحلى حلة الإيمان ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحَور العين ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ويشفع في سبعين إنسانًا من أهل بيته»(١).

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»(٢).

وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة»(٣).

وعلى العكس من ذلك فمن تخاذل ولم يفكر في الغزو يقول عنه النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزوٍ مات على شُعبةٍ من النفاق»(٤).

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٢) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٥٥١٩).

(٣) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٢١٢٦) ـ الصحيحة (٩٢١).

(٤) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٦٥٤٨).

فلما عاش (حرام بن ملحان) بل وتعايش مع تلك الآيات، ومع تلك الأحاديث التى خرجت من فم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ـ صلوات ربى وسلامه عليه ـ أصبح لا يتمنى شيئًا إلا أن يرزقه الله الشهادة فى سبيله، فهذا هو الفوز الذى ليس بعده خسارة.

وكان يخشى ألا يرزقه الله الشهادة فى سبيله فأخذ يدعو ويبتهل ويُخلص فى التذلل لله ـ عز وجل ـ لكى يرزقه الشهادة.

وتمر الأيام والليالى حتى يأتى اليوم الموعود وتأتى اللحظة التى أراد الله أن يكرمه فيها بتلك النعمة العظيمة ـ الشهادة ...

وكان ذلك فى يوم (بئر معونة).

مأساة بئر معونة

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «إنى أخاف عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم، فبعث معه أربعين رجلاً ـ فى قول ابن إسحاق[١]، وفى الصحيح[٢]: أنهم كانوا سبعين، والذى فى الصحيح هو الصحيح، وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب [بالمعتق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم][٣]، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصُفّة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة ـ وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم ـ فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فزت وربِّ الكعبة.

(١) أخرجه ابن هشام فى «السيرة» (٣/ ٦٧٨) عن ابن إسحاق.

(٢) أخرجه البخارى (٤٠٨٨)، ومسلم (٣٠٢) (٦٧٧) وغيرهما من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ قلت: وقد ورد بالشك بين الأربعين والسبعين فى أحد روايات الحديث عند البخارى (٣١٧٠).

(٣) كذا فى جميع النسخ التى بين يدى، وهو كلام غير مستقيم، وفى «السيرة» لابن هشام (٣/ ٦٧٨): «فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المُعنق، ليموت فى أربعين رجلاً من أصحابه، من خيار المسلمين...».

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «لما طعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت وربِّ الكعبة»(١).

بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه

لقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة، تألمًا شديدًا وتغلب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه، ففى الصحيح عن أنس قال: «دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: «عصية عصت الله ورسوله، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نُسخ بعد: «بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله ﷺ قنوته»(٢).

فيا أيها الإخوة الكرام... هذا حرام بن ملحان ـ رضى الله عنه ـ يتمنى الشهادة لأنه يعلم قدر الشهادة وقدر الشهيد عند ربه ـ جل وعلا ـ فلما أكرمه الله بها قال: فُزت ورب الكعبة.

فهل سنرى فى تلك الأمة الميمونة المباركة من يتمنى الشهادة ويسعى إليها، فإذا نالها قال: فُزت ورب الكعبة.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الشهادة فى سبيله.

ورضى الله عن (حرام بن ملحان) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٤٤٦) المغازى.
(٢) أخرجه البخارى (٢٨١٤) ومسلم (٢٩٧) (٦٧٧).



يا معاذ والله إنى لأحبك

محمد رسول الله ﷺ

يقول ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»(١).

ونعمة العلم من أعظم النِعم، ولذا فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يطلب المزيد منه، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

بل إنه من عظمة العلم والعلماء وقدرهم عند الله ـ جل وعلا ـ أنه أشهدهم على أعظم شهادة ألا وهى شهادة التوحيد لله.

فبعد أن شهد الله ـ جل وعلا ـ بتلك الشهادة العظيمة ثنّى فى الشهادة بالملائكة ثم بشهادة أولى العلم.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

بل إن من أشد الناس خشية لله هم العلماء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨].

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:٩].

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

بل إن النبى ﷺ لم يأذن بالحسد إلا فى حالتين (الحسد هنا بمعنى الغبطة).

فقال ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين ـ وكان منهما ـ ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها»(٢).

(١) متفق عليه عن معاوية ـ صحيح الجامع (٦٦١١).
(٢) متفق عليه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٧٤٨٨).

وللعلماء منزلة عظيمة عند الله، فلقد جعلهم الله أولى الأمر الذين يُرجع إليهم، فقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

قال جابر وابن عباس: المقصود بأولى الأمر هم العلماء والفقهاء.

بل أوجب علينا الرجوع إليهم وأوجب علينا أن نرجع إليهم فى النوازل، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

واعلم يا أخى بأن طلب العلم هو من أقرب الطرق لدخول الجنة.

قال ﷺ «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة»(١).

وقال ﷺ «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).(٣)

وها نحن نعيش سويًا من خلال تلك السطور مع مقدام العلماء (معاذ بن جبل) ـ رضى الله عنه ـ الإمام المقدَّم فى علم الحلال والحرام.

إمام الفقهاء، وكنز العلماء؛ شهد العقبة، وبدراً، والمشاهد؛ وكان من أفضل شباب الأنصار حلمًا وحياء وسخاء، وكان جميلاً وسيمًا.

كان أبيض وضىء الوجه برّاق الثنايا أكحل العينين جميلاً سمحًا من خير شباب قومه.

لله دره من سيد، له أسبقيته، وإيمانه ويقينه، لله دره معلم وفاتح اليمن، على أن آلق مزاياه وأعظم خصائصه، كان فقهه، وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام كما شهد له رسول الله ﷺ.

ويقول عنه عمر: «لولا معاذ بن جبل لهلك عمر».

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٨).
(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن عن أبى الدرداء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٧).
(٣) نقلاً من كتاب (صدقوا ما عاهدوا) للمصنف (ص ١٠٧ : ١٠٨).

كان أصحاب رسول الله إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له، لله دره... كأنما كان يخرج من فمه نور ولؤلؤ... بلغ منزلة عظيمة فى العلم، وفى إجلال المسلمين له، أيام رسول الله ﷺ وبعد مماته.

مات ـ رحمه الله ـ يوم مات ولم يجاوز من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة، أو ثمانية وعشرين سنة... وحصَّل ما حصَّل وسبق الأمة فى الفقه وعلم الحلال والحرام فى تسع سنوات(١).

إسلامه (رضى الله عنه)

كان معاذ ـ رضى الله عنه ـ ثمرة مباركة من ثمرات الدعوة إلى الله تعالى. فلقد أسلم على يدى مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ الذى كان يعتمد فى دعوته على الرحمة والحكمة والموعظة الحسنة ـ وهذه والله من أفضل أساليب الدعوة إلى الله ـ.

وفى ليلة العقبة كان معاذ مع الاثنين والسبعين الذين شهدوا تلك البيعة المباركة.. فوضع يده فى يد الحبيب ﷺ وبايعه ليسطِّر بذلك صفحة ناصعة البياض على جبين التاريخ.

بركة الدعوة إلى الله تعالى

وما إن عاد معاذ ـ رضى الله عنه ـ إلى المدينة حتى أيقن أن الخير الذى حصل له لم يكن إلا ببركة الدعوة إلى الله تعالى، فقام يحمل لواء الإسلام خفّاقًا عاليًا ليأخذ بأيدى الناس من حوله إلى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من بركة دعوته أن الله جعله سببًا فى إسلام سيدٍ من سادات (بنى سَلمة).

فإنه لما قدم معاذ ـ ومن معه ممن أسلموا ـ إلى المدينة أظهروا الإسلام بها، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح سيدًا من سادات بنى سلمة، وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب، يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويطهره، فلما أسلم فتيان بنى

(١) ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله/ د. سيد حسين (١/ ٢٧٠).

سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ ابن عمرو [بن الجموح]، فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يُدلجون[١] بالليل على (صنم) عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حُفر بنى سلمة، وفيها عذَر الناس ـ القاذورات ومخلفات قضاء الحاجة ـ منُكسًا على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قَال: ويلكم! من عدا إلى إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهَّره وطيَّبه؛ ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويُطهره ويُطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنى والله ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام (عمرو) عدوا عليه. فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة، فيها عِذَر من عِذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به. فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه مَن أسلم من [رجال] قومه، فأسلم برحمة الله وحَسُن إسلامه[٢].

محبة النبى ﷺ له.. والأوسمة التى وضعها على صدره

ولما قدم الحبيب ﷺ إلى المدينة مهاجراً فرح ـ معاذ ـ لقدومه أشد الفرح ولازمه ملازمة العين لأختها، وتعلَّم منه العلم الغزير من نبعه الصافى، بل وتعمَّق فى معرفة الحلال والحرام وسائر شرائع الإسلام حتى أصبح من أعلم الصحابة بكتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ.

وحسبُنا من ذلك أن نتعرف على تلك الأوسمة التى وضعها الحبيب ﷺ على صدر معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ.

فعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأُبىٍّ، ومعاذ بن جبل، وسالمٍ مولى أبى حذيفة»[٣].

(١) يدلجون: يسيروا من آخر الليل وقيل: ساروا الليل كله.
(٢) هذه القصة ذكرها الذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٣، ٢٥٤) وأسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٢٠٧ـ ٢٠٨) وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).
(٣) أخرجه البخارى (٤٩٩٩) فضائل القرآن ـ ومسلم (٢٤٦٤) الفضائل.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ...»(١).

بل لقد كان النبى ﷺ يقربه إليه ويكرمه أيما إكرام.

فعن معاذ بن جبل قال: كنت رديفَ رسول الله ﷺ على حمار يقال له عُفير(٢).

وهذا دليل على عظيم تواضع النبى ﷺ وعلى قدر ـ معاذ ـ ومكانته عند رسول الله ﷺ.

بل تدبر معى أخى الكريم وتدبرى أيتها الأخت الفاضلة إلى تلك المنقبة العظيمة التى لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

فعن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إنى لأحبك، والله إنى لأحبك فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(٣).

بل يوضح النبى ﷺ مكانة ـ معاذ ـ بين العلماء يوم القيامة.

فعن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول الله ﷺ «إن معاذ بن جبل أمام العلماء رتوة»(٤). والرتوة هى الدرجة والمنزلة.

ويريد الحبيب ﷺ يومًا أن يثنى عليه فيقول: «نِعم الرجل معاذ بن جبل»(٥).

وعلم أصحاب النبى ﷺ مكانة ـ معاذ ـ فكانوا يحملون له كل الحب والتقدير فى قلوبهم.

فعن عبد الله بن مسعود أنه قال: إن معاذ كان أُمة قانتًا لله.

---

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٤٤) فى الجهاد: باب اسم الفرس والحمار وتمامه: «فقال: يا معاذ! هل تدرى حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا. فقلت: يا رسول الله! ألا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا».

(٣) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائى (٣/ ٥٣) والحاكم (٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٤) رواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢/ ١٠٧) وقال العدوى: وهو صحيح بمجموع طُرقه.

(٥) أخرجه الترمذى (٣٧٩٧) فى المناقب، وصححه ابن حبان (٢٢١٧).

قال: فقال رجل من أشجع يقال له فروة بن نوفل: نسى، إنما ذاك إبراهيم. قال: فقال عبد الله: مَن نسى؟ إنما كنا نشبهه بإبراهيم. قال: وسُئل عبد الله عن الأمة: فقال معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله(١).

وعن محمد بن سهل بن أبى حَثْمَة: عن أبيه قال: كان الذين يُفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين: عمر، وعثمان، وعليّ، وثلاثة من الأنصار: أُبيّ بن كعب، ومعاذ، وزيد.

وعن نِيار الأسلميّ: أن عمر كان يستشير هؤلاء، فذكر منهم معاذاً.

وروى موسى بن عُلَى بن رباح، عن أبيه، قال: خطب عمرُ الناسَ بالجابية فقال: من أراد الفقه فليأتِ معاذَ بن جبل(٢).

الله يلقى محبته فى قلوب الناس

قال ﷺ : «إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء، فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القَبول فى الأرض...»(٣).

ولقد كان معاذ ـ رضى الله عنه ـ من هذا الصنف الكريم. فكل من يراه يحبه من أول وهلة.

عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى سلمة الخولانى قال: دخلتُ مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة، فإذا فيهم شاب أكحل العينين، برّاقُ الثنايا ساكت، فإذا امترى القوم، أقبلوا عليه، فسألوه، فقلت: من هذا؟ قيل: معاذ بن جبل. فوقعت محبته فى قلبى(٤).

وفى رواية: عن أبى إدريس الخولانى قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا، وإذا ناس معه إذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقالوا: هذا معاذ بن جبل. فلما كان من الغد هجّرت فوجدته قد سبقنى بالتهجير فوجدته يصلى

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٧٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٧٠٥).
(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٦٩) وابن سعد (٣/ ٢/ ١٢٥) وابو نعيم فى الحلية (١/ ٢٣٠).

قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبل وجهه فسلمت عليه وقلت له: والله إنى لأحبك لله. قال: فقال: آلله؟ فقلت: آلله. فقال: الله؟ فقلت:الله. قال: فأخذ بحبوة ردائى فجذبنى إليه وقال: أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى:وجبت رحمتى للمتحابين فىَّ والمتجالسين فىَّ والمتباذلين فىَّ والمتزاورين فىَّ»[(١)].

خروجه إلى اليمن للدعوة ونشر العلم

لقد كان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فهو يعلم طاقات الرجال من حوله فكان يوظف تلك الطاقات فى خدمة الإسلام والمسلمين على أكمل وجه.

وها هو النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى جموع قريش تدخل فى دين الله أفواجًا، بعد فتح مكة. ويشعر بحاجة المسلمين الجدد إلى مُعلِّم كبير يُعلمهم الإسلام، ويفقههم بشرائعه، فيعهدُ بخلافته على مكة لعتّاب بن أُسيد، ويستبقى معه معاذ بن جبل ليُعَلِّمَ الناس القرآن ويُفقههم فى دين الله.

ولما جاءت رسل ملوك «اليمن» إلى رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ تُعلنُ إسلامها وإسلام مَن وراءها، وتسأله أن يبعث معها من يُعلمُ الناس دينهم؛ انتدب لهذه المهمة نفراً من الدعاة الهُداة من أصحابه، وأمَّرَ عليهم معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ[(٢)].

وعن معاذ قال: لما بعثنى النبى ﷺ إلى اليمن، قال لى: كيف تقضى إن عرض قضاءٌ؟ قال: قلت: أقضى بما فى كتاب الله، فإن لم يكن، فبما قضى به رسول الله ﷺ قال: فإن لم يكن فيما قضى به الرسول؟ قال: أجتهدُ رأيى ولا آلو ـ أى لا أتجاوز ذلك ـ فضرب صدرى، وقال: الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يُرضى رسول الله[(٣)].

وعن أبى موسى أن النبى ﷺ لما بعثه ومعاذًا إلى اليمن، قال لهما: يَسِّرا ولا تعسِّرا وتطاوعا ولا تُنفِّرا»، فقال له أبو موسى: إن لنا بأرضنا شرابًا، يُصنعُ من العسل يقال له: البتعُ، ومن الشعير يقال له: المِزْرُ، قال: «كلُّ مسكر حرام» فقال لى معاذ: كيف تقرأ القرآن؟ قلت: أقرأه فى صلاتى، وعلى راحلتى، وقائمًا وقاعدًا، أتفوقه تفوقًا، يعنى شيئًا

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ١٢٣) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٣٠) وقال العدوى: وإسناده صحيح.
(٢) صور من حياة الصحابة (ص ٥١٦).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٦ ـ ٢٤٢) وأبو داود (٣٥٩٢) والترمذى (١٣٢٧).

بعد شيء، قال: فقال معاذ: لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قَومتي، قال: وكأن معاذًا فُضِّل عليه(١).

الحبيب ﷺ يودّع حبيبه

وعندما خرج الحبيب ﷺ يودِّع معاذًا ـ رضي الله عنه ـ أحسَّ أنه لن يراه بعد اليوم، وأن هذا هو آخر لقاء يجمعهما في الدنيا، فقال له تلك الكلمات المؤثرة.

فعن عاصم بن حميد السكوني أن معاذ بن جبل لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن خرج يُوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ، قال: «يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري». فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله، قال: «لا تبكِ يا معاذ، أو إنَّ البكاء من الشيطان»(٢).

وسافر معاذ إلى اليمن يدعو إلى الله ويُعلم الناس شرائع الإسلام وبعد فترة يسيرة توفي رسول الله ﷺ قبل أن يرجع معاذ من «اليمن» فلما عاد إلى المدينة ولم يجد فيها الحبيب ﷺ أحسَّ وكأن روحه قد خرجت من جسده.. بل أحسَّ بأن الدنيا كلها أظلمت من حوله وجلس يتذكر تلك الأيام التي قضاها في صُحبة الحبيب ﷺ يتلقى على يديه العلم ويتعلم منه الرحمة والأخلاق الكريمة التي يندر وجودها في هذا الكون.

وبعد وفاة الحبيب ﷺ تولى الخلافة أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان يعرف لمعاذ قدره ومكانته.

وكان معاذ ـ رضي الله عنه ـ سمح اليد والنفس والخُلق.

فلا يُسأل عن شيء إلا أعطاه.. حتى ذهب جودُه وسخاؤه بكل ماله.

فلما عاد ـ معاذ ـ من اليمن ومعه شيء من المال والرقيق فلقي عمر بمكة، فقال: ما هؤلاء؟ قال: أُهدُوا لي، قال: ادفعهم إلى أبي بكر، فأَبَى، فبات، فرأى كأنه يجرُّ إلى النار وأن عمر يجذبه، فلما أصبح، قال: يا ابن الخطاب ما أراني إلا مطيعك... إلى أن قال: فدفعهم أبو بكر إليه، ثم أصبح فرآهم يصلُّون، قال: لمن تُصلون؟ ـ يسأل الرقيق والعبيد ـ

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٤) (٤٣٤٥) المغازي ـ ومسلم (١٧٣٣) الأشربة.

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات وهو في المسند (٥/ ٢٣٥) من طريق أبي اليمان، به، وانظر سيرة ابن كثير (٤/ ١٩٣) والجشع: الجزع لفراق الإلف. وفي حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ: ثم أقبل علينا، فقال: أيكم يحب أن يُعرض الله عنه؟ قال: فجشعنا.



قالوا: لله، قال: فأنتم لله(١).

وما كان عمر متجنيًا على معاذ بتهمة أو ظن.. وإنما هو «عصر المُثُل» كان يزخر بقوم يتسابقون إلى ذُرَى الكمال الميسور، فمنهم الطائر المحلق، ومنهم المهرول، ومنهم المقتصد.. ولكنهم جميعًا في قافلة الخير سائرون(٢).

أمانته (رضي الله عنه)

عن سعيد بن المسيب أن عمر بعث معاذًا ساعيًا على بني كلاب أو غيرهم، فقسم فيهم فيئهم حتى لم يدع شيئًا، حتى جاء بِحلْسِه الذي خرج به على رقبته(٣).

أدبه مع الله

عن عبد الله بن الصامت [عن معاذ] قال: ما بزقت على يميني منذ أسلمت(٤).

حرصه على الإكثار من ذكر الله

عن معاذ قال: ما عمل آدمي عملاً (أنجى له من عذاب الله) من ذكر الله. قالوا: يا أبا عبد الرحمن! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت:٤٥](٥).

نبذة من ورعه وعبادته. رضي الله عنه.

عن يحيى بن سعيد قال: كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء.

وعن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان. فإذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى. ثم توفيتا في السقم الذي بالشام، والناس في شغل، فدُفنتا في

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٢٢) وأبو نعيم (١/ ٢٣٢) في الحلية، مرسلاً ووصله الحاكم (٣/ ٢/ ٢٧٢) من طريق: الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) رجال حول الرسول ﷺ (ص ١٧٦).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٥٤).
(٤) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١١) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٥).



حفرة فأسهم بينهما أيتهما تقدم فى القبر.

وعن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل إذا تهجد من الليل قال: اللهم قد نامت العيون، وغارت النجوم وأنت حى قيوم، اللهم طلبى للجنة بطىء، وهربى من النار ضعيف، اللهم اجعل لى عندك هُدى ترده إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[١].

وصاياه الغالية

عن أبى قلابة وغيره أن رجلاً مرَّ به أصحاب النبى ﷺ فقال: أوصونى، فجعلوا يوصونه، وكان معاذ بن جبل فى آخر القوم، فقال: أوصنى يرحمك الله، قال: قد أوصوك فلم يألُوا ـ لم يُقصِّروا ـ وإنى سأجمع لك أمرك: اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه، ثم يزول معك أينما زُلت[٢].

وعن عبد الله بن سلمة قال: قال رجل لمعاذ بن جبل: علمنى. قال: وهل أنت مطيعى؟ قال: إنى على طاعتك لحريص. قال: صُم وأفطر، وصلِّ ونم، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم.

وعن معاوية بن قرة قال: قال معاذ بن جبل لابنه: يا بنى إذا صليت فصلِّ صلاة مودّع لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بنى أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها وحسنة أخرها[٣].

إيثار يفوق الخيال !!!

عن مالك الدار أن عمر ـ رضى الله عنه ـ أخذ أربع مئة دينار، فقال لغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة، ثم تلَّه ساعةً فى البيت حتى تنظر ما يصنع، قال: فذهب بها الغلام فقال: يقولُ لك أميرُ المؤمنين: خذ هذه، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية! اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر، وأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل فأرسله بها إليه، فقال معاذ: وصله

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (١٨٢) ـ نقلاً من السير للذهبى (٦/ ٤٥٥).

(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٠٧).

الله... يا جارية! اذهبى إلى بيت فلان بكذا، ولبيت فلان بكذا. فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا، ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران، فدحا بهما إليها. ورجع الغلامُ، فأخبر عمر، فسُرَّ بذلك، وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[١].

صفحات مشرقة من جهاده فى سبيل الله

لقد كان معاذ يبحث عن الشهادة فى مظانها ويُقبل عليها إقبال الظامئ على الماء البارد فى اليوم القائظ.

فكان ـ رضى الله عنه ـ قائد الميمنة فى أجنادين، «قام فى أصحابه فقال: يا معشر المسلمين، اشروا أنفسكم اليوم لله.. فإنكم إن هزمتموهم اليوم، كانت هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان الله والثواب العظيم من الله».

وفى «فحل بيسان» كان ـ رضى الله عنه ـ على ميمنة المسلمين ليلقّن الناس درسًا فى أن أهل العلم هم أقدر الناس على حمل لواء الجهاد والثبات عند الشدائد وفى المكاره.

قال ثابت بن سهل بن سعد: كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصًا، وأمضاهم فى رقاب الروم سيفًا، فبينما هو يحارب فى مَيمنة المسلمين إذ أقبلت جنود الروم تحوط عَسكر المسلمين، فبرز إليهم معاذ بن جبل فى رجاله ونادى فقال: «أيها الناس اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن الله قد وعدكم بالنصر وأيدكم بالإيمان، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، واعلموا أن الله معكم، وناصركم على عبدة الأوثان».

ويقول لوجهاء الروم قبل معركة «فحل»، لَمَّا فاوضهم ورفض الجلوس معهم على البُسُط: قمت إعظامًا للمشى على هذه البُسُط، والجلوس على هذه النمارق التى استأثرتم بها على ضعفائكم وأهل ملّتكم، وإنما هى من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهّد الله فى الدنيا وذمَّها، ونهى عن البغى والسَّرف فيها، فأنا جالس هاهنا على الأرض وكلّمونى. ولما قالوا له: «اذهب إلى أصحابك، فوالله إنا لنرجو أن نُفرّكم فى الجبال غدًا ـ نجعلكم تفرون فى الجبال ـ قال معاذ: أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنّا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلةً وأنتم صاغرون»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٣٧).

(٢) الطريق إلى دمشق/ أحمد عادل كمال (ص ٣٢٣).

يوم اليرموك

وفى يوم اليرموك كان ـ رضى الله عنه ـ قائد الميمنة. وفى صباح المعركة وقف يخطب فى الناس ويقول: يا قُرَّاء القرآن ومستحفظى الكتاب، وأنصار الهُدى وأولياء الحق، إن رحمة الله ـ والله ـ لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأمانى، ولا يُؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله ـ عز وجل ـ ألم تسمعوا قول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم وأنتم فى قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه، لا متعزز، بغير الله»[١].

ولما انقض الروم على الميمنة صاح معاذ: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر فى البأساء. ثم نزل عن فرسه وقال: من أراد أن يأخذ فرسى ويقاتل عليه فليأخذه. وآثر بذلك أن يقاتل راجلاً مع المشاة، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن ابن جبل وهو غلام قد احتلم، فقال: يا أبتِ، إنى لأرجو أن أكون أنا فارساً أعظم غناء عن المسلمين منى راجلاً، وأنت ـ يا أبتِ ـ راجل أعظم منك فارساً، وأعظم المسلمين رجّالة، وإذا رأوك صابراً محافظاً صبروا ـ إن شاء الله ـ وحافظوا. فقال معاذ: وفقنى الله وإياك يا بُنىّ»[٢].

* * *

(١) الطريق إلى دمشق (ص ٤٧٢).
(٢) الطريق إلى دمشق (ص ٤٧٦).

وحان وقت الرحيل

ويهاجر بعد ذلك معاذ ـ رضى الله عنه ـ إلى بلاد الشام ليكمل رسالته العظيمة فى تعليم الناس أمور دينهم وشريعة ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ .

فلما أُصيب أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ استخلف عمرُ معاذًا ـ رضى الله عنهما ـ على الشام ولم يمض على ذلك بضعة أشهر حتى لقى ربه مخبتًا منيبًا.

عن أم سلمة أنَّ أبا عُبيدة لما أُصيب، استخلف معاذَ بن جبل، يعنى فى طاعون عمواس، اشتد الوجع، فصرخ الناس إلى معاذ: ادع الله أن يرفع عنا هذا الرِّجز، قال : إنه ليس برجز ولكن دعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله [بها] من يشاء منكم، أيها الناس! أربع خلال من استطاع أن لا تدركه، قالوا: ما هى؟ قال: يأتى زمان يظهر فيه الباطل. ويأتى زمان يقول الرجل: والله ما أدرى ما أنا، لا يعيش على بصيرة، ولا يموت على بصيرة[(١)].

وفى رواية أنه لما نزل الطاعون فى جند الشام وهو فيه قال للصحابة: «رحمة ربكم ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، اللهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة»، فما أمسى حتى طُعن ابنه عبد الرحمن وأحب الناس إليه الذى كان يُكنَّى به، فرجع معاذ من المسجد، فوجده مكروبًا. فقال: يا عبد الرحمن، كيف أنت؟ فاستجاب له، فقال عبد الرحمن: يا أبتِ: ﴿الحقُّ من ربكَ فلا تكُونَنَّ من المُمْتَرِين﴾ [البقرة:١٤٧].

فقال معاذ ـ رضى الله عنه ـ: وأنا ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فمات من ليلته، ودُفن من الغد»[(٢)].

ـــ رضى الله عنك ـ من مشتاق إلى ربك... يدعو ربه «اللهم إن كنت تعلم أن معاذ ابن جبل سمعه من رسول الله ﷺ ، فأعطه هو وأهل بيته، الحظ الأوفر منه، فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد، فطُعِن فى أصبعه السبابة فكان يقول: ما يسرنى أن لى بها حُمر النَّعَم.

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٢/ ١٢٤).

(٢) «بذل الماعون فى فضل الطاعون» لابن حجر العسقلانى، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. ط دار العاصمة، (ص ٢٦٧).



ولما اشتد به نزع الموت، نزع أشد العالم نزعه، فكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه فقال: اخنق خنقك، فوعزتك إنك لتعلم أني أحبك.

وفي «الزهد» لأحمد: لما حضره الموت ـ يعني معاذ ـ قال: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت مرحبًا زائرًا مغيِّب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك، اللهم إن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر»[1].[2]

ورحل (معاذ) ـ رضي الله عنه ـ عن الدنيا وبقي علمه، بل وبقيت سيرته العذبة.

رحل عن الدنيا ليلحق بالحبيب ﷺ في جنات النعيم التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عن (معاذ) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) الزهد لأحمد (ص ١٨٠ ـ ١٨١).

(٢) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).





يولد فى جوف الكعبة ... ويشترى دارًا فى الجنة

ومن خلال تلك السطور نعيش مع الصحابى الجليل الذى بدأ حياته مولودًا صغيرًا فى جوف الكعبة وختم حياته بشراء دارٍ فى الجنة.

لقد دخلت أمُّ حكيم مع نسوة فى جوف الكعبة، فضربها المخاض ـ مخاض الولادة ـ فأُتيت بنطعٍ حين أعجلتها الولادةُ، فولدت فى الكعبة(١).

فكان هذا المولود هو حكيم بن حزام الذى أسلم يوم الفتح وحسُنَ إسلامه، وغزا حُنينًا والطائف. وكان من أشرافِ قريش، وعُقلائها، ونُبلائها. وكانت خديجةُ عمته، وكان الزبيرُ ابن عمه(٢).

ولقد نشأ حكيم بن حزام فى أسرة ذات جاه ومنصبٍ وثراء وكان حكيم من سادات قريش، وكان عاقلاً سخيًا فأناطوا به ـ أسندوا إليه ـ منصَب الرفادة فكان يُخرج من ماله لمساعدة الحُجاج.

ولقد قُتل أبوه يوم الفِجار الأخير(٣).

حبه للنبى ﷺ أيام الجاهلية

قال حكيم بن حزام: كان محمدٌ ﷺ أحبَّ الناس إلىَّ فى الجاهلية، فلما نُبِّئ وهاجر ـ أصبح نبيًا ـ شهد حكيم الموسم كافرًا، فوجد حُلَّةً لذى يزن تُباع، فاشتراها بخمسين دينارًا ليهديها إلى رسول الله، فقدم بها عليه المدينة، فأراده علَى قبضها هديةً، فأبى. قال

(١) جمهرة نسب قريش (ص: ٣٥٣). والنطع: قطعة من الجلد يوقى بها ما تحتها.

(٢) السير للإمام الذهبى (٣/ ٤٤).

(٣) الفجار: بالكسر بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنه كان قتالٌ فى الشهر الحرام، ففجروا فيه جميعًا، فسمى الفجار. وللعرب فجارات أربعة، والفجار الأخير هذا شهده رسول الله ﷺ مع أعمامه، وعمره إذ ذاك ﷺ عشرون سنة، وكانت هذه الحرب بين قريش ومن معهم وبين قيس عيلان. انظر خبرها فى «سيرة ابن هشام» (١/ ١٨٤ ـ ١٨٧).

عُبيد الله: حسبته قال: «إنَّا لا نقبلُ من المشركين شيئًا، ولكن إن شئت بالثمن» قال: فأعطيته حين أبى عليَّ الهدية(١).

وفى رواية: فلبسها، فرأيتها عليه على المنبر، فلم أر شيئًا أحسن منه يومئذ فيها، ثم أعطاها أُسامة ـ أسامة بن زيد ـ فرآها حكيمٌ على أُسامة، فقال: يا أُسامة! أتلبسُ حُلّةَ ذى يزن؟ قال: نعم، والله لأنا خير منه، ولأبى خيرٌ من أبيه. فانطلقتُ إلى مكة، فأعجبتهم بقوله.

وهكذا كانت بين حكيم وبين النبى صداقة ومودة ـ قبل البعثة ـ وازدادت المحبة عندما تزوج النبى ﷺ عمته خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ وعلى الرغم من كل ذلك لم يُسلم حكيم إلا يوم الفتح بعد أن مضى على بعثة النبى ﷺ أكثر من عشرين سنة.

ولقد كان حكيم حزينًا على تأخر إسلامه فلقد كان يتمنى أن لو أسلم منذ اللحظة الأولى لبعثة النبى ﷺ ليشهد معه المشاهد كلها وليبذل نفسه وماله لله ـ جل وعلا ـ ولكنه لما تأخّر إسلامه إلى يوم الفتح كان حكيم يجتهد ليلاً ونهاراً على أن يستدرك كل ما فاته ويغتنم كل لحظة فى طاعة الله وكل درهم فى نُصرة دين الله.

وفاء بالوعد ... وقناعة وسخاء وزهد

قال حكيم بن حزام ـ رضى الله عنه ـ: سألت رسول الله ﷺ فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم قال لى: «يا حكيم، إن هذا المال خضرةٌ حُلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» فقال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا(٢)، حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعو حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبل منه، فقال: إنى أُشهدكم معشر المسلمين على حكيم، أنى أعرضُ عليه حقه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفى(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣) وصححه الحاكم (٣/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥) ووافقه الذهبى.
(٢) أى لا أسأل أحدًا شيئًا من متاع الدنيا.
(٣) أخرجه البخارى (٣/ ٢٦٥) الزكاة ـ ومسلم (١٠٣٥). وقوله لا أرزأ: أى لا أُنقص ماله بالطلب منه.

وفى رواية: فكان عمر يقول «اللهم إنى أُشهدك على حكيم أنى أدعوه لحقّه وهو يأبى. فمات حين مات وإنه لمن أكثر قريش مالاً»[١].

وعن أبى حازم قال: ما بلغنا أنه كان بالمدينة أكثر حملاً فى سبيل الله من حكيم.

ولما تُوفى الزُّبير، لقى حكيمٌ عبد الله بن الزبير، فقال: كم ترك أخى من الدَّين؟ قال: ألف ألف، قال: علىَّ خمسمائة ألف[٢].

بل قال حكيمُ بنُ حزام: ما أصبحتُ وليس ببابى صاحبُ حاجة، إلا علمتُ أنها من المصائب التى أسألُ الله الأجرَ عليها[٣].

أسلمت على ما أسلفت من خير

إن من كمال رحمة الله ـ جل وعلا ـ أن الكافر إذا أسلم فإن الله يجعل كل خير عمله قبل الإسلام فى ميزان حسناته بعد الإسلام.

فهذا حكيم بن حزام ـ رضى الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ: أرأيت أمورًا كنت أتحنث بها فى الجاهلية، هل لى فيها من شىء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير»[٤].

وفى رواية: قال ﷺ: «أسلمت على صالح ما سلف لك» فقلت: «يا رسول الله، لا أدع شيئًا صنعته فى الجاهلية إلا صنعتُ لله فى الإسلام مثله. وكان أعتق فى الجاهلية مئة رقبة، وأعتق فى الإسلام مثلها. وساق فى الجاهلية مئة (بدنة)، وفى الإسلام مثلها.

وهكذا أراد حكيم ـ رضى الله عنه ـ أن يكفّر عن كل موقفٍ وقفه فى الجاهلية أو نفقة أنفقها فى عداوة رسول الله ﷺ .

وكان إذا اجتهد فى يمينه قال: «لا والذى نجّانى يوم بدرٍ من القتل»[٥].

فكان يحمد الله أن أبقاه حتى أسلم وفعل الخير الذى يمحو به خطاياه فى الجاهلية.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبرانى (٣٠٧٨).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٤٢٤).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٤٢٤).

(٤) أخرجه البخارى (٥/ ١٢٢) ومسلم (١٢٣) واللفظ له ـ والتحنث: التعبّد.

(٥) جمهرة نسب قريش (ص: ٣٦٣).



يشترى داراً فى الجنة

ولعلكم تعرفون جميعًا «دار الندوة» التى كانت قريش تعقد فيها مؤتمراتها ومؤامراتها، وكان من أقبح تلك المؤامرات ـ المؤامرة التى عقدوها لقتل رسول الله ﷺ ـ فأراد حكيم بن حزام أن يغلق هذا التاريخ الأسود والماضى البغيض... فلما آلت إليه دار الندوة ـ أصبحت فى مُلكه ـ باعها بمائة ألف درهم، فقال له ابن الزبير: بعت مكرُمة قريش، فقال: ذهبت المكارمُ يا ابن أخى إلا التقوى، إنى اشتريتُ بها داراً فى الجنة، أُشهدكُم أنى قد جعلتُها لله»[١].

حكيم بن حزام سيد شعاره الحب

كان ـ رضى الله عنه ـ يطوف بالبيت ويقول: لا إله إلا الله، نِعْمَ الرب ونِعْمَ الإله، أحبُّه وأخشاه[٢].

«وقال هرم بن حيَّان: المؤمن إذا عرف ربَّه ـ عز وجل ـ أحبَّه، وإذا أحبَّه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهى تُحسِّره فى الدنيا وتروِّحه فى الآخرة.

وقال أبو سليمان الدارانى: إنَّ من خلْقِ الله خلقًا ما يشغلهم الجِنانُ وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا؟!»[٣].

رحلة الرحيل

وبعد رحلة طويلة من العطاء للإسلام نام حكيم على فراش الموت فلما دخلوا عليه وجدوه يقول: «لا إله إلا الله قد كنت أخشاك وأنا اليوم أرجوك»[٤].

وفاضت روحه إلى ربه ـ جل وعلا ـ.

قال البخارى فى «تاريخه»: عاش ستين سنةً فى الجاهلية، وستين فى الإسلام.

---

(١) قال الهيثمى: أخرجه الطبرانى بإسنادين أحدهما حسن ـ مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٤).

(٢) استنشاق نسيم الأنس/ لابن رجب (ص ١٢٩).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالى (٤/ ٣١٣).

(٤) جمهرة نسب قريش (ص: ٣٧٧).

وقال الإمام الذهبي: قلتُ: لم يعِشْ في الإسلام إلا بضعًا وأربعين سنة(١).

وهكذا رحل (حكيم) ـ رضى الله عنه ـ الذى بدأ حياته فى جوف الكعبة، وختم حياته والإسلام فى قلبه... فيشترى دارًا فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنات الخلود إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن (حكيم) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (٣/ ٤٥).

أبو العاص بن الربيع

«حدثني أبو العاص فصدقني.. ووعدني فوفى لي»

محمد رسول الله ﷺ

قال ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع هذا الصنف الكريم.. إنه أبو العاص بن الربيع ـ صهر رسول الله ﷺ ـ.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين: مالاً، وأمانةً، وتجارةً، وكان لهالةَ بنت خويلد، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسولَ الله ﷺ أن يزوِّجه، وكان رسولُ الله ﷺ لا يُخالفها، وذلك قبل أن ينْزل عليه الوحي، فزوّجه، وكانت تَعُدُّه بمنزلة ولدها فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته آمنت به خديجة وبناتُه، فصدَّقْنَه، وشهدن أن ما جاء به الحق، ودِنَّ بدينه، وثبت أبو العاص على شِرْكه.

وكان رسول الله ﷺ قد زوّج عُتبة بن أبي لهب (رُقية، أو أمَّ كلثوم) فلما بادى قريشًا بأمر الله تعالى وبالعداوة، قالوا: إنكم قد فرَّغتم محمدًا من همِّه، فرُدُّوا عليه بناته، فاشغلوه بهن.

فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارقْ صاحبتك ـ زوجتك ـ ونحن نزوّجك أي امرأة من قريش شئت؛ قال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي. وما أحبّ أنَّ لي بامرأتي امرأةً من قريش. وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره خيرًا، ثم مشوا إلى عُتبة بن أبي لهب، فقالوا له: طلّق بنت محمد ونحن ننكحك أيّ امرأة من قريش شئت؛ فقال: إن زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص، أو بنت سعيد بن العاص فارقتُها. فزوّجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهوانًا له، وخلف عليها عثمانُ بن عفان بعده.

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٢٦٧).

وكان رسولُ الله ﷺ لا يُحِلّ بمكة ولا يحرِّم، مغلوبًا على أمره، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب بنت رسول اللَه ﷺ حين أسْلمت وبين أبى العاص بن الربيع، إلا أنّ رسول الله ﷺ كان لا يقدر [على] أن يفرِّق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسولُ الله ﷺ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع، فأُصيب فى الأسارى يوم بدر. فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ.

عن عائشة، قالت: لما بعث أهلُ مكة فى فِداء أسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص [بن الربيع] بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقّةً شديدةً، وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا»؛ فقالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوه، وردوا عليها الذى [كان] لها[1].

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه: أو وعد رسول الله ﷺ ذلك، أن يُخلّى سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلَم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخُلّى سبيله، بعث رسولُ الله ﷺ زيدَ ابن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: كُونا ببطن يأججَ حتى تمرَّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتيانى بها»[2]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعه، فلما قَدِم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهّز.

فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدَّم لها حَمُوها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها، بعيرًا، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا، وهى فى هَوْدج لها. وتحدث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طُوى، فكان أول من سبق إليها هَبّارُ بن الأسود، فروّعها هبّار بالرمح، وهى فى هَودجها، وكانت المرأةُ حاملاً ـ فيما يزعمون ـ فلما ريعت طرحت ذا بطنها ـ سقط حملها ـ وبَرَكَ حموها كنانةُ، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو منّى رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا، فتكركر[3] الناسُ عنه. وأتى أبو سفيان فى جلّة من قريش، فقال: أيها الرجل، كفّ عنا نبلك حتى

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب «الجهاد» باب «فى فداء الأسير بالمال» (٣/ ح ٢٦٩٢) وأحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٧٦) والبيهقى فى «السنن الكبرى» (٦/ ٣٢٢) وإسناده حسن. والحاكم فى «مستدركه» (٤/ ٤٥) وقال: صحيح ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أبو داود (٣/ ح ٢٦٩٢)، والحاكم (٣/ ٢٣٦) وصححه ووافقه الذهبى..

(٣) فتكركر الناس عنه: أى رجعوا وانصرفوا.

نكلمك، فكفَّ؛ فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصبْ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانيةً وقد عرفت مُصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينَا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانيةً على رءوس الناس من بين أظهُرنا، أنّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وأنّ ذلك منا ضعف ووهن، ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثُؤرة[1]: ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث الناسُ أن قد رددناها، فسُلَّها سرًا وألحقها بأبيها؛ قال: ففعل، فأقامت ليالى، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ [2].

وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حين فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قُبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام، وكان رجلاً مأمونًا، بمال له وأموال لرجال من قريش، أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقته سَرية لرسولِ الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هاربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها،فأجارته، وجاء فى طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبّر وكبّر الناس معه، صرخت زينب من صُفّة النساء: [أيها الناس] إنى قد أجرتُ أبا العاص ابن الربيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم؛ قال: «أما والذى نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشىء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم»، إنه يُجير على المسلمين أدناهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: «أي بُنية، أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له»[3].

وعن عبد الله بن أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص، فقال لهم: «إن هذا الرجل منّا حيثُ علمتم، وقد أصبتم

---

(١) ثؤرة: طلب الثأر.

(٢) أخرجه الطبرى فى التاريخ (٢/ ٤٣، ٤٤) والبيهقى فى الدلائل (٣/ ١٥٥، ١٥٦) وابن كثير فى البداية (٣/ ٣٣٠). وهذا إسناد منقطع. ووصله البيهقى (٣/ ١٥٦) من طريق أخرى عن عمرو بن عبد الله ابن عروة بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة... به وإسناده حسن.

(٣) أخرجه البيهقى فى «السنن» (٩/ ٩٥) والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٢٣٦، ٢٣٧) وذكره الزيلعى فى نصب الراية (٣/ ٢١١) وقال إلى تصحيحه.

له مالاً، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به»؛ فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي الرجل بالشَّنَّة وبالإداوة، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيئًا.ثم احتمل إلى مكة. فأدَّى إلى كل ذي مال من قُريش ماله، ومن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا! فقد وجدناك وفيًا كريمًا؛ قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوُّف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمتُ. ثم خرج حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ [١].

قال المسور بن مَخْرَمة: أثنى النبيُّ ﷺ على أبى العاص فى مصاهرته خيرًا، وقال: «حدَّثنى فصدقنى، ووعدنى، فوفَّى لى»[٢].

وهكذا تكون الأمانة، وهكذا يكون الوفاء بالوعد... وهكذا تكون مراقبة الله ـ عز وجل ـ.

فلقد ضرب (أبو العاص) ـ رضى الله عنه ـ المثل فى الوفاء والأمانة... وكل ذلك ثمرة من ثمرات مراقبة الله ـ عز وجل ـ.

نعم أيها الأخ الحبيب: إنه الشعور بأن فاطر السموات والأرض مطّلعٌ عليك فى كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ـ تلك المراقبة التى تجلب لك خشية الله فى السر والعلن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾ [الملك:١٢].

إنها رقابة الحق تبارك وتعالى التى تسقط أمامها رقابة البشر، فإن رقابة البشر قاصرة، فالبشر يغفل وينام ويسهو ويموت والله جل وعلا حيٌ لا يموت، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء فى الليلة الظَلماء،﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة:٧].

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٢٣٧) وإسناده صحيح، والبيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٨٥).
(٢) أخرجه البخارى (٣٧٢٩) فضائل الصحابة (٥٢٣٠) النكاح.

- إنه الخالق جل وعلا الذى أخذ عليك الميثاق وأنت فى ظهر أبيك آدم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣].

- إنه الخالق جل وعلا الذى يراك وأنت نطفة فى بطن أمك: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد:٨ـ ١٠].

حينما تستحضر تلك المعانى تعلم أن عين الله تلاحقك فى سكناتك وحركاتك فتجعل حركاتك وسكناتك طاعة لله جل وعلا فى كل زمان ومكان ممتثلاً أمر النبى ﷺ «اتق الله حيثما كنت»[1]، وقوله: «احفظ الله يحفظك»[2].

ولذا لما سأل جبريل عليه السلام نبى الله محمد ﷺ (فى الحديث الطويل) فقال: وما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3].

فيا ليتنا نراقب الله فى كل شىء لنكون مثالاً للضمير الحى الذى يجعل صاحبه دائمًا وأبدًا صادقًا أمينًا ورعًا تقيًا.

فلنراقب الله فى البيع والشراء والأمانات والعهود.

فوالله إن الأمة فى أشد الحاجة لتلك المراقبة وتلك الأمانة بعد أن أصبح المؤمن لا يكاد يجد إنسانًا صادقًا أو أمينًا فى زمن الغربة الثانى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فرضى الله عن (أبى العاص) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى عن أبى ذر ومعاذ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧).
(٢) أخرجه أحمد والترمذى عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٧٩٥٧).
(٣) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٧٦٢).





ذكره الله من فوق سبع سماوات وأمر نبيه ﷺ
أن يقرأ عليه القرآن

وها نحن على موعد مع الصحابى الجليل (أُبى بن كعب) ـ رضى الله عنه ـ إنه سيدُ القُراء، أبو منذر الأنصارى النجارى المدنى المقرئ البدرى ويُكنى أيضًا أبا الطفيل.

شهد العقبة، وبدرًا، وجمع القرآن فى حياة النبى ﷺ، وعرض على النبى ـ عليه السلام ـ وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا فى العلم والعمل ـ رضى الله عنه ـ[1].

كان يكتب الوحى للنبى ﷺ وهو أحد الذين كانوا يُفتون على عهد رسول الله ﷺ.

هذا الصحابى الجليل نشأ فى رُبا المدينة، معتزلاً الحياة والناس، باحثًا عن المدبر لهذا الكون، ومن أجل هذه الغاية، تعلَّم القراءة والكتابة، وعكف قبل بعثة النبى ﷺ على ما كان يقع فى يده من وريقات التوراة التى كان يتداولها اليهود الذين كانوا يجاورونهم بالمدينة. ولكنها لم تشف غلته.. ولم تستطع أن تجيب على الأسئلة التى تنبت فى مخيلته. وعاش حائرًا يبحث عن الهدى.. وظامئًا يفكر فى النبع: غريبًا فى مجتمع مغرق فى أمر الحياة فلا يفكر لحظةً فى أمر السماء.

يُكنى أبا الفضل، وكناه رسول الله ﷺ أبا المنذر.

إن الرجال العقلاء دائمًا فى صراع مع الدنيا ومع الناس، تجابههم دائمًا أمور لا تجد استجابة من داخلهم، ومن هنا يصابون بالقلق، ويفرون من المجتمعات، ويتحاشون عبث الحياة ولهوها.

وكان أُبى من هذا الطراز، أحس أن البشرية فى فترة من الفترات قد ضلت طريقها، وألغت عقلها عندما اتجهت بالولاء والتقدير إلى الشجر والحجر.. أيكون لهذا الجماد من القدرة على النفع والضر ما ليس للإنسان؟.. وإذا كان فى مقدور هذه الجمادات فى

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى (١/ ٣٩٠).

تصور المشركين أن تقدم لهذا الإنسان الضعيف ما يجمل حياته، ويسعد أيامه فمن خلق السماء وأوجد الأرض؟

مَن الذى أقام الجبال الشاهقة، وعمق البحار الزاخرة؟

مَن الذى يُخرج النبات من الأرض؟

مَن الذى يُسيِّر الرياح ويُرسل الغيث؟

مَن الذى بيده حق الحياة والموت؟

كانت هذه الأسئلة تلاحقه ليل نهار..[1]

وفى ليلة من الليالى التى أراد الله فيها أن يسوق إلى هذا العبد الصالح أعظم هدية وأجلّ منحة فشرح صدره للإسلام.

وذلك بعد أن وصل إلى سمعه خبر الحبيب ﷺ فذهب (أُبىّ) إلى (سعد ابن الربيع) وطرق بابه ليسأله عن هذا الدين، وإذا بسعد يخبره بمكان مصعب ابن عمير الذى تعلّم بين يدى الحبيب ﷺ كيف تكون الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فدعاه إلى الله فانشرح صدره فأسلم وذهب إلى الحبيب ﷺ وشهد بيعة العقبة.

وعاش (أُبىّ) ـ رضى الله عنه ـ عابداً زاهداً لا تميل نفسه إلى زخارف الدنيا وزهرتها الفانية فكان يقضى الساعات والأوقات فى طلب العلم وقراءة القرآن.

وظل على تلك الحالة إلى أن جاء الحبيب ﷺ مهاجراً إلى المدينة فسعد (أُبىّ) سعادة لو وُزعت على الكون كله لكانت كافية، فكان يلازم النبى ﷺ ملازمة الإنسان لظله ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه السامية.

ولما كانت غزوة بدر دخل هذا العابد الزاهد فيها وكأنه الليث فى عرينه وخاض تلك الغزوة بكل بسالة وشجاعة وفداء.

وطوال سنوات الصُّحْبَة، وأُبىّ بن كعب قريب من رسول الله ﷺ ينهل من مَعِينه العذب المعطاء..

وبعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ ظلّ (أُبىّ) على عهده الوثيق.. فى عبادته، وفى قوة دينه، وخُلُقه..

---

(١) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد السحيبانى (ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩) بتصرف.

وكان ـ دائمًا ـ نذيراً فى قومه..

يذكرهم بأيام الرسول ﷺ ، وما كانوا عليه من عهد، وسلوك، وزهد..

ومن كلماته الباهرة التى كان يهتف بها فى أصحابه:

[لقد كنا مع رسول الله ﷺ ووجوهنا واحدة...

«فلما فارَقَنا، اختلفت وجوهنا يمينًا وشمالاً].

ولقد ظلَّ مستمسكًا بالتقوى، معتصمًا بالزهد، فلم تستطع الدنيا أن تفتنه أو تخدعه..

ذلك أنه كان يرى حقيقتها فى نهايتها...

فمهما يعش المرء، ومهما يتقلب فى المناعم والطيبات، فإنه مُلاق يومًا يتحول فيه كل ذلك إلى هَبَاء، ولا يجد بين يديه إلا ما عمل من خير، أو ما عمل من سُوء[1].

أحب القرآن فرفعه الله به إلى أعلى المنازل

لقد أسلم قلبه قبل أن تُسلم جوارحه، وعاش بكل أحاسيسه مع آيات القرآن وحروفه حتى بلغ به القرآن أعلى المنازل، فأصبح واحداً من بين أربعة كان النبى ﷺ يأمر الصحابة أن يأخذوا عنهم القرآن.

عن عبد الله بن عمرو (رضى الله عنهما) قال سمعت النبى ﷺ يقول: «استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة، وأُبى، ومعاذ بن جبل»[2].

قال أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كُلُّهم من الأنصار: أُبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد أحد عمومتى[3].

وعن ابن سيرين أن عثمان جمع اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فيهم أُبىٌ بن كعب، وزيدُ بن ثابت فى جمع القرآن[4].

وقال الذهبى فى «معرفة القُراء الكبار»: أُبى بن كعب أقرأ من أبى بكر ومن عمر.

وعن أبى قلابة عن أبى المهلب قال: كان أُبى يختم القرآن فى ثمانٍ.

(١) رجال حول الرسول (ص ٦٢٢).

(٢) أخرجه البخارى (٣٨٠٦).

(٣) أخرجه البخارى (٥٠٠٣) فضائل القرآن ـ ومسلم (٢٤٦٥) فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه الفسوى (٢/ ٤٨٧) فى المعرفة والتاريخ.

قال الذهبي: إسناده صحيح.

وقال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر... وأقرؤهم لكتاب الله أُبي ابن كعب...»(١).

الله يأمر رسوله ﷺ أن يقرأ القرآن على أبي بن كعب

ويا لها من منقبة يعجز اللسان عن وصفها ويعجز القلم عن التعليق عليها ولو بكلمة واحدة.

لك أن تتخيل معي أيها الأخ الحبيب أن الله قد ذكر اسمك من فوق سبع سماوات وليس ذلك فحسب، بل إن الله يأمر نبيه ﷺ أن يقرع عليك بابك ويقول لك: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن!!!!.

تالله لو كنت مكان أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ لتمنيت أن ألقَى الله في تلك اللحظة لتكون تلك المنقبة هي خاتمة السعادة.

فهيا بنا نعيش تلك اللحظات مع الفرحة الغامرة التي ملأت قلب (أُبي) سعادة وسروراً.

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» وفي لفظ: «أمرني أن أُقرئك القرآن». قال: الله سماني لك؟ قال: نعم» قال: وذُكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم». فذرفت عيناه(٢).

وفي رواية: عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه قال: قال أُبيُّ بنُ كعب: قال لي رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقرأ عليك القرآن» قلت: يا رسول الله! وسُميت لك؟ قال: «نعم» قلت لأُبيّ: فرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني وهو تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨](٣).

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: فإنها منقبة عظيمة له لم يشاركه فيها أحد من الناس. وقيل إنما بكى خوفًا من تقصيره في شكر هذه النعمة، وأما تخصيص هذه السورة بالقراءة فلأنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهمات عظيمة، وكان الحال

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٩٩) صلاة المسافرين ـ والبخاري (٤٩٥٩) التفسير ـ وأحمد (٣/ ١٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢، ١٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥١).

يقتضى الاختصار، وأما الحكمة فى أمره بالقراءة على أُبى... قيل: قرأ عليه ليسن عرض القرآن على حُفّاظه البارعين فيه المجيدين لأدائه ولينبه الناس على فضيلة (أُبى) فى ذلك، ويحثهم على الأخذ منه وكان كذلك فكان بعد النبى ﷺ رأسًا وإمامًا مقصودًا فى ذلك مشهوراً به. والله أعلم(١).

منقبة عظيمة

عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: «يا أبا المنذر! أتدري أى آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. قال: فضرب فى صدرى وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر»(٢).

دعوة مستجابة

عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً من المسلمين قال: يا رسول الله! أرأيت هذه الأمراض التى تُصيبنا ما لنا فيها؟ قال: «كفَّاراتٌ»، فقال أُبى بن كعب: يا رسول الله! وإن قلَّت؟ قال: «وإن شوكةً فما فوقها» فدعا (أُبىّ) ألا يفارقه الوعك حتى يموت، وألا يشغله عن حجٍ ولا عمرة ولا جهاد ولا صلاة مكتوبة فى جماعة. قال: فما مسّ إنسانٌ جسده إلا وجد حرّه حتى مات.

وفى رواية: قال أُبىٌّ: يا رسول الله ﷺ! ما جزاءُ الحُمَّى؟ قال: «تجرى الحسنات على صاحبها». فقال: اللهم إنى أسألك حُمَّى لا تمنعنى خروجًا فى سبيلك. فلم يُمس أُبىٌّ قطُّ إلا وبه الحُمى(٣).

حرصه على الاتباع

لقد كان (أُبى) حريصًا كل الحرص على اتباع سُنة الحبيب ﷺ .

فعن قيس بن عُباد، قال: أتيتُ المدينة للقاء أصحاب محمد ﷺ ، ولم يكن فيهم رجل ألقاه أحبَّ إلىَّ من (أُبى)، فأقيمت الصلاة، وخرج فقمت فى الصف الأول. فجاء رجل

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٠ - ٣١) بتصرف.
(٢) أخرجه مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٥٠).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٢٣) وصححه ابن حبان (٦٩٢) - ورواه الطبرانى (٥٤٠).

فنظر في وجوه القوم، فعرفهم غيري، فنحَّاني، وقام في مقامي. فما عقلت صلاتي. فلما صلَّى، قال: يا بني! لا يسوؤك الله، فإني لم آتِ الذي أتيتُ بجهالة، ولكن رسول الله ﷺ قال لنا: «كونوا في الصف الذي يليني» وإني نظرت في وجوه القوم، فعرفتهم غيرك.

وإذا هو أُبي رضي الله عنه»(١).

وكان يقول: «عليكم بالسَّبيل والسنَّة، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذَكَرَ الله ففاضت عيناه من خشية الله فيعذبه الله أبدًا. وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعرَّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك، إذا أصابتها ريح شديدة فتحات (أي سقط) عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة ورقها، فإن اقتصادًا في سبيل الله وسُنة خيرٌ من خلاف سبيل الله وسنة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا واقتصادًا أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم».

سيد المسلمين ووصاياه الغالية

قال أبو نضرة العبدي: قال رجل منا يقال له جابر أو جُويبر: طلبتُ حاجة إلى (عمر) وإلى جنبه رجلٌ أبيض الثياب والشعر، فقال: إن الدنيا فيها بلاغُنا، وزادُنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجزَى بها في الآخرة. فقلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا سيدُ المسلمين أُبي بن كعب(٢).

وعن أبي العالية قال: قال رجل لأبي بن كعب: أوصني، قال: اتخذ كتاب الله إمامًا، وارض به قاضيًا وحكمًا، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيعٌ، مطاع، وشاهد لا يُتهم، فيه ذكركم وذكر مَن قبلكم، وحُكم ما بينكم، وخبركم وخبرُ ما بعدكم(٣).

وعن أبي العالية عن (أُبي) في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: هن أربع، كُلهن عذاب، وكلهن واقع لا محالة، فمضت اثنتان

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح: وهو في المسند (٥/ ١٤٠) وأخرجه النسائي (٢/ ٨٨).
(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٦٠) نقلاً من السير (١/ ٣٩٢).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٣).

بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، فألبسوا شيعًا، وذاق بعضهم بأس بعض، ويبقى ثنتان واقعتان لا محالة: الخسفُ والرجم[١].

وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: كنتُ واقفًا مع أُبي بن كعب في ظل أُطُم حسان، والسوق سوق الفاكهة اليوم، فقال أُبي: ألا ترى الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا؟ قلتُ بلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس، ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لا يدعون منه شيئًا، فيُقتلُ الناسُ من كُلِّ مئة تسعةٌ وتسعون»[٢].

فكان يخشى على الأمة المسلمة من تلك الفتن التي تعصف بالقلوب، وكان قلبه يعتصر حزنًا وألمًا كلما ذكر تلك الأحاديث التي تخبر عن تلك الفتن.

ومن وصاياه الغالية أنه كان يقول: ما من عبد ترك شيئًا لله ـ عز وجل ـ إلا أبدله الله ـ عز وجل ـ به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب، وما تهاون به عبد فأخذه من حيث لا يصلح إلا أتاه الله ـ عز وجل ـ بما هو أشد عليه منه، من حيث لا يحتسب[٣].

مكانته الغالية في قلوب الصحابة ومن بعدهم

لقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول عنه: هذا سيد المسلمين.

وكان الصحابة يعلمون قدر (أُبي) ويحملون له كل الحب والتقدير في قلوبهم.

فعن أبي إدريس الخولاني أن أبا الدرداء ركب إلى المدينة في نفر من أهل دمشق، فقرؤوا يومًا على عمر: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، ولو حميتم كما حموا، لفسد المسجدُ الحرام.

فقال عمر: من أقرأكم هذا؟ قالوا: أُبيٌّ بن كعب. فدعا به، فلما أتى قال: اقرؤوا. فقرؤوا كذلك. فقال أُبيّ: والله يا عمر إنك لتعلم أني كنتُ أحضر ويغيبون، وأُدنى ويُحجبون، ويُصنع بي ويُصنع بي، ووالله لئن أحببت، لألزمنَّ بيتي، فلا أُحدث شيئًا، ولا أُقرئ أحدًا حتى أموت. فقال عمر: اللهم غُفرًا! إنا لنعلمُ أن الله قد جعل عندك

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٣٥) والطبري (٧/ ٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٣).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٣٩) مختصرًا ومسلم (٢٨٩٥) الفتن.

(٣) صفة الصفوة (١/ ١٩٨).

علمًا فعلِّم الناس ما عُلِّمت(١).

بل لقد قال أُبيٌّ بن كعب لعمر بن الخطاب: مالك لا تستعملني؟ قال: أكره أن يُدنَّس دينُك(٢).

وأما عن علمه

قال معمر: عامةُ علم ابن عباس من ثلاثة: عمر، وعليّ، وأُبيّ.

وقال الذهبي: قد ذكرت أخبار أُبيّ بن كعب في «طبقات القراء»، وأن ابن عباس وأبا العالية، وعبد الله بن السائب قرؤوا عليه، وأن عبد الله بن عياش المخزومي قرأ عليه أيضًا، وكان عمر يُجِلُّ أُبيًا، ويتأدب معه ويتحاكم إليه(٣).

وحان وقت الرحيل

وعاش أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ بل وتعايش مع كل حرف من حروف القرآن حتى إنه يوم أن مات ـ في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال الناسُ جميعًا: مات سيد المسلمين أُبيّ بن كعب.

هكذا فإن من عرف قدر القرآن فإنه يعيش سيدًا ويموت سيدًا ويُبعث يوم القيامة مع ملوك أهل الجنة الذين أحبوا الله وأحبوا كلامه فأحبهم الله وقرَّبهم إليه في جنته.

فرضي الله عن (أبي) وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٥) وأورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٤) عن النسائي ـ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٧٩) ونسبه إلى النسائي والحاكم.

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٦٠) نقلاً من السير (١/ ٣٩٨).

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٩٨: ٤٠٠) بتصرف.





واثق في موعود ربه... يموت وهو ساجد

قد يكون أبو ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ غير معروف لدى كثيرٍ من المسلمين، لكن يكفيه أن يكون معروفًا عند رب العالمين.

أسلم ـ أبو ثعلبة ـ لله جل وعلا وتعايش مع الإسلام قلبًا وقالبًا، وامتلأ قلبه ثقة بنُصرة هذا الدين، وأن الدنيا كلها ستدين لله ـ جل وعلا ـ وارتفعت هذه الثقة في قلبه لدرجة أنه دخل يومًا على رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، اكتب لي بأرض كذا وكذا بالشام ـ لم يظهر عليها النبيُّ ﷺ حينئذ ـ فقال: «ألا تسمعون ما يقولُ هذا»؟ فقال أبو ثعلبة: والذي نفسي بيده، لنظهرنَّ عليها. فكتب له بها(١).

ومن أجل ذلك كان من المسارعين إلى نُصرة الإسلام في كل موطن يحتاج فيه إلى النُصرة.

فهو من أهل بيعة الرضوان. وأسهم له النبي ﷺ يوم خيبر، وأرسله إلى قومه، وأخوه عمرو بن جرهم، [أسلم] على عهد النبي ﷺ (٢).

كلمات من ذهب

عن إسماعيل بن عُبيد الله، قال: بينا أبو ثعلبة الخُشني، وكعب جالسين؛ إذ قال أبو ثعلبة: يا أبا إسحاق، ما مِنْ عبد تفرَّغ لعبادة الله إلا كفاه الله مؤونة الدنيا.

قال كعب: فإنَّ في كتاب الله المُنزل: من جعل الهموم همًا واحدًا، فجعله في طاعة الله، كفاه الله ما همَّه وضمن السماوات والأرض، فكان رزقُه على الله وعملُه لنفسه. ومن فرَّق همومه، فجعل في كل واد همًا، لم يُبال الله في أيها هلك.

قال الإمام الذهبي: قلتُ: من التفرُّغ للعبادة السعي في السبب، ولاسيما لمن له عيال،

(١) قال الأرنؤوط: إسناده صحيح وهو في المسند (٤/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٧/ ٢٧٦) ترجمة عمرو بن ثعلبة الخشني.

قال النبيُّ ﷺ «إنَّ أفضل ما أكل الرجلُ من كسب يمينه».

أما من يعجزُ عن السبب، لضعف، أو لقلةِ حيلة، فقد جعل الله له حظًا فى الزكاة[1].

يموت ساجداً لله (جل وعلا)

ويوقن هذا الصحابي الجليل أنه سيلقى ربه لا محالة، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ [الأنبياء:٣٤ - ٣٥].

فتمنّى على الله أن يموت وهو ساجد، فكان يقول: إنى لأرجو ألا يخنقنى الله كما أراكم تُخنقون.

فبينا هو يُصلى فى جوف الليل، قُبض، وهو ساجد. فرأت بنتُه أنَّ أباها قد مات، فاستيقظت فزعةً، فنادت أمها: أين أبى؟ قالت: فى مصلاه. فنادته فلم يُجبها فأنبهته فوجدته ميتًا[2].

ويا لها من خاتمة السعادة.. فإنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بُعث عليه.. ولقد مات أبو ثعلبة - رضى الله عنه - ساجدًا لله - جل وعلا - وسوف يُبعث إن شاء الله ساجدًا.

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فيا إخوانى.. ويا أخواتى: تالله إنى لأرجو الله أن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة فالإنسان لا يدرى كيف تكون خاتمته.

فقد قال ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يُختم (له) عمله بعمل أهل الجنة»[3].

وقال ﷺ: «إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠).
(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (١١/ ٥٦).
(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (١٦٢٣).

الرجل ليعمل عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[1]. زاد الإمام البخاري: «إنما الأعمال بخواتيمها».

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «يا مُقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»[2].

وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فَإِنَّا على إثرك مَاضُون.

وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنَّا رائحون، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لا يعتبر.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا. وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازة أنفسهم، فلا يبكون على الميت، ولكن على أنفسهم.

فجدير بمن الموت مصرعه، والقبر مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في ذلك، ولا استعداد إلا له.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت:٣٠].

قال بعض السلف: إنما تقول الملائكة ذلك لمن طال خوفه من الله ـ عز وجل ـ وحزنه مما فرّط منه، أما من لم يخف الله ـ عز وجل ـ ولم يحزن على ما فاته من الخير فلا يقال له شيء من ذلك[3].

فهنيئًا لكل من وفّقه الله لطاعته ومات على ذلك.

فإن الأهوال التي تنتظر أهل الغفلة لعظيمة، بل وشديدة.

قال ﷺ: «يُؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها»[4].

---

(١) متفق عليه عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (١٦٢٤).
(٢) رواه الترمذي والحاكم عن أنس ـ صحيح الجامع (٧٩٨٧).
(٣) اقتربت الساعة/ للمصنف (ص ١٨ : ١٩).
(٤) أخرجه مسلم عن ابن مسعود ـ كتاب صفة النار ـ صحيح الجامع (٨٠٠١).

فيا له من مشهد مهيب تتفطر منه القلوب فإذا جيء بجهنم لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبي مرسل إلا جثىً على ركبتيه وقال: يارب سلم سلم.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢١:٢٤].

تأمل معى هذه الحسرة الشديدة لكل من فرّط فى حق الله ـ جل وعلا ـ أو رأى جهنم فإنه يصرخ ويقول: ﴿يا ليتنى قدمت لحياتى﴾ كلمة يقولها كل من فرّط فى الصلاة،وكل من عق والديه، وكل من ظلم العباد، وكل من حارب الله ـ جل وعلا ـ وتقولها كل من تركت حجابها وخرجت سافرة متبرجة ناسيةً قول الله ـ جل وعلا ـ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

وناسيةً قول رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساءٌ كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليُوجد من مسيرة كذا وكذا»(١).

أما آن الأوان يا أختاه أن تلبسى حجابك ليكون حجابًا لك من النار... أما آن الأوان لتلبسى لباس الستر والعفاف وتنقادى لأمر الله وأمر رسول الله ﷺ حتى لا تكونى من أهل النار الذين أخبر عنهم النبى ﷺ فى الحديث السابق... إنها كلمة فى أُذن كل فتاة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر.

يا أختاه أنقذى نفسك من النار قبل أن تصرخى وتقولى: «يا ليتنى قدمت لحياتى».

فها هى الفرصة أمامك فتوبى إلى الله وأسرعى الخُطا ولسان حالك: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤]، واسجدى بين يدى الله ـ عز وجل ـ واطلبى منه المغفرة والرحمة فهو القائل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٧٩٩).

ويا من تظلم وتتجبر لا تنس هذا المشهد المهيب عند مجيء جهنم فتب إلى الله وتحلل من المظالم قبل أن تصرخ وتقول: «يا ليتني قدمت لحياتي» فتندم حيث لا ينفع الندم ولا تُدفع النِقم.

إنها النار!!! التي أُوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى اسودت فهي سوداء قاتمة!!

يصل الحجر إلى قعرها بعد سبعين سنة!!.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة[1] فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها»[2].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه؟»[3].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا[4].

فبعد كل هذا ألا يكون ذلك حاديًا لنا لنتوب إلى الله ونرجع إلى الجادة ونغتنم الساعات قبل أن نأتي يوم القيامة ويصرخ كل واحد منا ويقول: «يا ليتني قدمت لحياتي».

فهيا نقدم لحياتنا ما ينجينا يوم الحشر وهيا نمتثل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١][5].

فرضي الله عن (أبي ثعلبة) وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) وجبة: أي سقطة.

(٢) رواه مسلم ـ باب في بُعد قعر جهنم ـ كتاب صفة النار.

(٣) رواه أحمد والترمذي عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم ـ باب في أهون أهل النار عذابًا ـ كتاب صفة النار.

(٥) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص ٦٦: ٦٨).

عبد الله بن جحش

أول من دعى بأمير المؤمنين

ها هى شمس الإسلام تُشرق على أرض الجزيرة، وإذا بالقلوب الطاهرة تفتح أبوابها على مصراعيها ليدخل ضوء الشمس فيضىء أركانها.

وها نحن مع واحدٍ من أصحاب القلوب الطاهرة الذين اختارهم الله لصُحبة نبيه ﷺ.

إنه (عبد الله بن جحش) ـ رضى الله عنه ـ الذى نشأ وترعرع فى مكة قريبًا من الكعبة المشرفة.

وهو ابن عمة رسول الله ﷺ ، وفى الوقت ذاته فهو صهر رسول الله ﷺ ، وذلك لأن الحبيب ﷺ تزوج أخته زينب بنت جحش التى أمر الله نَبيه ﷺ بزواجها من فوق سبع سماوات، فكانت تقول لزوجات النبى ﷺ ـ أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ بكل فخرٍ واعتزازٍ.

«زوَّجكن أهاليكن وزوَّجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات»(١).

كان من السابقين

* نشأ عبد الله بن جحش فى مكة قريبًا من الكعبة المشرفة، وعايش الأحداث التى مرت بمكة قبل مبعث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فشاهد تجديد بناء الكعبة المشرفة، كما شاهد مشاحنة القبائل وتنافسهم على وضع الحجر الأسود، ثم رضوا أن يحكِّموا أولَ داخلٍ عليهم ليختار القبيلة التى يكون لها شرفُ وضع الحجر الأسود فى مكانه... شاهد محمدًا وهو يقرِّرُ أن تشترك القبائل كلُّها فى وضعه، فقد طرح الرسول رداءه وأمر سيِّد كل قبيلة أن يأخذ بطرفٍ منه، وهكذا انتهتْ مشكلة كادت تؤدى إلى حرب.

---

(١) أخرجه البخارى (١٣/ ٣٤٧، ٣٤٨) التوحيد.

* استمرت الدعوة إلى الإسلام سرًا، ولمَّا أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة، وكان «عبد الله بن جحش» من بينهم، عندها اختار لهم رسول الله ﷺ دار «الأرقم بن أبى الأرقم» واستمرت الدعوةُ السِّرِّيَّة ثلاث سنين، ثم نزل الوحي بتكليف الرسول الكريم ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق، ويجابه باطل قريش وأصنامهم[1].

أمانة الدعوة إلى الله

ما إن بُعث الحبيب ﷺ حتى أسلم (عبد الله) ولم يتلكأ أو يتلعثم.. وكان إسلامه قبل أن يدخل الحبيب ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين إلى الإسلام.

وقام يحمل أمانة الدين ليدعو الناس من حوله إلى جنة الدنيا والآخرة فدعا أخويه وأُختيه إلى الإسلام فاستجابوا جميعًا، ودخلوا فى دين الله ـ جل وعلا ـ لتكتمل السعادة فى قلوبهم.

الهجرة إلى الله

ولما اشتد إيذاء قريش على أصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليعيشوا فى رحاب هذا الملك العادل ـ النجاشى ـ فكان من بين المهاجرين إلى الحبشة ـ الهجرة الثانية ـ عبد الله بن جحش ـ رضى الله عنه ـ.

ولما ترامت الأخبار إلى مسامع المهاجرين بأن قريشًا رجعت عن ضلالها ودخلت فى دين الله ـ جل وعلا ـ وتابعت الرسول ﷺ عاد المهاجرون إلى مكة، وما إن وصلوا إلى أبواب مكة حتى علموا أن تلك الأخبار لم تكن سوى خدعة أراد بها كفار قريش أن يعود المهاجرون من الحبشة إلى مكة لينالوا نصيبًا وافرًا من العذاب والنكال.

وبقى (عبد الله) وأسرته بمكة إلى أن أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب (المدينة) فكان (عبد الله) وأسرته فى طليعة المهاجرين بعد (أبى سلمة).

* * *

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٢٦٣).

دار في جنة الرحمن

ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب، فباعها من عمرو بن علقمة، فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبدُ الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا خيرًا منها في الجنة؟» قال: بلى، قال: «فذلك لك»، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلّمه أبو أحمد ـ أخو عبد الله بن جحش ـ في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ ، وقال لأبي سفيان:

أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ ... أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ نَدَامَهْ
دارَ ابن عَمِّكَ بِعتَهَا ... تَقْضِي بِهَا عَنْكَ الغَرَامَهْ
وَحَلِيفُكُمْ بِاللهِ ربِّ ... النَّاسِ مُجْتَهِدُ القَسَامَهْ
إذْهَبْ بِهَا، إذْهَبْ بِهَا ... طُوِّقْتَهَا طَوْقَ الحَمَامَهْ(١)

في رحاب الأنصار

وعاش (عبد الله) في رحاب إخوانه من الأنصار ليذوق طعم الراحة ويستنشق نسيم المحبة في الله بعدما رأى الأخوة الصادقة من الأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

سرية عبد الله بن جحش

وبَعث رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن جَحْشٍ بن رئَاب الأسدى في رجب، مَقْفَلَهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رَهْطٍ من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨) بتصرف.



كتابًا، وأمرَه أن لا ينظر فيه حتى يسيرَ يومين ثم ينظر فيه، فَيَمْضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبدُ الله بن جَحْش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل (نَخْلة) بين مكة والطائف، فترصّدْ بها قريشًا وتعلّم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعًا وطاعًا؛ ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نَخْلة، أرصُد بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبر؛ وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كَرِه ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ ، فمضى ومضى معه أصحابُه، لم يتخلّف عنه منهم أحد.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفُرْع، يقال له: بحران أضلَ سعدُ ابن أبي وقّاص، وعُتبة بن غزوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه فتخلّفا عليه في طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقيةُ أصحابه حتى نزلَ بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا ـ الجلد ـ وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

فلما رآهم القوم هابُوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عُكاشة بن مِحْصَن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمِنُوا، وقالوا: عُمّار ـ أي جاءوا لأداء العمرة ـ لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب؛ فقال القومُ: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلنّ الحرم، فليمتنُعنّ منكم به، ولئن قَتلتموهم لتقتلنّهم في الشهر الحرام؛ فتردّد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدَروا عليه منهم، وأخذ ما معهم فَرمى واقدُ بن عبد الله التميمي عمرو بنَ الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمانَ بن عبد الله، والحكَم بن كَيْسان ـ أخذهما أسرى ـ وأفلتَ القومَ نوفلُ بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبدُ الله ابنُ جحش وأصحابُه بالعير وبالأسيرين حتى قَدموا على رسول الله ﷺ المدينةَ.

وقد ذكر بعضُ آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غَنمْنا الخُمس ـ وذلك قبل أن يَفْرض الله تعالى الخُمسَ من المغانم ـ فَعزَلَ لرسولِ الله ﷺ خُمس العير، وقسّم سائرها بين أصحابه.

فلما قَدموا على رسول الله ﷺ المدينة؛ قال: «ما أمرتُكم بقتال في الشهر الحرام»، فوقّف العيرَ والأسيرين، وأبَى أن يأخذ من ذلك شيئًا؛ فلما قال ذلك رسولُ الله ﷺ

سُقط في أيدي القوم، وظنّوا أنهم قد هَلكوا، وعنّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صَنَعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابُه الشهرَ الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسرُوا فيه الرجَال فقال: من يردّ عليهم من المُسلمين، ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

فلما أكثر الناسُ في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ [البقرة:٢١٧]، أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صَدُّوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهلُه أكبر عند الله من قتلِ من قتلتم منهم ﴿والفتنة أكبرُ منَ القتْلِ﴾ أي قد كانوا يفتنون المُسلم عن دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبرُ عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يُقاتلونكم حتّى يَرُدُّوكُمْ عن دينكم إنِ استطاعوا﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه، غيرَ تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق، قَبَضَ رسولُ الله ﷺ العيرَ والأسيرين، وبعثت إليه قريشٌ فداء في عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نُفْديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعني سعدَ بن أبي وقّاص، وعُتبة بن غَزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم»، فَقَدِمَ سعدٌ وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فَلحِق بمكة، فمات بها كافرًا.

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر. فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم﴾ [البقرة:٢١٨] فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرَّجاء(١).

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٨، ٥٩) عن عروة وإسناده صحيح.

وقد ذكر بعضُ آل عبد الله بن جحش: أن الله عز وجل قسم الفيء حين أحلّه، فجعل أربعةَ أخماس لمن أفاءَه، وخُمسًا إلى الله ورسوله، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير(١).

قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون: وعمرو بن الحَضْرمي أوّل من قتله المسلمون، وعثمانُ ابن عبد الله والحكم بن كَيْسان أول من أسر المسلمون.

وأميرها عبد الله بن جحش أول من دُعي بأمير المؤمنين.

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

ولما كانت غزوة بدر قاتل (عبد الله) فيها قتالاً شديداً وأبلَى فيها بلاءً حسنًا، وأسر ـ الوليد بن الوليد بن المغيرة ـ الذي أسلم بعد أن رأى حُسن المعاملة من المسلمين.

وحان وقت الرحيل

ولما كانت غزوة أُحد دخل (عبد الله) يقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها.

فلما رأى ـ سعد بن أبي وقاص ـ دار بينهما هذا الحوار الذي يعجز القلم عن وصفه.

فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لما كانت «أُحُدٌ» لقيني عبد الله ابن جحش وقال: ألا تدعو الله؟ فقلت: بلى. فخلونا في ناحية فدعوتُ فقلت: يارب إذا لقيتُ العدو فلقِّني رجلاً شديداً بأسُهُ، شديداً حَرَدُهُ(٢)، أُقاتلُه ويُقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخُذ سَلَبَهُ، فأمَّن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حردهُ، شديداً بأسه، أُقاتله فيك ويُقاتلني، ثم يأخذني فيجدع ـ يقطع ـ أنفي وأُذني، فإذا لقيتُك غداً قلت: فيم جُدعَ أنفك وأُذُنُك؟... فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدَقت...

قال سعد بن أبي وقاص: لقد كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، فلقد

---

(١) أخرج الطبراني من حديث زر قال: أول راية رفعت في الإسلام راية عبد الله بن جحش. وأول مال خُمس في الإسلام مال عبد الله بن جحش. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٦٧) إسناده حسن.

(٢) حرده: غضبه وثورته.

رأيتُهُ آخِرَ النهار، وقد قُتل ومُثِّلَ به، وإنَّ أنفه وأُذنه لمُعلقتان على شجرة بخيط(١).

عن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم إنى أُقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلونى ويجدعوا أنفى وأذنى ثم تسألنى بما ذاك فأقول فيك. قال سعيد بن المسيب: إنى لأرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما برَّ أوله(٢).

ودارت رحى الحرب، وسارع عبد الله بن جحش إلى المعركة خلف خاله حمزة بن عبد المطلب يصول ويجول، ويقاتل الأعداء بشدة وبأس، وهو عازم على الشهادة، وكادت قريش أن تنهزم لولا أن غادر الرماة مواقعهم فى الجبل هابطين إلى الميدان ليجمعوا الأموال والأسلاب. وهناك تغير وجه المعركة، فاستشهد عدد كبير من المسلمين، وفى هذه الأثناء كان عبد الله يضرب بسيفه كل مَن يقابله من المشركين حتى لقيه أبو الحكم بن الأخنس بن شريق(٣)، فصوّب إلى عبد الله ضربة قاضيةً خر شهيداً بدمائه الزكية الطاهرة، وكان له من العمر حين استشهد بضع وأربعون سنة(٤).

هذه صورة للرجولة الفارعة التى اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها، واضطربت من تحت أقدامه الأرض، فما ربح شيئًا فى بداية القتال، ولا انتفع بما ربح آخره.

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامى القائم إلى اليوم. وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكشف عنه طغيان، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة فى أفئدة الصديقين والشهداء..

مَن سر هذا الإلهام؟ مَن مشرق هذا الضياء؟ مَن مبعث هذا الاقتدار؟.

إنه محمد ﷺ ، إنه هو الذى ربى ذلكم الجيل الفذ، ومن قلبه الكبير أُترعت هذه القلوب، تفانيًا فى الله، وإيثارًا لما عنده(٥).

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٥٩) بتصرف.

(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٩٩ - ٢٠٠) معرفة الصحابة وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه. ووافقه الذهبى. وقال الألبانى: لكن له شاهد موصول وأخرجه البغوى كما فى الإصابة من طريق إسحق ابن سعد بن أبى وقاص: حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال فذكره بنحوه وزاد فى آخره قال سعد: «فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان فى خيط».

(٣) الروض الأنف للسهيلى (٣/ ١٧٩).

(٤) صفة الصفوة (١/ ٣٨٦).

(٥) فقه السيرة للغزالى (ص ٣٠١ - ٣٠٢) بتصرف.

ولما انتهت غزوة (أُحُد) وقف الحبيب ﷺ على (عبد الله بن جحش) فحزن عليه حزنًا شديدًا، وأمر بدفنه مع (حمزة بن عبد المطلب) في قبرٍ واحدٍ.

* وكانَ «سعدُ بن أبي وقاص» رضى الله عنه لا ينسى صديقَه في الدُّعاء والجهاد «عبد الله بن جحش»: يذكره دائمًا، ويتعهدُ زيارته وزيارة شهداء أُحُد دائمًا، ويحضُّ أصحابه على زيارتهم ويقول:

* ألا تُسلمون على قومٍ يَردُّونَ عليكم؟!

* وفى سفْح أُحُد يرقد «عبد الله بن جحش» مثالاً للشجاعة والفداء ورمزًا للبطولة، وقد كان من الذين قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣][1].

ورحل (عبد الله) ليجمعه الله فى الجنة بحبيبه وقرة عينه (محمد بن عبد الله) ﷺ ولينعم بصحبته فى جنات النعيم التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٢٨٠).



المقداد بن عمرو

أول مَن عدا بفرسه في سبيل الله

إنه المقداد بن عمرو صاحبُ رسول الله ﷺ وأحدُ السابقين الأولين، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعيُّ الكنديُّ البهراني.

ويُقال له: المقداد بن الأسود؛ لأنه رُبي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهرى فتبناه، وقيل: بل كان عبدًا له أسود اللون فتبناه، ويقال: بل أصاب دمًا فى كندة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود.

شهد بدرًا والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر فارسًا(١).

وهو من المسارعين إلى الإسلام، بل إنه من السبعة الذين قال عنهم ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد ـ رضى الله عنهم ـ».

مشهد لا توازيه الدنيا بما فيها

قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلىَّ مما على الأرض من شىء. قال: أتى النبى ﷺ وكان رجلاً فارسًا. قال: فقال: أبشر يا نبى الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ ولكن والذى بعثك بالحق لنكونن بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك حتى يفتح الله عليك(٢).

وفى رواية أخرى: «فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسرَّه ذلك».

ولقد كان هذا المشهد فى يوم بدر عندما خرج النبى ﷺ وأصحابه للقافلة، ولكن الأمر تحول إلى صدام مسلّح مع جبهة الكفر المتمثلة فى كفار قريش، فأراد النبى ﷺ أن

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

(٢) أخرجه البخارى مختصرًا (٤٦٠٩) وأحمد (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

يجمع الصف ويطمئن على وحدة الصف قبل الدخول في تلك المعركة التاريخية.

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه، وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال:٥، ٦]، وأما قادة الجيش؛ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرك الغماد، لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به[1].

وبلغت تلك الكلمات التي خرجت من هذا القلب الصادق مبلغًا عظيمًا في قلوب الصحابة حتى قام زعيم الأنصار سعد بن معاذ يسطِّر على جبين التاريخ سطوراً من النور والعظمة والنصرة لدين الله.

وذلك عندما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس. فقال له سعد ابن معاذ: والله لكأنك تريدُنا يا رسولَ الله؟ قال: «أجل».

قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشَهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عُهودَنا ومواثيقنا على السّمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك، فوالذي بَعَثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخُضته لخُضناه معك، ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تَلْقى بنا عدونّا غدًا.

إنا لَصُبُرٌ في الحَرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يُريك منّا ما تقرُّ به عينُك، فَسِرْ بنا على بَركة الله. فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك؛ ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وَعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مَصارع القوم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢) والنسائي في التفسير من الكبرى (٦/ ١١١٤٠)، وأحمد (١/ ٣٩٠، ٤٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود ـ نقلاً من الرحيق المختوم (ص: ٢١٧).

(٢) سبق تخريجه في ترجمة (سعد بن معاذ) ـ رضي الله عنه ـ.

ولم يكن مع المسلمين فى تلك الغزوة إلا فَرَسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن عمرو.

ولقد جعل النبى ﷺ على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو... وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش.

خوفه من المظالم

كان المقداد ـ رضى الله عنه ـ شأنه كشأن الصحابة ـ يخشى من المظالم خشية شديدة حتى دفعته خشيته من المظالم أن يسأل النبى ﷺ هذا السؤال:

قال: يا رسول الله! أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلنى، فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها، ثم لاذ منِّى بشجرة، فقال: أسلمت لله. أفأقتله يا رسول الله، بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله.

قال: فقلت: يا رسول الله إنه قد قطع يدى، ثم قال ذلك بعد أن قطعها. أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال»(١).

خوفه من الإمارة

ولقد كان المقداد حكيمًا على نفسه لا يوردها موارد التهلكة فهو يعلم أن الإمارة مسئولية وأمانة سيسأله الله عنها يوم القيامة فأراد أن يلقى الله خاليًا من مظالم العباد ومسئولية الإمارة.

قال المقداد ـ رضى الله عنه ـ: استعملنى رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعتُ، قال: «كيف وجدت الإمارة»؟ قلت: يا رسول الله! ما ظننتُ إلا أنَّ الناس كلهم خولٌ لى. والله لا ألى على عمل ما دمتُ حيًا(٢).

* * *

(١) أخرجه البخارى (٤٠١٩) المغازى ـ ومسلم (٩٥) الإيمان.. واللفظ له.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠) وصححه وأقره الذهبى.

حرصه على الغزو في سبيل الله

لقد كان حريصًا على الغزو فى سبيل الله فهو يشتاق إلى الشهادة، ولذا كان يحرص على حضور المشاهد كلها.

عن أبى راشد الحُبرانى قال: وافيتُ المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص على تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عظمه، يُريد الغزو، فقلتُ له: قد أعذر الله إليك. فقال: أبت علينا سورةُ البحوث ﴿انفِروا خِفافًا وثِقالاً﴾ [التوبة:٤١][1] ـ أى لم تدع لنا عُذرًا ـ.

حبه لرسول الله ﷺ

لقد امتلأ قلبه حبًا لرسول الله ﷺ حتى إنه كان يخشى عليه أشد من خشيته على نفسه.

فلم يكن تُسمع فى المدينة فزعة إلا ويكون المقداد فى مثل لمح البصر واقفًا على باب رسول الله ﷺ راكبًا على فرسه ممسكًا بسيفه خوفًا من أن يصاب النبى ﷺ بأى مكروه.

ولكنه ما كان ليستطيع أبدًا أن يدفع الموت عن الحبيب ﷺ.

فلما تُوفى النبى ﷺ أظلمت الدنيا كلها فى عينيه وكاد قلبه أن ينخلع من الحزن على فراق الحبيب ﷺ.

ولكن حسبُه أن سُنته ﷺ باقية بينهم لم تغب عنهم لحظة واحدة، فكان المقداد ـ رضى الله عنه ـ يرى النبى ﷺ فى كل سُنة تعلَّمها بين يدى الحبيب ﷺ.

وظل المقداد متأسيًا بسُنة الحبيب ﷺ إلى أن لقى ربه ـ عز وجل ـ.

* * *

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١١٥)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٧٦)، والحاكم (٣/ ٣٤٩)، وصححه، وابن جرير (١٠/ ١٣٩)، وسورة البحوث: هى التوبة سميت بذلك لما فيها من البحث عن المنافقين وكشف أسرارهم، وأعذر الله إليك: أى عذرك لثقل بدنك فأسقط عنك الجهاد، ورخّص لك فى تركه.

حكمة وبصيرة ثاقبة

وتتجلى حكمة المقداد فى هذا الموقف العظيم الذى أُقدمه لأمة الإسلام فى كل زمان لتعلم أن الخيال شيء والواقع شيء آخر.

فعن عبد الرحمن بن جُبير بن نُفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد يومًا، فمرَّ به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، فاستمعت فجعلتُ أعجبُ، ما قال إلا خيراً، ثم أقبل عليه، فقال (المقداد): ما يحملُ أحدكم على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله أقوامٌ كبَّهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يُجيبوه ولم يصدقوه، أوَ لا تحمدون الله، لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم، وقد كُفيتم البلاء بغيركم؟ والله لقد بُعث النبى ﷺ على أشد حال بُعث عليه نبى فى فترة وجاهلية، ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفُرقان حتى إن الرجل ليرى والده، أو ولده، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقرُّ عينهُ وهو يعلم أن حميمه فى النار، وأنها للتى قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤][(١)].

أيها الإخوة الكرام: إن كل مسلم يتمنى من قلبه أن لو كان قد عاش فى زمن النبى ﷺ ورآه... ولكن هل يضمن أحدنا أنه سيكون صحابيًا فى ذلك الوقت ينصر رسول الله ﷺ ويذبّ عنه ويدافع عن شرعه؟ أم أنه سيكون ممن حاربوه وحاولوا قتله مراراً وتكراراً.

إذن.. فلنحمد الله ـ جل وعلا ـ أن أنعم علينا بنعمة الإسلام من غير مشقة ولا عناء، وليكن همنا أن نموت على ملة الإسلام امتثالاً لأمر الله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

كرمٌ ليس له مثيل

وعن كريمة بنت المقداد، أن المقداد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفًا، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم[1].

وتوفى المقداد ـ رضى الله عنه ـ فى سنة ثلاث وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع ـ رضى الله عنه ـ[2].

وهكذا رحل أول من عدا بفرسه فى سبيل الله ليكون واحدًا من هؤلاء الصحب الكرام الذين يدخلون الجنة قبل الأمم كلها برحمة الله وليصحب الحبيب ﷺ فى جنة الرحمن بفضل الله ولينظر فى الجنة إلى وجه الجليل ـ بإذن الله ـ.

فرضى الله عن (المقداد) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٨٩).

(٢) ابن سعد (٣/ ١/ ١١٥) والحاكم (٣/ ٣٤٨).

كعب بن مالك

أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك

محمد رسول الله ﷺ

ما أجمل التوبة حينما تخرج من قلبٍ صادق عرف الله فأحبه وأخلص النية لله ـ جل وعلا ـ.

فلقد دعانا الله للتوبة فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم:٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

وأخبر الحبيب ﷺ أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن.

قال ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس منّ راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال ـ من شدة الفرح ـ اللهم أنت عبدي وأنا ربك... أخطأ من شدة الفرح»[1].

وقال الله ـ جل وعلا ـ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا

---

(١) متفق عليه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٥٠٣٣) وأخرجه مسلم عن أنس ـ صحيح الجامع (٥٠٣٠) ومتفق عليه عن أنس باختصار ـ صحيح الجامع (٥٠٣١).



أبالي. يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقُراب الأرض خطايا ـ أي بقرب ما يملأ الأرض من الخطايا ـ ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[١].

ونحن إذا ذكرنا التوبة فلا نستطيع بحالٍ من الأحوال أن ننسى كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

إنه كعب بن مالك الخزرجي العَقبي الأُحدي.

شاعرُ رسول الله ﷺ وصاحبه، وأحدُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا ـ في غزوة تبوك ـ فتاب الله عليهم.

وقيل: كانت كنيته في الجاهلية: أبا بشير.

وقال ابن أبي حاتم: كان كعبٌ من أهل الصُّفَّة. وذهب بصرهُ في خلافة معاوية[٢].

وقد ذكره عُروة في السبعين الذين شهدوا العقبة[٣].

أسلم مبكرًا وامتلأ قلبه حبًا لله ولرسول الله ﷺ واستعمل قدرته على الشعر في الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ.

قبيلة تسلم لما سمعت بيتًا من شعره

قال ابن سيرين: كان شعراءُ أصحاب رسول الله ﷺ: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب ابن مالك.

قال عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه: أنه قال: يا رسول الله، قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل. قال: «إنَّ المُجاهد، مُجاهدٌ بسيفه ولسانه؛ والذي نفسي بيده [لكأنما] ترمونهم به نُضح النَّبل»[٤].

قال ابن سيرين: أما كعبٌ، فكان يذكر الحربَ، يقولُ: فعلنا ونفعلُ، ويتهددهم. وأما حسانُ، فكان يذكرُ عيوبهم وأيامهم. وأما ابنُ رواحة، فكان يُعيِّرهم بالكفر.

---

(١) رواه الترمذي والضياء عن أنس ـ صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٢) الجرح والتعديل (٧/ ١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) السير للإمام الذهبي (٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٥٠٠) وعنه أحمد (٦/ ٣٨٧) من طريق معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، وقال الأرنؤوط: وهذا سند صحيح.

وقد أسلمت دوس فَرَقًا ـ خوفًا ـ من بيت قاله كعبٌ:

نُخَيِّرها ولو نطقتْ لقالتْ ... قواطعُهُن دوسًا أو ثقيفـا[(١)]

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك: «ما نسي ربُّك لك ـ وما كان ربُّك نسيًا ـ بيتًا قُلته». قال: ما هو؟ قال: «أنشده يا أبا بكر»، فقال:

زعمت سَخينة أن ستغلب ربها ... وليُغلَبن مُغـالب الغـلاب[(٢)]

فما أعظمها من منقبة عظيمة وضعها النبي ﷺ على جبين كعب بن مالك كأنها تاج طمس ضوءه ضوء الشمس والقمر.

وعن ابن إسحاق، قال: آخى رسول الله ﷺ بين طلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك.

وقيل: بل آخى بين كعب والزبير.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ آخى بين الزبير وكعب ابن مالك، فارتُثَّ[(٣)] كعب يوم أُحُد، فجاء به الزبير، يقوده، ولو مات يومئذ، لورثه الزبير، فأنزل الله: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال:٧٥][(٤)].

جهاده في سبيل الله

ولقد أبلى كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يوم أُحدٍ بلاءً حسنًا،وبذل نفسه خالصة لله ـ جل وعلا ـ.

قال ـ رضي الله عنه ـ: لما انكشفنا يوم أُحُد، كنتُ أول من عرف رسول الله ﷺ،

---

(١) أسد الغابة (٤/ ٤٨٤)، والإصابة (٨/ ٣٠٥)، وقوله: «نخيرها» الضمير يعود إلى السيوف في البيت قبله وهو:

قضينا من تهامة كُل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

أي: نعطيها الخيرة، ولو نطقت، لاختارت أن نحارب دوسًا أو ثقيفًا. وهما من قصيدة أوردها ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٧٩، ٤٨٠) قالها كعب حين فرغ النبي ﷺ من حنين، وأجمع المسير إلى الطائف.

(٢) الخبر أورده صاحب كنز العمال (٣/ ٥٨١) ونسبه لابن منده وابن عساكر. والسخينة طعام من دقيق وسمن أو دقيق وتمر، وكانت قريش تكثر من أكلها فعُيرت به حتى لُقبوا «سخينة».

(٣) الارتثاث: أن يُحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف. قد أثخنته الجراح.

(٤) قال الأرنؤوط: رجال ثقات، وأورده ابن كثير بنحوه (٣/ ٤٦٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٠٧) وزاد نسبته إلى ابن سعد والحاكم وابن مردويه.

وبشَّرتُ به المؤمنين حيًا سويًا ، وأنا فى الشِّعب . فدعا رسول الله ﷺ كعبًا بلأمته ـ وكانت صفراء ـ فلبسها كعبٌ، وقاتل يومئذ قتالاً شديدًا، حتى جُرح سبعة عشر جُرحًا(١).

تخلفه عن غزوة تبوك وتوبة الله عليه

ترامت الأنباء إلى النبى ﷺ وأصحابه بالمدينة أن الروم تستعد للقيام بغزوة حاسمة للقضاء على الإسلام والمسلمين فأراد النبى ﷺ أن يخرج إليهم قبل أن يأتوا إلى المدينة.

قال ابن كثير رحمه الله: ولما أنزل الله ـ عز وجل ـ على رسول الله ﷺ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك فى رجب سنة تسع(٢).

وهـذه الغزوة هى التى تسمى بغزوة العُسرة، للظروف الشديدة التى خرج فيها رسول الله ﷺ من شدة الحر، ومن القحط الذى كان فى المدينة فى هذا الوقت، ومن السفر الطويل الذى ينتظره، فانتدب النبى ﷺ الناس للبذل، فقال ﷺ: «من جهّز جيش العُسرة فله الجنة»، فجاء عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بألف دينار فصبها فى حجر النبى، والنبى ﷺ يقول: «ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»(٣).

وجعل فقراء المسلمين يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيرًا، والمنافقون يسخرون من هؤلاء وهؤلاء فيتهمون أهل الغنى والبذل العظيم بالرياء والسمعة، والفقراء بأن الله عن يسير صدقتهم لغنى.

وفضحهم الله ـ عز وجل ـ فى سورة التوبة التى تسمى بالفاضحة، حيث إنها فضحت المنافقين وأظهرت فساد نياتهم وسوء أقوالهم وأعمالهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣) والمستدرك (٣/ ٤٤١).

(٢) الفصول فى اختصار سيرة الرسول ﷺ لابن كثير (١٨٧).

(٣) رواه البخارى مختصراً (٥/ ٤٧٧) الوصايا، والترمذى (١٣/ ١٥٣) المناقب.

سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ [التوبة:٧٩](١).

ففي مثل هذه الظروف القاسية والشدائد المتتابعة يظهر صدق الصادقين، وإيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما ظهر النفاق يوم أُحد ويوم الخندق، وامتدح الله ـ عز وجل ـ في نهاية سورة التوبة (التي نزل أكثرها في هذه الغزوة) المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ [التوبة:١١٧].

وتاب ـ عز وجل ـ كذلك على الثلاثة من المؤمنين الصادقين الذين لم يتخلفوا نفاقًا، وصدقوا الله ورسوله في أنهم لم يكن لهم أعذار تبيح لهم التخلف، فكان الصدق سبب نجاتهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي... وكعب ممن شهد العقبة، ومرارة وهلال بدريان سبقت لثلاثتهم السعادة، وسبقوا إلى الإيمان والعبادة.

أما المنافقون فسلكوا مسالك شتَّى، فمنهم من اعتذر قبل الخروج وتعلل بالعلل الباطلة، قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [التوبة:٤٩]، فكانوا يظهرون خلاف بواطنهم وفضح الله ـ عز وجل ـ بواطنهم فقال تعالى: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون﴾ [التوبة:٨١]، فكان الدافع الحقيقي للتخلف هو أنهم بخلوا بالبذل في سبيل الله ـ عز وجل ـ وذلك لفقدهم الإيمان الصادق والرغبة فيما عند الله ـ عز وجل ـ من الثواب العظيم والمقام الكريم.

والدافع إلى البذل والجهاد هو الإيمان والاحتساب قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [الحجرات:١٥].

---

(١) عن ابن مسعود قال أُمرنا بالصدقة قال: كنا نحامل قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع قال: وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾. ولم يلفظ بشر بالمطوعين ـ رواه مسلم (٧/ ١٠٥) الزكاة.

ومن هؤلاء من خرج مع رسول الله ﷺ وقد بالغ فى الإيذاء والاستهزاء برسول الله ﷺ وخيار أصحابه كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥ ـ ٦٦].

وفى مقابلة هؤلاء المنافقين ظهر أيضًا صدق الصادقين وإيمان المؤمنين ، فمن هؤلاء النفر الكرام الذين اشتاقوا إلى الجهاد وصحبة سيد العباد، ولكنهم من الفقر بحيث إنهم لا يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم للغزو وليس عندهم ما يحملهم، فذهبوا إلى النبى ﷺ فاعتذر إليهم بعدم وجود ما يحملهم فعادوا كما وصفهم الله ـ عز وجل ـ أبلغ وصف وأزكاه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

وهم ولا شك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله وهو عائد من تبوك. «لقد خلّفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم فى الأجر حبسهم المرض»(١).(٢)

أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك

بتلك الكلمات العذبة الندية استقبل النبى ﷺ كعب بن مالك يوم أن أنزل الله توبته عليه من فوق سبع سماوات.

وما أجمل أن نتعرف على تلك القصة من صاحبها المبارك (كعب بن مالك) ـ رضى الله عنه ـ.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك، غير أنى

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) الإمارة، وقال النووى: وفى هذا الحديث فضيلة النية فى الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه والله أعلم ـ النووى على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧).

(٢) بتصرف من وقفات تربوية مع السيرة النبوية/ أحمد فريد (ص: ٣٦١: ٣٦٥).

كنت تخلفتُ في غزوة بدر. ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدُ عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكَر في الناس منها... كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ـ تبوك ـ والله ما اجتمعت عندي قبلهُ راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوًا كثيرًا فجلَّى للمسلمين أمرهم ـ وضَّح ـ ليتأهبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتابٌ حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعبٌ: فما يريدُ رجلٌ أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئًا فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناسِ الجدُّ فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا فقلت: أتجهزُ بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت ثم رجعتُ ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو. وهممت أن أرتحلَ فأدركهم وليتني فعلت فلم يُقدَّر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه النفاقُ أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء . ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك «ما فعل كعب؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله ﷺ حبسهُ بُرداه ونظرهُ في عطفه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه. وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ـ فقبل منهم رسول الله ﷺ

علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جَدلاً - مهارة فى الكلام - ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يُسخطك علىَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ علىَّ فيه إنى لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقُم حتى يقضى الله فيك» فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأُكَذِّب نفسى ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم رجلان. قالا مثل ما قلت، فقيل لهما ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمرى، وهلال ابن أمية الواقفى. فذكروا رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لى. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة[1] من بين مَن تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشَبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحدٌ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: هل حرَّك شفتيه بردّ السلام علىَّ أم لا؟ ثم أصلى قريبًا منه فأُسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىَّ، وإذا التفتّ نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة الناس مشيتُ حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى وأحب الناس إلىَّ فسلمت عليه فوالله ما رد علىَّ السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار قال: فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نَبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب ابن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له. حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه

(١) أيها الثلاثة: مبنى على الضم فى محل نصب على الاختصاص. أى متخصصين بذلك دون بقية الناس.

بلغنى أن صاحبك قد جفاك ـ يقصد النبى ﷺ ـ ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتُه بها ـ حرقته ـ حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرُك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبىّ مثل ذلك. فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال كعبٌ: فجاءت امرأةٌ هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صُبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله: قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرضُ بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل (سلع) بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرجٌ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلىّ رجلٌ فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعتُ له ثوبى فكسوته إياها ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنؤنى بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.. قال كعب:فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله

ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به.. والله ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.. وأنزل الله على رسوله:

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٧:١١٨].

فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط ـ بعد أن هداني للإسلام ـ أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٩٥، ٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا (أيها الثلاثة) عن أمر أولئك الذي قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[١].

وهكذا تكون التوبة الصادقة التي لا يشوبها كذب ولا نفاق.

إنها التوبة التي تثمر المغفرة في الدنيا والرحمة في الآخرة، بل والنعيم المقيم الذي لا

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) وأحمد (٦/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).

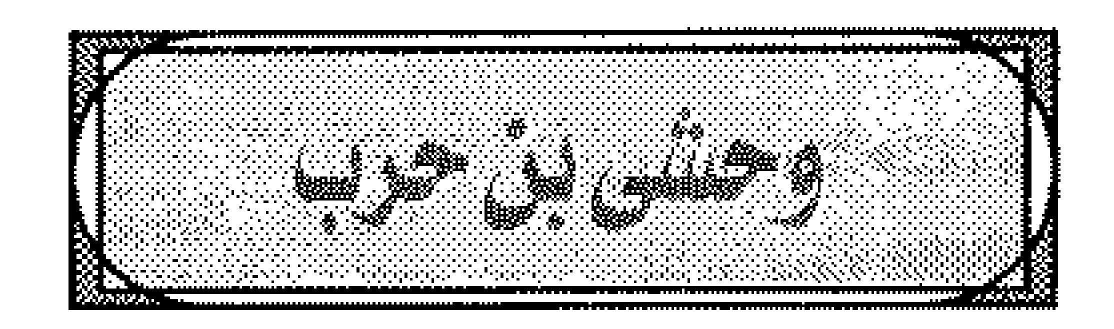
يزول ولا يفنى فى جنات الخلود التى فيها ما لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعاش (كعب) ـ رضى الله عنه ـ طوال عمره تائبًا صادقًا مخبتًا عابدًا لله جل وعلا إلى أن نام على فراش الموت ورحل عن الدنيا ليلقى حبيبه ﷺ **وأصحابه** ـ رضى الله عنهم ـ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن (كعب) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *





قتلت خير الناس .. وقتلت شر الناس

وحشى بن حرب (رضى الله عنه)

إنه الصحابى الذى عاش حزينًا ومات حزينًا.

فقد كان مولى من الموالى عند (جبير بن مطعم) وهو يتمنى أن يغمض عينيه ثم يفتحها فيجد نفسه حُرًا طليقًا. وجاءته تلك الفرصة، ولكن بكل أسف كان ثمن تلك الحرية أن يقتل عم النبى ﷺ حمزة ـ أسد الله وأسد رسول الله ﷺ ـ فكانت تلك الحادثة نقطة سوداء فى حياة هذا الصحابى حتى بعد إسلامه.

فدعونا نعرف قصته كما حكاها بنفسه ـ رضى الله عنه ـ.

قصة مقتل حمزة على يد وحشى (رضى الله عنهما)

عن جعفر بن عمر بن أُمية الضَّمْرى، قال: خرجتُ أنا وعُبيد الله بن عدى بن الخيار، أخو بنى نوفل ابن عبد مناف، فى زمان معاوية بن أبى سفيان، فأدربنا[1] مع الناس، فلما قفلنا مررنا بحمْص ـ وكان وحشى، مولى جُبير بن مُطعم، قد سكنها، وأقام بها ـ فلما قدمناها، قال لِى عبيد الله بن عدى: هل لك فى أن نأتى (وحشيًا) فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله؟ قال: قلت له: إن شئت، فخرجنا نسأل عنه (بحمْص) فقال لنا رجل، ونحن نسأل عنه: إنكما ستجدانه بفناء داره، وهو رجلٌ قد غلبت عَليه الخمر، فإن تجداه صاحيًا تجدا رجلاً عربيًا، وتجدا عنده بعض ما تُريدان، وتُصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه، وإن تجداه وبه بعضُ ما يكون به، فانصرفا عنه ودعاه... قال: فخرجنا نمشى حتى جئناه، فإذا هو بفناء داره على طِنفسة[2] له فإذا شيخٌ كبير مثل البُغاث.

---

(١) فأدربنا مع الناس: أى جزنا الدروب ـ والدروب جمع درب وهو الموضع الحاجز بين بلاد الإسلام وبلاد العجم.

(٢) طنفسة: بكسر الطاء وفتح الفاء جمعها الطنافس وهى البُسط والثياب والحصير والطنفسة بضم الفاء الأخيرة عن كراع النمرقة فوق الرحل وجمعها طنافس وقيل هى البساط الذى له خمل رقيق.

قال ابن هشام: البغاث: ضرب من الطير [إلى السواد].

فإذا هو صاحٍ لا بأس به. قال: فلما انتهينا إليه سلَّمنا عليه، فرفع رأسه إلى عبيد الله ابن عدي، فقال: ابنٌ لعديّ بن الخيار أنت؟ قال: نعم؛ قال: أما والله ما رأيتك منذ ناولتك أُمك السعدية التى أرضعتك بذى طُوى(١)، فإنى ناولتكها وهى على بعيرها، فأخذتك بعُرضيك، فلمعت لى قدماك حين رفعتُك إليها، فوالله ما هو إلا أن وقفت علىّ فعرفتها. قال: فجلسنا إليه، فقلنا له: جئناك لتحدّثنا عن قتلك حمزة، كيف قتلته؟.

فقال: أما إنى سأحدّثكما كما حدَّثت رسول الله ﷺ حين سألنى عن ذلك.

كُنتُ غلامًا لجُبير بن مُطعم، وكان عمه طُعيمة بن عدىّ قد أُصيب يوم بدر؛ فلما سارت قريش إلى أُحد، قال لى جُبير: إن قتلتَ حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، قال: فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلَّما أُخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة، وأتبصَّره، حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق، يهُدُّ الناس بسيفه هدًا، ما يقومُ له شيء، فوالله إنى لأتهيأ له، أُريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدَّمنى إليه سباعُ بن عبد العُزى؛ فلما رآه حمزة قال: هَلُمَّ يابن مُقطِّعة البُظور. قال: فضربه ضربة كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززتُ حربتى، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتُها عليه، فوقعت فى ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى، فغُلب، وتركتُه وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذتُ حربتى، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدتُ فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلتُه لأُعتق.

فلما قدمت مكة أُعتقتُ، ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسولُ الله ﷺ مكة هربتُ إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسلموا تعيَّتْ علىّ المذاهب فقلت: ألحق بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنى لفى ذلك من همّى إذ قال لى رجل: ويحك! إنه والله ما يقتُل أحدًا من الناس دخل فى دينه، وتشهَّد شهادته. فلما قال لى ذلك، خرجتُ حتى قَدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يَرُعْهُ إلا بى قائمًا على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ، [فلما] رآنى قال: «أوحشى؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «اقعُد فحدِّثنى كيف قتلت حمزة»، قال: فحدّثته كما حدثتكما، فلما فرغتُ من حديثى قال: «وَيْحَكَ! غَيِّب عنى وجهك»، فلا أُرَيَنَّك. قال: فكنتُ أتنكَّبُ

(١) ذى طوى: موضع بمكة.

رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يرانى، حتى قبضه الله ﷺ(١).

ثم قال وحشى: وعلى الرغم من أنى عرفت بأن الإسلام يَجُبُّ(٢) ما قبله، فقد ظللت أستشعر فداحة الفعلة التى اجترحتها(٣)، وأستفظع الرزء(٤) الجليل الذى رزأت به الإسلام والمسلمين، وطفقت أتحين الفرصة التى أكفِّر بها عما سلف منى.

فلما لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى، وآلت خلافة المسلمين إلى صاحبه أبى بكر، وارتدت بنو «حنيفة» أصحاب مُسيلمة الكذاب مع المرتدين، جهَّز خليفة رسول الله ﷺ جيشًا لحرب مُسيلمة، وإعادة قومه بنى «حنيفة» إلى دين الله.

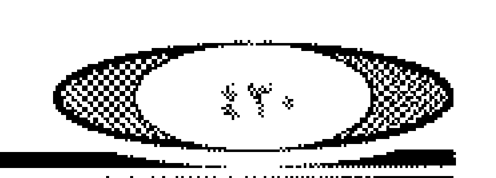
فقلت فى نفسى: إن هذه ـ والله ـ فُرصتك يا وحشى فاغتنمها، ولا تدعها تُفلتُ من يديك. فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم، وأخذت حربتى التى قتلتُ بها حمزة؛ فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائمًا فى يده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له، وتهيأ له رجلٌ من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يُريده، فهززتُ حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشدَّ عليه الأنصارىُّ فضربه بالسيف، فربُّك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته، فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ (حمزة)، وقد قتلت شرَّ الناس (مسيلمة)(٥).

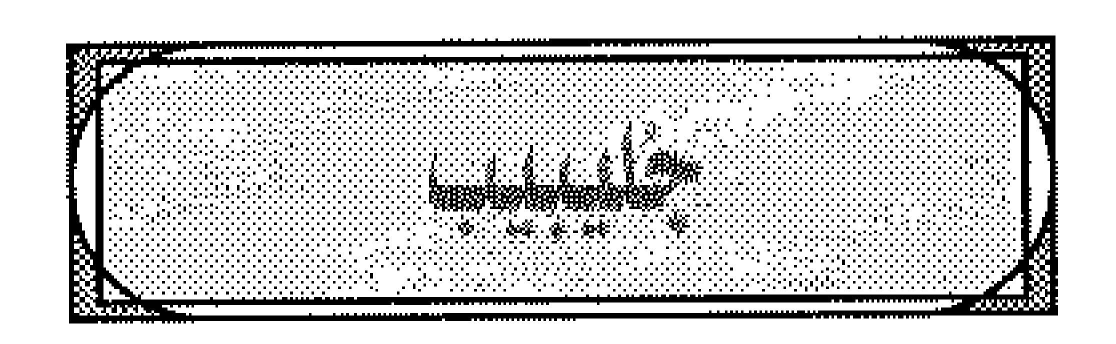
وهكذا يجب على المسلم أن يستدرك ما فاته وأن يتبع السيئة بالحسنة كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤] وأن يجتهد طوال عمره فى طاعة الله وأن يغتنم كل لحظة من عمره فى خدمة هذا الدين فإن الإنسان (أيام) فإذا ذهب يومه ذهب بعضه... وعندما يعاين الإنسان الحقيقة فى قبره وفى يوم القيامة سيندم على كل لحظة مضت من عمره فى غير طاعة الله والعمل لنُصرة دين الله.

وشهد وحشى اليرموك ثم سكن (حمص) ومات بها.

فرضى الله عنه وأرضاه وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٤٠٧٢) مع الفتح ـ كتاب المغازى.
(٢) يَجُبُّ ما قبله : يمحو ما قبله من الذنوب.
(٣) اجترحتها: ارتكبتها.
(٤) الرزء الذى رزأت به الإسلام: المصيبة التى أصبتُ بها الإسلام.
(٥) السيرة لابن هشام (٣/ ٣٣).





قال ﷺ : « هذا منى وأنا منه »

قال ﷺ: «إن الله تعالى: لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

ونحن على موعد مع رجلٍ لا يملك جمال الخلقة، ولكن يمتلك جمال الخُلق.. إنه ليس جميل المظهر، ولكنه نقيّ السريرة يحمل إيمانًا فى قلبه أشد رسوخًا وثباتًا من الجبال.

إنه صحابى جليل من الأنصار الذين جعل الله حبهم سببًا للفوز بمحبة الله ـ جل وعلا ـ.

قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يحب الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله إلا لقى الله وهو يحبه، ولا يبغض الأنصار رجلٌ حتى يلقى الله إلا لقى الله وهو يبغضه»(٢).

فالمقاييس البشرية القاصرة تختلف تمامًا عن المقاييس الإلهية، فقد يكون الإنسان مذمومًا فى أعين الناس، وهو عند الله من أفضل الناس... ولذا قال ﷺ موضحًا ذلك: «رُبَّ ذى طمرين لا يؤبهُ له لو أقسم على الله لأبرَّهُ»(٣).

وها هو النبى ﷺ يشهد للصحابى الجليل (جُلَيبيب) بأنه صاحب مكانة عظيمة عند ربه ـ عز وجل ـ فعن أنس قال: كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يقال له جُليبيب فى وجهه دمامة، فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج قال: إذًا تجدنى كاسدًا فقال: «غير أنك عند الله لست بكاسد»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٨٦٢).
(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن الحارث بن زياد الأنصارى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٧٩).
(٣) رواه البزار عن ابن مسعود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨٧).
(٤) رواه أبو يعلى (٦/ ٨٩) عن أنس ـ وقال العدوى: إسناده حسن.

تلك هى المقاييس الإلهية التى تسقط أمامها مقاييس البشر أصحاب العقول القاصرة والمَلكات المحدودة.

لقد أسلم (جليبيب) ولامس الإيمان شغاف قلبه فأحسَّ بتلك النعمة وتعايش معها فى صلاته.. فى صيامه.. فى قراءته للقرآن... فى ذكره للرحمن... فى إحسانه إلى الناس من حوله... بل فى كل شىء.

فكانت له مكانة عالية وسامقة عند ربه ـ جل وعلا ـ على الرغم من أنه قد لا يمتلك المال أو الجمال، لكنه يمتلك قلبًا يحب الكبير المتعال.

فى الوقت الذى قد نجد فيه أُناسًا يمتلكون المال والجمال، بل وأعلى المناصب والدرجات، وقد رفعهم الناس إلى أعلى مكانة فى قلوبهم **مع أنهم فى الحقيقة أهون على الله من الدواب والهوام؛ لأنهم لم يشعروا بنعمة الإسلام ولم يتبعوا سيد الأنام ﷺ ولم يؤمنوا بالله ـ جل جلاله ـ.**

ومنذ أن أسلم (جليبيب) ـ رضى الله عنه ـ أصبح ملازمًا للنبى ﷺ يأخذ من علمه وهديه وأخلاقه ما يتزود به فى دنياه وأُخراه.

ولقد أحبَّ النبى ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده حتى إنه كان لا يستطيع أن يتأخر لحظة واحدة عن تنفيذ ما يأمره به الحبيب ﷺ.

يأبى الله إلا أن يزوجه من الحور العين

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ **[الأحزاب:٣٦].**

وها نحن نعيش من خلال تلك الكلمات مع ثمرة من ثمرات السمع والطاعة لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ.

فها هو جليبيب ـ رضى الله عنه ـ يريد أن يتزوج امرأة من نساء الدنيا، فيأبى الله إلا أن يزوجه من الحور العين.

فعن أبى برزة الأسلمى: «أن جليبيًا كان امرأً من الأنصار، وكان أصحاب النبى ﷺ إذا كان لأحدهم أيِّم ـ فتاة ـ لم يزوجها حتى يُعلِمَ النبى ﷺ: هل له فيها حاجة أم لا؟

فقال رسول الله ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار: «يا فلان زوجنى ابنتك». قال نعم،

ونعمة عين. قال:«إنى لست لنفسى أريدها» قال: لمن؟ قال:«لجليبيب» قال: يا رسول الله حتى أستأمر أمها.

فأتاها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. قالت: نعم، ونعمة عين، زوِّج رسول الله. قال: إنه ليس لنفسه يريدها. قالت: فلمن؟ قال: لجليبيب. قالت: أجليبيب؟ لا لعمر الله لا أزوج جليبيبًا.

فلما قام أبوها ليأتى النبى ﷺ قالت الفتاة من خِدرها لأبويها: مَن خطبنى إليكما؟ قالا: رسول الله ﷺ .

قالت: أفتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعونى إلى رسول الله فإنه، لن يضيعنى.

فذهب أبوها إلى النبى ﷺ فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبًا.

قال إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة لثابت: أتدرى ما دعا لها به النبى ﷺ ؟

قال: وما دعا لها به النبى ﷺ ؟

قال: «اللهم صُبّ عليها الخير صبًا ولا تجعل عيشها كدًا كدًا».

قال ثابت: فزوجها إياه، فبينما رسول الله ﷺ فى مغزى له ـ غزوة ـ قال: «هل تفقدون من أحد؟».

قالوا: نفقد فلانًا ونفقد فلانًا.

ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟».

قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا.

ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟».

قالوا: لا.

قال: «ولكنى أفقد جليبيبًا فاطلبوه فى القتلى».

فنظروا فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه.

فقال رسول الله ﷺ : «هذا منى وأنا منه، أَقَتَلَ سبعة ثم قتلوه؟ هذا منى وأنا منه، أقتل سبعة ثم قتلوه؟ هذا منى وأنا منه».

فوضعه رسول الله ﷺ على ساعديه ثم حفروا له، ما له سرير إلا ساعدى رسول الله ﷺ ، حتى وضعه فى قبره.



قال ثابت: فما فى الأنصار أيّم أنفق منها[١].

وفى رواية للبزار: «فكأنما حلَّت عن أبويها عقالاً».

وهذا كله ثمرة من ثمرات السمع والطاعة.

وأما عن جليبيب فقد أبى الله إلا أن يرزقه الشهادة فى سبيله ليزوجه من الحور العين.

فإنه ما إن سمع منادى الجهاد: يا خيل الله اركبى - وكان فى هذا اليوم سيدخل على عروسه الجميلة - فتركها ولم يدخل عليها وآثَر الجهاد فى سبيل الله ففاز بالشهادة فى سبيل الله تعالى ليزوجه الله من الحور العين فى تلكم الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى الله عن (جليبيب) وعن أصحاب الحبيب ﷺ

* * *

(١) قال الهيثمى: هو فى الصحيح خاليًا عن الخطبة والتزويج. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد (١٥٩٧٧).

عبد الله بن عباس

اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل

محمد رسول الله ﷺ

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجَدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب.. قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ لكُميل: «احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالم ربانى، وعالم متعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق، العلم خير من المال، فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال يُنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يُدانُ بها باكتساب الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته وصنيعه، وصنيعة المال تزول بزوال صاحبه، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة».

وها نحن على موعدٍ مع ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ حَبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير.. ابن عم رسول الله ﷺ يكنى أبا العباس. وُلد فى الشِعب وبنو هاشم محصورون قبل خروجهم منه بيسير، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين.

وتوفى النبى ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان حَبر الأمة ويسمى البحر لغزارة علمه، وكان عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ يدعوانه فيشير عليهما مع أهل بدر، وكان يفتى فى عهدهما إلى أن مات(١).

صَحِب النبى ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً. وكان وسيمًا، جميلاً، مديد القامة، مهيبًا، كامل العَقل، ذكىَّ النفس، من رجال الكمال.

انتقل ابنُ عباس مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح، وقد أسلم قبل ذلك، فإنه صحَّ عنه أنه قال: كنت أنا وأُمى من المستضعفين؛ أنا من الولدان، وأُمى من النساء(٢).

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٢١).

(٢) أخرجه البخارى (٨/ ١٩٢) ـ والطبرى فى تفسيره (١٠٢٧٠).

ومنذ اللحظة الأولى للقائه بالنبى ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ كان لا يترك فرصة لطلب العلم إلا اغتنمها فلم يترك لحظة من عمره تمر بلا فائدة ـ وتلك والله صفات أصحاب الهمة العالية ـ.

النبى ﷺ يبشر أبويه بأعظم بشرى

ولقد بشَّر النبى ﷺ أبويه به قبل مولده وبأنه سيكون له شأن عظيم.

فعن ابن عباس، قال: «حدَّثتنى أم الفضل بنت الحارث قالت: بينا أنا مارَّة والنبى ﷺ فى الحِجْر فقال: «يا أمَّ الفضل» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «إنك حاملٌ بغلام» قلت: كَيف وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء؟ قال: «هو ما أقول لك، فإذا وضعتيه فأتينى به» فلما وضعتُه أتيتُ به النبىَّ ﷺ فسمَّاه عبد الله وألباه[1] بريقه، قال: «اذهبى به، فلتجدنه كيِّسًا» قال:فأتيت العباس فأخبرته، فتبسم، ثم أتى النبى ﷺ ، وكان رجلاً جميلاً، مديد القامة، فلما رآه النبى ﷺ قام إليه فقبَّل ما بين عينيه وأقعده عن يمينه، ثم قال: «هذا عمى، فمن شاء فليباه بعمه» فقال العباس: بعض القول، يا رسول الله، قال: «ولم لا أقول وأنت عمى، وبقية آبائى، والعمُّ والدٌ»[2].

طلبه للعلم وفوزه بدعاء النبى ﷺ له

وأنا لا أشك لحظة واحدة فى أن من أعظم أسباب نبوغه فى العلم ورسوخه فيه هو فوزه بدعاء النبى ﷺ له.

عن ابن عباس قال: ضمَّنى النبىُّ ﷺ إلى صدره وقال: «اللهم علِّمه الحكمةَ»[3].

وفى رواية قال: «مسح النبى ﷺ رأسى ودعا لى بالحكمة»[4].

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان فى بيت ميمونة فوضعتُ له وضوءاً من الليل قال: فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: «اللهم فقِّهه فى الدين وعلِّمه التأويل»[5].

---

(١) أى: حنَّكه بريقه ﷺ.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٥٥١٤): رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٣) أخرجه البخارى (٣٧٥٦) ـ والترمذى (٣٨٢٤) وأحمد (١/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه البخارى (١/ ١٥٥) العلم ـ والترمذى (٣٨٢٤) وابن ماجه (١٦٦).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٨) والحاكم (٣/ ٥٣٤) وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

وعن ابن عباس قال: دعا لى رسول الله ﷺ أن يؤتينى الحكمة مرتين[1].

أدبه ـ رضى الله عنه ـ مع النبى ﷺ

عن ابن عباس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليتُ خلفه فأخذ بيدى فجرَّنى فجعلنى حذاءه، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خَنَست ـ تواريت ورجعت للوراء ـ فصلى رسول الله ﷺ فلما انصرف قال لى: «ما شأنى أجعلك حذائى فتخنس» فقلت: يا رسول الله أوَ ينبغى لأحد أن يُصلِّى حذاءك، وأنت رسول الله الذى أعطاك الله؟ قال: فأعجبته فدعا الله لى أن يزيدنى علمًا وفهمًا قال: ثم رأيتُ رسول الله ﷺ نام حتى سمعته ينفخُ ثم أتاه بلالٌ فقال: يا رسول الله الصلاة فقام فصلى ما أعاد وضوءًا[2].

ابن عباس (رضى الله عنهما) يرى جبريل (عليه السلام)

عن ابن عباس، قال: كنت مع أبى عند النبى ﷺ وكان كالمُعرض عن أبى، فخرجنا من عنده، فقال: ألم تر ابن عمك كالمعرض عنى؟ فقلت: إنه كان عنده رجلٌ يُناجيه. قال: أو كان عنده أحدٌ؟ قلتُ: نعم. فرجع إليه، فقال: يا رسول الله، هل كان عندك أحدٌ؟ فقال لى: «هل رأيته يا عبد الله»؟ قال: نعم. قال: «ذاك جبريل فهو الذى شغلنى عنك»[3].

الوصية الخالدة من النبى ﷺ لابن عباس

ولقد أحبَّ النبى ﷺ ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ حبًا جمًا مَلَك عليه قلبه.. وفى يومٍ فى الأيام أراد الحبيب ﷺ أن يوصيه وصية جامعة تنفعه فى دينه ودنياه فكانت هذه الوصية.

عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا

(١) رواه الترمذى (٣٨٢٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب ـ وابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢/ ١١٩).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥) وقال العدوى: وإسناده صحيح.
(٣) وأورده الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٧٩) وقال: رواه أحمد والطبرانى بأسانيد ورجالها رجال الصحيح.

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف»[١].

ويلفظ آخر عن ابن عباس قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غلام ـ أو يا غليم ـ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[٢].

العباس يوصي ابنه بحب الله (جل وعلا)

عن عبد الله بن إبراهيم القرشي قال: لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت قال لابنه عبد الله: إني موصيك بحب الله وحب طاعته، وخوف الله وخوف معصيته، وإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متى أتاك[٣].

حرصه الشديد على طلب العلم

لقد كان استعداده العقلي وذكاؤه يدفعانه إلى السير في طلب العلم بخطوات ثابتة، بل وسريعة ولهذا نجد أنه قد حصَّل من العلم في سنوات معدودة ما لم يحصله غيره في عمره كله.

وبعد وفاة الحبيب ﷺ لزم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أصحاب الحبيب ﷺ ليتعلم منهم ما فاته من العلم وكان صاحب همة عالية لا يملّ أبدًا من كثرة السؤال والتكرار والذهاب إلى طلب العلم.

عن ابن عباس قال لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس

---

(١) رواه أحمد والترمذي، واللفظ له. وأبو يعلى في مسنده، وابن السني في عمل اليوم والليلة، عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) رواه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان، وفي الأسماء والصفات.

(٣) استنشاق نسيم الأنس (ص ١٢٨).

يحتاجون إليك وفى الناس من أصحاب النبى ﷺ من ترى؟ فترك ذلك وأقبلت على المسألة فإن كان ليبلغنى الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل(١)، فأتوسد ردائى على بابه فتسفى الريح على وجهى التراب، فيخرج فيرانى فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلىَّ فآتيك؟! فأقول: أنا أحق أن آتيك... فأسأله عن الحديث قال: فبقى الرجل حتى رآنى وقد اجتمع الناس علىَّ فقال: كان هذا الفتى أعقل منى(٢).

ولما فُتحت البلاد آثر ابن عباس من أجل العلم ظمأ الهواجر فى دروب المدينة ومسالكها على الظلال الوارفة فى بساتين الشام، وسواد العراق، وشطآن النيل ودجلة والفرات، قال ـ رضى الله عنه ـ: «لما فُتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا، وأقبلتُ على عمر ـ رضى الله عنه ـ».

«كنت آتى باب أُبىِّ بن كعب، وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكانى، لأحب أن يوقظ لى لمكانى من رسول الله ﷺ، لكنى أكره أن أملَّه».

وقال ـ رضى الله عنه ـ: (كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازى رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن فى ذلك، وكنت لا آتى أحدًا إلا سُرَّ بإتيانى لقربى من رسول الله ﷺ، فجعلت أسأل أُبىَّ بن كعب يومًا، وكان من الراسخين فى العلم، عما نزل بالقرآن فى المدينة؟ فقال: «نزل بها سبعٌ وعشرون سورة وسائرها بمكة»(٣).

بل كان يتحرى فى المسألة الواحدة ويسأل عنها كثيرًا.

فعن ابن عباس، قال: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبى.

وهكذا كان ـ ابن عباس ـ يسأل ويسأل، ثم يفحص.. هكذا راح فَتَانا العظيم يسأل، ويسأل.. ثم يفحص الإجابة مع نفسه، ويناقشها بعقلٍ جرىء.

وهو فى كل يوم، تنمو معارفه، وتنمو حكمته، حتى توفرت له فى شبابه الغضّ حكمة الشيوخ وأناتُهم، وحصافتهم، وحتى كان أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ يحرص على مشورته فى كل أمر كبير.. وكان يُلقبُه بـ«فتى الكهول»..!!

---

(١) من القيلولة... أي نائم في وقت القيلولة بعد الظهر.

(٢) قال الأرنؤوط: رواه الدارمي في السنن (١/ ١٤١- ١٤٢) ـ وأحمد في الفضائل (١٩٢٥) وإسناده صحيح.

(٣) نقلاً من علو الهمة/ محمد إسماعيل (ص ١٤٦).

سُئل ابن عباس يومًا: «أنَّى أصبتَ هذا العلم»..؟؟

فأجاب: [بلسانٍ سَؤُول... وقلبٍ عقول][(١)].

ووصفه مسلم من أهل البصرة، وكان ابن عباس قد عمل واليًا عليها للإمام عليّ بن أبى طالب، فقال:

[إنه آخذٌ بثلاث، تاركٌ لثلاث..

«آخذٌ بقلوب الرجال إذا حدَّث..

«وبحُسن الاستماع إذا حُدِّث..

«وبأيسرِ الأمرين إذا خُولف..

«وتاركٌ المِراء..

«ومُصادقة اللئام..

«وما يُعتذرُ منه]..!!

ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا

هكذا تكون البداية لكل الدعاة المخلصين.

فهم يكابدون الأوقات والساعات فى طلب العلم ومزاحمة الرُكَب عند العلماء فى حلق العلم إلى أن ييسر الله لهم العلم النافع الذى يتعايشون معه قلبًا وقالبًا ثم يدعون النَاس به إلى عبادة الله، ومن ثَم إلى جنته ـ سبحانه وتعالى ـ.

عبادته (رضى الله عنه)

عن ابن أبى مليكة قال: صحبتُ ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل، قام شطر الليل. فسأله أيوبُ: كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ [ق:١٩] فجعل يُرتل ويُكثرُ فى ذلك النشيج[(٢)] ـ أى البكاء ـ.

وعن سماك أن ابن عباس سقط فى عينيه الماء فذهب بصره، فأتاه هؤلاء الذين ينقبون

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٧١٦).
(٢) الحلية لأبى نعيم (١/ ٣٢٧) نقلاً من السير للذهبى (٣/ ٣٤٢).

العيون ويسيلون الماء، فقالوا: خل بيننا وبين عينيك نسيل ماءهما، ولكنك تمكث خمسة أيام لا تصلى (يعنى قائمًا). قال: لا والله ولا ركعة واحدة، إنى حُدثت أنه من ترك صلاة واحدة متعمدًا لقى الله ـ عز وجل ـ وهو عليه غضبان(١).

حياؤه (رضى الله عنه)

عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه لم يكن يدخل الحمام إلا وحده، وعليه ثوب صفيق، يقول: إنى أستحى الله أن يرانى فى الحمام متجردًا(٢).

ولقد قال ﷺ عن الحياء: «الحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة...»(٣).

وقال ﷺ: «الحياء والإيمان قُرنا جميعًا فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر»(٤).

وقال ﷺ: «الحياء لا يأتى إلا بخير»(٥).

كان متواضعًا ويحب الخير للناس من حوله

وكان ابن عباس ـ الذى تربَّى بين يدى مَن رباه الله ـ جل وعلا ـ ليربِّى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان ـ محمد بن عبد الله ﷺ ـ

كان لا يقابل الإساءة بمثلها، بل كان يعفو ويصفح ومَثَلُه الأعلى فى ذلك هو الرسول ﷺ.

فعن ابن بريدة الأسلمى قال: شتم رجل ابن عباس فقال ابن عباس: إنك لتشتمنى وفىَّ ثلاث خصال، إنى لآتى على الآية من كتاب الله ـ عز وجل ـ فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم منها، وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأفرح به ولعلى لا أتقاضى إليه أبدًا، وإنى لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح وما لى به من سائمة(٦).

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٢٥).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (٣/ ٣٥٥).
(٣) رواه الترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣١٩٩).
(٤) رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٣٢٠٠).
(٥) متفق عليه عن عمران بن حصين ـ صحيح الجامع (٣٢٠٢).
(٦) رواه الطبرانى فى الكبير (١٠٦٢١) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) وقال العدوى: وإسناده حسن.

التسامح ونقاء السريرة

عن ميمون بن مهران قال: سمعت ابن عباس يقول: ما بلغني عن أخٍ مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به، هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرض الله واسعة(١).

كرمه (رضي الله عنه) وزهده

عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهرًا أو جمعة أو ما شاء الله، أحب إليَّ من حجة بعد حجة، ولطبقٍ بدانق أهديه إلى أخٍ لي في الله أحب إليَّ من دينار أنفقه في سبيل الله ـ عز وجل ـ.

وعن الضحاك، عن ابن عباس قال: لما ضُرِب الدينار والدرهم أخذه إبليس فوضعه على عينيه، وقال: أنت ثمرة قلبي وقرة عيني، بك أطغي، وبك أكفر، وبك أُدخل الناس النار، رضيت من ابن آدم بحب الدنيا أن يعبدني(٢).

نصائحه الغالية

وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: خذ الحكمة ممن سمعت، فإن الرجل ليتكلم بالحكمة وليس بحكيم، فتكون كالرمية خرجت من غير رام(٣).

تعظيمه لحرمات الله

وعن طاووس قال: ما رأيتُ أحدًا أشدَّ تعظيمًا لحرمات الله من ابن عباس(٤).

* * *

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٢٤).
(٢) صفوة الصفوة (١/ ٣٢٥).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٣٢٥).
(٤) صفة الصفوة (١/ ٣٤٢).

يرفع الله بهذا العلم أقواما

وكان من بين هؤلاء الذين رفعهم الله بهذا العلم ـ حَبر الأمة ـ عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ.

عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عمر: إنه مَن حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم فما رُئيتُ أنه دعانى يومئذ إلا ليُريهم قال: ما تقولون فى قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فقال بعضهم: أُمرنا نحمدُ الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لى: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له قال: إذا جاء نصر الله والفتح ـ وذلك علامة أجلك ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول(١). وفى رواية: عن ابن عباس أن عمر سأل أصحاب رسول الله ﷺ عن شيء قال: فسألنى فأخبرته فقال: أعبتمونى أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذى لم يجتمع سود رأسه(٢).

وعن عكرمة: أنَّ عليًا حرق ناسًا ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لم أكن لأحرقهم أنا بالنار، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُعذِّبوا بعذاب الله» وكنت قاتلهم لقوله ﷺ: «مَنْ بدَّل دينه، فاقتلوه» فبلغ ذلك عليًا، فقال: ويح ابن أُمِّ الفضل، إنَّه لغوَّاص على الهنات(٣).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩٧٠) والترمذى (٣٣٦٢) وأحمد (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٢٢٧٤) وقال العدوى: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخارى (٦/ ١٠٦) فى الجهاد: باب لا يعذب بعذاب الله، و(١٢/ ٢٣٧) فى استتابة المرتدين: باب حكم المرتد والمرتدة. والنسائى (٧/ ١٠٤) فى تحريم الدم: باب الحكم فى المرتد، من طرق عن أيوب، عن عكرمة. دون قوله: «فبلغ ذلك...» وأخرجه أبو داود (٤٣٥١) فى أول الحدود، والحاكم (٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، وفيه «فبلغ ذلك عليًا، فقال: ويح ابن عباس» قال الخطابى: قوله: «ويح ابن عباس»: لفظه لفظ الدعاء عليه، ومعناه المدح له، والإعجاب بقوله، وهذا كقول الرسول ﷺ فى أبى بصير: «ويل أمه مسعر حرب» وكقول عمر ـ رضى الله عنه ـ حين أعجبه قول الوادعى فى تفضيل سهمان الخيل على المقاريف: «هبلت الوادعى أمه لقد أذكرت به» يريد: ما أعلمه، أو ما أصوب رأيه، ولفظ الترمذى (١٤٥٨) فى الحدود: «فبلغ ذلك عليًا، فقال: صدق ابن عباس»، ولفظ البلاذرى (٣/ ٣٥): «فبلغ ذلك عليًا، فقال: لله در ابن عباس».



علمه وقوة حجته رضي الله عنه

وكان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية، بل الخارقة، ذكاءً نافذًا، وفطنةً بالغة..

كانت حُجته كضوء الشمس ألقًا، ووضوحًا، وبهجة.. وهو في حواره ومنطقه، لا يترك خصمه مُفعمًا بالاقتناع فحسب، بل ومُفعمًا بالغبطة من روعة المنطق وفطنة الحوار[1].

عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كانتا رتقًا ففتقناهما﴾ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فسله، ثم تعالى فأخبرني ما قال:

فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: كانت السموات رتقًا لا تُمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: إن ابن عباس قد أوتي علمًا، صدق، هكذا كانت[2].

وعن طاووس، قال: أدركتُ نحواً من خمسة مئة من الصحابة، إذا ذاكروا ابن عباس، فخالفوه، فلم يزل يُقرِّرُهم حتى ينتهوا إلى قوله.

وعن الأعمش: حدثنا أبو وائل قال: خطبنا ابن عباس، وهو أمير على الموسم، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأُ، ويُفسر، فجعلت أقول: ما رأيتُ ولا سمعتُ كلام رجلٍ مثل هذا، لو سمعته فارسُ، والرومُ، والتُرك، لأسلمت[3].

هذا هو الفخر لمن أراد

عن أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرًا. رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب. قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه فقال: ضع لي وضوءًا. قال: فتوضأ وجلس، وقال: اخرج فقل لهم: من أراد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل.

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص ٧١٩).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٢٤).

(٣) المستدرك (٣/ ٥٣٧) والحلية (١/ ٣٢٤).

قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة. فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم عنه وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر.

ثم قال: إخوانكم. قال: فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل. قال: فخرجت فآذنتهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر.

ثم قال: إخوانكم. قال: فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل. قال: فخرجت فقلت لهم. فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله.

ثم قال: إخوانكم. قال: فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل. قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة. فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله.

ثم قال: إخوانكم.. قال: فخرجوا ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية، والشعر، والغريب من الكلام فليدخل. قال: فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة. فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله.

قال أبو صالح: فلو أن قريشًا كلها فخرت بذلك لكان لها فخرًا، فما رأيت مثل هذا لأحدٍ من الناس(١).

ابن عباس (رضي الله عنهما) يفحم الخوارج

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية، خرج فريق كفَّر عليًا ومعاوية، وجاءوا بأمور لم تكن معروفة من قبل، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق، ويكشف الشبهة.

عن ابن عباس قال: لما اعتزلت حروراء وكانوا في دار على حدتهم قلت لعليٍّ: يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم. قال: فإني أتخوفهم عليك قال: قلت: كلا إن شاء الله. قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية ـ ثياب ـ ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أر قومًا قط أشد اجتهادًا منهم ـ أي في العبادة ـ أيديهم كأنها ثَفِنُ الإبل، ووجوهم معلبة من آثار السجود

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٢٣).

قال: فدخلت فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، نزل الوحى وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم لنحدثنه. قال: قلت: أخبرونى ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به ـ يقصد عليًا ـ وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا. قلت: ما هن؟ قالوا: أولهن أنه حكَّم الرجال فى دين الله، وقد قال الله: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ قال: قلت: وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم قال: قلت: وماذا؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سُنَّة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم. قال: قلت: أما قولكم: إنه حكَّم الرجال فى دين الله فإنه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُم﴾ إلى قوله: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ وقال فى المرأة وزوجها: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها﴾ أنشدكم الله أحكم الرجال فى حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم فى أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم فى حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم. قال: خرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

وأما قولكم: إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم... أتَسْبُون أمكم أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم ـ يقصد عائشة ـ رضى الله عنها ـ وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ فأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم؟ أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: إنه محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشًا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا، فقال: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى اكتب يا علىّ محمد بن عبد الله» فرسول الله ﷺ كان أفضل من (علىّ)، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم عشرون ألفًا وبقى منهم أربعة آلاف فقُتلوا[1].

---

(١) رواه الطبرانى (١٠٥٩٨) ـ وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٣١٨ ـ ٣٢٠) وقال العدوى: إسناده حسن.

لله در ابن عباس من إمام.. ورضى الله عن تُرجمان القرآن وحبره.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس، كي يقارعوا أهل الباطل، ويكشفوا عن شبهاتهم، ويوضحوا الطريق الحق، وفى الأمة بقية خير، والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم[1].

حسان بن ثابت وقصيدة فى حبر الأمة

ومما قال حسانُ ـ رضى الله عنه ـ فيما بلغنا:

إذا ما ابنُ عباس بدا لك وجهُهُ ... رأيتَ لهُ فى كلِّ أقواله فَضلا

إذا قال لم يترُكْ مقالاً لقائلٍ ... بمنتظمات لا ترى بينها فصلا

كفى وشفى ما فى النفوس فلم يدع ... لذى أرَب فى القول جداً ولا هزلا

سموت إلى العَليا بغيرِ مشقَّةٍ ... فنلتَ ذُرَاها لا دَنيّاً ولا وغلا

خُلقتَ حليفًا للمروءة والندى ... بليجًا، ولم تُخلق كهامًا ولا خبلا[2]

مكانته فى قلوب الصحابة ومَن تبعهم

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «نِعم ترجمان القرآن ابن عباس»[3].

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل»[4].

وعن مجاهد قال: كان ابن عباس إذا فسر الشىء رأيت عليه نوراً[5].

وعن يزيد بن الأصم قال: خرج معاوية حاجًا وخرج معه ابن عباس فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يسأل عن الفقه[6].

---

(١) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٣/ ١٠٦).

(٢) الأبيات بتمامها فى الاستيعاب (٢/ ٣٥٤) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٨٥) وهى عدا الأول والأخير فى ديوان حسان (ص: ٢١٢) وأنساب الأشراف (٣/ ٤٣).

(٣) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٢٢٦٩) والحاكم (٣/ ٥٣٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى ـ وهو موقوف صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٣٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد فضائل الصحابة (١٩٣٥) وقال العدوى: صحيح إلى مجاهد.

(٦) رواه عبد الله بن أحمد فى الزوائد على فضائل الصحابة (١٩٣٤) وقال العدوى: صحيح.

وعن طاووس قال: ما رأيتُ أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس(١).

وقال مجاهد: ما رأيت أحدًا قطٌّ مثل ابن عباس. لقد مات يوم مات وإنه لحَبْرُ هذه الأمة(٢).

وعن مجاهد، قال: كان ابن عباس يُسمى البحر لكثرة علمه(٣).

وعن مسروق قال: كنت إذا رأيتُ ابن عباس، قلت: أجملُ الناس. فإذا نطق، قلتُ: أفصحُ الناس. فإذا تحدث قلت: أعلمُ الناس(٤).

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية ونشر العلم والدعوة إلى الله نام ـ حَبر الأمة ـ على فراش الموت.

قال ابن عبد البر(٥) في ترجمة ابن عباس: هو القائل ما روى عنه من وجوه:

إن يأخذ اللـه من عينيَّ نورهمـا ... ففي لساني وقلبي منهمـا نورُ

قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دخل ... وفي فمي صارمٌ كالسيفِ مأثورُ

قال سالم بن أبي حفصة: عن أبي كلثوم، أن ابن الحنفية لما دفن ابن عباس، قال: اليوم مات رباني هذه الأمة(٦).

كرامة ثابتة عند موته

عن سعيد؛ قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلما دُفن، تُليت هذه الآية على شفير القبر لا يُدرى من تلاها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر:٢٧] الآية(٧).

---

(١) تاريخ الفسوي (١/ ٤٩٦) وابن سعد (٢/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٣٥).

(٣) أنساب الأشراف (٣/ ٣٣)، والمستدرك (٣/ ٥٣٥) والحلية (١/ ٣١٦).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٣٧) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٥) الاستيعاب (٢/ ٣٥٦).

(٦) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٨) والبلاذري (٣/ ٥٤).

(٧) أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٨٥) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وقال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: فهذه قضية متواترة[1].

ولما بلغ جابر بن عبد الله وفاة ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق[2].

فاللهم ارزقنا العلم النافع والعمل الصالح وافتح بنا قلوب الناس واجعلنا هُداةً مهديين ودُعاة إليك يا رب العالمين واستعملنا لنُصرة دينك.. وارزق الأمة بالعلماء المخلصين العاملين الذين يأخذون بأيدي الناس إلى جنتك ودار رضوانك.

فرضي الله عن (ابن عباس) وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٥٨).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٢٦).

جرير بن عبد الله البجلى

اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا

محمد رسول الله ﷺ

جرير يوسف هذه الأمة

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

إنه جرير بن عبد الله البجلى. من أعيان الصحابة.

كان بديع الحُسن كامل الجمال.

إنه الرجل الذى بايع النبى ﷺ على النُصح لكل مسلمٍ.

مناقب عظيمة فى يوم إسلامه

عن المغيرة بن شبل قال: قال جرير: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتى، ثم حللت عيبتى، ثم لبست حُلتى، ثم دخلت المسجد، فإذا النبى ﷺ يخطب، فرمانى الناس بالحَدَق. قال: فقلت لجليسى: يا عبد الله هل ذكر رسول الله ﷺ من أمرى شيئًا؟ قال: نعم. ذَكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض له فى خطبته فقال: «إنه سيدخل عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ألا وإن على وجهه مسحة ملك».

قال جرير: فحمدت الله عز وجل(١).

وعن عدى بن حاتم، قال: لما دخل ـ يعنى جريرًا ـ على النبى ﷺ ، ألقى له وسادة، فجلس على الأرض. فقال النبى ﷺ : «أشهدُ أنك لا تبغى علُوًا فى الأرض ولا فسادًا، فأسلم. ثم قال النبى ﷺ : «إذا أتاكم كريمُ قوم، فأكرموه»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٦٤) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٩٩) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٢٣٩١) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: وإسناده صحيح.

(٢) سوار بن مصعب ـ وهو الهمدانى الكوفى ـ قال ابن معين: ليس بشىء، وقال البخارى: منكر الحديث، وقال النسائى وغيره: متروك، وقال أبو داود: ليس بثقة. ومجالد ليس بالقوى، لكن للحديث شواهد =

وكانت تلك البداية ما هى إلا ثمرة أثمرت له ثمرات أخرى ما زال جرير يقطف الخير منها حتى لقى الله.

قال جرير بن عبد الله رضى الله عنه: ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآنى إلا ضحك[1].

اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا

وتمر الأيام بعد إسلام ـ جرير ـ ويزداد النبى ﷺ حبًا له وثقةً فيه يومًا بعد يوم حتى إنه فى يومٍ من الأيام كلّفه بتلك المهمة العظيمة ليكون واحدًا ممن يستعملهم الله لنشر التوحيد فى الأرض وإزالة الشرك وآثاره.

فعن جرير ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا تريحنى من ذى الخلصة؟» فقلت: بلى، فانطلقت فى خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبى ﷺ ، فضرب يده على صدرى حتى رأيت أثر يده فى صدرى وقال: «اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ. قال: وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة، فيه نُصُبٌ تُعبد يقال له الكعبة. قال: فأتاها فحرقها بالنار وكسرها قال: ولمَّا قَدِمَ جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسولَ رسولِ الله ﷺ ها هنا فإن قدر عليك ضرب عنقك. قال فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنَّها، ولتشهدن أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد، ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يُكنَّى أبا أرطأة إلى النبى ﷺ يبشره بذلك فلما أتى النبى ﷺ قال: يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال: فبرَّك النبى ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات[2] ـ أى دعا لهم بالبركة ـ.

وظل جرير ـ رضى الله عنه ـ ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها، فكان لا يفارقه فى حلّه وترحاله ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة النبيلة.

وكانت محبته للحبيب ﷺ تزداد يومًا بعد يومٍ حتى كان يتمنى أن يفدى النبى ﷺ

= ضعيفة يرتقى بها إلى الحسن، منها عن ابن عمر عند ابن ماجه (٣٧١٢) وعن جرير عند البزار وابن خزيمة والطبرانى (٢٢٦٦) و(٢٣٥٥) وابن عدى.

(١) أخرجه البخارى (٣٨٢٢) ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه البخارى (٤٣٥٧) ومسلم (٢٤٧٦).

بنفسه وماله وبكل ما يملك.

ويوم أن رحل الحبيب ﷺ أظلمت الدنيا كلها فى عين (جرير) وضاقت عليه الأرض بما رحبت... فما هى بالأرض التى يعرفها، بل كاد فؤاده أن يتمزق حزنًا على وفاة الحبيب ﷺ.

وظل (جرير) متأسيًا بالنبى ﷺ بعد وفاته.. يعيش سُنته ويتعايش معها فى سكناته وحركاته وكلماته.

ولما تولى أبو بكر - رضى الله عنه - الخلافة كان يعرف لجرير قدره ومكانته، ومات أبو بكر وهو عنه راضٍ، وكذلك عمر وعثمان - رضى الله عنهما -.

يوسف هذه الأمة

لقد رزق الله (جريرًا) قدرًا عاليًا من الحُسن والجمال حتى كانوا يلقبونه بيوسف هذه الأمة... عن جرير، قال: رآنى عُمرُ بن الخطابِ مُتجردًا، فنادانى: خُذ رداءك، خُذ رداءك. فأخذتُ ردائى، ثم أقبلتُ إلى القوم، فقلتُ: ماله؟ قالوا: لما رآك متجردًا، قال: ما أرى أحدًا من الناس صُوِّرَ صورة هذا، إلا ما ذُكر من يوسف عليه السلام[1].

وعن إبراهيم بن جرير قال: أن عمر قال: جرير يوسف هذه الأمة[2].

أخلاقه السامية

وكان جرير - رضى الله عنه - يتمتع بقدر عال من الأخلاق السامية حتى إنه لا يخدش حياء إنسانٍ مهما كان قدر هذا الإنسان ومنزلته.

فعن الشعبى: أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان فى بيت ومعه جرير بن عبد الله، فوجد ريحًا، وفى رواية: فتنفس رجل - يعنى أحدث - فقال: عزمتُ على صاحب هذه الريح لمَّا قام فتوضأ. فقال جرير: اعزم علينا جميعًا، فقال: عزمت علىَّ وعليكم لما قمنا فتوضأنا ثم صلينا. فقال عمر - رضى الله عنه -: يرحمك الله، نِعم السَّيد كنت فى الجاهلية، ونعم السيد كنت فى الإسلام[3].

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات. وذكره الحافظ فى الإصابة (٢/ ٧٧) ونسبه إلى البغوى.

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات. السير (٢/ ٥٣٥).

(٣) السير للإمام الذهبى (٢/ ٥٣٥).



واستقرت محبته في قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ حتى قال عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: «جرير منا أهل البيت ظهراً لبطن.. قالها ثلاثًا»(١).

جهاده في سبيل الله

ولقد كانت قلوب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ تتوق دائمًا إلى الشهادة في سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

فكان جرير يتمنى أن يرزقه الله تلك الشهادة التي يمحو الله بها كل ذنب ـ وبخاصة أن إسلام جرير جاء متأخراً ـ.

قال الشعبي: «كان على ميمنة سعد بن أبى وقاص يوم القادسية جرير بن عبد الله».

وقال ابن سعد: «وقال يزيد بن جرير عن أبيه أن عمر قال له، والناس يتحامون العراق وقتال الأعاجم: سِرْ بقومك فما غلبت عليه، فلك رُبعه.

فلما جُمعت الغنائم غنائم جَلُولاء، ادَّعى جرير أن له رُبع ذلك كُله.

فكتب سعد إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بذلك، فكتب عمر: صدق جرير، قد قلتُ ذلك له.

قال: فإن شاء أن يكون له هو وقومه على جُعْلٍ، فأعطوه جُعله، وإن يكن إنما قاتل لله ولدينه وجنته، فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

فلما قدم الكتابُ على سعد أخبر جريرًا بذلك، فقال جرير: صدق أمير المؤمنين، لا حاجة لى بذلك، أنا رجل من المسلمين(٢).

واعتزل جرير الفتنة التي كانت بين عليّ ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ وظل مستمسكًا بهدى النبي ﷺ حتى توفى (يوسف هذه الأمة) وهو يتمنى نفس الأمنية التي تمناها يوسف النبي ـ عليه السلام ـ حيث قال: ﴿توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين﴾ [يوسف:١٠١].

فرضى الله عن (جرير) وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) قال الأرنؤوط: أخرجه الطبراني (٢٢١١) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٧٣) وقال: وأبو بكر بن حفص لم يدرك عليًا وسليمان بن إبراهيم لم أجد من وثقه. وبقية رجاله ثقات.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٧٦).

الطفيل بن عمرو الدوسى

ذو النور... الشهيد أبو الشهيد

صاحب النبي ﷺ كان سيداً مطاعًا من أشراف العرب، ودَوْس بطن من الأزد، وكان الطفيل يُلقَّب ذا النُّور[١]، أسلم قبل الهجرة بمكة.

وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، يبذل لهم النَّصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريشٌ - حين منعهُ الله منهم - يحذِّرونه الناس ومَنْ قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عمرو الدَّوْسيّ يحدِّث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجالٌ من قُريش، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعراً لبيبًا، فقالوا له: يا طُفيل، إنك قَدمتَ بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا[٢]، وقد فرَّق جماعتنا، وشتت أمرَنا، وإنما قوله كالسحر يفرِّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تُكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه [شيئًا].

قال: فوالله ما زالوا بى حتى أجمعتُ أن لا أسمعَ منه شيئًا ولا أكلِّمه، حتى حشوتُ فى أذنى حين غدوتُ إلى المسجد كُرْسُفًا[٣] فَرَقًا - خوفًا - من أن يبلغنى شىءٌ من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلِّى عند الكعبة. قال: فقُمت منه قريبًا، فأبى الله أن يُسمعنى بعضَ قوله، قال: فسمعتُ كلامًا حَسَنًا، قال: فقلت فى نفسى: واثُكْل أُمى، والله إنى لرجل لبيب شاعر [و] ما يخفى علىَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من [هذا] الرجل ما يقول! فإن كان الذى يأتى به حسنًا قَبلتُهُ، وإن كان قبيحًا تركتهُ.

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٣٤٤).

(٢) أعضل بنا: أى اشد امره ولم يوجد له وجه.

(٣) الكرسف: القطن.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعتُه حتى إذا دخل بيتهُ دخلتُ عليه، فقلت: محمد، إنَّ قومك قد قالوا لى كذا وكذا، للذى قالوا، فوالله ما برحوا يخوّفوننى أمرك حتى سددتُ أذنى بكُرْسُف لئلا أسمع قولك،ثم أبى الله إلا أن يُسمعنى قولك، فسمعتهُ قولاً حسنًا، فاعرض علىّ أمرك. قال: فعرض علىّ رسولُ الله ﷺ الإسلام، وتلا علىَّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه ولا أمرًا أعدلَ منه.

قال: فأسلمت وشهدت شهادةَ الحق، وقلت: يا نبى الله إنى امرؤٌ مُطاعٌ فى قومى، وأنا راجعٌ إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لى آيةً تكون لى عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية».

قال: فخرجت إلى قومى، حين إذا كنت بِثَنِيّة[1] تُطلعُنى على الحاضر وَقع نورٌ بين عينىّ مثلُ المصباح، فقلت: اللهم فى غير وجهى، إنى أخشى أن يظنُوا أنها مُثْلَة[2] وقعت فى وجهى لِفراقى دينهم. قال: فتحوّل فوقع فى رأس سَوْطى. قال: فجعل الحاضر[3] يتراءون ذلكَ النور فى سوطى كالقنديل المعلّق، وأنا أهبطُ إليهم من الثنيَّة، قال: حتى جئتهم فأصبحتُ فيهم.

قال: فلما نزلت أتانى أبى، وكان شيخًا كبيرًا، قال: فقلت: إليك عنى يا أبت، فلستُ منك ولستَ منّى، قال: ولِمَ يا بنىّ؟! قال: قلت: أسلمتُ وتابعت دينَ محمد ﷺ ، قال: أى بنىّ، فدينى دينُك، قالَ: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهِّر ثيابك، ثم تعال حتى أُعلِّمك ما عُلِّمت. قال: فذهب فاغتسل، وطهَّر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام، فأسلم.

[قال]: ثم أتتنى صاحبتى ـ زوجتى ـ فقلت: إليك عنّى، فلستُ منك ولست منّى، قالت: لِمَ؟ بأبى أنت وأمى، قال: [قلت: قد] فرّق بينى وبينك الإسلام، وتابعتُ دين محمد ﷺ ، قالت: فدينى دينُك، قال: قلت: فاذهبى إلى حِنَاذى الشَّرَى ـ قال ابن هشام: ويقال: حمى ذى الشرى ـ فتطهَّرى منه.

[قال]: وكان ذو الشرى صنمًا لِدَوْس، وكان الحمى حَمى حَمَوه له، [و] به وَشَل[4]

(١) بثنية: هى الفرجة بين الجبلين أو هى المكان المرتفع.

(٢) مثلة: أى عقوبة وتنكيل.

(٣) الحاضر: القوم النازلون على الماء.

(٤) وَشل: الماء القليل.

من ماء يهبط من جبل.

قال: فقالت: بأبي أنت وأمي؛ أتخشى على الصبيّة من ذي الشرى شيئًا؟ قال: قلت: لا أنا ضامنٌ لذلك؛ فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوتُ دوسًا إلى الإسلام فأبطئوا عليَّ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبيَّ الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا(١)، فادعُ الله عليهم، قال: «اللهم اهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفُق بهم». قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرٌ وأُحدٌ والخندق، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي مِنْ قومي، ورسولُ الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين(٢).

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُممة حتى أُحرقه.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه، فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكَفَين لستُ مِنْ عُبَّادكَا ... ميلادُنَا أقدمُ مِنْ ميلادِكَا

إني حَشَوتُ النَّار في فُؤَادِكَا

قال: ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ. فلما ارتدَّت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من (طُليحة) - في حروب الرِّدةَ - ومن أرض نَجْد كلها.

ثم سار مع المسلمين إلى (اليمامة)، ومعه ابنُهُ عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيتُ رؤيا فاعبرُوها لي(٣)، رأيتُ أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني يطلبني طلبًا حثيثًا، ثم رأيته حُبس عني، قالوا: خيرًا، قال: أما أنا والله قد أوَّلتُها، قالوا: ماذا؟ قال: أما حَلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تُحفَرُ لي، فأُغيَّب فيها، وأما طلبُ ابني إياي ثم حبسه

---

(١) الزنا: هو لهو مع شغل قلب وبصر.
(٢) فأسهم لنا: أي جعل لنا من سهام الغنيمة نصيبًا.
(٣) فاعبروها لي: عبر الرؤيا يعبرها بمعنى فسرها.



عني، فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني.

فقُتل رحمه الله شهيداً باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبَلَّ(١) منها، ثم قُتل عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيداً(٢).

وهكذا إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فلن يستطيع الكون كله ولو اجتمع أن يحول بينه وبين ذلك الخير.

ففي الوقت الذي تريد فيه قريش أن يبقى (الطفيل) على شركه يريد الله له الإسلام بل والشهادة في سبيله.. فكان ما أراده الله (والله غالبٌ على أمره).

ورحل الشهيد وابنه الشهيد ليلحقا بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في جنات النعيم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضي الله عن (الطفيل) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) استبل منها: يقال بل وأبل واستبل المريض من مرضه إذا أفاق وبرئ.

(٢) ذكره ابن حجر في «الإصابة» مختصراً (٣/ ٢٨٧) في أكثر من موضع، وقال: ذكره ابن إسحاق بلا إسناد وأخرجه ابن سعد مطولاً من وجه آخر (٤/ ١٧٥) وفي طريقه الواقدي ورواه الأموي عن ابن الكلبي بإسناد آخر والكلبي ضعيف وهو محمد بن السائب. قال الحافظ في «التقريب»: متهم بالكذب ورُمي بالرفض وعلى هذا فالحديث إسناده ضعيف جداً والله أعلم. ورواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٧٨) وقال ابن كثير في «البداية» (٣/ ٩٩) وذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو بن دوس مرسلة، وقال السيوطي وصله ابن إسحاق في بعض نسخ المغازي ومسلم في كتاب «فضائل الصحابة» باب «من فضائل غفار وأسلم وجهينة» (ط ٤/ ١٩٥٧/ ١٩٧) من حديث أبي هريرة قال: قدم طفيل ابن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا عصت وأبت فادعوا الله عليها فقيل: هلكت. قال: «اللهم اهد دوسًا» وأتى بهم.



خير رجالتنا سلمة

محمد رسول الله ﷺ

إنه رجل من طراز فريد فهو يستطيع أن يسبق الفرس بأقدامه التى تسابق الريح.

قال مولاهُ يزيد : رأيتُ سلمة يُصفرُ لحيته . وسمعته يقول : بايعتُ رسول الله ﷺ على الموت، وغزوتُ معه سبع غزوات(١).

وعن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: بيَّتنا هوازن مع أبى بكر الصديق، فقتلتُ بيدى ليلتئذ سبعة أهل أبيات(٢).

بايع النبى ﷺ على الموت ثلاث مرات

وها هو سلمة ـ رضى الله عنه ـ يوم الحديبية لما شاع خبر مقتل عثمان ابن عفان ـ رضى الله عنه ـ وكان النبى ﷺ أرسله إليهم ليخبرهم أنهم ما جاءوا لقتال وإنما جاءوا للعمرة فاحتبسته قريش عندها ـ ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهمً فى الوضع الراهن ـ فلما تأخر ظن المسلمون أنه قُتل فدعا النبى ﷺ أصحابه إلى البيعة فبايعوه على الموت.. ولكن (سلمة بايعه على الموت ثلاث مرات.

ودعونا نترك المجال لسلمة ـ رضى الله عنه ـ ليقص علينا هذا الحدث الجليل.

قال سلمة ـ رضى الله عنه ـ : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا تُرويها قال: فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية(٣). فإما

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٣٤٦) المغازى ـ ومسلم (١٨٦٠) الإمارة.

(٢) إسناده حسن: رواه أحمد (٤/ ٤٦) وأبو داود (٢٦٣٨) وابن ماجه (٢٨٤٠).

(٣) جبا الركية قال النووى (شرح مسلم ٤/ ٤٥٧) الجبا بفتح الجيم وتخفيف الباء الموحدة مقصور هى ما حول البئر، وأما الركى فهو البئر.

دعا وإما بسق[1] فيهـا قال: فجاشت[2] فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسـول الله ﷺ دعانا للبيعة فى أصل الشجرة قال: فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط من الناس قال: «بايع يا سلمة» قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس. قال: «وأيضًا» قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً (يعنى ليس معه سلاح) قال: فأعطانى رسول الله ﷺ حجفةً أو درقة[3]، ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال: «ألا تبايعنى يا سلمة؟» قال: قلتُ قد بايعتُك يا رسول الله فى أول الناس وفى أوسط الناس قال: «وأيضًا» قال فبايعته الثالثة ثم قال لى: «يا سلمة! أين حجفتك أو درقتُكَ التى أعطيتك؟» قال: قلت: يا رسول الله! لقينى عمى عامر عزلاً فأعطيته إياها قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى[4] حبيبًا هو أحبُّ إلىَّ من نفسى».

ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض واصطلحنا. قال: وكنتُ تبيعًا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحُسُّه[5] وأخدمه وآكل من طعامه وتركت أهلى ومالى مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ. قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض أتيتُ شجرةً فكسحتُ شوكها[6] فاضطجعت فى أصلها قال: فأتانى أربعةٌ من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم فتحولتُ إلى شجرة أخرى وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين قُتل ابن زُنَيم قال: فاخترطتُ سيفى ثم شددت علَى أولئك الأربعة وهم رُقُودٌ فأخذتُ سلاحهم فجعلته ضغثًا فى يدى ـ جعله حزمة واحدة ـ قال: ثم قلتُ: والذى كرَّم وجه محمد لا يرفعُ أحدٌ منكم رأسه إلا ضربتُ الذى فيه عيناه قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، قال: وجاء عمى عامر برجلٍ من العبلات يقال له مكرزٌ يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجفف[7] فى سبعينَ من

(١) بسق بالسين وهو صحيحه.
(٢) جاشت: ارتفعت وفاضت.
(٣) الحجفة والدرقة شبيهتان بالترس، قاله النووى.
(٤) ابغنى: أعطنى.
(٥) قال النووى: أى احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه.
(٦) أى كنست ما تحتها من الشوك.
(٧) قال ابن عبد الباقى فى تعليقه على مسلم: مجفف أى عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه السلاح وجمعه تجافيف.

المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ الآية.

قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة فنزلنا منزلاً بيننا وبين لحيان جبلٌ وهُمُ المشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة كأنه طليعةٌ للنبى ﷺ وأصحابه... قال سلمةُ: فرقيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا، ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره[١] مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أُنَدِّيه[٢] مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع وقتل راعيه.

قال: فقلت: يا رباحُ! خُذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه قال ثم قمتُ على أكمة فاستقبلت المدينة فناديتُ ثلاثًا: يا صباحاه ثم خرجتُ فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز أقولُ:

أنا ابن الأكـــوع　　　والـيوم يومُ الرُّضع

فألحق رجلاً منهم فأصُكُّ[٣] سهمًا فى رحله حتى خلص نصلُ السهم إلى كتفه قال قلت: خُذها: وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضع قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقرُ بهم فإذا رجع إلىَّ فارسٌ أتيتُ شجرة فجلستُ فى أصلها ثم رميتُه فعقرتُ به حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا فى تضايقه علوتُ الجبلَ فجعلت أُرديهم بالحجارة قال: فما زلتُ كذلك أتبعهمُ حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهرى وخلّوا بينى وبينه ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردةً وثلاثين رمحًا يستخفُّون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا[٤] من الحجارة يعرفها رسول الله وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنية فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزارى فجلسوا يتضحَّون (يعنى يتغدَّون)، وجلست على رأس قرن.

---

(١) قال ابن عبد الباقى: الظهر الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال.

(٢) قال النووى: ومعناه أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلاً ثم ترسل فى المرعى ثم ترد الماء فترد قليلاً ثم ترد إلى المرعى.

(٣) أصك: أضرب.

(٤) أى أعلامًا من الحجارة.

قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[1] والله ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا قال: فليقم إليه نفر منكم أربعةٌ قال: فصعد إليَّ منهم أربعةٌ في الجبل قال: فلما أمكنوني من الكلام قال: قلتُ: هل تعرفوني؟ قالوا: لا ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة ابن الأكوع... والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ولا يطلبني رجلٌ منكم فيدركني قال أحدهم: أنا أظن. قال: فرجعوا فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر قال: فإذا أولهم الأخرمُ الأسدي على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقدادُ بن الأسود الكندي قال فأخذت بعنان الأخرم قال: فولوا مدبرين قلتُ: يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بيني وبين الشهادة قال فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحوَّل على فرسه، ولحق أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله... فوالذي كرَّم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئًا حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له (ذا قَرَد) ليشربوا منه وهم عطاش. قال: فنظروا إليَّ أعدو وراءهم فحلَّيتهم عنه (يعني أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرة قال: فيخرجون فيشتدون في ثنية قال: فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصكه بسهم في نُغض كتفه قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع.

قال: يا ثكلته أمُّهُ أكوعهُ بُكرة[2] قال: قلت: نعم يا عدو نفسه! أكوعُك بكرة قال: وأردوا[3] فرسين على ثنية قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ قال: ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقةٌ من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربتُ، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم عنه فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمحٍ وبُردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل التي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها قال: قلت: يا رسول الله! خلني فأنتخبُ من القوم مائة رجلٍ فأتبعُ القوم فلا يبقى منهم مُخبرٌ إلا قتلته قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار فقال يا سلمة أتراك كنت

(١) البرح: الشدة.

(٢) قال النووي: معناه أي أنت الأكوع الذي كنت بكرة هذا النهار.

(٣) قال النووي: معناه أهلكوهما وأتعبوهما حتى أسقطوهما وتركوهما.

فاعلاً؟ قلت: نعم. والذي أكرمك! فقال: «إنهم الآن ليُقرون[1] في أرض غطفان» قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نَحَر لهم فلان جزوراً فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً فقالوا: أتاكم القومُ فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجّالتنا سلمةُ» قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الرَّاجل فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على الغضباء ـ الدابة ـ راجعين إلى المدينة قال: فبينما نحن نسير قال: وكان رجل من الأنصار لا يُسبقُ شداً قال: فجعل يقول: ألا مسابقٌ إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك. قال: فلما سمعت كلامه قلت: أما تُكرِمُ كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! بأبي وأمي ذرني فلأسابق الرجل قال: «إن شئت» قال: قلت: اذهب إليك وثنيتُ رجلي فطفرت[2] فعدوت قال: فربطت عليه شرفًا أو شرفين[3] أستبقي نَفَسي، ثم عدوتُ في إثره فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقي نفسي. ثم عدوت في إثره فربطت عليه شرفًا أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقهُ قال: فأصكّهُ بين كتفيه قال: قلت: قد سُبقت والله! قال: أنا أظن. قال: فسبقته إلى المدينة...»[4].

فيا لبديع صُنع ابن الأكوع!! يطارد جيشًا بمفرده حتى يستردَّ منهم ما سلبوه، وهو راجلٌ ـ يجري على رجليه ـ بل ويأخذ منهم السلب والغنيمة، ولا يسمح لهم حتى بشرب الماء!!.

وعلى النقيض.. تطارد ملايينَ العرب شرذمةٌ من اليهود، تأخذ منهم كل شيء، ولا تُبقي لهم إلا العطش، تأخذ أغلى مقدساتهم، ولا تعطيهم إلا الذبح... وهتك الأعراض وبقر البطون.. ومع هذا فالمسلمون نائمون.. ومن لم توقظه النوائب وتُعلي همته.. فليطل نومهُ[5].

وكان ـ رضي الله عنه ـ معروفًا بقدرته الفائقة على المسابقة والعدو حتى كان يسبق الفرس ويُجهز على العدو.

---

(١) يقرون أي يُضيعون.

(٢) أي وثبت وقفزت.

(٣) أي حبست نفسي عن الجري الشديد. والشرف: ما ارتفع من الأرض.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٧) وأحمد (٤/ ٥٢ ـ ٥٣).

(٥) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٦٥).

عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: جاء عين للمشركين إلى رسول الله ﷺ قال: فلما طعم انسل قال: فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ الرجل اقتلوا» قال: فابتدر القوم. قال: وكان أبي يسبق الفرس شداً قال: فسبقهم إليه قال: فأخذ بزمام ناقته أو بخطامها قال: ثم قتله. قال: فنفله رسول الله ﷺ سلبه(١).

وسام على صدره

وها هو وسام من الأوسمة المحمدية على صدر سلمة - رضى الله عنه - فعن سلمة أنه قال: أردفني رسول الله ﷺ مراراً، ومسح على وجهي مراراً، واستغفر لي مراراً عدد ما في يديَّ من الأصابع(٢).

وعن عبد الرحمن بن رزين، قال: أتينا سلمة بن الأكوع بالرَّبذة، فأخرج إلينا يداً ضخمةً كأنها خُفُّ البعير، فقال: بايعتُ بيدي هذه رسول الله ﷺ. قال: فأخذنا يده، فقبَّلناها(٣).

وظل سلمة ملازمًا للحبيب ﷺ يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه إلى أن توفى الحبيب ﷺ فحزن عليه (سلمة) حزنًا شديداً كاد أن يعصف بقلبه.. وبقى سلمة مستمسكًا بهدى النبى ﷺ وسُنته بعد موته وكان الصحابة يعرفون قدره ومكانته فكان أبو بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - يحبونه ويوقرونه ويستعملونه للذود عن حياض الإسلام.

اعتزل الفتنة فدعته المدينة لأحضانها

وها هو - رضى الله عنه - عندما قُتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - يعتزل تلك الفتنة العظيمة ويحمل متاعه ويرحل عن المدينة إلى الربذة.

فعن يزيد بن أبى عبيد، قال: لما قُتل عثمان، خرج سلمةُ إلى الربذة، وتزوج هناك امرأة، فولدت له أولاداً، وقبل أن يموت بليالٍ، نزل إلى المدينة(٤).

(١) أخرجه البخارى مختصراً (٣٠٥١) وأحمد (٤/ ٥٠ - ٥١) وأبو داود (٣٦٥٣).
(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٦٣): رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير على بن يزيد بن أبى حكيمة وهو ثقة.
(٣) قال الأرنؤوط: سنده حسن: أخرجه ابن سعد (٤/ ٣٠٦) وهو فى تاريخ ابن عساكر (٧/ ٢٤٩).
(٤) أخرجه البخارى (١٣/ ٣٥) فى الفتن، وابن عساكر (٧/ ٢٥٠ب). والربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيدٍ تريد مكة. قال الحافظ فى الفتح: ويستفاد=

وكأن المدينة نادت عليه لينام نومته الأخيرة بين أحضانها مع تلك الثُلة المؤمنة المباركة التي صدقت مع الله فصدقها الله ـ جل وعلا ـ.

ونام البطل على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها ـ جل وعلا ـ ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ولسان حاله:

غــداً نلقى الأحبّة ... محمــــداً وصحبه

فرضي الله عن (سلمة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

= من هذه الرواية مدة سكنى سلمة البادية وهى نحو الأربعين سنة؛ لأن قتل عثمان كان فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، وموت سلمة سنة أربع وسبعين على الصحيح.



عمير بن الحمام

شهد له النبى ﷺ بأنه من أهل الجنة

إن المؤمن لو علم أن الله غفر له ذنبًا واحدًا لكان جديراً به أن يطير فرحًا بتلك المغفرة.. ولو علم أن الله تقبَّل منه عملاً واحداً لكان جديراً به أن يطير فرحًا بنعمة القبول.

ولذا كان أحد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يقول: والله لو أعلم أن الله ـ جل وعلا ـ تقبَّل منى سجدة واحدة لكنت من أسعد الناس. فقالوا له: ولماذا؟. فقال: لأنه لو تقبَّلها منى لعلمت أنى من المتقين. أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

فما ظنك بمن يعلم من الحبيب المصطفى ﷺ بأنه من أهل الجنة؟!

إننى والله أجد قلمى عاجزاً عن وصف هذا الشعور وتلك السعادة التى يشعر بها من علم أنه من أهل الجنة.

وها نحن نعيش مع صحابى كريم أخبره الحبيب ﷺ بأنه من أهل الجنة وهو ما زال حيًا يجاهد على أرض الشرف والبطولة.

إنه عمير بن الحمام ـ رضى الله عنه ـ.

لقد أسلم (عمير) ـ رضى الله عنه ـ وتربَّى فى رحاب الإسلام وسُقى بماء الوحى، فلقد كان يسمع القرآن غضًا طريًا من فم الصادق المصدوق ﷺ فكان قلبه يطير شوقًا للقاء الله وللنعيم المقيم فى جنته ودار كرامته التى أعدها الله لعباده الصالحين.

ولطالما سمع (عمير) رسوله وحبيبه ﷺ يتلو على سمعه هو وأصحابه تلكم الآيات التى تتحدث عن الجنة وما فيها من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر. وظل عمير يبحث عن أقرب طريق يوصل إلى جنة الرحمن وإلى رضوانه قبل أى شىء.. فكان على موعدٍ مع السعادة الأبدية فى يوم (بدر) فلقد ساق الله الجنة لعمير فى لحظة واحدة.

وما إن سمع عمير رسوله ﷺ يقول: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»

حتى تذكَّر تلكم الآيات العذبة النديّة التي تتحدث عن الجنة وما فيها، والتي كان يسمعها من الحبيب ﷺ فتاقت نفسه لأن يكون من أهلها فباع نفسه لله ـ جل وعلا ـ وقام بكل صدقٍ وإخلاصٍ وتجردٍ لله ـ جل وعلا ـ ليسطِّر بدمه على جبين التاريخ سطوراً من النور.

وها نحن نعيش مع هذا المشهد المهيب لزفاف هذا الصحابي الجليل إلى جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فعن أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عينًا ينظر ما صنعت عيرُ أبي سُفيان، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبةً فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا» ـ أي من كان معه دابته ـ فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم في عُلو المدينة فقال: «لا. إلا من كان ظهرهُ حاضراً» فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ : «لا يُقدِّمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عُمير ابن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ : «ما يحملكَ على قولك بَخٍ بَخٍ» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكلُ منهن ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل»[1].

قال النووي: فيه جواز الانغمار في الكفار، والتعرض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء[2].

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ ، ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير، وإنما كثرت قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم، ولم تتشرف البشرية بجيل بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق،فرضي الله عنهم

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١) وأحمد (٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧) بتصرف.
(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٦٩).

أجمعين وجمعنا بهم فى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[١].

إنها لحياة طويلة !!!

إننى والله أُهدى تلك الكلمات التى قالها الصحابى الجليل عمير بن الحمام إلى كل مسلمٍ حريصٍ على الدنيا وزينتها الفانية.

إن عمير بن الحمام اعتبر أن بقاءه فى تلك الحياة حتى يأكل بعض التمرات (حياة طويلة) فكيف بمن يريد أن يجمع الدنيا بأسرها ـ من الحلال أو الحرام ـ ظنًا منه أنه سيخلَّد فيها.

فعلينا أن نغتنم كل لحظة فى طاعة الله قبل أن نندم، حيث لا ينفع الندم ولا تُجدى **الحسرة** ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٥٦:٦١].

إن العبرة ليست بكثرة الأعمال وإنما بإخلاص العمل لله.. فقد يعمل الرجل أعمالاً عظيمة بغير إخلاص فيجعلها الله هباءً منثوراً، وقد يعمل عملاً واحداً صغيراً فى عين البشر كبيراً فى عين رب البشر ـ جل وعلا ـ فيكون الثمن هو الجنة ـ كما حدث فى قصة بطلنا عمير بن الحمام ـ.

فما أحوجنا جميعًا إلى أن نُخلص العمل لله تعالى وأن نصدق مع الله لنكون ممن قال الله فيهم: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣].

فرضى الله عن (عمير) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) مواقف إيمانية لأحمد فريد (ص ١٩٦).





حارس النبي ﷺ الذي لا تضره الفتنة

إن من آثر رضا الله ورضا رسوله ﷺ آثره الله على الدنيا بأسرها.

ولابد للمؤمن أن يؤثر الله في كل مقام وأن يحبه ويحب رسوله ﷺ أكثر من حُبه لولده ووالديه والناس أجمعين، بل أكثر من حُبه لنفسه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

ونحن على موعد مع صنفٍ كريمٍ نادرٍ من الرجال الأتقياء الأنقياء.

إنه (محمد بن مَسلمة) ـ رضى الله عنه ـ الذى آثر رضا الله ودافع عن رسول الله ﷺ فدفع الله عنه الفتن حتى شهد له النبى الصادق المصدوق ﷺ بأنه لا تضره فتنة.

هذا هو محمد بن مسلمة (رضى الله عنه)

* أسلم فارسنا مع السَّابقين منْ أُسود الأنصار، قبل أنْ يهاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة؛ الهجرة التى غيَّرتْ مجرى التاريخ.

* داعبتْ نسماتُ الإيمان قلبه، فأوجدتْ منه رجُلاً يعتزُّ به الإسلام، ويفتخرُ به الأنصار، بل المسلمون جميعًا، على مرِّ الزَّمان والأعوام.

* عرفَ فارسُنا الحقَّ منذ أنْ صافحتْ سمعَه شهادةُ التَّوحيد، ومنذ أنْ خرجَتْ منْ قلبه شهادة الإيمان، فأصبحتْ مسيرتهُ في الحياة واضحة كالشمس فى رابعة النَّهار، وأضحى مشهوراً بنقاء السِّيرة، وصفاء السَّريرة، حتى لقد قال عنه رسول الله ﷺ : «لا تضرهُ الفتْنة».

وصفه الرُّواة فقالوا: كان رجُلاً طويلاً، معتدلاً، أسمرَ، أصْلع، وقوراً ذا هيئة وجثَّة،

وكان من نُجباء الصَّحابة ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ.

* وهذا الفارس النَّجيبُ الوقورُ منْ أعلامِ المدرسة المحمديَّة، وممن خَبِرَ الحروب، وخبرته الحروب، وكان ممن لا تخفى عليه خافية من المشاهد، والمغازى، والسَّرايا النَّبوية(١).

ووصفه ابن كثير ـ رحمه الله ـ بقوله: كان من سادات الصَّحابة، وله وقائعُ عظيمة؛ وصيانة، وأمانة بليغة(٢)، آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين أمينَ الأمّة أبى عُبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ.

موعد مع سعادة الأبد

وتعالوا بنا لنبدأ قصته المباركة من أولها لنعرف كيف كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يتركون الدنيا فداءً لله ولرسول الله ﷺ ويؤثرون الله ورسوله ﷺ على الدنيا بكل ما فيها ومَن فيها.

لما أرسل الحبيب ﷺ مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ إلى المدينة المنورة ليدعو أهلها إلى الإسلام وليعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى الدين ويعلمهم القرآن.. أصابت تلك الدعوة المباركة قلبًا طاهرًا ألا وهو قلب (محمد بن مسلمة) الذى استجاب لنداء الحق مع أول آية يسمعها من مصعب بن عمير فأسلم فى التو واللحظة ولم يتلعثم أو يتلكأ عن الاستجابة لأمر الله.

وكان (محمد بن مسلمة) فى أشد الشوق والحنين لرؤية الحبيب ﷺ الذى بعثه الله ـ جل وعلا ـ ليُخرج به الناس من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

ولما أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى المدينة اهتز قلب محمد بن مسلمة فرحًا بقدوم الحبيب ﷺ وقام لاستقباله وهو يشعر أنه قد حاز الدنيا بكل ما فيها.

وظل محمد بن مسلمة ملازمًا للحبيب ﷺ يتعلَّم على يديه ويقبس من هديه وعلمه وأخلاقه.. وأراد الحبيب ﷺ أن يقرب بين قلوب أصحابه فآخَى بين محمد بن مسلمة وبين أبى عبيدة فعاشا فى رحاب الأُخوة الصادقة.

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٥٣٣)

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٧).

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٣].

صفحات مشرقة من جهاده في سبيل الله

ولما نادى منادى الجهاد (يا خيل الله اركبى) كان محمد بن مسلمة من المسارعين للذود عن حياض الإسلام ولسان حاله ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[طه:٨٤].

فقاتل فى سبيل الله تعالى ـ فى غزوة بدر ـ وما بعدها، ولكنه تخلف عن غزوة تبوك بإذن من النبى ﷺ له أن يقيم بالمدينة..

* شهد محمَّد بن مسلمة ـ رضوان الله عليه ـ غزوةَ بدرٍ، وأبلى فيها بلاء حَسَنًا، ومن ثَمَّ خاضَ غزوةَ أُحُد، وكان له فيها غناء مشكور، وسعى محمود، فقد استعمله رسولُ الله ﷺ على الحرسِ فى خمسين رجلاً.

* وعندما حلَّت الهزيمةُ بالمسلمينَ فى غزوةِ أُحُد كان محمَّد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ ممَّن ثبتَ حولَ رسولِ الله ﷺ، وممن بايعه على الموتِ، وعند انتهاءِ المعركة ذهب وأحضر ماءً عذبًا، فشربَ رَسولُ الله ﷺ، ودعا له بخير[1].

ولما حاصر النبى ﷺ يهود بنى قينقاع وأجلاهم إلى أذرعات الشام كان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة (رضى الله عنه).

* ولما غدر يهودُ بنى النَّضير برسولِ الله ﷺ، ونقضوا العهود والمواثيق، بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى محمَّد بنِ مسلمة فجاء، وقال: «اذهبْ إلى يهود بنى النَّضير فقُل لهم: إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلنى إليكم أنِ اخرجوا منْ بلده».

فذهبَ وبلَّغَ الرِّسَالة، فرفضوا، وحاصرهم رسولُ الله ﷺ خمسة عشر يومًا، ثم أجلاهم منَ المدينة، وولَّى إخراجهم محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ فقبض أموالهم، وأخذ سلاحَهم، وكشفهم عن المدينة[2].

* ولمحمّد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ مواقف نفيسةٌ فى غزوةِ الخندق، ومن ثمَّ غزوة بنى قُريظة، فقد كان ممن شارك فى حَفْرِ الخَنْدقِ، وكان ممن ساهم فى حراسةِ المدينة

(١) المغازى (١/ ٢٥٠).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٧٥) بتصرف.

في الليل والنَّهار، حيث كان المؤمنون يخافون غَدْرَ بني قريظة، ولا يأمنونهم على الذَّراري والنِّساء(١).

باقة من مناقبه العطرة

* لمحمد بن مسلمة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مناقب جليلة في مختلف المجالات، ومن مناقبه الحِسَان أنَّ إسلام ثمامة بن أثال الحنفيّ كان بسببه، حيثُ أرسله رسول الله ﷺ في المحرّم سنة ست من الهجرة على رأسِ سرية قوامها ثلاثين فارسًا إلى نجد لشَنّ الغارة على بني بكر بن كلاب.

* فسار إليهم محمَّد بن مسلمة حتى دهموهم على غِرَّة، فقتلوا منهم عشرة، وفرّ الباقون، واستاقوا الإبل والشَّاء، وقفلوا راجعين إلى المدينة، فلقيهم ثمامة بن أثال الحنفيّ سيِّد بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلمّا قدموا على النَّبيِّ ﷺ عرفه، وأحسنَ معاملته، وأطلقَ سراحه بعد أنْ عَرَضَ عليه الإسلام فلم يسلمْ. فما كان منْ ثمامةَ إلا أنْ عادَ وأسلم، وصار من خيار المسلمين ـ رضي الله عنه ـ(٢).

* ومن مناقب محمَّد بن مسلمة أنَّه كان أحد كتبة النَّبيِّ ﷺ (٣)، وكان منَ الأُمَناء.

دفاعه عن رسول الله ﷺ

ولقد بلغ (محمد بن مسلمة) ـ رضي الله عنه ـ درجة عالية في الولاء والبراء، وذلك حينما ذهب إلى كعب بن الأشرف ليقتله إرضاءً لله تعالى ولرسوله ﷺ .. على الرغم من أنه من قرابته.

وعن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: فأذن لي أن أقول شيئًا ـ يعني لخداع كعب بن الأشرف ـ قال: «قل» فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة (يقصد النبي ﷺ)، وإنه قد عنَّانا ـ أتعبنا ـ وإني قد أتيتك أستسلفك ـ أقترض منك ـ قال وأيضًا والله لتملُّنَّ قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وِسقا

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٥٣٧).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣٥٠) بشيء من التصرف.

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٣٥٣، ٣٥٤). نقلاً من فرسان من عصر النبوة.

أو وسقين، فقال: نعم ارهنوني قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبّ أحدهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة ـ قال سفيان: يعني السلاح. فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن سلمة وأخي أبو نائلة ـ وفي رواية ـ قالت:

أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليلٍ لأجاب قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشَعَره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه... ثم أشمكم فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا ـ أي أطيب ـ فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم. فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه[1].

فيا له من موقف يظهر فيه الولاء والبراء جليًا واضحًا كالشمس في رابعة النهار.. فهو يقتل قريبه من أجل أنه آذى الله ورسوله ﷺ.

قال الحافظ في الفتح: قوله (فائذن: لي أن أقول شيئًا، قال: قل) كأنه استأذنه أن يفتعل شيئًا يحتال به، ومن ثم بوب عليه المصنف «الكذب في الحرب» وقد ظهر من سياق ابن سعد للقصة أنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيبوا رأيه، ولفظه «فقال له: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة» وعند ابن إسحق بإسناد حسن عن ابن عباس «أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم»[2].

شهادة الصحابة (رضي الله عنهم) له

قال حذيفة: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد ابن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تضره فتنة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣٧) عن جابر بن عبد الله ـ بتصرف.

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٢).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ وذكره الحافظ في الإصابة (٩/ ١٣٢)..

ولما تُوفى الحبيب ﷺ أظلمت الدنيا كلها فى وجه (محمد بن مسلمة) فلم يستطع أن يتخيل كيف تكون الحياة بعد رسول الله ﷺ .

فى ظل الخلافة الراشدة

وعاش (محمد بن مسلمة) فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ـ رضى الله عنهم ـ ثابتًا على دينه مستمسكًا بسُنة حبيبه ﷺ الذى لم يغب عن عينيه لحظة واحدة، فلقد كان يراه فى كل سُنّة تعلَّمها بين يديه.

* كان عمر الفَاروق ـ رضى الله عنه ـ يكْبِر محمّد بن مسلمة، ويعرف حقّه وفَضْلَه، فقد استعمله على زكاة جُهينة، فأدّى عمله كأدَقّ ما يكون.

* وكان عمر إذا شُكِى إليه عامل نَفَذَ محمّد بن مسلمة إليه ليكشف أمْره، ويجلو أخباره.

وظل (محمد بن مسلمة) عابدًا زاهدًا فى الدنيا راغبًا فيما عند الله مجاهدًا فى سبيله إلى أن حدثت الفتنة بين علىّ ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فكان ممن اعتزل الفتنة فلم يقاتل مع واحد منهما إلى أن جاء اليوم الذى أراد الله فيه أن يرحل محمد بن مسلمة عن دنيا الناس ليَلحق بحبيبه وقُرة عينه محمد بن عبد الله ﷺ .

وحان وقت الرحيل

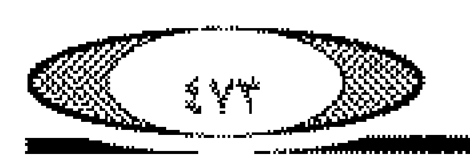
* وبعد رحلة طويلة فى تاريخ الفروسية آنَ للفارس أنْ يستقرَّ، وجاءت الرِّحلة.. رحلة الخلود، والرُّجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، ففى شهر صفَر منْ سنة ثلاث وأربعين من الهجرة ماتَ محمّد بن مسلمة الأنصارى، وهو يومئذ ابن سبعٍ وسبعينً سنة، وصلى عليه مروان بن الحكم، ودُفِنَ فى البقيع(١).

وهكذا كما بدأت رحلته كانت لابد وأن تنتهى، ولكن ما أجمل أن تكون النهاية فى جنة الرحمن وفى صحبة سيد الأنام ﷺ .

فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين

* * *

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٤٤٥).





أعطاه النبى ﷺ عصاه لتكون آية بينهما يوم القيامة

ما أجمل أن يرى الداعية ثمرة دعوته تتمثل فى رجال قد انفتحت قلوبهم بالإيمان على يديه، وقاموا فحملوا أمانة هذا الدين العظيم، وكان ذلك كله فى ميزان حسناته.

وها نحن نرى مصعب بن عمير - رضى الله عنه - وقد امتن الله عليه بنعمة القبول ففتح به البلاد وقلوب العباد بالدعوة الرحيمة والكلمة الطيبة المباركة... وقبل ذلك كله بإخلاص النية لله - جل وعلا -.

وضيفنا المبارك الذى نعيش معه من خلال تلك السطور هو (عبد الله بن أُنيس) وهو ثمرة من ثمرات تلك الدعوة المباركة (لمصعب بن عمير).

* كانَ منْ أفذاذ أصْحَابِ رسولِ الله ﷺ شجاعةً، وبطولةً، وجرأةً، وإقدامًا، لا يهابُ الموتَ فى لقاء الرِّجَال، عرفَ الإقدَام وعرفه الإقدامُ منذ أنْ فتحَ عينيه على هذه الدُّنيا، فما خاف ولا وجل من أىٍّ مخلوق.

* هذا الفارس المِقْدام أحد السَّابقين إلى ساحةِ الإِسلام، ودوحة الإِيمان، ومائدة الرَّحمن[1].

وكان عبد الله بن أُنَيس بن أسعد الذى ينتهى نسبه إلى قضاعة حليفًا لبنى سلمة من الأنصار، فيقال له الأنصارى والجهنى، وقد قدم إلى المدينة وطاب له المقام فيها، واتخذ فيها أصحابًا منهم معاذ بن جبل، وثعلبة بن عَنَمة، وقد تزوج عبد الله بن أُنيس من هزيلة بنت مسعود بن زيد من بنى سلمة، وكانت قد أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ وكان يكنى أبا يحيى، وله من الأولاد أربعة: عطية، وعمرو، وضمرة، وعبد الله[2].

لقد أسلم (عبد الله بن أُنيس) صاحب الفطرة السليمة بمجرد أن سمع آيات القرآن الكريم تنساب بكل خشية ورقة وعذوبة من فم (مصعب) فلم يشعر (عبد الله) إلا وهو

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٧٢٥).

(٢) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد السحيبانى (ص ٣٢١).



يردد الشهادتين من قلبه ولسانه، ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة وموعد مع الحبيب ﷺ

وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه حتى أحسَّ (عبد الله) بأنه يريد أن يبذل نفسه وماله لنُصرة هذا الدين العظيم الذي كان الكون كله متعطشًا للدخول فيه والسير تحت رايته.

وبينما كان الناس يستعدون لأداء الحج، وإذا (بعبد الله بن أُنيس) يشعر بأن السعادة قد ملأت قلبه وجوارحه؛ لأنه ذاهب إلى الحبيب ﷺ لينظر إليه لأول مرة في حياته.

ولم يعلم (عبد الله) بأنه بعد هذا اللقاء سيدخل التاريخ من أشرف أبوابه وبأنه سوف يسطِّر على جبين الزمان سطوراً من النور معطرة بدمائه الزكية العطرة.

وها هو الركب يقطع الطريق للقاء الحبيب ﷺ وأقدامهم تسابق الريح شوقًا لهذا اللقاء الذي يضع أقدامهم على أول طريق الجنة.

ولما التقى الناس بالحبيب ﷺ في بيعة العقبة الثانية وأخذ عليهم العهد أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا قَدِم عليهم (يثرب) المدينة المنورة... والثمن هو الجنة.

عند ذلك تقدَّم (عبد الله بن أُنيس) مع من تقدموا للمبايعة ولأول مرة يضع يده في يد الحبيب ﷺ ليصافحه ويبايعه تلك البيعة التي لا تتكرر عبر الزمان مرة أخرى.

وعاد (عبد الله) إلى المدينة مرة أخرى وقلبه يحترق شوقًا لهذا اليوم الذي يهاجر فيه الحبيب ﷺ من مكة إلى المدينة لينعم بصحبته ومجاورته.

الهجرة إلى المدينة وموعد مع السعادة

ولما أذن الله لحبيبه بالهجرة خرج ما يقرب من خمسمائة من الأنصار لاستقبال الحبيب ﷺ وقد امتلأت قلوبهم بالسعادة التي لو وُزعت على الكون كله لكانت كافية.

وكان من بين هؤلاء السعداء الذين خرجوا للقاء الحبيب ﷺ (عبد الله بن أُنيس) الذي ما إن رأى النبي ﷺ حتى أحسَّ بأن قلبه يكاد يطير فوق السماء السابعة من شدة الفرح.

ولما استقر بالنبي ﷺ المقام وعاش بالمدينة كان (عبد الله) يلازمه ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه.

وظل (عبد الله) بجوار الحبيب يدافع عنه ويقاتل من يعاديه، بل وشهد المشاهد مع النبي ﷺ يقاتل فيها بكل ما أُوتي من قوة ليذود عن حياض الإسلام.. فأبلى في كل الغزوات بلاءً حسنًا.

وقيل: إنه لم يشهد بدرًا وشهد ما بعدها من المشاهد.

ولقد أحب (عبد الله) رسول الله ﷺ حبًا شديدًا حتى إنه كان يتمنى أن يفديه بماله ونفسه وبكل ما يملك.

وكان لا يسمع برجلٍ يعادي الحبيب ﷺ إلا وتمنَّى أن يقتله إرضاءً لله ـ جل وعلا ـ ولرسوله ﷺ.

وها نحن نعيش مع باقة من دفاعه عن الحبيب ﷺ وقتاله لكل من يعاديه.

(عبد الله بن أنيس) يقتل عدو الله (خالد بن سفيان الهذلي)

«ويأخذ عصا النبي ﷺ لتكون آية بينهما يوم القيامة»

* بعد أنْ شهدَ عبدُ الله بن أُنيس غزاةَ أحد مع رسول الله ﷺ، سوّلت نفسُ أحد الأعراب ويدعى: سفُيان بن خالد بن نبيح الهذليّ أن يجتاحَ المدينة المنوَّرةَ، وقد تجمَّع منْ حوله كثيرٌ منَ الأعراب ومنْ شذّاد الآفاق، من بني هُذيل ومن غيرهم، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم.

* كان يجمعُ هؤلاء الطَّمع، وسوء الطِّباع،والانغماس في الشّهوات، وفي المحرَّمات والفواحشِ ما ظهر منها وما بَطَن، حتى لقد سألتْ جماعة من هُذيل رسولَ الله ﷺ حين أرادوا الإسلام أن يبيحُ لهم فاحشةَ الزِّنى...، وبدأتْ ساعةُ الصِّفْر لنهاية هؤلاء الأشرار بزعامةِ رئيسهم ورأسهم سفيان بن خالد الهذليّ.. ولكنْ مَنْ للقضاء على رأس الأفعى، وجرثومة الوباء والبَلاء؟! هنالك يبرزُ في ميدان الفدائية، وساحة الفروسيّة، البطلُ المغامرُ الجريءُ عبد الله بن أُنيس الجهنيّ، ذلك الذي لا يهابُ أحدًا إلا الله عزَّ وجلَّ، فاستدعاه رسولُ الله ﷺ ...، وسيّرهُ إلى خالد بن سفيان بن نُبيح الهذليّ يوم الإثنين؛ لخمسٍ خَلَوْنَ منْ شهرِ المحرم، على رأسِ خمسة وثلاثينَ شهرًا من الهجرة، ليَقتله وليلحقَه بأبي جهل بنِ هشام، وعتبةَ بن ربيعة، وأُبيّ بن خلف، وأكابر المجرمين، وذلك

بعد أن استفاضت الأخبارُ على رسول الله ﷺ أنَّ هذا الخبيثَ الفاجرَ الأفَّاك يريدُ حربَ رسولِ الله ﷺ والمَسلمين، وهو يجمعُ الجموع لهذا الهدف الخبيث الدنيء[١].

ويا لها من منقبة عظيمة تتوارى أمامها الكلمات خجلاً وحياءً، فكما خرج (عبد الله ابن أنيس) ليدافع عن حبيبه ﷺ فها هو الحبيب ﷺ يدفع إليه تلك العصا لتكون آية بينه وبين (عبد الله بن أنيس) يوم القيامة.

فتعالوا بنا لنعيش، بل ولنتعايش مع هذا المشهد المهيب.

قال عبد الله بن أُنيس: دعاني رسول الله ﷺ ، فقال: «إنه قد بلغني أنَّ ابن سفيان بن نبيح الهُذليَّ يجمعُ لي الناس ليغزوني، وهو بنخلة أو بعُرنَةَ، فأته فاقتله». قلت: يا رسول الله، انعتْهُ لي حتى أعرفه. قال: «إنَّك إذا رأيته أذكرك الشيطانَ، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قُشعريرة». قال: فخرجت مُتوشحًا سيفي، حتى دُفعت إليه وهو في ظُعُن يرتاد لهنّ منزلاً وحيث كان وقت العصر؛ فلما رأيته وجدتُ ما قال رسول الله ﷺ من القُشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيتُ أن تكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلَّيت وأنا أمشي نحوه، وأُومئ برأسي، فلما انتهيتُ إليه، قال: مَن الرجُلُ؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك. قال: أجَلْ، إني لفي ذلك. قال: فمشيتُ معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف، فقتلته، ثم خرجت، وتركت ظعائنه ـ نساءه ـ مُنكبَّات عليه؛ فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، قال: «أفلحَ الوجهُ»؛ قلت: قد قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت». ثم قام بي، فأدخلني بيته، فأعطاني عصًا، فقال: «أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله ابن أُنيس». قال: فخرجتُ بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ . وأمرني أن أمسكها عندي. قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لمَ ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لمَ أعطيتني هذه العصاَ؟ قال: «آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إنَّ أقلَّ الناس المُتخصِّرون يومئذ»، قال: فقرنها عبد الله بن أُنيس بسيفه، فلم تزل بسيفه حتى مات، ثم أمر بها فضُمَّت في كفنه، ثم دُفنا جميعًا[٢].

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٧٢٧ ـ ٨٢٨).

(٢) رواه أحمد بلفظه ـ وأخرجه أبو داود مختصراً والبيهقي بلفظ أحمد ـ وقال الساعاتي في الفتح الرباني (٧/ ٢٨): حسَّن الحافظ إسناده. قشعريرة: رعدة وارتعاش كارتعاش المحموم. يرتاد: يطلب. المتخصرون: المتكئون على المخاصر، وهي العصي.

قال عبد الله بن أُنيس في قتله خالد بن سفيان:

تركتُ ابن ثور كالحُوَار وحَـولَهُ ... نَوَائِحُ تَفْرِي كُلَّ جَيْبٍ مُقَـدَّدِ[(١)]

تناولتـه والظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ ... بأبْيَضَ مِنْ مـاءِ الحـديد مُهَنـدِ[(٢)]

عَجُـومٍ لِهَامِ الدَّارعِينَ كـأنَّهُ ... شِهَابُ غَضًى مِن مُلْهَبٍ مُتوقِّـدِ[(٣)]

أقُولُ لَهُ والسَّيْفُ يَعْجُم رأسَـهُ: ... أنا ابنُ أُنيس فارسًا غيرَ قُعْـدُدِ[(٤)]

أنا ابن الذي لم يُنْزِلِ الدَّهر قِدْرَه ... رحيـبُ فِنَـاءِ الدَّارِ غيـرُ مُزَنَّـدِ[(٥)]

وَقُلْتُ له: خُذْهَـا بِضَرْبَة ماجِـدٍ ... حنيف على دين النبي محمـدِ

وَكُنْـتُ إذا هَمَّ النَّبِيّ بكـافِرٍ ... سَبَقْـتُ إليـهِ باللِّسَـانِ وباليـدِ[(٦)]

(عبد الله بن أنيس) يقتل عدو الله (سلام بن أبي الحقيق)

قال ابن إسحاق: لما انقضى الخندق، وأمرُ بني قُريظة، وكان سَلاّم بن أبي الحُقيق - وهو أبو رافع - فيمن حَزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وكانت الأوس قبل (أُحُد) قد قَتَلتْ كعب بن الأشرف، في عَداوته لرسول الله ﷺ وتَحريضه عليه، استأذنت الخزرجُ رسولَ الله ﷺ في قَتْل سلام بن أبي الحُقيق، وهو بخيبر، فأذن لهم[(٧)].

عن عبد الله بن كعب بن مالك، قال:وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج، كانا يتصاولان[(٨)] مع رسول الله ﷺ تَصَاوُلَ الفَحْلين،لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله غَناء إلا قال الخزرج: والله لا تذهبون

---

(١) الحوار: ولد الناقة إذا كان صغيرًا.

(٢) أبيض: يريد به السيف. المهند: المنسوب إلى الهند.

(٣) عجوم: هو من صفات الأبيض وهي صيغة مبالغة من العجم وهو العض. الشهاب: القطعة من النار. الغضا: شجر يشتد التهاب النار فيه.

(٤) القعدد: اللئيم الدنيء القاعد عن الحرب والمكارم.

(٥) المزند: الضيق البخيل.

(٦) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٤٢: ٢٤٤) والبداية لابن كثير (٤/ ١٤٢ - ١٤٣).

(٧) ذكره ابن كثير في التاريخ (٤/ ١٣٧)، وابن سيد الناس في عيون الأثر (٢/ ١٢٠) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٩١) والمقريزي في إمتاع الأسماع (١٨٦) وابن الجوزي في المنتظم (٣/ ٢٦١).

(٨) يتصاولان: يتفاخران إذا فعل أحدهما شيئًا فعل الآخر مثله.

بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام. قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها؛ وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبداً، قال: فتذاكروا: من رَجُلٌ لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحُقيق وهو بخيبر؛ فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم.

فخرج إليه من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان (وعبد الله بن أُنيس) وأبو قتادة الحارث بن ربْعي، وخزاعي ابن أسود، حليف لهم من أسلم، فخرجوا، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ إلى هنا عبد الله بن عَتيك، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة، فخرجوا حتى إذا قَدموا خَيبر، أتوا دار ابن أبي الحُقيق ليلاً، فلم يدعوا بيتًا في الدار إلا أغلقوه على أهله. قال: وكان في علية له إليها عجلة[1] قال: فأسندوا فيها، حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا عليه، فخرجت إليهم امرأته، فقالت: مَنْ أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرَة ـ الطعام ـ قالت: ذاكم صاحبكم، فادخلوا عليه، قال: فلما دخلنا أغلقنا علينا وعليه الحجرة، تخوفًا أن تكون دونه مجاولة[2] تحول بيننا وبينه، قالت: فصاحت امرأته، فنوّهت[3] بنا وابتدرناه ـ وهو على فراشه ـ بأسيافنا، فوالله ما يدلُّنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قُبطيَّة[4] مُلقاة، قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منّا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نَهْيَ رسول الله ﷺ فيكفّ يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل. قال: فلما ضربناه بأسيافنا تحامَل عليه عبد الله بن أُنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه، وهو يقول: قَطْني قَطْني: أي حَسْبي حَسْبي، قال: وخرجنا، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيء البصر، قال: فوقع من الدرجة فوثئت[5] يده وَثْئًا شديداً ـ ويقال: رِجله، فيما قال ابن هشام ـ وحملناه حتى نأتي به منهراً[6] من عيونهم، فندخل فيه، قال: فأوقدوا النيران، واشتدوا في كل وجه يطلبوننا، قال: حتى إذا يئسوا رجعوا

(١) العجلة: جذع النخلة ينقر في موضع منه ويجعل كالسلم فيصعد عليه إلى العلالي والغرف.
(٢) المجاولة: حركة تكون بينهم وبينه.
(٣) نوهت بنا: رفعت صوتها تشهر بنا.
(٤) القبطية: ضرب من الثياب البيض تصنع بمصر.
(٥) وثئت: أصاب عظمها شيء ليس بكسر. وقيل: هو أن يصاب اللحم دون العظم.
(٦) المنهر: مدخل الماء من خارج الحصن إلى داخله.

إلى صاحبهم، فاكتنفوهُ وهو يَقْضي بينهم. قال: فقلنا: كيف لنا بأنّ نعلم بأنّ عدوّ الله قد مات؟ قال: فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم.

فانطلق حتى دخل في الناس. قال: فوجدتُ امرأته ورجال يهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه، وتحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعتُ صوتَ ابن عتيك، ثم أكذبتُ نفسي وقلت: أنّى ابن عَتيك بهذه البلاد؟ ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ثم قالت: فاظَ[1] وإله يهود؛ فما سمعت من كلمة كانت ألَذّ إلى نفسي منها. قال: ثم جاءنا [فأخبرنا] الخبر. فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنه في قتله، كلُّنا يدّعيه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هاتُوا أسيافكم»، قال: فجئنا بها، فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أُنيس: «هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام»[2].

قال ابن إسحاق: فقال حسان بن ثابت وهو يذكر قَتْل كعب بن الأشرف، وقتل سلام ابن أبي الحُقيق:

للـــــه دَرّ عِصَــابةٍ لاقيتَهــم	يابنَ الحُقيق وأنت يابن الأشرفِ[3]
يسرُونَ بالبيضِ الخِفَاف إليكُم	مَرَحا كأُســدٍ في عَرِينٍ مُغْرِفِ[4]
حتى أتَوْكم في محــل بلادكم	فَسَقُوكُمُ حَتْفًــا ببيضٍ ذُفَّفِ[5]
مُسْتَبْصـرين لِنَصْر دين نبيهـم	مُستصغرين لكُلّ أمرٍ مُجْحِفِ[6][7]

فراق مؤلم

وهكذا كان (عبد الله بن أنيس) يتمنى من أعماق قلبه أن يفدي الحبيب ﷺ بالنفس والنفيس، بل وبكل ما يملك.

---

(١) فاظ: مات.

(٢) قصة مقتل سلام بن أبي الحُقيق: إسناد ابن إسحاق مرسل صحيح إلى عبد الله بن كعب،ورواه مالك في الموطأ (٢/ ٤٤٧).

(٣) العصابة: الجماعة.

(٤) البيض الرقاق: السيوف ـ مَرَحًا: نشاطًا: العرين: غابة الأسد ـ مغرف: الملتف الأغصان.

(٥) ذُفَّف: سريعة القتل.

(٦) مجحف: يذهب بالأموال والأنفس.

(٧) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٤٤: ٢٤٧) والبداية لابن كثير (٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

وظل على تلك الحالة ملازمًا للنبى ﷺ إلى أن جاء اليوم الذى أظلمت فيه المدينة، بل وأظلم الكون كله بموت الحبيب ﷺ .

فحزن (عبد الله بن أُنيس) لذلك حُزنًا كاد أن يمزق قلبه وأظلمت الدنيا كلها فى عينيه.

ولكنه ظل ثابتًا على دين الله متأسيًا برسول الله ﷺ .

وكان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدره ومكانته فكانوا يحملون له فى قلوبهم كل حبٍ ومودةٍ وتوقير.

ولقد كانت حياته مليئة بالطاعة والعبادة والجهاد والتضحية بالنفس والمال.

وحان وقت الرحيل

وفى نهاية حياته انطلق (عبد الله بن أُنيس) ـ رضى الله عنه ـ إلى بلاد الشام ليعيش هناك مع (معاذ بن جبل) ـ رضى الله عنه ـ.

وظل هناك يعبد ربه حتى يأتيه اليقين ـ الموت ـ فلم يفتر لحظة عن طاعة الله ولم يفتر قلبه عن محبة الله ولم يفتر لسانه عن ذكر الله.

وفى الوقت الذى اختاره الحق ـ جل جلاله ـ رحل عبد الله بن أنيس من دنيا الناس ليلحق بحبيبه ﷺ الذى لطالما بذل نفسه للدفاع عنه وللذود عن حياض الإسلام.

وقبل موته بساعات معدودة أخذ (عبد الله) عصاه التى أخذها من الحبيب ﷺ لتكون آية بينهما يوم القيامة.. فدعا أهله وأوصاهم بأن يدفنوا معه تلك العصا.

وفاضت روحه الطاهرة ليلحق بالحبيب ﷺ فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن (عبد الله بن أنيس) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *



حسان بن ثابت

إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله ﷺ

محمد رسول الله ﷺ

الشعر باب من الكلام حسنُه حسن، وقبيحُه قبيح، وإنما ذمَّ (تعالى) الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط فى المديح أو الهجاء، ومجاوزة حد القصد فيه حتى يُفضِّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، ويبهتوا البرىء ويفسّقوا التقى، وربما رفعوا شخصًا إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض، وهذا مُشاهد وملموس فى أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله ـ عز وجل ـ والشاعر قد يمدح الشىء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه(١).

ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٤:٢٢٦].

ولكن الله استثنى صنفًا آخر كريمًا مباركًا فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وها نحن نعيش مع واحد من هذا الصنف الكريم.

إنه (حسان بن ثابت) الصحابى الجليل.

سيدُ الشعراء المؤمنين، المؤيدُ بروح القُدس. أبو الوليد؛ ويقال: أبو الحسام. الأنصارى الخزرجى النجارى المدنى، ابن الفُريعة.

شاعرُ رسول الله وصاحبه(٢).

عاش ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام.

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٩٩).

(٢) السير للإمام الذهبى (٢/ ٥١٢).

ولقد استخدم لسانه وشعره وكلامه فى الدفاع عن الإسلام وعن الحبيب ﷺ فكان الجزاء من جنس العمل.

فكما أيَّد النبى ﷺ بكلامه فقد أيده الله بجبريل ـ عليه السلام ـ.

قال ﷺ لحسان: «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك»(١).

وعن سعيد بن المسيب قال: مر عمر فى المسجد وحسان ينشد ـ وفى رواية: فلحظ إليه ـ فقال: كنت أنشد فيه وفيه مَن هو خير منك. ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس»؟ قال: نعم(٢).

وعن عَبَدة عن هشام عن أبيه قال: ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ وقالت عائشة: استأذن النبى ﷺ فى هجاء المشركين قال: «كيف بنسبى؟» قال لأسلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين(٣).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشًا فإنه أشدُّ عليها من رشق بالنبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم» فهاجهم فلم يُرض، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت. فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبه، ثم أدلع لسانه فجعل يُحركه فقال: والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الأديم. فقال رسول الله ﷺ «لا تعجل فإن أبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها، وإن لى فيهم نسبًا حتى يُلخِّص لك نسبى» فأتاه حسانٌ ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخَّص لى نسبك، والذى بعثك بالحق لأسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن رُوح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسانُ فشفى واشتفى».

قال حسان:

هجوت محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاكَ الجزاءُ

(١) أخرجه البخارى (٤١٢٣) ومسلم (٢٤٨٦) عن البراء.
(٢) أخرجه البخارى (٣٢١٢) ومسلم (٢٤٨٥).
(٣) أخرجه البخارى (٤١٤٥) ومسلم (٢٤٨٧).

هجوتَ محمداً براً تقيًا — رسول الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبى ووالدهُ وعرضى — لعرضِ محمد منكم وقاءُ
ثَكلتُ بُنَيّتى إن لم تروها — تُثير النقع من كَنَفَى كداءُ
يُبَارين الأعنّة مصعدَات — على أكتافها الأسلُ الظِّماءُ
تَظَلُّ جيادُنا مُتمطِّراتٌ — تُلطِّمهنَّ بالخُمُر النساءُ
فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا — وكان الفتحُ وانكشفَ الغطاءُ
وإلا فاصبروا لضِرابِ يوم — يُعزُّ الله فيه من يشاءُ
وقال الله: قد أرسلتُ عبداً — يقول الحقَّ ليس به خَفَاءُ
وقال الله : قد يسرتُ جنداً — هم الأنصار عُرْضَتُها اللقاءُ
لنا فى كل يومٍ من مَعَدٍّ — سبابٌ أو قتالٌ أو هِجَاءُ
فمن يَهْجُو رسولَ الله منكم — ويمدحُهُ وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا — وروح القدس ليس له كفاء(١)

همسة فى أذن كل مفكر وأديب

إننى أهمس تلك الهمسة فى أُذن كل مفكر وأديب وصحفى وإذاعى وكل من له كلمة مسموعة أو مقروءة أو مرئية.

أقول لهؤلاء جميعًا: تستطيعون أن تنصروا الإسلام نصراً عظيمًا من خلال كلمة حق تقولونها للدفاع عن الإسلام وعن سنَّة الحبيب ﷺ ، وعن علماء المسلمين الذين يقفون على ثغر من ثغور الإسلام يدافعون عنه بالنفس والنفيس.

تستطيعون جميعًا أن تصبحوا قافلة واحدة تُعلى راية الإسلام خفاقة عالية... بل تستطيعون جميعًا أن تفضحوا النفاق والمنافقين لتستلّوا تلك الجرثومة التى تعيث فساداً وإفساداً فى جسد تلك الأمة الميمونة المباركة.

ولكم جميعًا فى حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ الأسوة والقدوة فى هذا الشأن، فلقد استخدم لسانه وشعره وكلامه لنُصرة دين الله حتى أيّده الله بجبريل ـ عليه السلام ـ.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٠) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

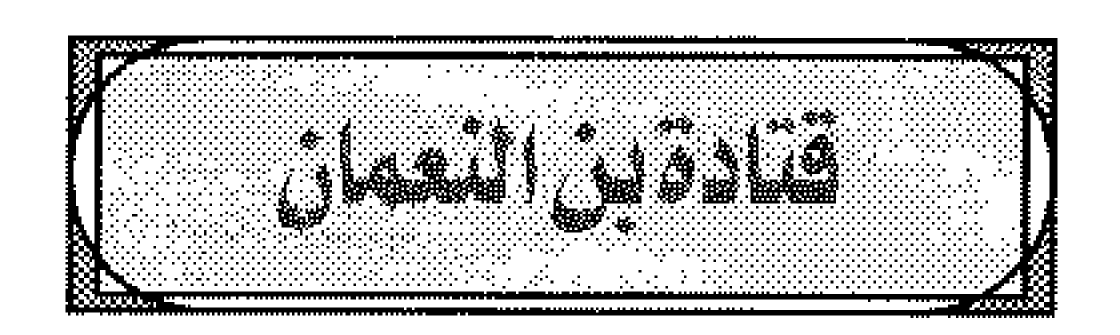
واعلموا جميعًا أن الملك ـ جل جلاله ـ قادر على أن يؤيدكم بجبريل وميكائيل وإسرافيل وكل الملائكة إذا كنتم على قلب رجلٍ واحد لنُصرة دين الله ـ جل وعلا ـ.

واحذروا أن تكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

فطوبى لمن استعمل قلمه ولسانه وكل ما يملك للذود عن حياض هذا الدين كما فعل حسان وسائر الصحابة.

فرضي الله عن (حسان) وعن سائر الصحابة أجمعين

❊ ❊ ❊



قتادة بن النعمان

«اللهم اكسُهُ جمالاً»

محمد رسول الله ﷺ

إنها صفحات وصفحات سطَّرها الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على جبين التاريخ بسطورٍ من النور.

وها نحن نعيش من خلال تلك السطور مع الصحابى الجليل قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر. الأمير المجاهد. أبو عمر الأنصارى الظفرى البدرى. من نُجباء الصحابة. وهو أخو أبى سعيد الخدرى لأمه[1].

كان قتادة ـ رضى الله عنه ـ يبحث عن فجرٍ يضىء أرجاء الكون بنور التوحيد والإيمان بعد أن أصبحت الأرض كلها قد امتلأت بظلام الشرك والبغى والعدوان.

وكان قتادة يشعر فى قرارة نفسه أن للكون إلهًا عظيمًا، وأن هذا الليل لن يطول فإن أشد لحظات الليل سوادًا هى بداية طلوع فجر يومٍ جديد.

وشاء الحق ـ جل جلاله ـ أن يسطع نور الفجر على الكون كله لينير قلوب البشر بأنوار التوحيد والإيمان.

ويسمع قتادة ببعثة الحبيب ﷺ ويذهب فى تلك اللحظة التى شاء الله أنْ يفتح قلبه ويشرح صدره لهذا الدين العظيم.. فيعلن إسلامه بين يدى الحبيب ﷺ.

وما إن لامس الإيمان شغاف قلبه حتى جعل حياته كلها وقفًا لله ـ جل وعلا ـ ولنُصرة دينه.

فشهد المشاهد مع الحبيب ﷺ ليذود عن حياض الإسلام وليعلن للكون كله أن أصحاب النبى ﷺ كانوا لا يعرفون إلا البطولة والفداء والتضحية والبذل والعطاء.

ولما جاءت غزوة بدر خاضها قتادة ـ رضى الله عنه ـ وقلبه يتلهف شوقًا للشهادة فى

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).

سبيل الله، ولكن الله لم يقدر له تلك الأمنية الغالية... ومع ذلك فإن الله أراد أن يُكرمه وأن يكافئه بهذا الموقف العظيم الذى قام به الحبيب ﷺ يوم أن سالت حدقة (قتادة) على وجنته فقام النبى ﷺ وأعاد عينه مكانها ـ بإذن الله ـ.

النبى ﷺ يرد عليه عينه بإذن الله

عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جده قتادة بن النعمان، أنه أُصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله ﷺ ، فقال: لا، فدعاه، فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أُصيبت.

وفى رواية: أنه أُصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته؛ فأراد القوم أن يقطعوها، فقالوا: نأتى نبى الله نستشيره. فجاء، فأخبره الخبر. فأدناه رسول الله ﷺ منه، فرفع حدقته حتى وضعها موضعها، ثم غمزها براحته وقال: «اللهم اكسُهُ جمالاً» فمات، وما يدرى من لقيه أىَّ عينيه أُصيبت.

وجاءت رواية ثالثة تثبت أن ذلك حدث فى غزوة أُحد (والله أعلم).

كان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان : أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها ، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأُصيبت يومئذ عينه، حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما[1].

جهاده فى سبيل الله تعالى

وشهد قتادة مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكانت معه يوم الفتح راية بنى ظفر.

وظل ملازمًا للحبيب ﷺ يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه إلى أن توفى الحبيب ﷺ فحزن عليه قتادة حزنًا شديداً كاد أن يمزق فؤاده.

---

(١) أخرجه ابن هشام فى «السيرة» (٣/ ٦٠٠)، وابن سعد فى «الطبقات» (٣/ ٣٤٦)، والبيهقى فى «الدلائل» (٣/ ٢٥١) من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً ووصله الدارقطنى وابن شاهين ـ كما فى «الإصابة» (٨/ ١٣٩) ـ والبيهقى فى «الدلائل» (٣/ ٢٥٣) من حديث قتادة نفسه، وأشار الحافظ ابن كثير فى «البداية» (٤/ ٣٨) إلى طريق آخر من حديث جابر، ولم أقف عليه، وقد ورد مثل ذلك فى غزوة بدر والله أعلم.

وظل قتادة يبذل نفسه وماله لله ولنُصرة دين الله فى عهد أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وكانا يعرفان له قدره ومكانته السامقة.

وكان على مقدمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما سار إلى الشام، وكان من الرماة المعدودين. عاش خمسًا وستين سنة. توفى فى سنة ثلاث وعشرين بالمدينة، ونزل عمر يومئذ فى قبره[١].

سيرة عطرة

إن السيرة العطرة المليئة بالإيمان والجهاد فى سبيل الله تخلِّد اسم صاحبها وتُبقى ذكره فى القلوب المؤمنة.

فها هو ابن قتادة ـ رضى الله عنه ـ يدخل على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: من أنت يا فتى؟ قال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فرُدت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأحسن حالها ... فيا حُسن ما عين ويا طيب ما يد

فقال عمر: بمثل هذا فليتوسل إلينا المتوسلون. ثم قال:

تلك المكارم لا قُعبان من لبنٍ ... شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا[٢]

فرضى الله عن (قتادة) وعن الصحابة أجمعين

* * *

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٩١ ـ ١٩٢).



شهادته بشهادة رجلين من المسلمين

إن الله عز وجل افترض على عباده محبة رسوله ﷺ . وسدَّ الطريق إلى جنته إلا مَن سلك الطريق خلف رسول الله ﷺ ، الذى شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمره.

وقام الصحابة الكرام بلوازم هذه المحبة لرسوله ﷺ ، فَفَدَوْهُ بآبائهم وأمهاتهم وأبنائهم، وقاتلوا دونه ورفعوا رايته، وأعزوا سُنته، ونصروا شريعته، وما فارق النبى ﷺ الدنيا حتى دانت جزيرة العرب بالإسلام، ورفرف علم التوحيد على أقطارها، وواصل أصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان المسيرة بعده ﷺ ، يفتحون البلاد وقلوب العباد بلا إله إلا الله، وظهرت آيات الصدق والمحبة فى أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وتابعيهم.

فما أحوج المسلمين إلى الوقوف على بعض هذه المواقف الإيمانية التى تشحذ هممهم فى التأسى برسول الله ﷺ ، والمسارعة فى اتباع سُنته، ولزوم شريعته.

ومحبة الرسول ﷺ عقد من عقود الإيمان، ولزوم سنته واتباع هديه علامة المحبة الصادقة لله ـ عز وجل ـ ولرسوله ﷺ ، كما أنه من أعظم أسباب محبة الله عز وجل.

وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من محبة الآباء والأبناء والناس أجمعين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] (١).

وإننا سنعيش من خلال تلك السطور مع نوعٍ فريد من الرجال. إنه رجلٌ بلغت محبته وتصديقه لرسول الله ﷺ مبلغًا عظيمًا.

---

(١) مواقف إيمانية/ لأحمد فريد (١٩، ٢٠) بتصرف.

إنه الصحابى الجليل خزيمة بن ثابت ابن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة، الفقيه، أبو عمارة الأنصارى الخطمى المدنى، ذو الشهادتين.

قيل: إنه بدرى. والصواب: أنه شهد أُحُدًا وما بعدها.

وكان من كبار جيش علىّ، فاستشهد معه يوم صفين.

قُتل ـ رضى الله عنه ـ سنة سبعٍ وثلاثين، وكان حامل راية بنى خَطمة وشهد مؤتة[١].

هذا هو الفخر الحقيقى

إن مقاييس أهل الدنيا تختلف تمامًا عن مقاييس أهل الإيمان، فبينما أهل الدنيا يتفاخرون بدنياهم الفانية الزائلة نجد أن أهل الإيمان يتفاخرون بأعظم الأشياء التى لا تخطر على قلب أهل الدنيا بحالٍ من الأحوال.

ولذا فأنا أدعوكم إلى الفخر الحقيقى من خلال هذا المشهد.

عن أنس، قال: افتخر الحيَّان من الأنصار، فقالت الأوس: منا غسيلُ الملائكة: حنظلةُ ابن الراهب، ومنا من اهتز له العرشُ: سعدٌ، ومنا من حمته الدبر[٢]: عاصم بن أبى الأقلح، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادتين: خُزيمة ابن ثابت[٣].

كيف صارت شهادته بشهادة رجلين؟

وإليكم جميعًا هذا المشهد العظيم لتعلموا كيف أصبحت شهادة خزيمة ـ رضى الله عنه ـ بشهادة رجلين.

عن الزهرى قال: حدثنى عمارة بن خزيمة الأنصارى أن عمه حدثه ـ وهو من أصحاب النبى ﷺ أن النبى ﷺ ابتاع فرسًا ـ اشترى ـ من أعرابى فاستتبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبى ﷺ المشى وأبطأ الأعرابى، فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومون بالفرس، لا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه ـ اشتراه ـ حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه به النبى ﷺ فنادى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاع هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٤٨٥).

(٢) الدبر: النحل والزنابير.

(٣) نسبه الحافظ فى الإصابة (٣/ ٩٤) إلى أبى يعلى وقال العدوى: إسناده صحيح.

فقال: «أوَ ليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابى: لا والله ما بعتك فقال النبى ﷺ: «بلى قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان، فطفق الأعرابى يقول: هلم شهيداً يشهد أنى بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابى: ويلك النبى ﷺ لم يكن ليقول إلا حقًا.

حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى فطفق الأعرابى يقول: هلم شهيداً يشهد أنى بايعتك قال: خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال:بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله ﷺ فجعل النبى ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين(١).

وقد روى فى بعض طرق هذا الحديث أن النبى ﷺ قال لخزيمة: بم تشهد ولم تكن معنا؟ قال: يا رسول الله... أن أصدقك بخبر السماء أفلا أصدقك بما تقول؟.

قال الخطابى: ووجه هذا الحديث أن النبى ﷺ حكم على الأعرابى بعلمه، إذ كان النبى ﷺ صادقًا باراً وجرت شهادة خزيمة فى ذلك مجرى التوكيد لقوله له ﷺ والاستظهار بها على خصمه . فصارت فى التقدير مع قول رسول الله ﷺ كشهادة رجلين فى سائر القضايا. رحمه الله(٢).

امتثال لأمر النبى ﷺ

ولما علم أصحاب النبى ﷺ أن النبى جعل شهادة خزيمة بشهادة رجلين امتثلوا أمره فى التو واللحظة.

فهذا زيد بن ثابت الذى كان يجمع القرآن وكان لا يُثبت الآية إلا بشاهدى عدل من أصحاب النبى ﷺ ، فلما علم أن شهادة خزيمة بشهادة رجلين أخذ منه القرآن واكتفى بشهادته.

فعن خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال:نسخت الصحف فى المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين،

(١) رواه أحمد (٥/ ٢١٥) وأبو داود (٣٦٠٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٩٩).



وهو قوله: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...﴾(١).

وعاش خزيمة ـ رضى الله عنه ـ عابدًا قائمًا صائمًا مجاهدًا فى سبيل الله ـ جل وعلا ـ وظل يبحث عن الشهادة فى مظانها لتكون خير خاتمة يختم بها الإنسان حياته.. فكان ذلك فى يوم صفين، فلقد سقط فى هذا اليوم شهيدًا ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فى جنات النعيم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

فرضى الله عن (خزيمة) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه البخارى (٢٨٠٧) والترمذى (٣١٠٣) والطبرانى فى الكبير (٣٧١٢).

معاذ بن عمرو ومعوذ بن عفراء

قاتلا فرعون هذه الأمة

وها أنا أُهدى من خلال تلك السطور قدوة طيبة مباركة لبراعم الأمة المسلمة ليتعلموا كيف يكون الولاء لدين الله وكيف تكون المحبة لرسول الله ﷺ وكيف تكون الغيرة عليه.. وذلك لأننا نعيش زمانًا قد انتكست فيه الفطرة فى قلوب أكثر المسلمين ـ إلا من رحم الله ـ ففى الوقت الذى لا يقبل فيه كثير من المسلمين أن يسمعوا كلمة واحدة تسيء إلى مطرب يحبه أو لاعب يحب مهارته.. نجد كثيراً منهم إذا سمعوا من يسخر من سُنَّة الحبيب ﷺ أو من ينتقصُ من شرعه وهديه لا يحركون ساكنًا ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

فإلى هؤلاء جميعًا أُهدى إليهم هذا المشهد التاريخى الذى تتوارى الكلمات أمامه خجلاً من مهابته وعظمته.

إنه مشهد غلامين من أبناء الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ سمعا أن أبا جهل يسب رسول الله ﷺ فما استطاع واحدٌ منهما أن يصبر لحظة واحدة على هذا الخبيث الذى يسبّ الحبيب ﷺ فعزما فى التو واللحظة على أن يذهبا إليه ليقتلاه.

وهنا أترك المجال للصحابى الجليل ـ عبد الرحمن بن عوف ـ ليصف لكم هذا المشهد الجليل.

قال عبد الرحمن بن عوف: إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفتّ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم، أرنى أبا جهل، فقلت: يا ابن أخى، فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ قال: والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، قال: وغمزنى الآخر، فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال:

«أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء(١).

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة ـ والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه، بهذه الشجرة ـ وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلصُ إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطَنَّتْ قدمه ـ أطارتها ـ بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مِرْضَخَة النوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل ـ وهو عَقِيرٌ ـ معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قُتل(٢).

فيا لها من بطولات نادرة.. ويا له من ثبات على الحق.

خطوة في طريق بعث الأمة

تالله إن هذا المشهد المهيب ليجعل المؤمن يراجع نفسه مرة أخرى ويتساءل: كيف أستطيع أن أربّي ولدي ليكون شبيهًا بهؤلاء الأطهار.

أقول: إننا في أشد الحاجة إلى أن نربِّي أولادنا على حُب الله وحُب رسول الله ﷺ لينشأ الولد نشأة طيبة مباركة فيحب الله حبًا يحول بينه وبين معصيته ويأخذ بناصيته إلى طاعته ورضوانه ويستنفر همته إلى العمل لنُصرة هذا الدين.

كما أننا في أشد الحاجة لأن نربط الطفل بالقدوة والمُعلم الأول محمد بن عبد الله ﷺ .. فهو القدوة وهو الأسوة لمن أراد القدوة والأسوة.

(١) أخرجه البخاري (٣١٤١) ومسلم (٤٢) (١٧٥٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤).



قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

فلا يمر علينا يوم إلا ونعلّم أولادنا سُنة من سنن الحبيب ﷺ حتى يخرج هذا الجيل عالمًا بالسُنة.. كارهًا لكل بدعة.. متأسيًا بحبيبه وقدوته ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

ونحن أيضًا فى أشد الحاجة لأن نأخذ بنواصى أولادنا إلى حفظ القرآن والعمل بما فيه فإن النُصرة لن تأتى إلا من خلال التعايش مع كل آية من آيات القرآن الكريم الذى يمثل منهج حياة مباركة لكل من أراد الحياة الحقيقية التى عاش فى ظلالها أصحاب الحبيب ﷺ الذين تربَّوا فى ظلال القرآن وامتزجت دموعهم بل ودماؤهم بكل حرفٍ من حروفه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

وكان سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ فى حروبه ضد الفرس إذا مرَّ بخيمة من خيام المسلمين بالليل فسمعهم يقرأون القرآن كان يقول: من هنا يأتى النصر.

وإذا مرَّ بخيمة أخرى فوجد أصحابها قد ناموا كان يقول: ومن هنا تأتى الهزيمة.

ولقد كانت أم (سفيان الثورى) تقول له وهو طفل صغير: يا بنى كلما تعلمت آية فاعرض نفسك عليها فإن ازددت خشية بعلمك وإلا فاعلم أن العلم وبالٌ عليك.

ونحن أيضًا فى أشد الحاجة لأن نعلّم أطفالنا سيرة الأنبياء وبخاصة سيرة النبى ﷺ.. وكذلك سيرة الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ونعلّمهم المغازى ليعرفوا كيف كان الصحابة يضحون بالنفس والمال من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) ومن أجل نُصرة دين الله.

كان بعض السلف الصالح يقولون: كنا نعلّم أولادنا السير والمغازى، كما كنا نعلّمهم السورة من القرآن.

فعليك أيها الأخ الكريم أن تربى ولدك تربية القادة.. لا تربية العبيد.

فتجعله يُعد نفسه على أنه سيكون الخليفة الذى يوحد الله به صفوف الأمة المسلمة ويعيد إليها ـ بإذن الله ـ مقدساتها المسلوبة.

فكل ما ذكرناه عن تربية الأولاد ما هو إلا خطوة فى طريق بعث الأمة لكى ينشأ جيل يعرف الله ويحبه فينصر الله بهم الإسلام ويُعز بهم المسلمين فى كل مكان كما نصر الإسلام بأصحاب الحبيب ﷺ وبأولادهم الذين تربّوا على القرآن والسُنة.

فرضى الله عن الصحابة أجمعين..

ونسأل الله - جل وعلا - أن يخرج من أصلاب هذه الأمة رجالاً مثل (معاذ بن عمرو بن الجموح) و(معوذ بن عفراء)

❊ ❊ ❊



أبو قتادة الأنصاري

« كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة »

محمد رسول الله ﷺ

* ليس منَ السَّهْل أنْ يحظى رجلٌ منْ رجال الصحابة الأنصار، على لقب فارس رسول الله ﷺ ، دون أنْ يكونَ منْ أوْحَدِ الفُرسَان قاطبة، وأشدَّهم شكيمةً، وأعلاهم همَّةً، وأعرفهم بمواطنِ الطَّعْنِ والضَّرْبِ.

* وفارسُ رسولِ الله تشريفٌ وتكريمٌ وشهادة عُظْمى لهذا الإنسان،الذى رسمَ أروع الصَّفحات فى تاريخ ساحات المغازى النَّبويّة، وساحات التاريخ الإسلامى، منذ أنْ أذن الله للذين يُقاتَلون بأنَّهم ظُلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، إلى أنْ لقىَ الله عزَّ وجلَّ بوجه نضر مُشْرق بأنوار اليقين، مصحوبًا بدعوةٍ مباركةٍ كريمةٍ مستجابةٍ من رسول الله ﷺ ، فكانَ من السَّادة النُّجب الأطهار.

* وسيرةُ هذا الفارس من السِّيَر الحُلوة التى تأخذُ بمجامع النُّفوس، لما فيها من عظَات بالغة، ووقفات موفَّقة فى تاريخِ الفروسية الحقة، والجهاد الإسلامى، وحسبك أنْ تعلَمَ أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضى الله عنه ـ وهو أشجع الصَّحابة وأبصرهم بالرجال ـ قد سمَّى بطلنا أسدًا من أُسُد الله عزَّ وجلَّ.

* نعم، فبطلُنا اليوم سيِّد الفُرسان وخيرُ الشُّجعان، ومن فُضَلاء الصَّحابة الأخيار الأبرار...، أثنى رسول الله ﷺ على شجاعته وفروسيته وقوته فقال: «خيرُ فرساننا أبو قتادة»(١).

* إنه أبو قتادة الأنصارى السلمى فارسُ رسول الله ﷺ .

شهد أُحُدًا، والحديبية. وله عدة أحاديث.

---

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٨٩).



اسمه الحارثُ بن ربعى (على الصحيح)، وقيل: اسمه: النعمان، وقيل: عمرو(١).

ومن هنا كانت البداية

كان أبو قتادة ـ رضى الله عنه ـ واحداً ممن يبحثون ـ فى خضم هذا الموج المتلاطم من الفتن ـ عن طوق للنجاة من تلك الجاهلية التى كان البشر يعيشون فيها.

إلى أن بعث الله الحبيب ﷺ وأشرق الكون كله بنور التوحيد والإيمان.

وجاءت اللحظة التى أراد الله فيها سعادة الدنيا والآخرة لأبى قتادة فشرح صدره للإسلام فذهب وأقدامه تسابق الريح ليلقى الحبيب ﷺ وليُسلم بين يديه.

وكان أبو قتادة فارسًا لا يُشق له غبار فأراد أن يجعل نفسه فى خدمة هذا الدين فكان يتمنى أن يأمره النبى ﷺ بأمر ليذهب فى التو واللحظة لتنفيذ هذا الأمر بكل حُب ووفاء وتضحية وإخلاص.

ولقد اختُلف فى شهوده غزوة بدر، ولكنه شهد غزوة أُحد وما بعدها وأبلى فى تلك الغزوات بلاءً حسنًا وقاتل فيها قتال مَن يبحث عن الشهادة ويتمناها من أعماق قلبه.

* وفى طريق الفداء والفدائية، شارك أبو قتادة فى قَتْلِ سلام بن أبى الحُقيق اليهوديِّ، حيثُ كان سلاَّم ـ وكنيته أبو رافع ـ منْ أكابر مجرمى اليهود الذين حزَّبوا الأحزابَ ضدَّ المسلمين، وأعانهم بالمُؤَن والأموال الكثيرة، وكان يؤذى رسولَ الله ﷺ، فاستأذنَ فرسانٌ منَ الأنصارِ منْ بنى الخزرج رسولَ الله ﷺ فى قَتْله، حيثُ كانَ فرسانٌ منَ الأوسِ، قد قَضُوا على كَعْبِ بنِ الأشْرف اليهوديِّ من قبلُ، فرغبتِ الخزرجُ فى إحرازِ فضيلةٍ مثلِ فضيلتهم، فلذلكَ أسرعوا إلى هذا الاستئذان(٢).

أوسمة وضعها النبى ﷺ على صدر أبى قتادة

لقد فاز أبو قتادة ـ رضى الله عنه ـ بدعاء النبى ﷺ له أكثر من مرة، بل شهد له النبى ﷺ بأنه كان من خير الفرسان فى حادثة بعينها.. وها نحن نسوق لحضراتكم نبذة يسيرة عن تلك الأوسمة التى وضعها النبى ﷺ على صدر أبى قتادة.

---

(١) السير للإمام الذهبى (٢/ ٤٤٩).

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص: ٦٩٢).

خير فرساننا اليوم أبو قتادة

* وفي غزوة الغابة ـ أو غزوة ذي قرد ـ كان لأبي قتادة وقفة عطرة، حظيَ يومها بلقب شريف؛ وتشريف منْ رسولِ الله ﷺ ظلَّ يصاحبه إلى أن لقيَ الله عزَّ وجلَّ، وسيظلُّ إلى ما يشاء الله.

* وغزاةُ الغابةِ، هي أوَّل غزاةٍ غزاها رسولُ الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل غزاة خيبر.

* ذكر الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه أنَّها كانتْ قبل خيبر بثلاث؛ وروى ذلك الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ مسندًا من حديثِ سلمةَ بنِ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ.

* وذكر الجمهور من أهلِ المغازي والسِّير، أنَّ غزوة الغابة كانت قبل الحُديبية، وأعتقد جازمًا أنَّ ما وردِ في الصَّحيح هو الصَّحيح، إنْ شاء الله.

* وخلاصةُ تلكم الرَّوايات التي يرويها بطلُ الفرسان وسيِّد العدَّائين سلمة بن الأكوع، أنَّ بني فزارة قد أغاروا على سَرْحِ المدينة بقيادة عبد الرحمن بن عُيينة الفزاريّ، فنادى سلمةُ بنُ الأكوع مُنْذرًا أهلَ المدينة، واستطاع أنْ يناوشَ القوم، ويرميهم بنباله الصَّائبة، ويقذفهم بالحجارة، حتى جاءت فوارسُ رسولِ الله ﷺ، وفيهم أبو قتادة والمقداد بن الأسود وعكّاشة بن محصنَ وآخرون، ثمَّ أدركهم رسولُ الله ﷺ بخمسمائة من أصحابه، وحمل أبو قتادة على عبد الرحمن بن عيينة فطعنه طعنةً فقتله، وولّى القومُ مُدْبرينَ، وعاد المسلمونَ إلى المدينة المنوّرة، بعد أنْ لقّنُوا بني فزارة درسًا لن ينسوه، ويومها قالَ رسولُ الله ﷺ: «خيرُ فرساننا اليومَ أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمة»[(١)].[(٢)]

اللهم بارك له في شعره وبشره

* حقًا لقد كان أبو قتادة يومها فارسَ غزاة الغابة وأسَد الغابة، فقد سجَّلَ أثرًا وضيئًا في تاريخِ المغازي، ويومها أيضًا حَظيَ بدعوة مستجابة مباركة منْ رسولِ الله ﷺ، نظرًا لجرأته، وسرعة تلبيته، وجهاده الدائمَ لإعلاء كَلمة الحقِّ والدِّين.

قال أبو قتادة: إني لأغسلُ رأسي، قد غسلتُ أحد شقيه، إذ سمعت فرسي جروة

---

(١) أخرجه مسلم(١٨٠٧) الجهاد والسير.

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٩٣).

تصهلُ، وتبحث بحافرها. فقلتُ: هذه حربٌ قد حضرت.

فقمتُ، ولم أغسل شق رأسى الآخر، فركبتُ، وعلىَّ بردةٌ، فإذا رسول الله ﷺ يصيح: الفَزَعَ! الفَزَعَ!

قال: فأُدركُ المقداد، فسايرته ساعة، ثم تقدمه فرسى، وكان أجود من فرسه. وأخبرنى المقداد بقتل مسعدة مُحرزًا ـ يعنى ابن نضلة ـ فقلتُ للمقداد: إما أن أمُوت، أو أقتل قاتل مُحرز.

فضرب فرسه، فلحقه أبو قتادة، فوقف له مسعدة، فنزل أبو قتادة فقتله، وجنب فرسه معه.

قال: فلما مَرَّ الناسُ، تلاحقوا، ونظروا إلى بُردى، فعرفوها، وقالوا: أبو قتادة قُتِلَ! فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنه قتيلُ أبى قتادة عليه بُردهٌ، فخلوا بينه وبين سلبه وفرسه».

قال: فلما أدركنى، قال: «اللهم بارك له فى شَعره وبَشَره، أفلح وجهُك! قتلت مسعدة»؟ قلتُ: نعم. قال: «فما هذا الذى بوجهك»؟ قلتُ: سهم رُميتُ به؛ قال: «فادنُ منى». فبصق عليه، فما ضرب علىَّ قط ولا قاح.

فمات أبو قتادة وهو ابنُ سبعين سنة؛ وكأنه ابنُ خمس عشرةَ سنة.

قال: وأعطانى فرس مسعدة وسلاحه(١).

أبو قتادة أسدٌ من أسد الله

* شيءٌ جميل أنْ يعرفَ الفرسانُ أقدارُ بعضهم، فلا يَعرِف الفَضْل لأهل الفضل، إلا أهلُ الفضل؛ ومنْ أهلِ الفَضْل والإفضال هنا أبو بكر الصديق ـ عليه سحائب الرّضوان ومُزْن المغفرة ـ فقد عَرَفَ مكانة أبى قتادة فى عالَم الفروسيّة، وعلم أنَّ أبا قتادة قد اقتعد مكانةً عُليا فى سُدَّة الفضل فى هذا المجالِ، لذلك سمّاه يوم حُنين أسدًا منْ أُسودِ الله، وهو الجديرُ بهذا اللقب(٢).

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٨٠) وابن حجر فى الإصابة (٧/ ٣٠٣) والطبرانى فى المعجم الصغير (٢/ ١٥٢).

(٢) فرسان من عصر النبوة (ص:٦٩٧).

عن أنس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قتل كافرًا فله سلبهُ» فقال أبو قتادة: يا رسول الله، إني ضربتُ رجلاً على حبل عاتقه وعليه درعٌ له، فأُجهضتُ عنه. فقال رجلٌ: أنا أخذتُها، فأرضه منها، وأعطنيها ـ وكان رسول الله ﷺ لا يُسألُ شيئًا إلا أعطاهُ أو سكت ـ فسكت. فقالَ عمر: لا يُفيئُها الله على أسد من أُسده، ويُعطيكها. فضحك رسول الله ﷺ ، وقال: «صدق عمر»(١).

وفي رواية البخاري: عن أبي قتادة قال: خرجنا مع النبي ﷺ عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع، وأقبل عليَّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله عز وجل، ثم رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، فقال النبي ﷺ مثله. قال: ثم قال النبي ﷺ مثله، فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، قال: ثم قال النبي ﷺ مثله، فقمت فقال: «مالك يا أبا قتادة؟» فأخبرته، فقال رجل: صدق، وسلبه عندي، فأرضه مني. فقال أبو بكر: لاها الله، إذًا لا يعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله ﷺ فيعطيك سلبه.

فقال النبي ﷺ : صدق فأعطه.. فأعطانيه، فابتعت به مخرفًا في بني سلمة فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام».

حفظك الله بما حفظت به نبيه

إنها دعوة مباركة خرجت من فم المصطفى ﷺ لأبي قتادة.

فعن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدًا» فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد.

قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابهار الليل وأنا إلى جنبه قال: فنعس رسول الله ﷺ فمال على راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، قال: ثم سار حتى تهور الليل مال على راحلته قال: فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، قال: ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد

(١) قال الأرنؤوط: رواه أحمد بإسناد صحيح (٣/ ١٩٠).

من الميلتين الأولبين حتى كاد ينجفل، فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» قلت: أبو قتادة قال: «متى كان مسيرك منى؟» قلت: ما زال هذا مسيرى منذ الليلة قال: «حفظك الله بما حفظت به نبيه»(١).

نعمة الاتباع

وظل أبو قتادة ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، فكان يحب النبي ﷺ حبًا مَلَك عليه لُبَّه وفؤاده حتى كان يتمنى أن يفديه بنفسه وماله، بل وبكل ما يملك.

فلما توفي الحبيب ﷺ حزن أبو قتادة عليه حُزنًا كاد أن يمزق قلبه وأظلمت الدنيا كلها فى وجهه... وعاش أبو قتادة متأسيًا بسنةُ حبيبه ﷺ. وكان لا يبخل بجهده ولا بنفسه وماله عن خدمة الإسلام فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ـ رضى الله عنهم جميعًا ـ وكانوا يعرفون له قدره ومكانته.

شجاعة فائقة

* وكان أبو قتادة ـ رضى الله عنه ـ منْ فُرسان الفُتُوحات الإسلاميَّة، ومن الصَّناديد الذين كان يَعتمدُ عليهم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقد وَرَدَ أنَّ عمرَ قد بَعَثَ أبا قتادة ـ رضى الله عنه ـ فَقَتَل ملكَ فارس بيده، وعليه مِنْطقة قيمتها خمسة عشر ألفًا، فَنَفَلَها إياه عمر(٢).

* عن عبد الله بن عُبيد بن عُمير: أن عمر بعث أبا قتادة، فقتل ملك فارس بيده، وعليه منطقةٌ قيمتُها خمسةَ عشر ألفًا، فنفلها إياه عمر(٣).

وقال ابنُ سعد: كانت سريةُ أبى قتادة إلى حضْرة، وهى بنجد، سنة ثمان، وكان فى خمسة عشر رجلاً، فغنموا مائتى بعيرٍ وألفى شاةَ، وسبوا سبيًا...، ثم سريةُ أبىّ قتادة إلى بطن إضم بعد شهر(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨١) عن أبى قتادة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٦).

(٣) قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات ـ السير (٢/ ٤٥٢).

(٤) ابن سعد (٢/ ١٣٣) ـ نقلاً من السير (٢/ ٤٥١). وإضم: مكان بين مكة واليمامة.

* وظلَّ أبو قتادة ـ رضى الله عنه ـ يحظى باحترام وُلاَة المدينة المنوّرة، فلمّا كان مروان بن الحكم واليًا على المدينة، أرسل إلى أبى قتادة، وطلب منه أنْ يريه مواقفَ النَّبى ﷺ وأصحابه، فانطلقَ معَ مروان حتى قضى حاجته.

* وتروى المصادرُ التَّاريخية وغيرها أنَّ أبا قتادة كان منْ أنصارِ علىّ بنِ أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فكان معه يوم الجَمَل، وقاتل معه الخوارج وكان له مقام رفيعٌ عند على ـ رضى الله عنه ـ حيثُ شَهِدَ معه مشاهده كلّها[1].

* وعاش أبو قتادة سبعين سنة ووجهه نضر كأنه ابن خمس عشرة سنة وذلك لأن النبى ﷺ دعا له بذلك فقال: «اللهم بارك له فى شعره وبشره».

وتوفى ـ رضى الله عنه ـ فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب «وصلى (علىٌّ) على أبى قتادة فكبّر عليه سبعًا»[2].

وعلى الرغم من أنه قد مات إلا أن سيرته العطرة الفواحة ستظل نورًا يسطع على جبين الزمان.

فرضى الله عن (أبى قتادة) وعن سائر الصحابة

* * *

(١) فرسان من عصر النبوة (ص:٧٠١).

(٢) قال الأرنؤوط: رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٣/ ٣٠٤) ورجاله ثقات.

عبد الله ذو البجادين

اللهم إني أمسيت راضيًا عنه فارضَ عنه

محمد رسول الله ﷺ

إن معرفة الإنسان ويقينه في أنه على الحق من أعظم أسباب الثبات على هذا الدين.

فالدنيا بكل ما فيها من زُخرف ومتاع قال عنها خالقها ـ جل وعلا ـ: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

وقال تعالى عن نعمة الإسلام: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وها نحن على موعد مع صنف كريم استشعر نعمة الإسلام وعاش، بل وتعايش معها قلبًا وقالبًا فترك الدنيا بزخرفها الفاني وخرج مهاجرًا إلى الله ورسوله.

إنه عبد الله ذو البجادين ـ رضي الله عنه ـ.

كان ذو البجادين يتيمًا لا مال له. فلقد مات أبوه، ولم يورثه شيئًا، وكفله عمه حتى أيسر، فلما قدم النبي ﷺ المدينة جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام، ولا يقدر عليه من (عمه) حتى مضت السنون والمشاهد.

فقال لعمه: يا عم، إني قد انتظرت إسلامك، فلا أراك تريد محمدًا، فائذن لي في الإسلام، فقال: والله لئن اتبعت محمدًا، لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك، حتى ثَوْبَيْك.

قال: فأنا والله متبع محمدًا، وتارك عبادة الحجر، وهذا ما بيدي فخذه، فأخذ ما أعطاه حتى جرَّده من إزاره.

فأتى أمَّه فقطعت بجادًا لها(١) باثنين، فائتزر بواحد وارتدى بالآخر، ثم أقبل إلى المدينة، وكان «بورقان»(٢) فاضطجع فى المسجد فى السَّحر، وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح، فنظر إليه فقال: «مَن أنت؟» فانتسب له، وكان اسمه عبد العزّى.

فقال: «أنت عبد الله ذو البجادين». ثم قال: «انزل منى قريبًا». فكان يكون فى أضيافه حتى قرأ قرآنًا كثيرًا(٣).

وعاش ذو البجادين ـ رضى الله عنه ـ فى سعادة لا يعلمها إلا الله ـ جل وعلا ـ فقد لامس الإيمان شغاف قلبه وامتلأ بنور الإيمان وكان ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فكان يذكر الله كثيرًا ولا يفتر لحظة عن ذكره... وكيف يفتر الحبيب عن ذكر حبيبه؟!!!

وظل ملازمًا للنبى ﷺ ملازمة العين لأختها ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة الرقراقة.. وبلغت محبة النبى ﷺ فى قلبه مبلغًا لا يعلمه إلا الله حتى إنه أحسَّ وكأن الله قد جمع له نعيم الدنيا بأسرها فى تلك اللحظات التى كان ينعم فيها بالقُرب من الحبيب ﷺ.

كلا إنه أواب

وها هو وسام من أوسمة الشرف التى وضعها الحبيب ﷺ على صدر ذى البجادين ـ رضى الله عنه ـ فقد شهد له النبى ﷺ أنه أواب.

فعن الأدرع، قال: كنت أحرس النبى ﷺ فخرج ذات ليلة لبعض حاجته قال: فرآنى، فأخذ بيدى، فانطلقنا، فمررنا على رجل يصلى يجهر بالقرآن، فقال النبى ﷺ: «عسى أن يكون مُرائيًا».

(١) البجاد: الكساء الغليظ الجافى.
(٢) جبل على يمين المار من المدينة إلى مكة.
(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٨٧).

قال: قلت: يا رسول الله يصلى يجهر بالقرآن؟ قال: فرفض يدى ثم قال: «إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة».

ثم خرج ذات ليلة، وأنا أحرسه لبعض حاجته، فأخذ بيدى، فمررنا على رجل يصلى يجهر بالقرآن، فقلت: عسى أن يكون مرائيًا، فقال النبى ﷺ: «كلا إنه أواب».

قال: فنظرت فإذا هو عبد الله ذو البجادين(١).

وعن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين: «إنه أوَّاهٌ» وذلك أنه كان كثير الذكر لله ـ عز وجل ـ فى القرآن، وكان يرفع صوته فى الدعاء(٢).

وظل ذو البجادين ـ رضى الله عنه ـ يسطِّر على جبين التاريخ سطورًا من النور فكان لا تفوته غزوة غزاها رسول الله ﷺ .

يا ليتنى كنت صاحب الحفرة !!!

لم يكن لأصحاب النبى ﷺ أى طموحات تتعلق بهذه الدنيا الفانية وإنما كانوا يتسابقون دومًا وأبدًا على الفوز بأعلى درجات الجنان.

وهذا ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يغبط أخاه ـ ذى البجادين ـ على تلك المنزلة العظيمة التى وصل إليها.

فقد كان ذو البجادين قد خرج مجاهدًا فى غزوة تبوك فقال للنبى ﷺ: ادع لى بالشهادة. فربط النبى ﷺ على عضده وقال: اللهم إنى أحرِّم دمه على الكفار. فقال: ليس هذا أردت. قال النبى ﷺ إنك إذا خرجت غازيًا فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، أو وقصتك دابتك فأنت شهيد.

فأقاموا بتبوك أيامًا ثم تُوفى.

يقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وهو يقص علينا هذا المشهد المهيب الذى جعله يتمنى أن يكون صاحب هذه الحفرة (القبر).

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٥٩٨٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٥٩٨١): رواه أحمد والطبرانى بإسناد حسن.
والأواه: هو كثير التأوه خوفًا من الله.



قال ابن مسعود: «قمتُ من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنيّ قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يُدليانه إليه، وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما» فدلّياه إليه، فلما هيأه لشقّه قال: «اللهم إني قد أمسيت راضيًا عنه، فارضَ عنه».

قال: يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة»(١).

ويا لها من صَفحة مضيئة في حياة هذا الصحابي الجليل الذي خرج من دنياه ابتغاء وجه الله تعالى؛ لأنه يعلم أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأنها متاع زائل وعارية مسترجعة، وأن السعادة فيها لا تدوم بحال من الأحوال... فترك ثروة عمه ليفوز بأعظم ثروة وليظفر بأعظم نعمة في الكون كله ـ ألّا وهي نعمة الإسلام».

قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

ولذلك فإن من أراد السعادة الحقيقية فعليه أن يخرج من دنياه وأن يؤثر الله ـ جل وعلا ـ في كل مقام.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤].

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية (٥/ ٢٨) والهيثمي في المجمع (٩/ ٣٦٩) وقال: رواه البزار عن شيخه عباد بن أحمد العرزمي وهو متروك. وذكره ابن حجر في الإصابة (٤/ ٩٩) وقال: رواه البغوي بطوله من هذا الوجه، ورجاله ثقات إلا أنه فيه انقطاع.

أيها الأخ الحبيب: كُن مع الله فإذا استغنى الناسُ بالدنيا، فاستغنِ أنت بالله. وإذا فرحوا بالدنيا، فافرحْ أنت بالله. وإذا أنسوا بأحبابهم، فاجعل أُنْسَك بالله. وإذا تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم، وتقرَّبوا إليهم، لينالوا بهم العزّة والرفعة؛ فتعرّف أنت إلى الله، وتودد إليه، تَنَلْ بذلك غاية العزِّ والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان؛ فقال له رجل: إني أُكثر البكاء، فقال: إنك إن تضحك وأنت مُقِرٌّ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ[1] بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه.

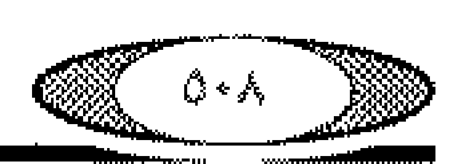
فقال: أوصني، فقال: دَعِ الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكُنْ في الدنيا كالنحلة: إنْ أكَلَتْ أكلت طيبًا، وإن أُطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه[2].

فرضي الله عن (عبد الله) وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) مُدِل بعملك: أي واثقٌ به.

(٢) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١٧٢) ط. دار الخاني.



عيسى (عليه الصلاة والسلام)

صحابى ونبى... يقتل الدجال... ويحكم بشريعة الإسلام

قد يتعجب البعض من أننى ترجمت لنبى الله عيسى (عليه السلام) مع أصحاب النبى ﷺ، ولكن بعد قراءة تلك الصفحات سوف يزول العجب، حينما نعلم جميعًا أن عيسى (عليه السلام) هو الوحيد الذى جمع بين النبوة والصُحبة، فلقد رأى النبى ﷺ ليلة الإسراء، وهو الآن حىٌ وسوف ينزل فى آخر الزمان ليقتل الدجال ويحكم بشريعة الإسلام... فهو آخر من يموت من أصحاب الحبيب ﷺ.

سُمى المسيح لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان.. لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه ـ عليهما السلام ـ.

وسُجّل هذا الاسم (المسيح) فى كتاب الله فكان جزاءً عاجلاً له فى الدنيا (والجزاء من جنس العمل)[(١)].

ومن هنا كانت بدايته

وها نحن نبدأ قصته من وقت أن كانت أمه (مريم) حَملاً فى بطن جدته (امرأة عمران).

قال تعالى حاكيًا تلك القصة فى كتابه فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا

---

(١) هذه الترجمة مختصرة من قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير ـ وأشراط الساعة ليوسف الوابل ـ والمسيح الدجال (للمصنف).

نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران ٣٣ ـ ٣٧].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له فاشتهت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها مُحررًا أى حبيسًا فى بيت المقدس (ليكون خادمًا فى بيت المقدس).

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها ـ أى جامعها زوجها ـ فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ ، أى فى خدمة بيت المقدس، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خُدامًا من أولادهم.

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١).

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ .

ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفَّتها فى خِرقة ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العُبَّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبدَّ بها دونهم من أجل زوجته (أختها أو خالتها) على القولين، فشاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قُرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ(واللفظ لأحمد) ـ صحيح الجامع (٥٧٨٥).

في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي رزق رزقنيه الله﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله»(١).

وقال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٢).

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٢٨).
(٢) متفق عليه عن أبي موسى - صحيح الجامع (٤٥٧٨).

حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[مريم ١٦: ٣٧].

وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شئونها و﴿انتبذت﴾ أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فتمثَّل لها بشرًا سويًا﴾ فلما رأته ﴿قالت إنى أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقيًا﴾.

﴿قال إنما أنا رسولُ ربك﴾ أى خاطبها الملَك ﴿قال إنما أنا رسول ربك﴾ أى لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إَليك ﴿لأهب لك غُلامًا زكيًا﴾ أى ولدًا زكيًا.

﴿قالت أنَّى يكونُ لى غُلام﴾ أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ﴿ولم يمسسنى بشرٌ ولم أكُ بغيًا﴾ أى ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيِّن﴾ أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً: ﴿كذَلك قال ربُّك﴾ أى وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين ﴿هو علىَّ هيِّن﴾ أى وهذا سهل عليك ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿ولنجعلهُ آيةً للناس﴾ أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، وقوله ﴿ورحمة منَّا﴾ أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله فى صغره وكبره فى طفولته وكهولته، بأن يُفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿وكان أمرًا مقضيًا﴾ يُحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها، يعنى أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره.

ويُحتمل أن يكون قوله: ﴿وكان أمرًا مقضيًا﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ [التحريم:١٢].

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.

ولهذا قال تعالى: ﴿فحملته﴾ أي فحملت ولدها ﴿فانتبذت به مكانًا قصيًا﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام في حقها، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عبّاد بني إسرائيل يقال له يوسف ابن يعقوب النجار، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج، فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم.. هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول. ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم. إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال لها: فأخبريني خبرك. فقالت: إن الله بشرني ﴿بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴿٤٥﴾ ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ [آل عمران:٤٥ ـ ٤٦].

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًا: ﴿فأجاءها المخاضُ إلى جذعِ النخلة﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة.

﴿قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علَمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿نسيًا منسيًا﴾ أي لم تُخلق بالكلية.



وقوله: ﴿فناداها من تَحتها﴾ قيل: إنه جبريل عليه السلام.

وقوله: ﴿ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا﴾ قيل: النهر... وإليه ذهب الجمهور.

﴿وهُزى إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رُطبًا جنيًا﴾ فذكر الطعام والشراب، ولهذا قال: ﴿فكُلى واشربى وقَرِّى عينًا﴾.

قال عمرو بن ميمون: ليس شيء أجود للنُفساء من التمر والرُطب ثم تلا هذه الآية.

قوله: ﴿فإما تَرينَّ من البشر أحدًا فقولى إنى نذرتُ للرحمنِ صومًا فلن أُكلم اليوم إنسيًا﴾ وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال: ﴿فكُلى واشربى وقرِّى عينًا فإما تَرينَ من البشر أحدًا﴾ أى فإن رأيت أحدًا من الناس ﴿فقولى﴾ له أى بلسان الحال والإشارة ﴿إنى نذرتُ للرحمن صومًا﴾ أى صمتًا، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام ﴿فلن أكُلم اليوم إنسيًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ [مريم:٢٧ ـ ٢٨].

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئًا فريًا﴾ والفرية هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: ﴿يا أخت هارون﴾ قيل: شبهوها بعابد من عبّاد زمانهم كانت تساميه فى العبادة، وكان اسمه هارون، قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به فى العبادة.

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال. عظم التوكل على ذى الجلال، ولم يبقَ إلا الإخلاص والاتكال ﴿فأشارت إليه﴾ أى خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿قالوا كيف نُكلم مَنْ كان فى المهدِ صبيًا﴾ أى كيف تحيلينا فى الجواب على صبى صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع فى مهده ولا يميز وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولاً نطقيًا، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبيًا.

فعندها: ﴿قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا (٣٠) وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا (٣٢) والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾ [مريم:٣٠ ـ ٣٣].

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿قال إني عبدُ الله﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه... فنزَّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيًا﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم، وكما قال تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بُهتانًا عظيمًا﴾، وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الحيض (لعنهم الله) فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صدِّيقة واتخذ ولدها نبيًا مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال: ﴿وجعلني مُباركًا أين ما كنتُ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزَّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة (تعالى وتقدس) ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمتُ حيًا﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قال: ﴿وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا﴾ أي وجعلني برًا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتحض جهتها إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها.

﴿ولم يجعلني جبارًا شقيًا﴾ أي لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته.

﴿والسلامُ عليَّ يوم وُلدت ويومَ أموتُ ويومَ أُبعثُ حيًا﴾، ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبيَّن أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[مريم: ٣٤:٣٥].

والمقصود أن الله تعالى بيَّن أمر المسيح فقال لرسوله: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون﴾ يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال: ﴿ما كانَ لله أن يتخذَ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقولُ له كُن فيكون﴾ أي لا يعجزه شيء، بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن

فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:٣٦].

هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧].

أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه.

فمن قائل من اليهود: إنه ولد زنية، واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون.

ومَن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيمٍ﴾.

عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»(١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٧١ـ١٧٣].

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد عن عبادة بن الصامت ـ صحيح الجامع (٦٣٢٠).

أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها من أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام.

وسُمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهى الكلمة أيضًا التى منها خُلق وبسببها وجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٦ ـ ١١٧].

وقال تعالى فى أول سورة الكهف، وهى مكية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:١ ـ ٥].

وقال الله تعالى فى سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧]، فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شىء وأنه رب كل شىء ومليكه وإلهه، وقال فى أواخرها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٢ ـ ٧٥].

ثم بيّن حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة، أى ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا، وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أى ومن كان بهذه المثابة، كيف يكون إلهًا! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوًا كبيرًا.

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه، تعالى الله عما يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿أأنت قُلت للناس اتخذونى وأُمى إلهين من دُون الله قال سُبحانك﴾ أى تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ما يكونُ لى أن أقُول ما ليس لى بحق﴾ أى ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿إن كُنتُ قُلتهُ فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب ﴿ما قُلتُ لهم إلا ما أمرتنى به﴾ أى ما قلت غير ما أمرتنى به حين أرسلتنى إليهم وأنزلت علىَّ الكتاب الذى كان يتلى عليهم، ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم فلما توفيتنى﴾ أى رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه كان ذلك ﴿كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد﴾.

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبرى من أهل النصرانية: ﴿إن تُعذبهم فإنهم عبادك﴾ أى وهم يستحقون ذلك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضى وقوع ذلك. ولهذا قال: ﴿فإنك أنت العزيزُ الحكيم﴾ ولم يقل الغفور الرحيم.

ولهذا قال: ﴿إذ أيدتك برُوح القُدُس﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه فى حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿تُكلِّم الناس فى المهد وكهلاً﴾ أى تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك ﴿وإذْ علَّمتكَ الكتاب والحكمة﴾ أى الخط والفهم ﴿والتوراة والإنجيل﴾ وقوله: ﴿وإذْ تخلقُ من الطين كهيئة الطير بإذنى﴾ أى تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك ﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى﴾ أى بأمرى يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم.

وقوله: ﴿وتُبرئُ الأكمهَ﴾ قال بعض السلف: وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿والأبرص﴾ هو الذى لا طب فيه، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿وإذْ تُخرجُ الموتى﴾ أى من قبورهم أحياء ﴿بإذنى﴾.

وقوله: ﴿وإذ كففتُ بنى إسرائيل عنك إذ جئتُهم بالبيِّنات فقال الذين كفروا منهم إن

هذا إلا سحرٌ مبين﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى، وسلامة له من الردى.

باقة من معجزاته (عليه الصلاة والسلام)

قال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣) ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون (٤٤) إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦) قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٤٧) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (٤٨) ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٤٩) ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون (٥٠) إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٥١].

لقد كان معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبُعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمَّن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقًا له، أسلموا سراعًا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم بُعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث في زمن الفُصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا أنه كلام الخالق عز وجل، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعوانًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين همّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون وسلَّم لهم كثير من النصارى ما ادعوه.. وكلا الفريقين في ذلك مخطئون.

ذكر خبر المائدة

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٢ ـ ١١٥].

ومضمون ذلك: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يُقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعر وصفَّ بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنوا قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنوا حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. ويقال: وخل، ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جدًا.

قال الله كونى فكانت. ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبًا من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يومًا بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك، فرُفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير.

ذكر رفع عيسى (عليه السلام) إلى السماء فى حفظ الله

قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٥].

فاليهود عليهم لعائن الله أعداء نبى الله عيسى وأمه الذين قال الله فيهم: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا



قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٦ ـ ١٥٩].

كانوا يبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، وهو الوجيه عند الله فى الدنيا والآخرة، وَوَشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة ـ داود بن نورا ـ فأمر بقتله وصلبه، فحصروه فى دار ببيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من روزنة[1] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون، ودخل الشُرط، فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه، فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلّم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب، وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا فاحشًا بعيدًا.

قال ابن عباس: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفى البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين يعنى: فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماءً. فقال: إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم أيكم يُلقى عليه شبهى، فيُقتل مكانى، فيكون معى فى درجتى، فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك، فأُلقى عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء. قال:وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق؛ فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ . قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾[2] [الصف:١٤].

---

(١) الروزنة: الكوة أو الفتحة.

(٢) قال ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٨٥ ـ ٨٦): وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم، ورواه النسائى، نحوه.

نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال، **ثم نزول عيسى ـ عليه السلام ـ قال** ﷺ: «**إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين**[١]، **واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه**» ـ أي يطلب الدجال ـ «**حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة**»[٢].

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة.

قال ابن كثير: «هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق».

وذكر ابن كثير أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدد المسلمون منارة من حجارة بيض، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة، حيث قيّض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى، لينزل عيسى ابن مريم عليها، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل منهم جزية، ولكن من أسلم وإلا قُتل، وكذلك غيرهم من الكفار[٣].

أدلة نزوله (عليه السلام) من القرآن الكريم

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ثابتٌ في الكتاب والسُّنَّة الصحيحة المتواترة، وذلك علامة من علامات الساعة الكبرى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ **إلى قوله تعالى**: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١].

أي: نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة علامةٌ على قرب الساعة ويدلُّ على

(١) المهرودتان: لابس مهرودتين؛ أي ثوبين مصبوغين بورس، ثم زعفران.
(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب الفتن ـ باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٥٠).
(٣) النهاية في الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير (١/ ١٤٥).

ذلك القراءة الأخرى: ﴿وإنه لَعَلَمٌ للساعة﴾؛ بفتح العين واللام؛ «أي: علامة وأمارة على قيام الساعة، وهذه القراءة مرويَّة عَن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير»[1].

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى تفسير هذه الآية: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾؛ قال:«هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة»[2].

وقال تعالى: ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ [النساء:١٥٧ ـ ١٥٩].

فهذه الآيات؛ كما أنها تدلُّ على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء؛ كما فى قوله تعالى: ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ [آل عمران:٥٥].

فإنها تدلُّ على أنَّ من أهل الكتاب مَن سيؤمن بعيسى عليه السلام آخر الزمان، وذلك عند نزوله[3] وقبل موته؛ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة.

أدلة نزوله من السنة المطهرة

إن الأدلة على نزوله فى آخر الزمان كثيرة ومتواترة:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده؛ ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: «واقرؤوا إن شئتم: ﴿وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلا ليُؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكونُ عليهم شهيداً﴾»[4].

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعتُ النبى ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أُمتى

---

(١) تفسير القرطبى (١٦/ ١٠٥) ـ تفسير الطبرى (٢٥/ ٩٠ ـ ٩١).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٢٩) (ح ٢٩٢١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٣) نزولاً حقيقًا بروحه وجسده.
(٤) أخرجه البخارى (٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩١) مع الفتح ـ ومسلم (٢/ ١٨٩ ـ ١٩١) مع شرح النووى.

يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة؛ قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم: صلِّ لنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة»(١).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتَّى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه»(٢).

الحكمة في نزول عيسى (عليه السلام) دون غيره

تلمَّس بعض العلماء الحكمة في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان دون غيره من الأنبياء، ولهم في ذلك عدة أقوال:

١ ـ الردُّ على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فبيَّن الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم ويقتل رئيسهم الدجَّال.

ورجَّحَ الحافظ ابن حجر هذا القول على غيره.

٢ ـ إن عيسى عليه السلام وجد في الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩]، فدعا الله أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام.

قال الإمام مالك رحمه الله: «بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا»(٣).

وقال ابن كثير: «وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظَّمة في الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة»(٤).

وقد ترجم الإمام الذهبي لعيسى عليه السلام في كتابه «تجريد أسماء الصحابة»، فقال:«عيسى بن مريم عليه السلام: صحابيٌّ، ونبيٌّ؛ فإنه رأى النبيَّ ﷺ ليلة الإسراء،

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤) مع شرح النووي ـ باب نزول عيسى بن مريم ﷺ حاكمًا.
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٠٦) والحاكم (٢/ ٥٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.
(٣)، (٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٣).

وسلَّم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا»[١].

٣ ـ إن نزول عيسى عليه السلام من السماء؛ لدُنُوِّ أجله، ليُدفنَ فى الأرض، إذ ليس لمخلوقٍ من التراب أن يموت فى غيرها، فيوافق نزوله خروج الدجال، فيقتله عيسى عليه السلامُ.

٤ ـ إنه ينزل مكذبًا للنصارى، فيُظهر زيفهم فى دعواهم الأباطيل، ويُهلك الله المللَ كلها فى زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

٥ ـ إن خصوصيته بهذه الأمور المذكورة لقول النبى ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، ليس بينى وبينه نبىٌّ»[٢].

فرسول الله ﷺ أخص الناس به، وأقربهم إليه ؛ فإن عيسى بشَّر بأن رسول الله ﷺ يأتى من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه والإيمان به[٣]؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وفى الحديث: «قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم؛ أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى»[٤].

هلاك الدجال على يديه

يكون هلاك الدَّجَّال على يدى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أنَّ الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعمُّ فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى بن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عبادُ الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهًا نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُد)[٥]، فإذا رآه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له

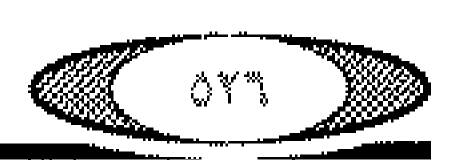
(١) تجريد أسماء الصحابة (١/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨) مع الفتح ـ ومسلم (١٥/ ١١٩) مع شرح النووى.

(٣) المنهاج فى شُعب الإيمان (١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥) للحليمى ـ وفتح البارى (٦/ ٤٩٣).

(٤) قال ابن كثير فى إسناده: «هذا إسناد جيد»، وروى له شواهد من وجوه أخر، رواها الإمام أحمد فى «المسند». «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«مسند الإمام أحمد» (٤/ ١٢٧ و٥/ ٢٦٢ ـ بهامشه منتخب الكنز).

(٥) (لُد): بلدة فى فلسطين قرب بيت المقدس. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥).



عيسى عليه السلام: «إن لى فيك ضربة لن تفوتني»، فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود[1].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى خفقة من الدين وإدبار من العلم... (فذكر الحديث، وفيه:) ثم ينزل عيسى ابن مريم، فينادى من السَّحَر، فيقول: أيها الناس! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذَّاب الخبيث.

فيقولون: هذا رجلٌ جنيٌّ. فينطلقون، فإذا هم بعيسى ابن مريم ﷺ، فتقام الصلاة، فيُقال له: تقدَّم يا روح الله! فيقول: ليتقدَّم إمامُكُم، فليصلِّ بكم، فإذا صلَّى صلاة الصبح؛ خرجوا إليه. قال: فحين يرى الكذاب ينماث[2] كما ينماث الملح فى الماء، فيمشى إليه فيقتله، حتى إنَّ الشجر والحجر ينادى: يا روح الله! هذا يهوديٌّ، فلا يَتْرُكُ ممَّن كان يتبعه أحدًا إلا قتله»[3].

وبقتله ـ لعنه الله ـ تنتهى فتنته العظيمة، وينجى الله الذين آمنوا من شره وشر أتباعه على يدى روح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام وأتباعه المؤمنين.

بماذا يحكم عيسى (عليه السلام)؟

يحكم بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ، فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة، لا يُنسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبى بعد محمد ﷺ.

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء، وآخر مجدديها نبى على ملة رسول الله وشريعته، بل آخر صحابى نبى.

* * *

(١) انظر: «النهاية فى الفتن والملاحم» (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، تحقيق د. طه زينى.

(٢) (ماث الشىء ميثًا) أى: مرسه. وماث الملح فى الماء؛ أى: أذابه. انظر: «لسان العرب» (٢/ ١٩٢).

(٣) «الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد» (٢٤/ ٨٥ ـ ٨٦). قال الهيثمى: «رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح». انظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٤).

عيسى (عليه السلام) يحج إلى بيت الله الحرام

عن حنظلة الأسلمي قال: سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده ليُهِلَّن ابن مريم بفجِّ الروحاء[1] حاجًا أو معتمرًا أو ليثنِّيَنَّهما»[2]. أي يجمع بين الحج والعمرة.

وضعه للجزية ليس نسخاً لحكم الجزية

أما وضع عيسى ـ عليه السلام ـ الجزية عن الكفار ـ مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله عليه السلام ـ؛ فليس هذا نسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيَّد بنزول عيسى عليه السلام بإخبار نبينا محمد ﷺ ، فهو المبيِّن للنَّسخ[3] بقوله لنا: «والله لينزلَنَّ ابنُ مريم حكمًا عدلاً، فليكسرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعنَّ الجزية»[4].

انتشار الأمن وظهور البركات في عهده (عليه السلام)

ولأن الكون كله قد أسلم واستسلم لله ـ جل وعلا ـ فإن الإنسان كلما ازداد طاعة لله كلما سخّر الله له الكون كله.

ولذلك فعند نزول عيسى ـ عليه السلام ـ يعلم الناس أن نزوله علامة على قُرب القيامة فينشغل الناس جميعًا بالعبادات والطاعات فيأمر الله الأرض أن تُخرج بركتها ويأمر السماء أن تُنزل بركتها فيفيض المال ولا يجد من يأخذه وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد.

فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عليه السلام ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله ﷺ : «ثم يرسل الله مطرًا لا يُكنُّ منه بيتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ـ المرآة ـ ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة ـ

---

(١) فج الروحاء: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٢٣٤) كتاب الحج ـ باب جواز التمتع في الحج والقران.

(٣) انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٩٢).

(٤) «صحيح مسلم»، باب نزول عيسى عليه السلام حاكمًا، (٢/ ٢٩٢ ـ مع شرح النووي).

مجموعة من الرجال - من الرمانة، ويستظلون بقحفها - قشرتها - ويبارك فى الرِّسل - اللبن - حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس»(١).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنه نازل... فيهلك الله فى زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم»(٢).

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن عيسى ابن مريم حكمًا عادلاً... وليضعن الجزية، ولتُركن القلاص - الناقة الشابة - فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال؛ فلا يقبله أحد»(٣).

قال النووى: «ومعناه أن يزهد الناس فيها - أى: الإبل - ولا يرغب فى اقتنائها؛ لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقرب القيامة.

وإنما ذُكرت القلاص؛ لكونها أشرف الإبل، التى هى أنفس الأموال عند العرب، وهو شبيه بمعنى قول الله - عز وجل -: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير:٤]، ومعنى: «لا يُسعى عليها»: لا يُعتنى بها»(٤).

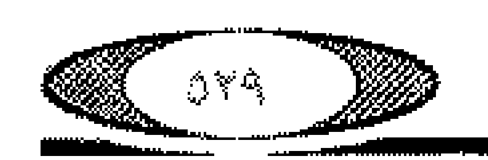
وحان وقت الرحيل

وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام فى الأرض بعد نزوله؛ فقد جاء فى بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفى بعضها أربعين سنة.

ففى رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما -: «فيبعث الله عيسى بن مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردةً من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ فى قلبه مثقال ذرة من خيرٍ أو

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٣) كتاب الفتن.
(٢) رواه أحمد وقال ابن حجر: سنده صحيح فتح البارى (٦/ ٤٩٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٢) باب نزول عيسى عليه السلام.
(٤) مسلم بشرح النووى (٢/ ١٩٢).



إيمانٍ إلا قبضته»[١].

وفى رواية الإمام أحمد وأبى داود: «فيمكث فى الأرض أربعين سنة، ثم يُتوفى، ويصلى عليه المسلمون»[٢].

وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكلٌ؛ إلا أن تُحمل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مُكثه فى الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة على المشهور[٣].

فرضي الله عنه وأرضاه ... وصلوات ربي وسلامه عليه

ونسأل الله جل وعلا أن يجمعنا به (بعيسى عليه السلام)

وبالحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سرر متقابلين

* * *

(١) «صحيح مسلم»، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٧٥ ـ ٧٦ ـ مع شرح النووى).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢/ ٤٠٦ ـ بهامشه منتخب الكنز. قال ابن حجر: «صحيح» (٦/ ٤٩٣).

(٣) انظر: «النهاية/ الفتن والملاحم» (١/ ١٤٦)، تحقيق د. طه زيني.

فخلف من بعدهم خلف

وبعد أن تعايشنا بقلوبنا وجوارحنا فى تلك الرحلة الطويلة مع هؤلاء الصحب الكرام ـ رضى الله عنهم ـ الذين قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال عنهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة:٨].

وبعد كل ما علمناه من أحوالهم وأخبارهم التى ملأت الكون كله بالصدق والعطاء والبذل والتضحية لا نملك إلا أن نبكى الدماء بدل الدموع على أنفسنا وعلى حال الأمة كلها التى ابتعدت كثيراً كثيراً عن شرع الله وعن هدى رسول الله ﷺ وعن الطريق الذى سلكه أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وذهبت تلتمس العزة عند الشرق الملحد وعند الغرب الكافر... فكانت النتيجة العادلة أن الله ـ عز وجل ـ أذلَّ تلك الأمة لأذل الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد علَّمنا الحق ـ جل وعلا ـ كيف نسلك طريق العزة والتمكين، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وأخبرنا بأن الهداية والتوفيق إلى صراطه المستقيم لن تكون إلا بالاتباع والتأسى برسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

وأوصانا الحبيب ﷺ قائلاً: «... فعليكم بسُنتى وسُنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومُحدثات الأمور فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(١).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى عن العرباض بن سارية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

وقال ﷺ «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم....»(١).

وقال ﷺ «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسُنّتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»(٢).

وإذا بالأمة المسلمة تحيد عن منهج الله وتتحاكم إلى شرع المهازيل من البشر، بل وتصرف عبوديتها لغير الله ـ جل وعلا ـ ظنًا منها أن الإسلام مجموعة من الشعائر التعبدية، ولم تعلم الأمة أن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة... تلك الشريعة تُنظم شئون الحياة.. ولا يقبل الله من قومٍ شريعتهم حتى تصحّ عقيدتهم.

فضاعت الأمة يوم أن ضاعت عقيدتها... ويومٍ أن ضاع الحق بين أهلها... ويوم أن تخلّت عن شريعة ربها ـ عز وجل ـ... ويوم أن تأست واقتدت بغير نبيها ﷺ.

ونسيت الأمة مصدر عزها وشرفها ومعين كرامتها.

نسيت أن الخالق ـ جل وعلا ـ أثنى عليها في كتابه قائلاً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

وعن أبي سعيد الخدري أن الحبيب ﷺ قال: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يارب فيقول: هل بلَّغت؟ ـ أي الرسالة ـ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣](٣).

ومن أجل ذلك وصف الحق ـ جل وعلا ـ تلك الأجيال الخالفة ـ إلا من رحم الله ـ بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وبقوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦).
(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٧) التفسير ـ باب: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا....﴾ الآية.

سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ [الأعراف:١٦٩].

ولكننا والله لا نيأس أبدًا لأننا على يقين من أن هذه الأمة الميمونة المباركة قد تمرض... لكنها لا تموت أبدًا وسترتفع راية التوحيد خفّاقة لتعلن للدنيا كلها فى مشارق الأرض ومغاربها أن محمدًا ﷺ ترك رجالاً يحملون فى قلوبهم عقيدة أقوى من الجبال وأنقى من ماء المطر.

وكما وثب أصحاب النبى ﷺ فى فترة يسيرة وثبة ملأوا بها الأرض نورًا وهداية وقوة وعلمًا فأصبحوا سادة فى الكون كله يدكّون الحصون والمعاقل ويفتحون القلوب بهذا الكتاب العظيم (القرآن والسُّنة) ويأخذون بأيدى الناس إلى جنة الرحمن.

وكما سار الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على طريق الجنة وهم يعرفون معالم الطريق ويدركون الغاية التى خُلقوا من أجلها... وهم مع ذلك يتزودون بكل معالم النُصرة من العقيدة الراسخة والإيمان والثبات واليقين والتضحية والبذل والولاء.

كما فعل الصحابة كل هذا فإننا سنرى ـ إن شاء الله ـ أجيالاً تصرخ فى وجه العالم كله بلسان الحال والمقال قائلة:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

وإذا كان الحبيب ﷺ قد استطاع ـ بإذن الله ـ فى أقل من ربع قرن من الزمان أن يقود تلك القبائل المتنافرة المتصارعة ـ التى لا تعرف شيئًا عن دينها، بل أساءت كل الإساءة فى أمور دنياها ـ إلى أن تصبح دولة لا يستطيع الكون كله وإن اجتمع على أن يقيم دولة على شاكلتها فى مئات القرون.

فإن السؤال الذى يطرح نفسه هنا:

كيف قامت تلك الدولة المسلمة الناشئة؟!.

وهنا تأتى الإجابة الحاسمة واضحة جلية كالشمس فى رابعة النهار:

إن الإيمان وحده هو الذى أقام الله به تلك الدولة العظيمة، وإذا عادت أمتنا المباركة إلى تعميق جذور الإيمان فى القلوب مرة أخرى فإن شجرة الإسلام ستخرج للكون خفاقة عالية تناطح كواكب الجوزاء وستأتى الثمرة ليذوق طعمها كل من أراد أن يتذوق حلاوة الإيمان ليدخل جنة الدنيا قبل أن يدخل جنة الآخرة.

ومن هنا أقول لإخواني وأخواتي: ما أحوجنا إلى التأسي بالحبيب ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لنقيم دولة الإسلام في قلوبنا ونقوم وننفض غبار الغفلة ونحمل مشعل الإسلام للكون كله ليرى طريقه إلى الله وإلى جنته ورضوانه... وليصبح الكون كله منقادًا لله ـ جل وعلا ـ.

ولنعلم جميعًا أن الله ـ عز وجل ـ عندما أثنى على أصحاب الحبيب ﷺ بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

فإنه من كمال رحمته أنه ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه لكل من أراد أن يلحق بهؤلاء الصادقين، فقال تعالى: ﴿ومنهم من ينتظر﴾ فنسأل الله تعالى أن نكون ممن ينتظر ونسعى لنصدق مع الله ليحشرنا في زُمرة الصادقين يوم القيامة.. فهو القائل:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩، ٧٠].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أُحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت» فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[1].

فاللهم إنا نُشهدك على أننا نُحب رسولك ﷺ ونحب أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ونسألك يا ربنا أن تجمعنا بهم في جنتك ومستقر رحمتك إخوانًا على سُرر متقابلين، وإن لم نعمل بمثل أعمالهم.

اللهم كما حُرمنا رؤيتهم في الدنيا فلا تحرمنا صحبتهم في الآخرة.

اللهم كما تعايشنا معهم من خلال تلك السطور فلا تحرمنا الجلوس معهم في دار السعادة والحُبور والسرور.

اللهم اجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم أُدرج في أكفاني، واجعله في ميزان

(١) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٦٨٩).

حسنات أمي الحبيبة (رحمة الله عليها)، واجعله في ميزان حسنات كل من قرأه ودعا لي دعوة صالحة بظهر الغيب (بالمغفرة والرحمة والعتق من النار).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري

(أبو عمار)

وكان الفراغ من كتابته في: ٧ من رمضان عام ١٤٢٠هـ.

* * *

مراجع الكتاب

١ - الإصابة في تمييز الصحابة، **ابن حجر العسقلاني.**

٢ - أسد الغابة، **لابن الأثير.**

٣ - إعلام الموقعين، **لابن قيم الجوزية.**

٤ - إحياء علوم الدين، **للغزالي.**

٥ - أشراط الساعة، **يوسف الوابل.**

٦ - الإيمان والحياة، **د. يوسف القرضاوي.**

٧ - إنها الجنة يا أختاه، **محمود المصري (أبو عمار).**

٨ - إنما المؤمنون إخوة، **محمود المصري (أبو عمار).**

٩ - أختاه إنما أنت أيام، **محمود المصري (أبو عمار).**

١٠ - أختاه التوبة قبل الندم، **محمود المصري (أبو عمار).**

١١ - اقتربت الساعة، **محمود المصري (أبو عمار).**

١٢ - استنشاق نسيم الأنس، **ابن رجب الحنبلي.**

١٣ - أئمة الهدى ومصابيح الدجى، **محمد حسان وعوض الجزار.**

١٤ - أبو موسى الأشعري الرباني العابد والفاتح المجاهد، **محمد علي دولة.**

١٥ - البداية والنهاية، **لابن كثير.**

١٦ - بذل الماعون في فضل الطاعون، **لابن حجر.**

١٧ - التبصرة، **لابن الجوزي.**

١٨ - تاريخ إسلام، **للنجيب آبادي.**

١٩ - التوكل، **لابن أبي الدنيا.**

٢٠ - تاريخ الطبري، **لابن جرير الطبري.**

٢١ - تاريخ دمشق، **لابن عساكر.**

٢٢ - تاريخ الأمم والملوك، **لابن الجوزي.**

٢٣ - تثبيت الإمامة، **لأبي نعيم.**

٢٤ - تجريد أسماء الصحابة، **للذهبي.**

٢٥ - التمهيد، **لابن عبد البر.**

٢٦ - تهذيب ابن عساكر.

٢٧ - تحفة الواعظ في الخطب والمواعظ، **أحمد فريد.**

٢٨ - ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله، **د. سيد حسين العفاني.**

٢٩ - تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي.

٣٠ - تفسير القرآن الكريم، **لابن كثير.**

٣١ - تاريخ الإسلام، **للذهبي.**

٣٢ - التاريخ الإسلامي، **محمود شاكر.**

٣٣ - تاريخ الخلفاء، **للسيوطي.**

٣٤ - تهذيب الأسماء واللغات، **للنووي.**

٣٥ - الجرح والتعديل، **لابن أبي حاتم.**

٣٦ - الجامع لأحكام القرآن، **للقرطبي.**

٣٧ - جامع الأصول، **لابن الأثير.**

٣٨ - الجزاء من جنس العمل، **د. سيد حسين.**

٣٩ - حلية الأولياء، **لأبي نعيم.**

٤٠ - حياة الصحابة، **للكاندهلوي.**

٤١ - الخراج، **لأبي يوسف.**

٤٢ - خلفاء الرسول، **خالد محمد خالد.**

٤٣ - الخلفاء الراشدون، **حسن أيوب.**

٤٤ - ديوان حسان بن ثابت.

٤٥ - ديوان هاشم الرفاعي.

٤٦ - دلائل النبوة، **للبيهقي.**

٤٧ - الرحيق المختوم، **للمباركفوري.**

٤٨ - الروض الأنف، **للسهيلي.**

٤٩ - رجال حول الرسول، **خالد محمد خالد.**

٥٠ - رجال أنزل الله فيهم قرآنا، **د. عبد الحميد عميرة.**

٥١ - رجال مبشرون بالجنة، **أحمد خليل جمعة.**

٥٢ - رحمة للعالمين، **محمد سليمان المنصور فوري.**

٥٣ - الرياض النضرة في مناقب العشرة، **للمحب الطبري.**

٥٤ - زاد المعاد، **لابن القيم.**

٥٥ - الزهد، **للإمام أحمد.**

٥٦ - السيرة النبوية، **لابن هشام.**

٥٧ - السنة، **للإمام أحمد.**

٥٨ - الاستيعاب، **لابن عبد البر.**

٥٩ - السيرة الحلبية.



٦٠- سلسلة معارك الإسلام الفاصلة: **محمد أحمد باشميل.**
٦١- سير أعلام النبلاء: **للذهبي.**
٦٢- السلسلة الصحيحة: **للألباني.**
٦٣- الشكر: **لابن أبي الدنيا.**
٦٤- شرح السنة: **للبغوي.**
٦٥- مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق: **ابن النحاس.**
٦٦- صلاح الأمة في علو الهمة: **د. سيد حسين.**
٦٧- الصحيح المسند من فضائل الصحابة: **مصطفى العدوي.**
٦٨- صدقوا ما عاهدوا: **محمود المصري (أبو عمار).**
٦٩- صحيح مسلم بشرح النووي.
٧٠- صحيح سنن الترمذي: **للألباني.**
٧١- صحيح سنن ابن ماجة: **للألباني.**
٧٢- صحيح سنن النسائي: **للألباني.**
٧٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته: **للألباني.**
٧٤- صور من حياة الصحابة: **عبد الرحمن الباشا.**
٧٥- صفة الصفوة: **لابن الجوزي.**
٧٦- صفوة التفاسير: **للصابوني.**
٧٧- صور من سير الصحابة: **عبد الحميد السحيباني.**
٧٨- الطبقات الكبرى: **لابن سعد.**
٧٩- الطريق إلى دمشق: **أحمد عادل كمال.**
٨٠- علو الهمة: **محمد إسماعيل.**
٨١- عدة الصابرين: **لابن القيم.**
٨٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود.
٨٣- العواصم من القواصم: **لابن العربي.**
٨٤- عبد الله بن رواحة أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب: **د. جميل سلطان.**
٨٥- الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ: **ابن كثير.**
٨٦- فتوح الشام: **للأزدي.**
٨٧- فضائل الصحابة: **للإمام أحمد.**
٨٨- فقه السيرة: **للغزالي.**
٨٩- الفوائد: **للإمام ابن القيم.**
٩٠- فيض القدير: **للمناوي.**
٩١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: **ابن حجر.**
٩٢- قادة فتح الشام ومصر: **اللواء الركن محمود شيت خطاب.**
٩٣- قصص الأنبياء: **ابن كثير.**
٩٤- الكامل: **لابن الأثير.**
٩٥- كنز العمال: **علاء الدين المتقي.**
٩٦- الكبائر: **للإمام الذهبي.**
٩٧- لطائف المعارف: **لابن رجب الحنبلي.**
٩٨- مدارج السالكين: **لابن القيم.**
٩٩- مكارم الأخلاق: **لابن أبي الدنيا.**
١٠٠- مسند أحمد بن حنبل: **تحقيق الشيخ أحمد شاكر.**
١٠١- مناقب عمر بن الخطاب: **ابن الجوزي.**
١٠٢- المنتظم في تاريخ الأمم.
١٠٣- المغني على مختصر الخرقي.
١٠٤- مجمع الزوائد: **للهيثمي.**
١٠٥- مواقف إيمانية: **لأحمد فريد.**
١٠٦- المعرفة والتاريخ: **للفسوي.**
١٠٧- مستدرك الحاكم.
١٠٨- مصنف ابن أبي شيبة.
١٠٩- مصنف عبد الرزاق: **عبد الرزاق الصنعاني.**
١١٠- معجم البلدان: **ياقوت الحموي.**
١١١- المغازي للواقدي.
١١٢- الموطأ للإمام مالك: **بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.**
١١٣- مختصر سيرة الرسول: **الشيخ عبد الله النجدي.**
١١٤- منهاج السنة: **لابن تيمية.**
١١٥- المسيح الدجال: **محمود المصري (أبو عمار).**
١١٦- المقامات العلية: **لابن سيد الناس.**
١١٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: **للأتابكي.**
١١٨- النهاية في الفتن والملاحم: **لابن كثير.**
١١٩- وقفات تربوية مع السيرة النبوية: **أحمد فريد.**
١٢٠- الوابل الصيب من الكلم الطيب: **لابن القيم.**
١٢١- وأنذرهم يوم الحسرة: **محمود المصري (أبو عمار).**
١٢٢- ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون: **محمود المصري (أبو عمار).**

❊ ❊ ❊

فهرس موضوعات الجزء الثاني

* * *